وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

البخلاء

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

أعاد كتابته بلغة جديدة
نزار عابدين

البخـلاء

تصميم الغلاف
عبد العزيز محمد

وزارة الثقافـة
الهيئة العامة السورية للكتاب
إحياء التراث العربي
(١٨٥)

البخـــلاء

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

أعاد كتابته بلغة جديدة

نـزار عابديـن

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢م

البخلاء / أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ؛ أعاد كتابته بلغة جديدة نزار عابدين . - دمشق : الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م . - ٣٢٠ص ؛ ٢٤ سم.

(إحياء التراث العربي؛ ١٨٥)

١ - ٨١٧ ج ا ح   ب   ٢ - العنوان   ٣ - الجاحظ

٤ - عابدين   ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

M

لا يمكن أن يكون المرء مثقفاً بحق، دون الغوص في بحار تراث أمته الأدبي والثقافي. فالأدب الجديد، والشعر الجديد، والنتاج الفكري الجديد، لا يكفي وحده، لأن هذا الإبداع الجديد، ليس إلا أغصاناً جديدة في شجرة ضاربة جذورها في الأعماق، تعطي أزهارها وثمارها في كل حين بأشكال وألوان متعددة، لكن القانع المكتفي بها، كمن على شاطئ البحر يبهجه انسياب الموج على رمال الشاطئ، ولا يعرف متعة الإبحار، أو كمن على سطح البحر يتأمل الأمواج الرقيقة، ولا يدري شيئاً عن متعة الغوص إلى الأعماق، واكتشاف الكنوز التي لا تنتهي.

ومنذ بدأ تعاملي مع تراثنا الخالد، وترددي على قصوره المنيفة الشامخة في زيارات خاطفة، تطول أحياناً، حتى كأني نويت الإقامة طويلاً، وغوصي إلى أعماق بحاره المذهلة الساحرة، وكان هذا قبل سنوات طويلة لا أذكر عددها، وجدت نفسي أمام معضلة حقيقية، كانت تنغّص علي متعة الغوص والإبحار أحياناً. لقد عانيت - كما عانى غيري - من صعوبة فهْم النصوص دون العودة إلى المعجم مرة بعد أخرى، فكأنني أقرأ بلغة أخرى لا أجيدها تمام الإجادة. فاللغة التي كتب بها أسلافنا أدبهم العظيم غير اللغة التي نكتب بها الآن. لقد حافظت اللغة على قواعدها، لكن أسلوب صياغة الجملة تغير كثيراً، كما أن كلمات كثيرة سقطت من اللغة على مر الأجيال وكلمات كثيرة أخرى تغير معناها، أو لم نعد نفهمها لأنها تدل على أشياء لم تعد موجودة في حياتنا، وكلمات كثيرة لم نعد نستعملها. وأضرب لكم مثالاً:

لقد تغنى الشعراء العرب منذ الجاهلية بجمال المرأة، واستخدموا في أشعارهم ألفاظاً تدل على مناحي الجمال الأنثوي، وإذا كان الشعراء مازالوا يتغنون بطولها، ولين جسدها، ودقة خصرها، وطول شعرها، فإن ثمة ألفاظاً أسرف الشعراء العرب القدماء في استعمالها للدلالة على المرأة الجميلة، فهل يستخدم أي شاعر الآن هذه الألفاظ؟ هل يصف أحد امرأة بأنها «عَبَهْرَة» (رقيقة البشرة ناصعة البياض) ، أو «بُلاخِيّة» (ممشوقة القد) أو «هِرْكَوْلَة» (عظيمة الوركين) ، أو «فُنُق» (مُنعمّة مُترفة) أو «عُطْبُول» (فتية جميلة ممتلئة طويلة العنق) أو «بَهْكَنة» (بضَّة ناعمة) ، أو «طَفْلَة» (رخصة ناعمة رقيقة) ، أو «خَوْد» (شابة ناعمة حسنة الخَلْق)؟ وما سيكون ردُّ امرأة أو فتاة على من يصفها بأنها «خَوْد طَفْلَة بَهْكَنة فُنُق عَبَهْرَة بُلاخِيّة هِرْكَوْلة عُطْبول»؟ إن امرأة تجمع هذه الصفات كلها في شعرنا القديم آية في الحسن، وهي فوق ما يتصور الخيال ، ولكن امرأة يصفها شاعر بهذه الصفات قد تصفعه ، لأنها تحسبه يشتمها . وماذا سيكون رأي القارئ إذا قرأ قصيدة غزلية الآن حشد فيها الشاعر هذه الصفات أو بعضها أو مثيلاتها؟

لقد قام المحققون - جزاهم الله كل خير - بجهود عظيمة في تحقيق هذا التراث الخالد ، وأمهات الكتب المتناثرة مخطوطاتها في مختلف جامعات العالم ومتاحفه ، فنفضوا غبار السنين عن تلك الأسفار الخالدة، وقارنوا، وحققوا، ودققوا، وأثبتوا الصواب، ونحّوا الخطأ، وقدموا للأجيال العربية الجديدة تراث أجدادهم العظيم، ليكون فخراً لهم ونبراساً وهدْياً، ولكن هذا ظل جهداً ناقصاً.

والعيب ليس فيما فعله هؤلاء الأساتذة الأجلاء الأفاضل، بل في تراجع اللغة العربية على لسان أبنائها، وضعفهم الواضح - والمخزي أحياناً - في استخدامها استخداماً صحيحاً. ومع ذلك فإننا لا نستطيع إلقاء اللوم كلِّه على أبناء الأجيال الجديدة. فاللغة نفسها تتطور، وكما قلنا قبل قليل تسقط منها كلمات، وتتبدل معاني كلمات، وتدخلها كلمات واشتقاقات جديدة، ولذلك صار

القارئ الجديد، يقرأ آداب أمته وتراثها شعراً ونثراً - إذا قرأ - وكأنه يقرأ آداب أمة أخرى بلغة أخرى، فإن لم يكن النص مشروحاً شرحاً وافياً، لم يكن له غنى عن المعجم، وحتى في مثل هذه الحالة قد لا يتمكن من الإحاطة بالمعنى إحاطة تامة، ويفقد الاستمتاع بجمال النص النثري أو الشعري.

وأود الإشارة هنا إلى أنني حدثت بعض الأدباء والشعراء والنقاد بهذا الأمر، وتباحثت معهم فيه، ومنهم باحثون ودارسون ومعلمون أمضوا عمراً طويلاً في دراسة اللغة العربية وآدابها، ثم في تدريسها، فوافقوني الرأي. ولكن بعض الأدباء والشعراء، رأوا في هذا انتقاصاً من ثقافاتهم اللغوية. وادعى أحدهم - وهو شاعر مشهور - أنه لا يجد حاجة للمعجم عندما يقرأ هذه الأسفار، وأنه يفهمها كما وردت. ومع احترامي الشديد له - ولهم - أقول: إنه كاذب وإنهم كاذبون، إلا إذا كان واحدهم قد «خزَّن» المعجم في ذاكرته كما يُخزَّن في «الكومبيوتر»، وهذا بالطبع مستحيل، وأستطيع أن أورد مئات الكلمات والعبارات، وأسألهم عن معناها.

ولقد تساءلت - ومنذ سنوات طويلة أيضاً - إذا كان المحققون الأفاضل قد قاموا بجهد مشكور وحميد، في إحياء هذا التراث العظيم والحفاظ عليه، فلماذا لا يهب نفرٌ من أبناء اللغة العربية العاشقين لها، ليكملوا ما بدأ هؤلاء؟ ولماذا لا يبذل بعض تلاميذ هذا التراث جهداً ووقتاً لإعادة كتابة هذا التراث بلغة عصرية سليمة، بعيدة عن وحشيّ الكلام وغريب الألفاظ، لكنها ليست مقطوعة الصلة بلغة القرآن الفصحى الجميلة؟ لا أقول بلغة تشبه لغة الصحافة والإعلام السقيمة، ولكني لا أقول أيضاً بلغة طالعة من بطون المعاجم.

ورأيت أن من المستحيل تطبيق هذا على النصوص الشعرية، فلا يمكن إعادة كتابة قصيدة ، إلا عندما نترجمها، وهذا ما فعله الأديب اليوناني كازانتزاكيس صاحب «زوربا» و«المسيح يصلب من جديد» حين أعاد كتابة «إلياذة» هوميروس، وسمى عمله «ترجمة» لانقطاع الصلة بين الإغريقية القديمة واليونانية الحديثة، بل إنه أثبت هذا على غلاف كتابه، فسمّاه ترجمة.

فإذا كان الشعر لا يقبل هذا، فإن النثر يقبله. ولذا اقتنعت بإعادة كتابة هذه الأعمال الخالدة بلغة تفهمها الأجيال الجديدة بسهولة، فإذا أراد أحد التعمق في دراسة التراث، عاد إلى النصوص الأصلية في بطون الكتب المحققة تحقيقاً علمياً دقيقاً، وحصّل متعة وفائدة جديدتين ومختلفتين.

ولقد قرأت كتاب «البخلاء» لفريد عصره وكل العصور، إمام الأدب والمتأدبين وشيخهم أبي عثمان عمرو بن بحر «الجاحظ» (ولد في عام ٧٧٥م ومات عام ٨٦٨م) غير مرة. والكتاب - كصاحبه - فريد في الأدب العربي، وربما في آداب الأمم كلها، لا يشبهه في فرادته إلا كتاب «طوق الحمامة» للأديب الفقيه الشاعر «ابن حزم الأندلسي الظاهري» (٩٩٤ - ١٠٦٣م). وفي كل مرة كنت أرى أن مما يعيق الاستمتاع بهذا السِّفْر الخالد اتّساعُ الشُّقَّة وبُعد المسافة بين زمننا وزمن الجاحظ، فكيف ستقرؤه الأجيال الجديدة؟

وصح عزمي على أن أكرس جهدي ووقتي لإعادة كتابة هذا المؤلَّف الفريد، ولكن طبيعة العمل الإعلامي، وكثرة مشاغل الحياة، وانشغالي بكتابات أخرى، كانت تنسيني قراري هذا، وكنت ألوم نفسي، وأرى أن هذا من التردد، وأنني لا عذر لي «فإذا عزمت فتوكل» و«إن فساد الرأي أن تترددا» ولذا قررت أن أكرس بعض الوقت لتنفيذ هذا المشروع، فرحت أعيد كتابة فصوله فصلاً بعد فصل، وصفحات بعد صفحات.

فما الذي فعلته في إعادة كتابة «البخلاء»؟

لقد بدأت بقراءته كاملاً مرة أخرى، على الرغم من أنني قرأته قبل هذا مرات كاملاً أو فصلاً فصلاً، واقتبست منه - كما فعل كثيرون - في برامج إذاعية، وعلى الرغم من أنني استمعت إلى بعض حكاياته وقد تحولت إلى تمثيليات إذاعية، وشاهدت بعضها على شكل تمثيليات تلفزيونية، ووجدت الصعوبة نفسها في فهمه فهماً صحيحاً ودقيقاً وكاملاً.

ثم عدت أقرأه فصلاً فصلاً، وأستعين بالمعاجم لمعرفة معاني الكلمات، فأدون المعاني إلى جانب الكلمات الأصلية، ثم أردد الجمل لنفسي بكلمات

جديدة، وأعيد تأليف الجملة والفقرة بلغة جديدة، بعيداً عن لغة الجاحظ أحياناً، ومحافظاً عليها أحياناً أخرى، عندما تكون الجملة سهلة لا تحتاج إلى أي شرح، وهكذا إلى أن أكتب فقرة جديدة، أو فصلاً جديداً بلغة عصرية مفهومة، تستقي من لغة الجاحظ وتقلدها، وتحاول الحفاظ على روحها.

وأثبت الآن فقرة من كتاب «البخلاء» وهي من رسالة سهل بن هارون إلى محمد بن زياد وبني عمه من آل زياد. وأثبت بعدها الفقرة نفسها كما صارت، بعد إعادة كتابتها:

«وعِبْتموني حين قلتُ: لا يغترَّنَّ أحدٌ بطولِ عمره وتقوُّس ظهره ورقّة عظْمِه ووهن قُوَّته، أن يرى أكرومتَه، ولا يخرجه ذلك إلى إخراج ماله من يديه، وتحويلِه إلى ملِك غيره، وإلى تحكيم السَّرَف فيه وتسليط الشهوات عليه، فلعلّه أن يكون معمَّراً وهو لا يدري، وممدوداً له في السنِّ وهو لا يشعر، ولعله أن يرزق الولد على اليأس، أو يحدث عليه بعضُ مخبّآت الدهور، مما لا يخطر على البال، ولا تدركه العقول، فيستردُّه ممّن لا يردّه، ويُظهرُ الشكوى إلى من لا يرحمه، أضعف ما كان عن الطلب، وأقبح ما يكون به الكسب».

«وعِبْتم عليَّ قولي: إن على المرء أن يحفظَ مالَه، ولا يحكِّم فيه الإسرافَ ولا ينفقه على الشهوات. وإذا كان قد طال عمرهُ، وتقوَّس ظهرهُ، وَوَهنَ عظمُه، وضعفت قوتُه، فلا يغرنَّه هذا، ويغريه بأن يندفع إلى المكارم، وأن يخرج ماله المحفوظ، ويعطيَه غيرَه. فلعل الله سبحانه وتعالى قدر أن يؤخِّر أجله، وأن يجعله من المعمَّرين، ولعله يُرزق ولداً في آخر عمرِه، فمن أين سينفق عليه؟ وماذا سيورِّثه؟ ولعله تصيبه بعض مصائب الدهر، مما لم يخطر على باله، ولا أدركه عقله، فينقلب طالباً بعد أن كان مطلوباً، ويصير سائلاً بعد أن كان مسؤولاً، ويحاول استرداد ماله ممن لا يردونه، ويظهر الفاقةَ والحاجةَ والشكوى إلى من لا يرحمونه فيكون أضعفَ ما يكون عن الطلب، وقد يُلجئُه الدهر إلى أقبح ما يكون به الكسب».

وأثبت فقرة أخرى من الكتاب كما وردت، ثم أُعقبها بالفقرة نفسها كما كتبتها، وهي من وصايا الكِنْديّ، وهو أحد البخلاء المعدودين:

«اصبروا عن الرُّطَب عند ابتدائه وأوائله، وعن باكورات الفاكهة، فإن للنفس عند كل طارف نزوة، وعند كل هاجم بدوة. وللقادم حلاوة وفرحة، وللجديد بشاشة وغيرة، فإنك متى رددتها ارتدت، ومتى ردعتها ارتدعت. والنفس عزوف، ونَفُور ألوف، وما حمّلتها احتملت، وإن أهملتها فسدت. فإن لم تكف جميع دواعيها، وتحسم جميع ظواهرها، في أول ردة، صارت أقل عدداً وأضعف قوة. فإذا أثّر ذلك فيها، فِعْظها في تلك الباكورة بالغلاء والقِلَّة، فإن ذكر الغلاء والقلّة حجة صحيحة وعِلّة عاملة في الطبيعة. فإذا أجابتك في الباكورة فسُمْها مثل ذلك في أوائل كثرتها، واضرب نقصانَ الشهوة ونقصان قوة الغَلَبة، بمقدار ما حدث لها من الرُّخْص والكثرة، فلست تلقى على هذا الحساب من معالجة الشهوة في غيرك، إلا مثل ما لقيت منها في يومِك. ومتى لم تعدَّ أيضاً الشهوة فتنة والهوى عدواً، اغتررت بهما، وضعفت عنهما، وائتمنتهما على نفسك، وهما أحضرُ عدوٍّ وشرُّ دخيل. فاضمنوا لي النزوة الأولى أضمن لكم تمام الصبر وعاقبة اليسر، وثباتَ العزِّ في قلوبكم، والغنى في أعقابكم، ودوام تعظيم الناس لكم».

«لا تتهافتوا على الرُّطَبِ عند ابتدائهِ وأوائلِه، ولا على الفاكهة عندما ترونها أوَّل مرةٍ في الأسواق، واصبروا عنها، واقمعوا شهواتكم. إن النَّفْس لأمّارة بالسُّوء، وإن النَّزَوات والشَّهَوات لتهيج عند كل جديد، وإن للقادم فرحة وحلاوة، وللجديد بَشَاشة وطلاوة. ولا تجعل نفسك سيدة عليك تأمُرُك فتَخْنع، فإنها بك تطمع. ولكنك إن ردَدْتها ارتدّت، وإن ردَعْتها ارْتَدعت.

والنفس غريبة عجيبة، فقد تُقبِلُ على الأشياء وترضاها، وقد تُعرِضُ عنها وتأباها، تألفُ ما أنت لها راغب، وتقبل بما هو حَتْمٌ وواجب. تحمِلُ ما شئت لها أن تحمِل، وتبتعد عما ترى أنه مهمل. لذا عليك أن تكُفَّ جميع

دواعيها، وتقمعَ كل رغائبها، وتحسِمَ كل خواطرها، وتهملَ كلَّ نوازعها في أولّ ردّة، فإنك إن فعلت صارت أضعف قُوَّة وعُدَّة. فإذا أردت أن تؤثر فيها، فَعِظْها في بواكير الأشياء بقلّة ذات اليد، وغلاء الأثمان، وصبّرها إلى غد فإن ذكرَ الغلاء والقلة حجة صحيحة في كلِّ آن، وسببٌ مقنع في كل زمان.

فإذا أجابَتْك النفسُ وأطاعَتْك في بواكير الفاكهة، فالزَمْ هذا النهج في قمع الرَّغبات، وتلطيف حدة الشهوات، حتى وإن بدأت أوائِلُ الكثرة، واضْرِب نُقصانَ الشهوة، وضَعْفَ قوة الغَلَبة، فإن توالي طَرْق الحديد يجعله ليّناً وكل صعبٍ في أولِّه يصبح ممكناً. ولتكُنْ قوة الطَّرْق بمقدار الرُّخْصِ والكثرة.

فإنك لن تلقى من معالجة الشهوة في أيامِك المقبلة، إلا ما لاقيت في أيامك الماضية، وابْقَ على هذا حتى تنْقضيَ أيّام الفاكهة، كما كنتَ في أول ابتداء غلَبتك، ومُجاهدتِك وقمعِك لشهوتك. وتذكَّرْ دائماً أن الشهوة فتنة، وأن الهوى عدوٌّ يُضِلّ عن سواء السبيل، فإن لم تحسبْهما كذلك، خُدِعْت بهما، واغْتررْت عنهما، وجعلتهما على نفسك أميناً، ولن تلقى وقايةً منهما، ولو كانت حصناً حصيناً. إن الشهوة والهوى أعدى الأعداء وشرُّ الدخلاء. فاضمَنُوا لي نجاحَكُم في قمع الرغبة في النَّزْوة الأولى، أضمنْ لكم حُسْنَ عاقبة الصبْر، وما ترضَوْن من اليُسر، وثبات العزّ في قلوبكم، والغنى في عيالكم وبيوتكم، ودوام تعظيم الناس لكم.

إن للغنى أفضالاً لاتُحصى ولا تُنكرُ، ولو لم يكن له من منفعة إلا أنك لا تزالُ مُعظَّماً، عند من لم ينل منك درهماً، لكان الفضل في ذلك واضحاً، والغنيُّ في نهاية الأمر رابحاً».

وهذه فقرة أخرى من كتاب «البخلاء» أثبتها كما وردت في الكتاب، ثم أثبت بعدها الفقرة نفسها كما كتبتها. والفقرة جزء من رد ابن التوأم على رسالة أبي العاص بن عبد الوهاب الثقفي إلى رجل من قومه:

«يقال إنه ليس في الأرض بلدة واسطة ولا نائية شاسعة، ولا طرف من الأطراف، إلا وأنت واجد بها المدنيّ والبصريّ والحيريّ، وقد ترى شنف

الفقراء للأغنياء، وتسرع الرغبة إلى الملوك، وبغض الماشي للراكب، وعمور الحسد في المتفاوتين، فإن لم تستعمل الحذر، وتأخذ بنصيبك من المداراة وتتعلم الحزم وتجالس أهل الاقتصاد، وتعرف الدهور ودهرك خاصة، وتمثل لنفسك الغير حتى تتوهم نفسك فقيراً ضائعاً، وحتى تتهم شمالك على يمينك وسمعك على بصرك، ولا يكون أحد اتهم عند نفسك من ثقتك، ولا أولى بأخذ الحذر منه من أمينك، اختطفت اختطافاً، واستلبت استلاباً، وذوبوا مالك وتحيفوه، وألزموه السل ولم يداووه.

وقد قالوا: تلّى المالّ ربُّه وإن كان أحمق، فلا تكوننّ دون ذلك الأحمق. وقالوا: لا تعدم امرأة صناع ثلّة، فلا تكوننّ دون تلك المرأة. وقد قال الأول في المال المضيّع المسلّط عليه شهوات العيال: ليس لها راع ولكن خليّة. وليس مالك المعفى من الأضراس، فيقال فيه: مرعى ولا أكولة، وعشب ولا بعير. فقصاراك مع الإصلاح أن يقوم بملء بطنك وبحقائقك، وبما ينوبك. ولا بقاء للمال على قِلَّة الرعي وكثرة الحلب؛ فكِس في أمرك، وتقدّم في حفظ مالك، فإن من حفظ ماله فقد حفظ الأكرمين. والأكرمان الدين والعرض. وقد قيل: «للرمْي يراش السهم، وعند النطاح تغلب القرناء». وإذا رأت العرب مستأكلاً وافق غمراً قالت: «ليس عليك نسجه، فاسحق وخرّق» وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الناس كلهم سواء كأسنان المشط، والمرء كثير بأخيه. ولا خير لك في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه.

فتعرّف شأن أصحابك، ومعنى جلسائِك، فإن كانوا في مثل هذه الصِّفة فاستعمل الحزْم، وإن كانوا في خلاف ذلك، عملت على حسب ذلك».

«يقال إنه ليس في الأرض بلدة، صغيرة كانت أم كبيرة، قريبةً أم نائية، إلا وأنت واجد فيها جميع صنوف العباد، فكأنك جمعت في مكان واحد البصرة والحيرة والمدينة والكوفة ودمشق وبغداد، وبين أولئك وهؤلاء تسمع الاستنكارَ والاحتجاجَ من الفقراء، وتلمسُ مدى كُرهِهم للأغنياء، ونفاقَ القادة والولاة والملوك والأمراء، حتى ليبغض الماشي الراكب، ويتفشّى الحسد بين المختلفين في الجاه والمال والمراتب.

فإن أصابتك مصيبة فلا تلومنّ إلا نفسك، لأنك لم تتخذ الحذرَ نهجاً وسبيلاً، ولم تأخذ بنصيبِك من المُداراة كثيراً ولا قليلاً، ولم تتعلّم الحزم في الأمور، وابتعدت عن مجالسة الصالحين من أصحاب الاقتصاد، ولم تتعرّف ما تأتي به الدهور، ولم تتَّعظ من دهرِك، ولا بما جرى لغيرك، ولم تتمثَّل أحوال الزمان وأحداثَه المتغيِّرة، حتى تتوهم نفسَك فقيراً ضائعاً، ليس يلقى بين الناس إلا زاجراً ومانعاً، ولم تتّهم أوّلَ ما تتَّهم من هو محل ثقتِك، ولم تحذرْ من لا تشمله بريبتك، ولم تتهم شِمالَك على يمينك، وسمعَك على بصرك، فإنك إن لم تفعل اختطفك المتخاطفون، واسْتلبك السالبون، وطاردك المتطفلون المستأكلون، حتى يُذِّوبوا مالك ويُفنوه، ويُلزموه السلَّ ولا يداووه.

وقد قالوا: يتبعُ ربُّ المالِ مالَه، وإن كان أحمق، فإذا كنت على مالك لا تحرِص، ولا يهمك أن يزيدَ أو ينقُص، فأنت دون ذلك الأحمق.

وقالوا: لا تقعد المرأة الماهرة دون خيوط الصوف، فإن أنت أهملت مالَك، ولم تسعَ في تنميته، كما تبذل الجهدَ في رعاية ابنك وتربيته، لتكوننَّ دون تلك المرأة. وقد شبّه الأولون المالَ بالإبل، فإن كان له صاحبٌ يحفظه ويصونه، كان كالإبل التي يرعاها راع ماهر، وإن كان مالاً سُلِّطت عليه شهوات العيال، كان كالإبل التي أُطلقت في المرعى دون راعٍ ولا عِقال.

والمال موضع الحسد والتنّافر بين الناس، ومسلَّطة عليه الأضراس، فاحرسه من الطامعين، يُزيِّنون لك السَّرَفَ كالوَسْواس الخنّاس، تجدْه ينمو ويربو بل يهيج، كالمرْج لا ترعاه الأنعام فمنظره بهيج. وإياك أن تدع الإصلاح ساعةً من زمانِك، وخذْ بالإصلاح من مالك ما يقوم بملء بطنك وبحوائجك. والمال يهلكُ كما تهلك النّاقة، إن أقللت لها من الرعي، وأكثرت الحلب، فاحذر هذا، فإنه يؤدي بك إلى الفاقة.

وليكن عقلُك دليلَك في التدبير، وامض في حفظ مالِك من السرف والتبذير. فإن من حفظَ ماله قد حفِظ الأكرمَيْن، والأكرمان الدِّين والعِرض،

أترى من فرّط بدينه أو عِرضه يقوم بين الرجال؟ كذلك من فرَّط بالمال، فالمال حصن ووقاية للاثنين، فاحرِصْ عليه تحفظْ الأكرمَيْن. وقد قيل: «للرَّمْي يُراش السهْم، وعند النِّطاح تغلبُ القَرْناء» ومالُك سهمُك الذي ترمي، ودرعُك الذي يحمي، فكما يُجَّهز السهمُ استعداداً لحاجته، كذلك يُحفظ المال لأنه الوقاية والحماية. وكما يغلب الكبش ذو القرنين في المناطحة، كذلك يغلب ذو المال في كل منازلة، ويحميه مالُه من كل جائحة.

وقد شبه العرب الرجل الغِرَّ الذي لم يجرّب الحياة، وما خبر الزمان، بالرداء الواسع الفضفاض، فكانوا إذا رأوا مستأكلاً وافق غِراً، قالوا: «ليس عليك نسجُه، فاسحب وخرِّق». وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الناس كلهم سواء كأسنان المشط، والمرء كثير بأخيه، ولا خيرَ لك في صُحبةِ من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه.

فتعرف شأن أصحابك، وابحث عن أخلاق جُلَسائِك، فإن كانوا في مثل هذه الصفات، من تبذير المال بالشهوات، فاستعمل الحزمَ في أمورك، تحفظ عليك النجاح في مسيرِك، وإن كانوا في خلاف ذلك، عملت على حَسَب ذلك».

* * *

على أن ثمة معضلة أكبر واجهتني عند إعادة كتابة «البخلاء» هي مشكلة أسماء الأشخاص والأمكنة والمصطلحات العمرانية وأسماء الأطعمة والأشربة وما إليها. فالجاحظ يقول في ختام كتابه مخاطباً من كتب الكتاب إليه: «وليس يمنعني من تفسير كل ما يمر إلا اتكالي على معرفتك» فالكتاب لم يكتب لأبناء عصرنا «وليس هذا الكتاب نفعه إلا لمن روى الشعر والكلام» وكان علي أن أجد حلولاً لهذه المعضلات.

لم يكن ثمة مجال لشرح الشواهد الشعرية، ولا لإعادة صياغتها، وقد قلت إن هذا لا يكون إلا عند ترجمة الشعر، فأثبتها كما وردت، وحذفت بعض

الأبيات غريبة الألفاظ، ولا تزيد المعنى وضوحاً، ولا يؤثر حذفها في سياق الكتاب. لكنني اعتنيت اعتناءً كبيراً بضبطها بالشكل، والعودة إلى الدواوين، أو الكتب التي وردت فيها هذه الأشعار. وكنت أجد أحياناً «كسراً» في الوزن الشعري، فأعمد إلى تصحيح البيت حتى دون العودة إلى الديوان، وأتحايل أحياناً على شرح المعنى، مما سيلاحظه القارئ في بعض صفحات الكتاب.

أما الأشخاص الواردة أسماؤهم فمنهم الشعراء والرواة والأدباء، ومن هؤلاء مشاهير كالأصمعي وأبي نواس وأبي الأسود الدؤلي والأعشى والخنساء، ومع ذلك فإنني عمدت إلى تقديم لمحة عن كل منهم بطريقة لا تبدو فيها هذه اللمحة مقحمة على النص. ومنهم مغمورون لم يسمع بهم حتى كثير من الشعراء والنقاد والأدباء، فكان يجب أن أقدم شرحاً لهذه الأسماء بطريقة تبدو منسجمة مع النص الأصلي.

أما الأسماء الأخرى، فهم سراة وأعيان وشخصيات مشهورة أو مغمورة، ويبدو أن كثيرين منهم كانوا معروفين في عصر الجاحظ مثل إسماعيل بن غزوان وخالد بن صفوان، والحسن البصري وأحمد بن هشام ومويس بن عمران وسهل بن هارون. ومنهم شخصيات معروفة في التاريخ الإسلامي مثل طلحة الفياض وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الزبير وأبي الدرداء والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه. ومع ذلك عمدت إلى تعريف الشخص تعريفاً موجزاً، لكي لا يشعر القارئ بالاستغراب.

ثم جاءت أسماء الأمكنة والمدن والبلدات والقرى، وكان لابد من إيراد شرح لهذه الأسماء، بالطريقة نفسها، وأسماء الدور ومصطلحاتها، وهي تبدو غريبة عنا الآن مثل «الكنيف» (وتعنى المرحاض) وبعض المصطلحات الصغيرة في حياتهم اليومية، لا سيما ما يتعلق بأدوات الطعام والحياة اليومية. وقد بذلت جهداً لتقديمها بصورة واضحة يفهمها أبناء هذا العصر، دون أن يبدو هذا مقحماً على النص.

أما المعضلة الأكبر فكانت في تقديم الأطعمة وألوانها ومكوناتها والطيور والخبز والشواء والذبائح، وهذه تبدو وكأنها كتبت بلغة أخرى، وكان لابد من شرحها، وقد احتلت على إيراد هذا الشرح في النص، وليغفر لي الجاحظ هذا، ولكنني أردته نصاً متماسكاً.

لقد كان كل همي أن أتجنب الهوامش، وألا يجد القارئ رقماً بين قوسين، وعليه أن ينظر إلى أسفل الصفحة، ليجد الشرح، وغالباً ما لا يجد، بل يطلب منه أن يعود إلى كتاب كذا وكتاب كذا. وأنا لا أريد للقارئ أن يعود إلى أي مرجع آخر، ولا أن يقلب الصفحات، ليقرأ في الملحق تعريف الأسماء (أسماء الشخصيات والأمكنة والأشياء) أو أن يجد في أسفل الصفحة شرحاً للألفاظ. لقد أردت للقارئ أن يقرأ كتاب «البخلاء» متكاملاً، بلغة عصرية سليمة، دون أن أتعبه بأي هامش أو ملحق أو شروح.

الكاتب والكتاب

الكاتب

أما مؤلف كتاب «البخلاء» فهو إمام الأدب وشيخ الأدباء أبو عثمان الجاحظ عمرو بنُ بحر بن محبوب الكنانيّ البصْريّ، ولد حوالي سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٥م بمدينة البصرة ونشأ فيها، وقضى فيها معظم سنوات عمره يخالط الأدباء والعلماء، ويحبه الولاة والأعيان، ينعم بأعطياتهم ومنحهم بما يصنفه لهم من الكتب، كما كان يكثر من زيارة الخلفاء العباسيين في بغداد وسرّ من رأى (سامراء). أصيب بالفالج في البصرة، وظل بها مدة، إلى أن انتقل إلى بغداد، فمات بها، ودفن بمقبرة الخيزران (أم الرشيد) سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م.

ونلاحظ أن الجاحظ كان موسوعة متنقلة، وقلما عرف التاريخ رجلاً أحاط بمعارف عصره كلها، لا يكاد يفوته شيء منها كالجاحظ. فقد أتقن العلوم التي وضعت في الإسلام، وما دخل الثقافة العربية من علوم الأمم الأخرى، سواء منها ما كان أقرب إلى العلم والتحقيق، أو ما كان من الأخبار والأساطير. ويعد الجاحظ من أفضل رواة اللغة العربية وآدابها وأخبارها، قديمها وجديدها، واسع الرواية، دقيق المعرفة. ولعل معرفته العلوم نمّت لديه سيطرة العقل في نقد الآثار وتمييزها. لكن أبرز ما في شخصية الجاحظ أنه كان إماماً من أئمة الكلام، وكان زعيماً من زعماء المعتزلة، وهؤلاء أعلوا شأن العقل، ووضعوه في المرتبة الأولى، وأنه كان كاتباً أديباً. ولا يكون المرء أديباً إذا لم يكن مرهف الحس، خصب الخيال، دقيق الملاحظة، نافذ الإدراك، قادراً على التغلغل في دقائق الأمور، وأن يستشف ما تبعث عليه اختلافات النفس. وفوق هذا يجب أن

يكون متمكناً من اللغة، قادراً على صوغ العبارة الحية النابضة، وأن يكون مصوراً بارعاً، له عين الكاميرا، بل تبدو أحياناً أقدر على النفاذ إلى أعماق الصورة من الكاميرا، ليرسم الصورة بمختلف ملامحها وظلالها، بكل بساطة ودقة وجمال. وقد يكون مرجع ذلك إلى أن الأدب ملتصق بالنفس، مؤثر في الوجدان.

لقد جمع الجاحظ بين دقة العالم وانطلاقة الأديب وعقلانية المعتزلة ولعل هذا يظهر بوضوح في كتابه «الحيوان» حيث حشد مختلف المعارف والنظريات العلمية السائدة في عصره، وأبدى فيها آراء علمية قيمة، ولكنه قدم هذا كله بلغة أدبية راقية، بعيدة عن جفاء اللغة العلمية، وبألفاظ جميلة مناسبة، بأسلوب سهل متبسط.

أما في الرواية فقد كان مختلفاً عن رواة عصره ومن سبقهم، فقد كان كل همهم أن يجمعوا الأشعار والأخبار ويقدموها، وأقصى ما يفعلونه أن يتحروا صحة نسبها. أما الجاحظ فقد أطلق نزعته الفنية وعقله العلمي في هذا الآثار، بالقبول والرفض، والنفي والإثبات، والنقد اللاذع أحياناً، ويبدو هذا واضحاً في كتابه «البيان والتبيين» فلا يكاد القارئ يجد معنى غثاً، أو بيتاً شعرياً غريباً، أو عبارة مستكرهة، بل صاغها كلها بديباجة صافية، إلى جانب الدقة الشعرية والمعاني الطريفة.

لقد قسم الجاحظ الرواة إلى فريقين، فقال في «البيان والتبيين» عن أحدهما: «ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى يحتاج إلى استخراج، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل» وقال عن الفريق الثاني: «إنهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيَّرة والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة، والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق. ورأيت البصر بهذا الجوهر في رواة الكتاب أعم، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أشهر».

وقلنا إن الجاحظ كان إماماً من أئمة المتكلمين، بل إن القدماء كانوا يصفون ما يكتبه المتكلمون بالتعقيد والغموض، إلا ما يكتبه الجاحظ ففيه سماحة في الكلام واسترسال فيه، وبساطة في التعبير، وتصرف في المحاججة بعيداً عن التعسر والتكلف والالتواء.

واشتغال الجاحظ بعلم الكلام اقتضى منه الاطلاع الواسع العميق على المذاهب الدينية، وعلى المناحي الفلسفية التي أتيحت للغة العربية، مع الاستعداد الفطري للنقد الذي ينظر ويحلّل ويمعن في التحليل. وقد كان لعلم الكلام فضل كبير على الأدب العربي، وعلى نشأة البلاغة العربية وتطورها، ولهذه الظاهرة مشابه عند الإغريق. فبين الفلاسفة اليونانيين ظهر النقد الأدبي، باعتباره فناً ذا أصول وقواعد، وظل خاضعاً للفلسفة متأثراً بها. وأول الدراسات اللغوية الإغريقية ظهرت عند السفسطائيين الذين تعلم منهم سقراط كما تعلم من غيرهم. ويبدو واضحاً في كتابات الجاحظ تأثره بهؤلاء، لا سيما في أنهم كانوا ممن امتلكوا ناصية البيان، وكان أسلوبهم من أجمل الأساليب وأكثرها مرونة وطواعية. وهكذا نجد الجاحظ يمدح الشيء ويذمه بالقوة والسطوع والبيان نفسه.

* * *

الكتـاب

كانت أحاديث البخل والبخلاء قبل الجاحظ، تسير في طريقين، وتتجه إلى غايتين.

في أحد الطريقين أكثر دعاة الشعوبية من الانتقاص من قدر العرب، وراحوا يشنعون عليهم بأساليب شتى، ووجدوا العرب يعتزون بالكرم، وهو فخر تقليدي عندهم، فراح هؤلاء الشعوبيون يقولون إن أكثر هذا الفخر مجرد كلام لا يقابله فعل، ونوع من التباهي الفارغ، فراحوا يتلقطون أخباراً من هنا وهناك، ليغضوا بها من قدر العرب، ويحيطوهم بجو من المهانة والذلة وكأنهم يقولون: كيف تكون لهم هذه الادعاءات العريضة التي يدعونها، وهم يحيون مثل هذه الحياة الوضيعة الدنيئة؟ وقد وجدوا في باب الهجاء عند الشعراء العرب مادة خصبة. والهجاء قائم على التجنّي، وما أكثر ما تهاجى الشعراء، أو هجا كل منهم قوم الآخر، «والعرب إذا وجدت رجلاً من القبيلة قد أتى قبيحاً ألزمت ذلك القبيلة كلها» كما يقول الجاحظ. وعندما ظفر الشعوبيون ببعض الأخبار، عضوا عليها بالنواجذ، وراحوا يصنفونها، ويملؤون بها الجو تشنيعاً على العرب وسخرية منهم.

وفي الطريق الآخر قام دعاة الدولة العباسية، ومن وضعوا أنفسهم في خدمتها وسايروها من العلماء وأهل الأدب، ببث كثير من الدعوات لتشويه سمعة بني أمية. ولعل من أكثر صور التشنيع في نفوس الناس، ما يتعلق منها بالطعام، بين الشّره الذي يتقزز منه الإنسان، والبخل الذي لا يمكن أن يكون إلا عاراً. وهذان مترافقان في أحاديث البخلاء. وهكذا صور هؤلاء معاوية «نهماً شحيحاً

على الطعام... وكان يأكل في كل يوم خمس أكلات، ثم يقول: يا غلام! ارفع، فوالله ما شبعت ولكن مللت» زد على ذلك شحه على الطعام كما ذكر ابن طباطبا قي كتابه «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية».

وعبد الملك بن مروان كان يلقب برشح الحجر ولبن الطير لبخله، كما يقول النويري في «نهاية الأرب». وكان سليمان بن عبد الملك نهماً قذر الأكل كما يقول المسعودي في «مروج الذهب». كذلك كان هشام بن عبد الملك شديد البخل كما يقول ابن طباطبا. ثم عمّ هذا ولاة بني أمية وعمّالهم على الولايات، ووجوه الدولة الأموية، كخالد بن عبد الله القسري، وخالد بن صفوان المنقري، والمغيرة بن عبد الله الثقفي، وزياد الحارثي وبلال بن أبي بردة، والحكم بن أيوب الثقفي، ونلاحظ أنهم كلهم من العرب.

كان هذا ما سبق الجاحظ من أحاديث البخل والبخلاء، وكانت كتابات هؤلاء إخبارية لا فنية، إلا أن الجاحظ وإن كان قد أخذ منهم، ارتفع بالموضوع كعادته وجعل منه موضوعاً أدبياً طريفاً.

وهكذا نجد في كتاب البخلاء مظهراً من مظاهر النزعة الأدبية الجياشة القوية الحس السريعة الاستجابة التي يمتاز بها الجاحظ. فقد كانت الغاية من أحاديث البخلاء سياسية إخبارية لا تمت إلى الأدب والفن بصلة، ولذلك كانت بعيدة عن تصوير الحياة الاجتماعية، وتحليل البخل ونفسية البخيل. فأخذ الجاحظ هذا الموضوع، وجعله موضوعاً أدبياً خالصاً، ومتعة فنية رائعة.

أما الأسلوب التأليفي لكتاب البخلاء فنجده في قول الجاحظ نفسه «نوادر البخلاء، واحتجاج الأشحاء، وما يجوز من ذلك في باب الهزل، وما يجوز منه في باب الجد» فالكتاب أحاديث يسوقها على لسان بعض من عُرفوا بالبخل في عصره، ومن كانوا يدافعون عن البخل، ويوردون الحجج، من أمثال سهل بن هارون والحرامي والحارثي والكندي والثوري وابن أبي المؤمل وابن التوأم والأصمعي، فيوردها أحياناً في سياق الجد، ولكننا نلمح سخريته مترقرقة في كتابته، أو يعرضها في معرض السخرية المكشوفة والاستهزاء الصريح. وهو يحكي خلجاتهم وأفكارهم بدقة شديدة فكأنه يتقمص شخصياتهم. ثم ينتقل إلى

نوادر قصيرة متفرقة من نوادر البخلاء، فكأنه يقدم فصلاً طويلاً متعباً في تتبع الأفكار والألفاظ والتحولات النفسية، فإذا شعر بأنه أثقل على القارئ، خفف الحديث، وروح عنه بهذه الفواصل القصيرة.

* * *

ثمّة أمر تجب الإشارة إليه في كتاب البخلاء، هو ما ثار من شك حول تلك الرسائل والأحاديث الطويلة المنسوبة إلى البخلاء في معظمها. وقد كان وضع الأحاديث وتوليدها من الأبواب التي اتسمت بها نزعة الجاحظ الأدبية، وقد وجد في ذلك مجالاً لعبقريته، وقال في مقدمة البخلاء: «ولو أن رجلاً ألزق نادرة بأبي الحارث جمّين والهيثم بن مطهر، ومزبد، وابن أحمر، وكانت باردة، لجرت على أحسن ما يكون. ولو ولد نادرة حارة في نفسها، مليحة في معناها ثم أضافها إلى صالح بن حنين، وإلى ابن النوّاء، وإلى بعض البغضاء، لصارت باردة، ولصارت فاترة، فإن الفاتر شر من البارد».

هذا اعتراف من الجاحظ بأنه ربما اخترع كثيراً مما جاء في الكتاب، وثمة اعتراف أخطر يورده في رسالة «فضل ما بين العداوة والحسد» ويؤكد فيه أنه ربما ألف الكتاب، فيطعن فيه الطاعنون، وربما ألف كتاباً أقل من الأول، ثم نسبه إلى من تقدمه، فيجد أولئك الطاعنين أنفسهم يشيدون به ويمدحونه.

* * *

ومن أبرز سمات كتاب البخلاء تلك الدقة في الوصف والتصوير، وكل قطعة من الكتاب شاهد قوي على قوة تصوره، ودقة ملاحظته، وخصوبة خياله، وعنايته بالتفصيلات. وسأورد وصفاً لأكول استطاع الجاحظ فيه أن يرسم بخياله المبدع صورة من أدق الصور. بل كأنه يصوره في شريط سينمائي، ولكنه هنا يورد الصورة بالألفاظ والكلمات، تاركاً لخيال القارئ أن يرسمها كما يريد.

«وكان إذا أكل ذهب عقله، وجحظت عينه، وسكر وسدر وانبهر، وتربد وجهه، وعصب، ولم يسمع، ولم يبصر، ولم يفجأني قط وأنا آكل تمراً إلا استفّه سفّاً، وحساه حسْواً، وزدا به زدْواً. ولا وجده كنيزاً إلا تناول القطعة كجمجمة

الثور، ثم يأخذ بحضنيها، ويقلّها من الأرض. ثم لا يزال ينهشها طولاً وعرضاً، ورفعاً وخفضاً، حتى يأتي عليها جميعاً، ثم لا يقع غضبه إلا على الأنصاف والأثلاث. ولم يفصل تمرة قط من تمرة، وكان صاحب جُمل ولم يكن يرضى بالتفاريق، ولا رمى نواة قط، ولا نزع قمعاً، ولا نفى عنه قشراً، ولا فتشه مخافة السوس والدود. ثم ما رأيته قط إلا وكأنه طالب ثأر، وشحشحان صاحب طائلة، وكأنه عاشق مغتلم أو جائع مقرور».

هذه قطعة فنية بالغة الروعة، ألفاظها منتقاة بعناية، وصورها شديدة الدقة وهي محيطة بالتفاصيل الصغيرة، لكن هذه التفاصيل جاءت على «ريشة» مصور عبقري، فرسمت لنا هذه الصورة. ولا أظن أحداً قرأ هذه القطعة إلا راح خياله بعيداً، يرسم صورة هذا الأكول النهم متحركة بأصواتها وهيئاتها وتغيراتها. ولعل مثل هذه الصورة تذكرنا بمصور آخر دقيق جداً هو ابن الرومي، فلقد كان في وصفه أكثر من مجرد وصاف. لأنه يرسم الصورة متكاملة. لننظر إلى وصفه الأحدب في بيتين، لقد كان بإمكانه أن يكتفي بالبيت الأول، لكنه أضاف الثاني ليزيد الصورة قوة ووضوحاً، حتى لا يترك زيادة لمستزيد:

قـصرت أخادِعُـه، وطـال قذالُـه
فكأنّمـا مُتـربِّص أن يُـصفعا
وكأنَّمـا صُـفعتْ قفـاهُ مـرَّةً
وأحـسَّ ثانيـةً لهـا فتجمَّعـا

* * *

يبقى أن نشير إلى صفة أخرى من صفات كتاب البخلاء، وهي «السخرية» لأنها من أبرز صفات الجاحظ الفنية. والأصل فيها طبيعة الجاحظ ومزاجه. فقد كان رجلاً مرح النفس، متهلّل الخواطر، مطلق الوجه، نزاعاً إلى الضحك، يدعو دائماً إلى المزاح والمفاكهة. ومن هنا سلك في النقد مسلك السخرية اللطيفة التي تشير إلى مواطن العيوب وتصورها في جو مرح تتخلله بسمات الاستحسان، وتضج فيه ضحكات السرور. وللجاحظ حكاية مشهورة

رواها بنفسه، إذ يقول إنه كان في السوق، فلقي امرأة حسناء، فأشارت إليه أن اتبعني، فتبعها إلى أن وصلت به إلى دكان صائغ، فقالت للصائغ: «مثل هذا» وانصرفت. واحتار الجاحظ فسأل الصائغ عن معنى هاتين الكلمتين، لأنه لم يفهم شيئاً، فقال الصائغ: إن المرأة جاءت إليه تريده أن ينقش لها على قطعة صورة الشيطان، فأخبرها بأنه لم ير الشيطان ولا يعرف شكله، فغابت قليلاً ثم عادت بالجاحظ، وقالت للصائغ ما قالت. والجاحظ يقول في إحدى رسائله «الجد مبغضة والمزح محبة». ويقول في رسالة أخرى: «من يغضب من المزاح إلا كز الخلق؟ ومن يرغب عن الفاكهة إلا ضيق العطن؟».

* * *

ذلك هو الجاحظ المعتزلي العالم المتكلم الأديب الراوية الناقد الفنان المصور البارع الساخر العابث. وهذا هو كتاب «البخلاء» الذي يعبر أقوى تعبير عن شخصية الجاحظ في كل تقلباتها، ويكشف عن طبيعته المرحة الساخرة.

وهذا هو المشروع الذي أقدمه للقارئ. أردت أن أحافظ على روح الجاحظ، وعلى رونق كتاب البخلاء، وأن يقرأ أبناء الجيل الجديد هذا السِّفْر الخالد دون أي مشقة أو صعوبة. وهو المشروع الذي أدعو إخواني عشاق اللغة العربية وآدابها وتراثها العظيم إلى الالتفات إليه، وإعادة تقديمه إلى أبناء الجيل الجديد بلغة جديدة. أما الدارسون والباحثون، فإنهم - كما قلت - سيعودون إلى الكتاب الأصلي ويحققون متعة وفائدة جديدتين. وأملي كبير في أن تتضافر جهود أبناء العربية لتقديم تراثها إلى أجيالنا الجديدة، وأحسب أن كثيرين سيتابعون هذا المشوار. فإن كنت قد نجحت في مهمتي، فهذا بتوفيق من الله، وإذا شعر القارئ بالاستمتاع حين يقرأ الكتاب، فالفضل الأكبر للجاحظ، وإذا لم يستمتع، فإن هذا ربما يكون لتقصير مني.

نزار عابدين

$

توّلاكَ اللهُ بحفظِه، وأعانَك على شُكْره، ووفَّقك لطاعتِه، وجعلكَ من الفائزين برحمتِه.

ذكرتَ - حفظَك الله - أنّك قرأتَ كتابي «حِيَلُ اللصوص» في تصنيفِ حيلِ لُصُوص النهارِ وشرحِها، وفي تفصيلِ حيل لصوص الليل وألاعيبِهم، وأنك سَدَدْت به كلَّ نقصٍ وضَعْف، وحَصَّنْت به كلَّ ثغرةٍ يمكن أن يَنفُذَ منها اللصوص، وأنّك وصلتَ بما استَفَدْت منه من الخُدَع الغامضةِ الخفيّة، وما نبّهك إليه من الحِيلِ الغريبة، إلى ما عسى ألا تبلُغَه حيلةٌ شرّيرة، ولا يصلَ إليه مَكرٌ وخداع، وذكرت - حفظك الله - أنَّ نفْعَ ذلك الكتاب عظيمٌ، وأنَّ على كل حريصٍ على مالِه أن يقرأَه.

وقلتَ: اذْكر لي نوادرَ البخلاءِ وأقوالَهم وحججَهم، وما يجوزُ منه في باب الجِدّ، وما يجوزُ منه في باب الهزْلِ والمُزاح، فإن الجِدَّ يُتْعِب الفِكْر تعباً يمنعُ من معاودته، فيكونُ الهزلُ راحةً للفضلِ قبلَ مراجعته. وذكرتَ طرائفَ أبي محمد عبدِ الله بنِ كاسِبٍ من بني حرام، ولقد كانَ أطيبَ الخَلْق، وكان حَليماً أحْمر لونِ البَشَرة، وكنتُ أظنّ أن في الرجالِ حُمْرِ لون البشرة تَسرُّعاً وَحدّة، فوجدت الحِلْمَ فيهم أَعَمّ، فقد كانَ الحراميّ أَحْمرَ لونِ البَشَرة، وكان إسماعيلُ بنُ غزوان كذلك، وكانَ حليماً، لكنه كان من أصحابِ أبي نواس الشّاعرِ الماجن، وكان يتكلَّفُ الشعرَ على مذهبِه، فلم يكن يرقى شعرهُ الغَثّ إلى طبقتِه ومرتبتِه، فكان يُغطّي تخلُّفَه عنه باصطناعِ الفُكاهةِ والعَبَث، وكان كاتباً لدى السُّراة والوُلاة، فقد كتب لمويس بنِ عِمْران، ولأبي سليمان داوود بنِ داوود.

وذكرتَ آراء الكِنْديّ التي دافع فيها عن البُخْل، حتى لقد ظنّه الناس الفيلسوفَ الشهيرَ أبا يوسف يعقوبَ بنَ إسحاقِ الكِنْدي، لما في كلامهِ من دقّةٍ في الوصف، وروعةٍ في التحليل، وجمالٍ في العبارة، لكن هذا خطأ، والكِنْدي مع ذلك كان رجلاً بخيلاً أشدَّ البُخل، كما كانَ صاحبَ تدبيرٍ عجيب.

وذكرتَ رسالة سهل بن هارون إلى محمد بن زياد وإلى بني عمِّه من آل زياد، وسهلُ بن هارون مَن تَعْلَمُ في البخلِ والدعوةِ إليه، والدفاع عنه وترويجِه، وقد كان عاملاً ليحيى البرمكيّ، ثم كان صاحبَ دواوين الرشيدِ بَعده.

وذكرتَ كلامَ إسْماعيلَ بنِ غزوان وهو القائل «لا تنفقْ دْرهماً حتى تراه. ولا تثقْ بشكر مَن تعطيهِ حتى تمنَعَه، فالصابرُ هو الذي يَشكُرُ، والجازِع هو الذي يكفُر» ومعروفٌ عنه أن كان يخالطُ «أهلَ الكلام» ويأخذ مأخذهم. وكانَ على صلةٍ بأبي إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام وهو أحدُ كبارِ المعتزلةِ في البصرة، وبأنسٍ بن أبي شيخ، كاتبِ جعفرَ بن يحيى البرمكي وكان ذكياً فَهِماً، نقيّ الألفاظ، جيّد المعاني، حَسَنَ البلاغة، وقد شهِدَ أَنسٌ لابنِ غزوان بأنه حَسَنُ الفهم حَسَنُ الاسْتماع، ولكنه - غَفَر الله له - كان مسْتهتراً بالنساء، غيرَ مُتحرِّجٍ فيهن، وقد قال في هذا «الأصواتُ الحسنةُ والعقولُ الحسانُ كثيرة، والبيانُ الجيِّدُ والجمالُ البارعُ قليل».

وذكرتَ - وفّقك الله - خُطبة الحارثيّ، وهو رجلٌ آخر غيرُ زيادِ بنِ عُبيد الله الحارثيّ والي مكةَ والمدينة والطائف واليمامة في أيام أبي جعفر المنصور، وإن كان هذا يُعَدُّ في البخلاء أصحابِ النوادرِ في البخل، أما الحارثي الذي نعنيه فهو غنيٌّ يتشبَّهُ بالنبلاء والأشراف.

وطلبتَ مني - حفظَك الله - أن أذكرَ أفعالَهم وأفعالَ غيرهم العجيبة، وأن أبيّن سببَ تَسْميتهم البخلَ إصْلاحاً وَصَلاحاً، وتسميتِهم الشُحَّ اقْتصاداً وتوفيراً. وَلِمَ دارُوا حول منعِ الخيرِ عن الناس، ونظروا إليهِ على أنه من

حَزْم الرّجال، ولِمَ ناصبوا مواساةَ الآخرين العَداوَة، وقرنوا فِعْلَ الخير والإحسان بالإسْراف الذميم والتضييع. ولِمَ جعلوا الكَرَم إسرافاً والحِرْصَ على الِّذكْرِ الحميدِ جَهْلاً، ولمَ كانوا أزهدَ مِنَ النسّاك في حَمْدِ الناس لهم، ولم يكتَرِثوا لما يلْحَق بهم من المذمّة لبخلهم، ولمَ عَدُّوا من الضعفاء من انْفرَجتْ أساريرُه للذكرِ الحسن، وارتاحت نفسُه للبذلِ والجود، ولمَ عدّوا من الأقوياء الحكماءِ من لا يميلُ إلى مَدحٍ وثناء، ولا يهمّه ما يقالُ فيه من الهِجاء، ولم أتعبوا أنفسَهم في الإتْيان بالحُجج لتفضيل شدَّة العيشِ وضيقهِ على لين الحياةِ ونعيمها، وتفضيلِ مُرِّ الحياة على حُلْوها، ولمَ لمْ يَحْمرّوا حياءً وخجلاً من عدم وجود أي من الطيّبات في مساكِنهم، مع استهتارهم بها في مساكنِ غيرهم، ولمَ لجُّوا في البُخل وتهافتوا عليه، وأسرعوا إليه، ولمَ ارتضُوا لأنفسهم أن يَسْلكوا مسلكَ من يستحقُ ذلك الاسم، مع أنهم يأنَفون منه ويتكبرون، ولم رغبوا وألحوا في كسب أيِّ مقدارٍ بأيِّ ثمن، وبأيّ وسيلة، ولم زهدوا في الإنفاق زُهدَ الناسكين، ولمَ كانت أفعالُهم، وهم في حالِ الغنى، أفعالَ الخائفِ من زوال الغنى، ولم تكن أفعال، من يرجو دوامَ الغنى، ولمَ يُكرِّمون ويذكُرون بالخيرِ من يخافُ زوال النعمة وينتقصونَ فعلَ من يعيشُ على الأملِ برزقِ الله، مع أنّنا نرى أن من هم في عافيةٍ أكثرُ ممن ابْتلاهم الله، وأن الفوائدَ ليست أقلَّ من المصائبِ المهلكة. ولكنْ كيفَ يدعو إلى السَّعادة من حَكَم على نفسِه بالشقاء بل كيف يدّعي نصيحةَ عامَّةِ الناس، من يَغُشّ خاصتَّهم؟

ورغبتَ - أدامَك الله - أن أبيّن لم أوْردوا الحُججَ والبراهين لمدحِ فعل أجْمعت الأمّة على أنّه من قبيح الفعال، مع أنهم من ذَوي المعرفة والعقول الرشيدة، ولم كانوا يفتخرون بما تم الإجماع عليه على أنه من الأفعال المذمومة مع أنهم ليسوا من الجُهلاء، وكيف ينتبهون وهم يبحثون عن عِلل هذه الأفعال وأسبابها، وينطلقون فوراً إلى الغاياتِ البعيدة والمعاني الخافية، ولا يفطنُون للقُبْح الظّاهر في البْخْل، وتكفيه شناعةُ اسمهِ وبشاعتُه، وأنّه لا

يؤدّي إلا إلى السُّمعةَ السيِّئة، أو خمولِ الذكرِ بين الناس، بالإضافةِ إلى أثرِه السيِّئ على البخلاء وأهلِهم، ومَنْ يُعاشرهم.

والبخيلُ يجمع بين التّعب وانْشغالِ البال بالحفاظِ على ماله، مع أنّ هذا المالَ لا ينقصُ بل يزيد، ويُجبر نفسَه على العيشِ الخَشِن تغَيّراً على نفسِه، ويجمعُ بين طُول الاغترابِ عن الأهلِ سعياً وراءَ إكْثار المال، وقلة الانتفاعِ بالمال نفسه، مع أنّه يعلمُ علمَ اليقين أن ماله صائرٌ إلى وريثه، فيصيرُ الوارثُ أعدى لصاحبِ المال من ألدِّ أعدائه، ويتمنّى له الموتَ سريعاً، ويرى أنه أحقّ بهذا المال من صاحبِه، وفي هذا، ألم يُظْهر البخيل الجهلَ والغباء، ويلصقْ بنفسه صفةَ الغافلِ الأحمق؟ فكيف يبحثُ عن تبريرٍ لهذا بالمعاني القوية والألفاظ الجميلة، والاختصار الذي يوحي بالبلاغة وتقريبِ المعاني، وسهولة التنصلِ مما هو فيه، وإدراك المعاني البعيدة، فكان ما ظَهَر من المعاني التي يردّدها، والشرح الذي يقدّمه مكذِّباً لما كان يُظهر من الجهلِ ونُقصانِ العقل؟ وكيف أمكنَ أن يُبصر المعانيَ البعيدة الغامضة، ويعجزَ بغبائِه عن إدْراكِ القريبِ من المعاني الجليلة والأفكارِ العظيمة؟

وطلبتَ أن أبيّن ما شَوّشَ عقولَهم، وأفسدَ أذهانَهم، وجعل على أبصارِهم غشاوة، ونقضَ الاعتدالَ وهو صفةُ العقلاء، وما الهدفُ الذي من أجلِه وقفوا في وجهِ الحقّ بعِناد، وخالَفوا ما أجمعَ عليه الناس، وكيف اجتمعَ فيهم التناقُضُ والتضادّ، والمزاجُ الذي يتنافى بعضُه مع بعض، وكيف أمكنَ أن يجتمعَ فيهم الغباءُ الشديدُ والفطنة العجيبة، وما السببُ الذي حَجبَ عن بصائرِهم وعقولهم أقرَب المعاني والأفكارِ العظيمة وأوضحَها، بينما أدركوا غوامضَ الأمورِ كما ادّعوا ووصلوا إلى أبعدِ المعاني؟

وقلتَ: ولستُ أَعْجبُ ممّن تركَ في البخل حياءه وتبع هواه، أو من باح بأسرارِه في البخلِ، وجَهر بذنبه فيه، متحمّلاً أن يَذمَّه الناسُ ويعيبُوه ولم يسكتْ مُستَتِراً، بل انبرى إلى القولِ مدافعاً عن البُخل، مقدّماً الحججَ والأعذار بما جاءَ في الكتب، ولا ممّن غَلبه بخلُه على عقلِه ، فأفْقده صفةَ العقلاء،

فكأنما يتعَمّد ويقصدُ إظهارَ عيوبه، كما أعجب ممنّ يَعرف أنه بخيل، ويعرفُ أنّه مفرطٌ في الشّحّ، ومع ذلك يحارب فطرتَه، ويقاومُ الطَّبْعَ القويم، وربما يظنّ أن الآخرين أدركُوا بخلَه الشديد، فاستحيا من ذلك، وراح يُموِّه على بُخله، وهو شيء لا يمكن إخفاؤه، كمنْ يُحاول أن يْرقَعَ ثوباً ممزّقاً لا يقبلُ الترقيع، لأن الشقوقَ والخروقَ فيه ظاهرةٌ كبيرة.

فإذا كان قد أدركَ أن فيه عيْباً، وأدركَ أن الآخرين يعرفون هذا العيب، فلماذا لا ينتبه إلى ضَعْفه عن علاجِ ما أصابَه من داءِ البُخل وعجزِه عن تعديلِ طِباعهِ ومعالجةِ أخلاقه؟ وعن استرجاعِ ما كان عليه من العاداتِ الطيبةِ المحمودة؟ ولماذا لا يَمحُو من قلبهِ ما داخله من الأخلاقِ الذميمة، ويمَلأُه بالأخلاقِ السليمة؟

ولو أنّه فعل هذا، لتركَ تَكَلُّفَ ما لا يستطيعُه، ولَربِح الِّذكر الحسن بالإنفاقِ على من يذمّه لإسكاتِه، ولما وضَعَ الناس رُقباءَ عليه، يُحصُون أفعاله، ولا جعل الشَّعراءَ يتندَّرون بمائدتهِ، ولا خالط رجالَ البريد والموكلين بالأخبار ليسيروا بأخبارهِ في البلدان، ولو أنه فعل هذا لأراحَ نفسةَ من تعبِ التكلف، ولجعل نفسَه كبقية الناس.

وما بالُ هذا البخيل ينتبهُ لعيوبِ الناس إذا أطعموه، ويتحدث بها، لكنه لا ينتبهُ إلى عيوبه إذا أطعمهم، حتى لو كان عيبُه مكشوفاً، وعيبُ غيره مستوراً؟ وكيف تجودُ نفسُ أحدهم بالكثير من الذهب، ولكنها تبخَلُ بالقليل من الطعام؟ وقد علم أنَّ ما بَخِلَ به هيّن إلى جانبِ ما بَذله وأعطاه؟ وأنّه لو شاء أن يحصِّلَ الِّذكر الحسَن بالقليل مما جادَ به، ويجنِّبَ نفسَه الِّذكْرَ السيّئ بما بَخِلَ به، لكان ذلك هيناً ويسيراً.

وقلتَ: ولابد من أن تعِّرفني سَقَطاتِ هؤلاء المتكلِّفين وزلاتهم التي نَمّت عليهم، وَدلَّتْ على حقائقِ المتستِّرين، ومزَّقتْ ما يختبئ خلفَه المُدَّعُون، وفرّقتْ بين الحقيقةِ والكذب، وَميّزتْ بين من قَهره زمانُه وزَجرهَ ومَنعه، ومن

يَشْكُر ويدعو بالخيرِ ويطلبُه لطبعٍ فيه، لِتدْرسَها، وتقارنَ ما في طباعكِ بها، ولتعرفَ مواقعَها ونتائجها ، فإن نبهّك درسُها إلى عيبٍ في نفسك تجهله وتُغْفله، عَرَفْته حقَّ المعرفة فتجنبّته، فإن كان ظاهراً نظرْتَ فيه، فإذا زاد احتمالك هؤلاء على نُفورِك منهم، داومت على إطعامِهم واكتسابِ مَوَّدتهم بدعوتِهم إلى مائدتِك، وإلا سَتَرْت نفسَك، وانْفَرَدْت بما طعامُكَ من الطيبات، وانْكَفَأْتَ على نفسِك وعيالِك تعيشُ عيشَ المستورين. فإذا تساوَتْ الأسباب، حَزَمْتَ أمرك ألاّ تعرِّضَ نفسَك للمذمَّة، وحصَّنْت نفسَك من التكلُّف، ورأيت أنَّ من سَلِمَ من أن يَذُمَّه الناس فقد ربِح، وأنّ من آثر الثِّقة على الخداع كانَ من الحازمين، وذكرتَ أنّك أحوجُ ما تكونُ إلى معرفةِ هذا الأمر كُلِّه، وأنَّ على ذي المُروءة أن يَطَّلِعَ عليه، وأنّي إن أَفدْتُك بما في هذا العِلم ما تحمي به عِرضَك وسُمعتك من الذميمة، كما أفدتُك بكتابي «حيل اللصوص» في حماية أموالِك، أكونُ قد أفدتُك ما لم يقدّمه لك أبٌ مشفِقٌ وأمٌّ حانية.

وسألتني - حَفِظَك الله - أن أبيّن لَك آراءَ خبّاب المُدافِع عن مذهب المَزدكية وديانتِهم في نفي غيرة الرَّجل على نساءِ بيته، والدَّعوة إلى أن يكون تقديمُ الزوجةِ للصديق من بابِ حُسن تعامُلِ الرجل مع صديقه، وتفضيله على نفسه، وأن الجارية يمكنُ أن تُعارَ إلى الصديق كما يُعارُ أيُّ شيء آخر، وأن الزوجة لا تختلفُ كثيراً عن الأَمَةِ الجارية. وأن الأَمَة الجاريةَ مالٌ كالذهب والفضة، لأنها تُشرى وتباعُ بهما، واحتجاجِهم بهذا على أنَّ الجارية يمكنُ أن تعار كما يعارُ الذهب والفضة، وأن الرجل أحَقّ ببنتِه أو أختِه منَ الغريب البعيد، وأن هذا كمن يحرثُ أرضَه بَدَلاً من أن يَحرثها الغريب، إلا أن العادات كرَّهتْ النّاسَ به، وحرّمته الديانات السابقة، مع أنه الأصل، وصاروا يُبالغون في كراهيته حتى عَدّوه من أكبرِ الكبائر وصارُوا يخترعُون الأسباب ليُقنعوا الآخرين بأنَّه فِعْلٌ شنيع.

وأن أكتبَ لك حكايةَ أبي الجهجاه النُّوشَرواني الذي كان يَدعي الجنون ومتّهماً بالزندقة في الدِّفاع عن الكذب، وجَعْلِه في مرتبةٍ مساوية لمرتبة

الصدق، وأنّ الناسَ يظلِمون الكذب بتناسي أفضالِه وذِكْر مساوئهِ، ويجاملون الصدق بتذكر منافعه، وتناسي أضراره، ولو أنهم عدلوا في الموازنة بين الاثنين، وتذكروا خصال كل منهما لما فرقوا بينهما هذا التفريق كله، ولما نظروا إليهما هذه النظرة الظالمة ولرأوهما متساويين.

وأن أشرح مذهب صَحْصح ورهطِه الذين كانوا يكرهون الحياة العقلية، ويبتغون الكمال الجسدي، ويرون أن أفضل العيش يكون في كثرة المال وصحة البدن وخمول الذكر وتفضيل النسيان، وأن الغباء في مجمل أحواله أفضل وأنفع من الذكاء والفطنة في مجمل الأحوال، لأن العقل مقرون بالحذر والاهتمام، والغباء مقرون بالأمن والاطمئنان وفراغ البال.

ولولا أن هذه الأبواب كلها وأكثر منها موجودة في كتابي «كتاب المسائل» لأتيت على كثير منها في هذا الكتاب ، وأما ما سألت من المبررات والحجج التي يسوقها الأشحاء، ونوادر أحاديث البخلاء وطرائفهم، فستجده في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى بتفصيلاته وإجماله، وهذا أجمع لهذا الباب، من سلوك هؤلاء من وصف ما عندي، وليس كل ما وصل إلى علمي من أخبارهم، وبالاقتصار على الأخبار المؤكدة، يصير الكتاب أقصر، وتقل عيوبه. ونبتدئ برسالة سهل بن هارون لبني عمه، ثم بطرائف أهل خراسان، لما شاع بين الناس عن بُخلهم.

وستجد في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تتبين حججهم الطريفة التي قد تبعث على الضحك، أو تتعرف الحيل اللطيفة، أو تستفيد منه النوادر العجيبة، وفي أقل فوائده أنك تضحك مما جاء فيه، وتلهو بقراءة أخبار هؤلاء إذا مللت الجد.

ونحن نزعم أن البكاء صالح لتهذيب طباع الإنسان، ومحمود العواقب بشرط أن يوافق موضعه، ولا يتجاوز المقدار المحمود منه، ولا ينصرف إلى جهة غير صحيحة، وهو دليل على الرقة والحنان والابتعاد عن القسوة وتحجر العواطف، وربما عده بعضنا دليلاً على الوفاء وشدة الحزن على

الأحباب من أعظم ما تقرب به العابدون إلى ربهم، واسترحم به من يخافون ما قد يلقون في آخرتهم. وقد اشتد خوف رجل عندما رأى ابنه يبكي بشدة، فقال له بعض الحكماء «دعه ولا تخف فإن البكاء متنفس لجسده، وصحة لعينيه».

ولعلي أذكر عامر بن عبد الله بن عبد قيس العنبري التميمي الزاهد العابد، وما كان عليه من رقة القلب وصفاء البصيرة وحضور البديهة، إضافة إلى روعة البيان وحُسن الديباجة، والقُدرةِ على أن ينفذ ببيانه إلى أعماق القلوب، فقد ضرب عامر على عينه متضايقاً وقال «جامدة شاخصة لا تندى».

وأذكُر صفوانَ بْنَ مُحْرِزِ الغسّاني البَصْرِيّ التميمي وهو من تلاميذِ أبي موسى الأشعريّ، ولا يُذكَر الزّهادُ والنساكُ وأهْلُ البيانِ إلا يُذْكر معهم. قيل له بعد أن طال بكاؤُه وتذكُّرُ أحزانه «إن طولَ البكاء يورث العمى» فقال صفوان «عندها تُعَدّ العيونُ بين الشهداء» فبكى حتى أصابَه العمى، وكان يُسمى البكّاء، وقد اشْتُهر بهذا اللقب يحيى البكّاء وهيثم ُ البكّاء.

ولكن البُكاء بلاء، وربما أعمى البصَر، وأفسَدَ الدماغ، ودَلَّ على سُخف صاحبِه، وقضى عليه بالخوفِ الشديد، وشبّه صاحبَه بالجارية الحَمقاء والصبيّ الجبان.

فإذا كانَ البكاءُ على هذهِ الصورة، فما بالُك بالضَّحكِ الذي يَبقى صاحبه في أشدِّ السرور إلى أن ينتهَي سببُ الضَّحك. ولو كان من القبيحِ في الأفعال أن يَضحكَ الضّاحكُ ويُضحِكَ المُضحِكُ لَما قيل للزّهرة والوردة ومَلاءةِ النساءِ الحريرية، والحُلِيّ الجميلة والقصر الذي أُحْسِنَ بناؤُه «كأنه يضحك ضَحِكاً». وقد قال الله سبحانه وتعالى في سورة النجم: «وأنه هُو أضحك وأبكى، وأنه هو أَمات وأَحْيا» فوضع جلَّ ذِكرُه الضَّحِكَ في مقابلِ الحياة، والبكاءَ في مُقابل الموت، والله - تعالى عُلُوّاً كبيراً - لا يضيفُ إلى نفسِه القبيح، ولا يَمنّ على

عباده بالنقص. وكيف لا يكون عظيماً في بعث السرور في النفوس، وكبيراً في تهذيب الطبائع، وهو أمرٌ في أصلِ طباع الإنسان وأساس تركيبه؟ لأنّ الضحكَ أولُ ما يظهُر من الطفل الصغير، وبهِ تطيبُ نفسُه، وعليه ينمو جسُمه، ويشتدّ عودُه ويكثر دمُه وتزيدُ مادةُ قوته.

ولأن العربَ يفضلون الضّحك ويقدّرون خصالَه سمُّوا أولادَهم الضحّاك والبسّام، والطَّلْق والطَّليق. وقد ضحكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ومَزَح، وضحِكَ صحابتُه والصالحون ومَزحُوا، وإذا مَدَحُوا رجلاً قالوا: إنه ضحُوك السّنّ، وبسّام في الأماسي، ويقابِلْ الضيفَ بوجه بشوشٍ باسم، وقالوا: إنه يرتاحُ للكرم، ويُسرِعُ إلى فعلِ المعروف، ينشَطُ لهما فكأنّه أصابَه اهتزاز، وإذا ذَمُّوه قالوا: إنه عابس الوجه، وزادُوا في شدّة عُبوسه، فقالوا: إنه كالح، فكأنَّ لونَ وجهه تغير، وقالوا: هو مقطب الجبينِ دائماً، وقالوا: إنه كريهُ الخِلقة لأنّه عابس، وقالوا إن وَجْهه كالسَّحابِ الغليظِ الأسْود، وهو كريه، ووصفوا الوجَه العابسَ بأنه حامِض كأنما غُسِل بالخَلّ وما ذاك إلا لأنّهم وصفوا الوجَه الضاحِكَ بأنه حُلْو، فكأنّك حين ترى وجهاً ضاحكاً تذوق عَسَلاً.

ولكنّ للضحكِ مواضعَه التي لا يجوزُ فيها العبوس، وله مقدارٌ لا يجُوز أن يزيدَ عنه، وللمَزْح مواضعُه ومقدارُه، فإذا تجاوَزَهما أحدٌ أو قصرَّ عنْهما أحد، صارَ ما يزيُد منهما عن المقدار المناسبِ كلاماً فاسداً مضطرباً، وصار التقصيرُ نقْصاً مُعيباً. فالنّاس لا يعيبون المزحَ والضحك، ما داما في حُدود المعقول والمقبول. فإذا أُريد بالمَزْح النفع، وبالضحك ما كان الضحكُ لأجله، صار المزح جِدّاً، وصارَ الضحك وقاراً، ولم ينقُصا من قدْر الضّاحِك المازح.

ولا أخدعك في كتابي هذا وبهِ، ولا أُخفي عنك عيوبَه، لأنني لا أستطيع أن أجَعله في دَرَجةِ من الكمالِ تريدُها، ولا يمكن أن يوفّى حقّه من البحثِ والتدقيقِ كما يجبُ أن يكون، لأن في الكتابِ فصولاً كثيرةً ناقصة، فإذا زدْنا فيها طرفاً واحداً عُرِف أصحابها، وإنْ كنا لم نَشَأ أنْ يُعرفوا، ولم نذكُر أسماءَهم، وسيتحقّق هذا سواءٌ سميناهم أو ذكرنا ما يدلُّ على أسمائِهم، ومنهم

أصدقاءٌ ومقربون ومستورون ومُتجملّون، وليسَ لنا من عُذرٍ في قصدْ إفادتِكم، بأن نتجنّى عليهم، ونهتكَ أسرارهم، فهذا نقصٌ يختلُّ به الكتاب، مع أن هذه الأحاديثَ معظمُ مادته التي ستنال إعجابكم ورضاكم.

وفي الكتاب أحاديثُ أخرى غيرُ مشهورة، ولو اشْتُهِرت لما كان فيها دليلٌ على أصحابها، ولا تضرُّهم في شيء، ولا تتحقَّق الفائدةُ والاستمتاعُ بها، إلا بأن يُعرفَ أهلُها، حتى تكون منتسبةً إلى مُسْتحقّيها، ويكونَ معدنها وجوهرهُا مُلتصقاً باللائقين بها، فإذا جرى الفصلُ بين هذه الأحاديث وعناصرِها ومعانيها وأربابِها، فإنّ نصْفَ ما فيها من ملاحةٍ يضيعُ سدى، كما يضيعُ نصفُ ما فيها من نوادر.

وتعلَمُ أن ثمة من يتجرون بالنادرة، يدعوهم الأغنياءُ إلى مجالِسهم، ويُحْضِرونهم طعامَهم، وربما أجزلوا العطاءَ لهم، حتى بات هؤلاء مظْهراً من مظاهر الجاهِ والشرفِ والغنى والسخاء، وأداةً من أدواتِ الترف لا غنى عنها كالمغنّين والمنْشدين والشعراءِ والجواري، وحتى صارتَ النوادرُ تجارةً تروجُ وتنتشرُ ويعظُم أَثرُها، حتى أصبحت تُلْتَمس بالتلقيِّ والعلم، فقال أبو العبَر «كنا نذهبُ ونحن صغارٌ إلى رجلٍ يُعلِّمنا الهزل والمُزاح» ومن هؤلاء أبو الحارث جُمَّيْن الذي كان مفضلاً عند محمد بن يحيى البرمكي وعيسى بن جعفر ، وقد كانا يصلانه بالرشيد أحياناً، وله نوادرُ لطيفةٌ غيرُ قليلة. ومنهم الهيثم بن مطهر الذي كان أَعْرج، ولكنه لم يُرْزق الشهرةَ التي رُزِقَها أبو الحارث، ومنهم أبو إسحاق مُزبّد الذي كان أبو حبيب مضحكُ المهدي يحفظُ نوادرَه ويروَيها للخليفة، فقال له مزبّد «أنا أزرعُ وأنت تحصُد» لكنّه كان سيّئ السيرة بالمتاجرةِ بالخُمورِ والجَمْعِ بين النّساءِ والرجالِ في بيته.

ولو أن أحداً روى نادرةً باردةً غثّة سخيفةً، ونَسبَها إلى أحد هؤلاء ، لضحكَ الجميعُ لها، ولسارَت على أحسنِ ما يكون، وربما انتَشرت واشْتُهرت بين الناس. ولو أنه اخْترع نادرةً مليحةَ المعنى، سهلةَ الألفاظ، مما يجعُلها من أحسنِ النوادر وألطفِها، ثم نسبَها إلى صالح بن حُنين، أو إلى ابن النّواء، أو لغيرهما من الثقلاء البغضاء، لغَدت فاترةً لا تُضْحِك أحداً، ولا تبعثُ بهجةً أو سروراً، والفاترُ شرٌّ من البارد.

وقد ذكرتُ عامرَ بْنَ عبدِ قيسٍ العنْبريّ الزاهد العابد وأذكرُ معه بكْرِ بن عبد الله المُزْني الذي قرَنه الناس بالحسنِ البصريّ فكانوا يقولون: شيخُ البصرة الحسن وفتاها بَكْر ، وقد جعله الزُّهد والتأمّل نيِّر البصيرة، خبيراً بأدواء النفوس، وقد بلغَ من زُهْده في الدنيا أن رفضَ تولي القضاء، لئّلا تنقطعَ صلتُه بالناس.

وأذكر معهما أبا معتمر بنَ عبدِ الله العِجْلي، وهو من زهّاد أهلِ البصرة، ومنهم أيضاً يزيدُ بنُ أبانِ الرّقَاشيّ، وكانَ خطيباً ورثَ الخَطابة أباً عنْ جد، وقد كان أجدادهُ من خطباءِ الأكاسرة، وكان يَعْتمدُ القصَّ في وَعظه وسيلةً لتقوية العواطف والمشاعر.

فلو أن أحداً ألّف كلاماً يعظُ به الناس ويدعوهم إلى الُّزهْد، ثم نسبَه إلى بكْرِ بن عبد الله، أو عامر بن عبد قيس، أو مورِّق العِجْلي ويزيدِ الرّقاشيّ لبدَا حَسَناً وإن لم يكن، أو لتضاعَفَ حسنُه، ولوجَد فيه الناس رفعةً ونضارةً لم تكونا فيه.

ولو أن أحداً نسبَ الكلامَ نفسَه أو ما يشبهُه، إلى أبي كعْبِ الصوفي الذي كان من طبقةِ القصّاصين الذين انحدرُوا بالقصِّ إلى مرتبةِ الاستِجْداء، وصاروا يُعَدُّون مع القرّادين في نظامٍ واحد، أو إلى الشّاعرِ الماجن أبي نواس الحسن بن هانئ، أو إلى الشّاعر الحسين بْنِ مُطَيْر الملقّب بالخليع، لفقد الكلامُ قيمتَه، وبدا سمْجاً وغليظاً.

وقد كتبنا لك في هذا الكتاب أحاديثَ كثيرة منسوبةً إلى أصحابِها، وأحاديث كثيرةً أخرى لم ننسُبْها إلى أصحابها، إما خوفاً منهم أو إكراماً، ولولا أنّك طلبت مني أن أكتبَ هذا الكتاب، لما كلَّفت نفسي مشقَّة كتابتهِ ولما وضعت كلامي بحيث يظلِمُني الآخرون وينقُمون عليّ، فإن كان ثمّة ما ينقصُ الكتاب، فإنّ لي في هذا عُذراً، وإن كان فيه لائمةُ الّلائمين، أو عجزٌ عن الوصول إلى مبتغاه فتحمَّلْ أنت وِزْرَه.

* * *

رسالة سهل بن هارون
إلى محمد بن زياد وإلى بني عمه من آل زياد
حين ذمّوا مذهبَه في البخل، وتتبّعوا كلامه في الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم. أصلحَ الله أمرَكم، وجمعَ شملَكم، وعلَّمكم الخير، وجَعلكم منْ أهله.

قال الأحنفُ بنْ قيسٍ حكيمُ بني تميم وسيّدها مخاطباً قومه: يا معشرَ بني تميم، لا تَتعجّلوا الفتنة، ولا تُسارعوا إليها، فإني رأيتُ أسْرعَ الناسِ إلى القتالِ، أوّل الهاربين من المعركة، وأقلَّ الناس حياءً من الفِرار من الحرب. وقد قالوا قَديماً: إذا أردْتَ أن ترى العُيوبَ مجتمعةً على كثرتِها، فتأمَّل مَن يُكثِرُ من ذِكْر عيُوب الناس، فإنّه إنَّما يعرفُ هذه العيوبَ، لكثرةِ ما فيه منها.

وأوّل العيوب أن تَعيبَ على أحدٍ ما ليس عيباً، ومن قَبيح الأفعال أنْ تَنصحَ بالابتعادِ عمّن يُرشِد إلى طريقِ الحق، أو تُبادرَ بالعَداوةِ الناصحَ المُحبّ الحريص. وما أردنا بما قُلنا لكم، إلا أن نُقوِّم ما اعوجّ من أُمورِكم، وأن نهديَكُم سواءَ السبيل. وما ابتغينا إلا أن نُصلِح ما فَسَدَ من أمرِكم، وأن نُرشِدكم إلى ما يُبقي النِّعمةَ عليكم. فإذا كنّا قد أخطأْنا السبيلَ إلى إرشادِكم، فإنَ لنا عُذرَنا، لأنّ النيّة حسنة، وإنّما الأعمال بالنيّات، وسبيلُها موصولٌ فيما بيننا وبينكم.

ولا عَتَبَ لكم، لأنّنا ما أوْصيناكُم إلا بما اخْتَرْناه لأنفسِنا قبل أن ننصحكُم به، حتى لقد اشتُهِرْنا بِهِ بين الناس. وأنتم أهلُنا ومن ذوي رَحِمنا، وكان جديراً بكم - إكراماً لهذا - أن تُراعوا حُسْنَ نيّتنا حين نبّهناكم، وأن

تَلْفتوا نَظَرنا، إذا كنّا قد أُغفَلنا واجبَ حقِّكم وصِلَةَ الرّحم والقرابة. لكنكم رفضْتُم عُذرَنا المبسوطَ إليكم، وعن القيامِ بواجب حُرْمتِنا وقرابتِنا نأيتُم. ولو كان ذكرُ العيوب فضيلةً ومن أفضلِ الأعمال الصالحة، لشُغلْنا بأمورِنا وأنفسِنا عن نُصحكم وإرشادِكم سواءَ السبيل، وتَبْصيركم عواقبَ الأمور. وإنَّ من أعظمِ الشّقاء والتّعاسة، وأبعدِ الأمورِ عن نيل السعادة - وهي المُبْتغى - أن يتذكَّرَ الجميعُ خطأَ المعلِّمين، وإن كانَ بسيطاً، ويتناسوا سُوءَ استماعِ المتعلِّمين، وهو الخطأُ الفادح، وأن ينظُروا إلى لومِ اللائمين على أنّه أَمرٌ فظيعٌ شنيع، ولا يهتم أحدٌ بتعمّد الملومين ارْتِكابَ ما يَسْتحِقُّ اللوم.

لقد عَدَدْتم من عُيوبي قولي للخادمة: أجيدي عجْنَ العجين وتخميرِه، كما تُجيدين خَبْزَ الفطيرة. ليكونَ الطعمُ أطيب، وعددُ الأرغفةِ أكثر. فماذا في هذا القولِ من الخطأ؟ لقد كان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يقولُ لأهلِ بيته: أجيدوا عَجْنَ العجين وأَنْعِموه، فإنّه يزيدُ في العجين ويُنميّه فهل أخطأتُ إذا تَشَبَّهْتُ به؟

وعِبتُم عليَّ قولي، مَن لم يكنْ حريصاً على عدمِ الإسراف في الأشياء الرخيصةِ المتوفرة ، لمَ يعْرِف كيف يقتصدُ في الأشياء النادرة الغالية.

فلقد طلبتُ ماءً للوضوء، فجاؤوني بكَيْلةٍ يدل حجمُها على أنها تكفي لوضوئي، وتزيدُ عن حاجتي، فلما صِرتُ إلى صبِّ الماء على الأعضاء، وجدتُ الأعضاء أكثرَ من الماء، ونقص عليّ ماءُ الوضوء، فعلمت أنّني تهاوَنْت بالماء في ابْتداءِ الوضوء، وأَسْرفْت في استعماله، ولو أنّني اقْتَصَدت في أوّل الوضوء، لكانَ الماء كافياً جميعَ الأعضاء، ولغَسَلْتُها كلَّها غَسْلاً متساوياً، ولكان نصيبُ أوّل الأعضاءِ غسْلاً، كنصيبِ آخرِها من الماء. فعِبتمُ عليّ هذا التصرف، ورأيتموه فعلاً قبيحاً، وبذلْتُم جُهدَكم لتصويرِ شناعتهِ وقبحه، وفضحتموني بهِ بين الناس. فلماذا؟ ألأنّني أكرهُ الإسراف؟ لقد كان الحَسَن البصري، وهو الإمامُ الفقيهُ الذي تعلّم على يد عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، وعنْه أخذ، يقولُ عنْدَ ذِكر الإسراف: إنه يكونُ في النّافِعَيْن

الماء والكلأ. فلم يكْتفِ أبو سعيد رحمه الله بذمِّ الإسرافِ في الماء، بل قَرنه بعُشْب الأرض.

ورأيتُم أنّ من العيب أنّني خبّأت سلّةً كبيرة فيها الثمينُ من الفاكهةِ الغالية والتُّمور الغريبة، عن عَبْدٍ نَهِمٍ أكول، وَوَلَدٍ طماع، وجارية حَمْقاء، وزوْجَةٍ بلهاء لا تُحْسِنُ شيئاً، وماذا في هذا من العيب؟ ليس من آدابِ السلوك، ولا في ترتيبِ طبقاتِ الحكام والُولاة والأمراء، وليس من عادَةِ القادة، ولا في تنظيمِ أُمُور السّادة، أن يتساوى التابعُ والمتْبوع، والسّيد والعبْد، والكبيرُ والصغير، والعظيمُ والحقير، في تناولِ الأطعمة النفيسة الغالية، والمشروبات الغريبة، والملابس الثمينة، وحوائجِ التّنعُّمِ والترفيه، وأنواعِ حَيوانات الركوب، وأثمنِ الأشياء وأرقاها. وهذا ليس غريباً، إذ لا تتساوى أمكنتُهم في المجالس، ولا أسماؤُهم في الدعوات، بل إن كلاً منهم يُستقبل بتحية مختلفة، ويُرَدُّ عليه السلامُ بشكل مُغايرٍ للآخر. لأنّ هؤلاء الذين ذكرتهم لا يَفْقُدون من مالِهم ما يَفْقُد القادرُ عليه، ولا يهتمون للإنفاقِ اهتمامَ العارفِ قَدْرَ الأشياء وقيمتَها. بل إن من هؤلاء الذين لا يُقَدّرون النِّعَم حقَّ قدرها، من يطعمُ كلبَه الدجاجةَ السمينةَ التي لا تُقَدّم إلا لضيفٍ عزيز، وقد يقدّم لحمارِه أو حصانِه السمسمَ المقْشورَ علَفاً.

لقد عِبتمُ عليّ أنني خَبّأت ما خبّأت، مع أن بعض الأَئمّة خبّأ وعاءً ليس فيه إلا مَدقوق الحِنطَةِ والشعير، وخَتَم عليه بالطين، ومنهم من ختم بالطينِ على كيسٍ فارغ، وقال: الخَتْم إن وَجَب، خيرٌ من حُلْو الرُّطَب. فسكَتُّم عنهم، لأنكم لا تقدِروُن على عيبِهم ولا تجرؤُون، وعيّرتُموني ما فعلت، مع أنّهم إنما خَبّأوا الأشياءَ العادية، ولم أَخبِّئْ سوى الأشياء النفيسة.

وشنّعْتُم عليّ أنني قلت لغلامي: إذا طَبَخْت اللحمَ فزِدْ في إنضاجه، وزِدْ في مَرَقِه، حتى يكادَ اللحمُ يذوبُ في المرق، فيكونُ اللحمُ والمرقُ إداماً لخُبْزِنا، ونجمَعُ بين الانتفاعِ باللحمِ وطيب المرق، فما العيبُ في هذا؟ لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا طَبَختم لحماً فَزِيدُوا في الماء، فإن لم يُصِبْ أحدُكم لحماً، أصابَ مرقاً.

ورُحْتم تبحثون جَهْدَكم عمّا تَعيبونه عليّ، فلم تجدوا إلا أنّي أصنعُ للحذاءِ نعلاً تحتَ نعلِه، وأنّي أصنَع للقميصِ بِطانة، وأنّي قلت إن الحذاء مزدَوجَ النعل أبقى وأطولُ عمراً، وألينُ في المَشْيِ، وأوْفَى للقدم، كما إنه ينفي الكِبْرَ والإعجابَ والخُيَلاء، وهو تَشبُّهٌ بالناسكين، وأنّي قُلت إن ترقيَع الثوب من حُسْن تدبيرِ الأمور، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يَخْصِفُ نَعْلَه، وَيرْقَع ثوبَه، ويلعَقُ إصبعَه بعد الطعام. وكان يقول: لو أُتيتُ بذراعٍ لأَكَلْت، ولو دُعِيت إلى كُراعَ لأَجَبْت، ولم يكُنْ أحدٌ لِيدعُوَ أشرف الخَلْق وسيّد المرسلين إلى عَظْمٍ ساقٍ لا لحمَ عليه، ولكنّه صلواتُ الله عليه أرادَ أن يعلّمنا التواضعَ، وقد قالوا: لا تُطْعِم العبْدَ الكُراع، فيطمعَ في الذِّراع.

ودعُوني أذْكر لكم أبا محمد طلحةَ بن عُبيْد الله التَّيْميّ، من تَيْم قريش، وهو السَّبَاقُ إلى الإسلام، صاحبُ المواقفِ المشهودة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الغنيّ النبيلُ واسِعُ الثَّراء، حتى سُمّي: طلحةَ الخير، وطلحةَ الفياض. لقد ضمّت زوجُه سُعْدى بنت عوف طَرف إزاره إلى الطّرفِ الآخر وخاطتهما، لتخفي ما به من اهتراء.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يَرْقَعُ ثوبَه، بل قيل إنه كان في ثوبهِ رِقاعٌ من جلد، فلم يكْتَفِ بترقيع ثوبه، بل رَضي بأن تكون الرقاعُ من الجلد. وكان يقول: من لم يسْتحي من الحلال، خفّتْ نفقتهُ، وقَلّ كبرُه وقالوا: لا يعرفُ قيمة الجديدِ، من لم يلبس الخَلَقَ البالي.

وضَجِرَ زيادُ بنُ أبيه، فبعثَ رجلاً كي يأتي له بمن يُحادثُه، واشترط أن يكون عاقِلاً رزيناً. فأتاه برجل، فوجده كما طَلَب. فقال لمن أرسله: أكُنتَ ذا مَعْرفة به؟ قال: لا، ولا رأيتهُ إلا الساعة. قال زياد: فهل ذكرتَ له سببَ دعوتي له؟ قال: لا. قال: فهل بادَلْته الكلام، وبَحَثْتَ الأمور، قبل أن تأتيَني به؟ قال: لا. قال: فَلِمَ اختَرته من بينِ النّاس؟ قال: يومُنا يوْمٌ حارّ، فخرجتُ أعرُف عُقولُ الناسِ بطعامهم ولباسِهم في مثل هذا اليومِ القائظ، فرأيتُ ثيابَ الناس جديدةً خفيفة. ورأيتُ ثيابَه قديمةً بالية، فقلت: لا يكونُ هذا إلا منَ حزْم الأمور.

وقد عَلِمْنا أن الجديدَ أقلُّ من القديمِ البالي، إلا في بَعْضِ مواضع. وقد جعل اللهُ عَزَّ وجلَّ لكلِّ شيْء قدْراً، وهيّأ له موضعاً، كما جعَل لكلّ دهْرٍ رجالاً، ولكلِّ مقامٍ مقالاً. وقد أحيا سبحانَه وتعالى بالسمّ، وأماتَ بالغذاء، وقد يشاءُ جلّت قدرتُه أن يَغَصّ المرءُ بالماء، ويُقتلَ بالدّواء. لذا فإن ترقيعَ الثوب يجمعُ بين الإصلاحِ والتواضُع، أما من لا يرقع فإنه جَمَعَ الكِبْرَ مَعَ الإسراف، وكلاهما خُلُقٌ ذَميم.

وقد قالوا: إن الإصلاح وحدَه كسبٌ وغنيمة، كما قالوا: إن قِلَّة العيال وحدَها غِنى. ولماذا تستهْجنون الإصلاحَ وقد جَبَر الأحنفُ بن قيس يدَ عَنْزٍ كُسرت، ولم يَذْبَحْها؟ ولماذا تستَغْربون الاكتفاءَ بالقليل، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من أكلَ بيضةْ، فقد أكلَ دجاجة. وقال رجلٌ لأحد ذوي الجاه والعِزّ والشرف: سأُهْدي إليك دجاجة فقال: إذا كنْتَ لابدّ مُهْدياً، فاجْعَلْها بيّاضة. بل إن أبا الدرداء عويمر بن مَالك الأنصاري رضي الله عنه، وهو من صحابةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربين، كان يرى أن على المرء ألا يُهْدِرَ من الذبيحة شيئاً حتى ولا عظامَها وعروقَها.

وعِبْتُم عليَّ قَولي: إنّ على المرء أن يَحْفَظَ ماله، ولا يُحكِّم فيه الإسراف ولا يُنْفقه على الشهوات. وإذا كانَ قد طالَ عمره، وتَقوّسَ ظهرُه، ووهنَ عظمُه، وضَعُفَت قُوّته، فلا يَغرنّه هذا، ويُغريه بأن يندفَع إلى المكارِم، وأن يُخْرِجَ مالَه المحفوظ، ويُعطيَه غيره. فلعلّ الله سبحانه وتعالى قَدّر أن يُؤَخِّر أَجَلَه، وأن يجعلَه مِنَ المُعَمَّرين، ولَعلّه يُرزق ولداً في آخرِ عمره، فمن أين سيُنْفِق عليه؟ وماذا سيورِّثه؟ ولعله تُصيبُه بعضُ مصائبِ الدهر مما لم يخطُرْ على باله، ولا أدركه عقلُه، فينقلبُ طالباً بعد أنَ كان مطلوباً، ويصيرُ سائلاً بعْد أن كانَ مسؤولاً، ويحاولُ استرداد مالِه ممَّن لا يَردّون إليه شيئاً، ويظهِر الفاقَة والحاجةَ والشكوى إلى من لا يرحمونه، فيكونُ أضعفَ ما يكونُ عن الطلب، وقد يُلْجِئُه الدهْرُ إلى أقبحِ ما يكون به الكسب. فلماذا يضعُ نفسَه هذا الموضع؟ أليسَ الأفضلَ له أن يعملَ بنصيحةِ عمرو بن العاص وهو اللبيب الأريب الداهية: اعمَلْ لدنياك عملَ من يعيش أبداً، واعْمل لآخرتك عملَ من يموتُ غداً؟

ورأيتم العيبَ في قولي: إنّ التبذير يسارِعُ إلى مالِ القمار، والمال الذي آلَ بالميراث، والمالِ الذي يجدُه المرء دونَ تعب، والمالِ الذي يكونُ من مِنَحِ الملوك وأُعطياتِهم. أما المالُ المكْتَسَب، والغِنى الذي جاء بَالتّعب، والمالُ الذي قد يكونُ في ذَهابه ذَهابُ الدِّين، وانتقاصُ العرض والشرف، وتَعبُ الجسم وانْشغالُ البال، فإنه يُحفَظ، والحِفظُ به أَلْبقَ. وقولي: إنّ من لم يَحْسُب حِسابَ الإنفاق، لم يحسُب ما وَردَ إليه من المال، ومن لم يحسُبْ الدَّخلِ، فقد أضاع الأَصْل، وإنّ من لم يعرفْ قدْرَ الغنى والمالِ الوفير، فَتَح، بابَه للفقر، وصارَ الذّلُّ سهلاً عليه، وما أَذَلَّ الفقير.

وقلت: إن الإنفاقَ في الحلال، لا يكونُ إلا من الكَسْبِ الحلال، وإنّ الخبيثَ يَجُرّ الخبيث، وإنّ الطيّبَ يدعو إلى الطيّب، وإنَّ إنفاقَ المال على الأهواءِ والشهوات، يمنعُ إنفاقَه في الحُقوق والواجبات، وإنّ إنفاقَ المال في وجوهِ الصحيحة، حاجزٌ بين المرءِ والهَوى، فعِبتم عليّ هذا القول. أما سمعتم قولَ معاوية بن أبي سفيان: لم أرَ تبذيراً إلا يقابلُه حقٌّ مُضيَّع. وقال الحسن البَصْريّ: إذا أردتم أن تعرفوا من أين أتى الرجل بماله، وكيف كَسَبَه، فانظروا في أيِّ الأمورِ يُنْفِقه، فإن كانَ ينفقه في الإسراف والتبذير، فإنه مالٌ خبيث. وقلت إنّ الله تعالى يُسَلِّط السَّرَفَ على المالِ الخبيث حتى يُهْلِكَه. فما العيبُ في قولي هذا؟ وما كنتُ والله إلا مُشْفقاً عليكم، صادِقاً في مودَّتكم، حافِظاً لما كان بيني وبين آبائِكم، ولما لَكُم من الحُقوقِ عليّ باسم الجِوار، وما بيَننا من الممالحة والمُلابَسَة وصلة الرَّحِم والقُربى، حين قلتُ لكم: أنتم في دارِ المَصائِب، والدَّهْر لا تُؤْمَن منه النّوائِب، فإن بقيتُم على ما أَنْتُم عليه من تبذيرِ الأموال، وإنفاقِها في غير وجوهِها الصحيحة، وأصابَتْ أحدّكم مصيْبَة في مالِه، فذهبت بكلّ ما كانت خزائنُه تحويه، لم يجدْ شيئاً يَحْميه. فحافِظوا على النِّعْمة، واحْفَظوا الثَّروة في أمكنةٍ مختلفة، فإن البَليّة لا تأتي على الجميع، إلا إذا ماتَ الجميع، فلا يجوزُ أَن يضَع العاقلُ مالَه في شيءٍ واحد. وقد قال عمُر بن الخطاب رضي الله عنه في العبدِ والجاريةِ وامتلاكِ الشّاة

والبعير، وحتّى في الشّيءِ السَّهْل اليسير: فَرِّقوا في المنايا. أي لا تضعوا مالَكُم كلَّه في شيءٍ واحدٍ من هذا، فإن هَلَك هَلَك المالُ كلُّه. وقال العلامة ابن سيرين لأحدِ تجّار البحر: كيف تتصرَّفون بأموالكم؟ فقال التاجر: نُفرِّقها في السفن، فإن غَرِقَت بعضُ السفن، سَلِم بعضُها الآخر، ولولا أن السّلاَمة أكثرُ من العَطَب، لما حَمَلنا خزائِنَنا في البحر. فعدّ ابنُ سيرين هذا من حُسنِ تدبيرِ الأمور. وقال المثل السائر: «تَحْسَبُها بلهاءَ لا تُحْسِنَ تدبيرَ الأمور، وإذا هي بارعة كالرّجُل الخبير» وأعجبته مهارتُهم في حفظِ أموالِهم.

وقلتُ لكم - إشْفاقاً منّي عليكم - : إن الغِنى كالخمْرِ يُسْكر، وإنَّ للمالِ قوّة، فمنْ لم يَحْفظ المالَ من سُكْرِ الغِنى فقدْ أَضاعَه، ومن لم يَرْتبط لديه المالُ بالخوفِ من الفَقْر فقد ضيَّعه، فعِبتُم عليّ قولي هذا. ولكنّكم لم تسمَعوا ما قال زيدُ بنُ جَبَلة - وهو في الحِلْم والسيادة والشرف كالأحنف بن قيس - : أفقرُ النّاس غنيٌّ حَسِبَ أنّه في مأمنٍ من الفَقْر، وسُكْر الغِنى أَشَدَّ من سُكْرِ الخمر.

وقلتم: إنني ألتزم الحَثَّ على أن يقومَ المرءُ بواجباتِه وكفى، وأمّا ما عَداها فهوَ عَنْها في غِنى، وإنني صِرتُ أستعمل هذا في أشعاري بعْدَ رسائلي، وفي خُطُبي بعد أن كرَّرته كثيراً في سائرِ كلامي، ومن ذلك ما قُلت في يحيى بن خالد مادحاً:

عَدوّ تـــلادِ المـــالِ فيمـــا يَنُوبُـــه　　　مَنُوعٌ إذا ما مَنْعُـــه كـــان أحْزَمَـــا

فماذا في قولي؟ لقد مَدحْت الرجل بأنّه عدوٌ للمال في النوائب، ولكنه غيرُ مسرفٍ عندما يَرى أن عليه أن يقبِضَ يدَه. ومن هذا ما قلت في صديقي النبيل الأديب محمد بن زياد:

وخليقتان: تُقـــىً وفـــضلُ تَحـــرُّمٍ　　　وإهانَـــةٌ، فـــي حقِّـــه، للمـــالِ

فما العيب في هذا؟ وما العيبُ في أنّي أفضّل المالَ على العلم وأقدِّمُه عليه؟ إنما قلتُ هذا، لأن العالمَ يُغاث بالمال، وبه تقومُ حياة النفوس. قبلَ أن تُعْرَف فضيلَةُ العلم. وأنّي قلت: إذا كنّا نتبيّن الأمورَ بالنّفوس، فإنّ الغِنى

بصيرةٌ وَهِداية، والفقرَ عَمىً وضلالة. وقلتم: كيف تقولُ هذا، وقد قيلَ لرئيس الحكماء والمقدّم على جميع الأدباء: من أفضَلُ، العلماءُ أم الأغنياء؟ قال: بل العُلماء. قيل: فلماذا نرى العلماء يقصدون الأغنياء وما نرى الأغنياء يقصدون العلماء؟ قال لأن العلماء يعرفون فضل الغنى والمال، والأغنياء يجهَلُون فضلَ العلماء. وأقولُ لكم: هذا هو الفاصِل بين المال والعلم، فكيف نُساوي بين شيئين أحدُهما يحتاجُهُ الجميع، والآخرُ إن لَزِمَ لبعضِهم استَغنى عنه الآخر؟

وعِبْتُم عليّ أنّي قلت: فضلُ الغِنى على ما يكفي حاجةَ الإنْسان، كفَضْلِ أي آلة تكون في دارك، إن احتجتَ إليها استَعْمَلْتها، وإن استَغْنَيت عنها تَبقى عُدَّة. وقد قال الحُضين بنُ المُنْذِر الرّقاشيّ، وهو الشاعُر الفارس السيِّد ومن رؤُساء أهل البصرة: تمنيتُ أن يكونَ لي جبلٌ من الذّهب مثلُ أُحُد، ولا أنْتفع منه بشيء. قيل: فماذا يُفيدُك ذلك؟ قال: لكَثرة من يخدمُونني من أجله. وقال أيضاً: عليكَ بطَلَب الغنى، فلو لم يُفِدْك بشيء سوى أنه عِزٌّ تشعُرُ بهِ في نفسِك، وحَسَدٌ وغيْرَةٌ في نفسِ غيرك، لكان حظُّك منه كبيراً، وانتفاعُك به عظيماً. وقد كان من السادة الرؤساء، وأسرته من أشرفِ أُسَرِ ربيعة منذُ الجاهلية، ولم يَسْعَ بالمال إلى السُّوْدُدِ والرِّئاسَة، فقد سُئِلَ: كيف سُدْتَ قومَك وأنتَ بخيل؟ قال: لأني سديدُ الرأي شديدُ الإقْدام.

ولسنا والله ندعُ سيرةَ الأنبياء، وتعاليمَ الخلفاء، وآدابَ الحكماء، لنصغي إلى أقوال أصحابِ الأهواء. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمُرُ الأغنياءَ بتربيةِ الغنم، ويأمرُ الفقراءَ بتربيةِ الدجاج. وقالوا قديماً: مالُكَ لمَعاشك في الحياةِ الدنيا، وَدِينُكَ لحسابِكَ في الحياة الأخرى. فَقَسَموا الأمورَ كلَّها إلى دينٍ ودنيا، ثم جعلوا المالَ أحَدَ القسمين، فكم هو عزيزٌ وغالٍ ونفيسٌ ومطلوب. وقال أبو بكرٍ الصدّيق رحمة الله ورضوانه عليه: إني لأُبْغِض أهلَ البيت يُنفقون رزْقَ أيّامٍ في يوم. وكانوا يكرهون أهلَ البيت الذين يُحبّون أكْلَ اللحم. وكان هشامُ بنُ عبد الملك بن مروان وهو الخليفة ابنُ الخليفة يقول: ضَعِ الدِّرْهَم فوقَ الدرهم يكنْ لَكَ مالاً، وتُصبِحْ من الأغنياء. وكان أبو الأسود

الدُّؤَليّ وهو مَن تعرفُون من العقلِ والحكمةِ والأَدَبِ والدّهاء، ويكفيه أنهُ مَصَحِّحُ أَلْسِنَةِ الناس في اللغة بعد أن فسدت على ألسنتِهم، يَنهى عن كرمِكم هذا المُبْتَكَر، وعن جودِكمُ هذا المُسْتحدَث، فقال لابنه: إذا بَسَطَ الله لكَ في الرزق، فابْسُط يدكَ، وإذا قَبَضَ اللهُ فاقْبِض، ولا تُجاوِد اللهَ، فإنّ اللهَ أكرمُ الكرماء، وهو الغنيّ عن العالمين. وقال: دِرْهَمُ حلالٍ تُنْفقه في وجْه حقّ، خيرٌ من عَشَرةِ آلاف تَقْبِضها. ووجد على الأرض غُصْناً فيه حباتٌ صغيراتٌ من أوائِل العنب، فالتقطه، وقال: تُضيّعون مثلَ هذا، وهو يكفي لقوتِ امرئ مسلمٍ إلى آخرِ الليل؟ وتلقَّطَ أبو الدرداء حباتِ حنْطةٍ كانت على الأرض، فنهاهُ بعض المُسْرفين عن ذلك، فقال: اسْكت يا ابن العَبْسيّة، إنَّ من حُسن فِقْهِ المرء أن يكونَ رفيقاً حازِماً في معيشته.

إن كلَّ ما قُلتم، لا قيمةَ لَهُ كَرَدٍّ عليّ، ولا بِهِ تُضْعِفون رأيي وتُبْطِلونه، فانظُروا في أمورِكم قبل أن تعيبوا على النّاسِ حسنَ تدبيرهم، وتذكّروا ما عليكم قبل أن تتذكّروا ما لكم. والسلام.

* * *

أئمـة البخـل

أهلُ مَرْوٍ وخُراسان

ونبدأُ بأهلِ خراسان لكَثْرة ما روى الناسُ من أخبارِ بخلهم، ونخصّ منهم أهْلَ مرْوٍ وهي كُبرىُ مدنِ خراسان، والثيابُ المروزية من أجودِ أنواع الثياب، لبراعتهم في النسيج والحياكة، ولكنّهم اشْتُهِروا بالبخُل حتى صارَ شِحّهم مَضْرِبَ الأمثال، وقال فيهم الشاعر:

مياسيرُ مَرْوٍ من يجـودُ لـضيفِهِ — بكِرْشٍ فقد أمسى نظيـراً لحـاتِمِ

ومَنْ رشَّ بابَ الدّار منهمْ بغَرْفَـةٍ — فقد كملُتْ فيـه خـصالُ المكـارِمِ

يُسمّونَ بطنَ الشاة طاوُوسَ عُرْسِـهم — وعندَ طبيخِ اللحْمِ ضربُ الجمـاجِمِ

فلا قدَّس الرحمن أرْضـاً وبلْـدةً — طواوِيسُهم فيها بطـونُ البهـائمِ

فإذا أتى المَرْوَزِيَّ زائرٌ، وإذا أطالَ أحدُهم الجلوسَ عنده، يقول المروزيّ: أتغدّيْت؟ فإن قال الضيف: نَعَم، قال المَرْوزيّ: لولا أنّك تغديت لغدّيتك أطيبَ غداء. وإن قال: لا، قال المروزيّ، لو كنت تغديتَ لسقيتُكَ خمسة أقداح من أطيب الشّراب، فلا ينالُ الزائرُ شيئاً في الحالين، ولا يكونُ في يدهِ قليلٌ ولا كثير.

وأحدّثكَ عن أسودَ بنِ أبي كريمة، وأصله من مَرْو، وهو شاعر يقولُ الشِّعْرَ ويرويه، وله أشعارٌ ضمَّنها كلماتٍ فارسية بقصدِ المفاكهة، وكان متصلاً بأبي مالك عمرو بن كَرْكرة، كما كان متصلاً بالبرامكة أيّامَ عزِّهم. وكنتُ في منزلهِ مرّة، فرآني أتوضّأ من إناءِ خزف، فقال: سبحان الله تتوضأُ بالماءِ العَذْب وأنت تعلمُ كم هو عزيزٌ ونادر، وتعلَمُ أننا نأتي به من مكانٍ بعيد

لشرابنا وطعامنا، وماءُ البئرِ المالحُ مسفوحٌ أمامك؟ قلت: ليس ما بهِ من الماء العذب إنّما من الماءِ المالح. قال: فهذا أبْشَع من ذاك، لقد أفْسَدت الإناءَ الثمين بالملوحة. فلم أدْرِ كيف أتخلصُ منه.

والشّيءُ بالشّيءُ يُذْكر، وأنقلُ لك حديثاً عن عمْرو بن نُهَيْوى الذي كان من أهلِ السَّواد، وكان عامِلاً للمأمون حتى نكَبَه، كما كانَ من أصحابِ النَّظَّام، وكانَ من المشتغلين بالكلام، وكان من جُلَساء الكِنديّ، حدثني عنه فقال:

تغدّيت يوماً عند الكِنديّ، فدخل عليه جارُه الذي كان صديقاً لي، فلم يعرِضْ أن يتغدّى معنا، وكان الكِنديُّ أبخلَ مَنْ خَلَق الله، فاستحييت مِنَ الرجل، وقلت: سُبحان الله! وما يَضيرُك أن تَدنو منّا وتشارِكَنا طعامنا؟ قال الرجل: قد تغدّيت والله. فصاح الكِنْديّ: ما بعْدَ الله شيء. وأكمل عمرو حديثه قائلاً: فَقيّده بكلامه قَيداً لا فَكاك منه، فلا يستطيعُ التراجع، فلو مدّ يده إلى الطعامِ لكانَ كافراً، أو لكانَ قد جعل مع الله جلّ ذِكرُه شيئاً.

وليس هذا الحديث من أحاديث أهِلْ مَرو، ولكنّه على شاكِلَتِه، ولذا أوردتُه معها.

ولأدلّك على تمكّن البُخل من أهلِ مَرْو أنقلُ لكَ حكايةً عن ثُمامَة بن أشْرس، وقد كان زعيماً من زُعماءِ المعتزلة، وتلميذاً لأبي الهُذَيْل العلاّف، واتصل بالبرامِكة وبخاصة بجعفرَ بنِ يَحيى البرمكي، وكان يصاحِبُه إلى بيتِ الحِكمة، وإذا كان قد أُوذي في أيامِ الرشيد، فإنّ المأمون كانَ يُجِلّه ويرفعُ قدَره، حتى إنه أرادَه أن يَلِي الوزارَة فَرفضها، ولكنه ظلَّ صاحبَ الكلمة الأولى في قصر المأمون وسياسته. فقد قال ثُمامَة:

لم أرَ الديكَ في بَلْدة قَطّ إلا وهو لافِظٌ، يأخذُ الحبَّةَ بمنقاره، ثم يلفُظُها أمامَ الدجاجةِ لتَلْتقِطَها، إلا ديكَةَ مَرْو، فإني رأيْت ديكةَ مروِ تسلُبَ الدجاجَ ما في مناقيرِها من الحب. قال ثمامة: فعلْمت أن البُخْلَ شيءٌ في طبعِ البلادِ وتُرابها وهوائِها وفي جوهرِ مائها، فَمِن ثَمَّ عمّهم جميعاً، حتى عَمَّ حيواناتِهم أيضاً.

وقد رويت هذا الحديثَ لأحمدَ بْنِ رشيد، فقالَ: لقد صدَق ثُمامة فيما ذّهَب إليه، فقلتُ: كيف؟ قال: كنتُ عنْدَ أحدِ كبارِ أهْلِ مَرْوٍ، وكان ثَمَّةَ صبيٌّ له صغيرٌ يلعبُ في الدار، وأردْتُ أن أمتحنَه وأعابِثَه، فقلتُ: أطعمني من خُبْزكم، فقالَ: لن تُحبَّه لأنّه مُرٌّ، فقلتُ: فاسْقِني من مائكم، فقال لن تستسيغه، إنّه مالِحٌ. ورحتُ أقول: هاتِ لي من كذا وكذا، فيردّ عليّ: لا تريدُه، هو كذا وكذا، إلى أن عَدَدْت أصنافاً كثيرة، والصبيّ يرد عليّ بأن يصفَه بما يُبغِّضني به، فضحك المَرْوَزِي وقال: ما ذنبُنا؟ من علَّم هذا الصبيَّ الصغَير ما تسمع؟ قال أحمد: فعلِمْتَ أن البخلَ لا يعلّمه الكبارُ للصغّار، ولا يكتسبُه الصغارُ منَ الكبار، بل هو طبعٌ فيهم، وفي أعراقِهم وطينتِهم.

وسمعتُ أنّ جَماعةً من أهلِ خراسانَ سكنُوا معاً في منزل، فاحْتاجُوا إلى مصبْاح، فصبَرُوا عنه ما أمْكَنَ الصَّبْر، وظلوا يتحركون مُهتدين باللَّمسِ كالعمْيان، أو يَسْتَعينون بضوءِ القَمر، حتى أدْركوا أنْ لا غِنى لهُم عن المصباح، فاتّفقُوا على أن يتعاوَنُوا في ثمنِه، وأبى واحدٌ منهم أن يُعينهم، وأن يدفَعَ ما يترتَّبُ عليه، فكانوا إذا حلَّ الظلامُ، وأشْعلُوا المصباح شدّوا عينيّ صاحبِهم بمنديل، فلا يزالُ معصوبَ العينين حتى يُطْفِئوا المصباح استْعداداً للنوم، فإذا أطفؤُوه، أطلَقُوا عينيّ الرجل.

ورأيتُ زُهاء خمسين رجلاً منهم ممّن يُؤجِّرون الحمير، وكانُوا في طريقِهم إلى الحجّ، وكانوا عِنْد قرْيةِ الأعرابِ في طريقِ الكُوفة، فعجبتُ منْهم، إذ كانوا مُتقاربين، يحدِّث بعضهم بعضاً، ولكنهم حين يُوضَعُ الطعام، وكانَ من البقول يفترقُون، فلم أر رجلين منهم يأْكلان معاً.

وحدّثني مُوَيْس بن عمران وهو السَّريّ النبيل الذي لا يَجتمع مَعَ البُخْل في مكان، وكانَ واسعَ العِلْم في الكلام والاعتْزال، كما كانَ سَمْح النَّفْسِ كريماً، فقد كان يزورُ أبا نواس في سِجْنِه ويقضي حوائجَه، كما استَوهبه الحسينُ بن الضحّاك الشاعرُ جُبَّةً فاخِرَة من الحرير الخالصِ كانَ يلْبَسُها، فنَزعها عنه وأعطاهَ إيّاها. قال مُويس:

قال رجل خراساني لصاحبه، وكانا مُتزامليْن في عملٍ، أو مُترافِقَين في طريق: لم لا نأكلُ معاً؟ إنَّ يدَ الله مع الجماعة، وفي الاجْتماعِ بركة، وقد صَدَقَ الأقدمون حين قالُوا: طعامُ الاثنين يكْفي ثلاثة، وطعامُ الثلاثة يكْفي أربعة. فقال له صاحبهُ: لولا أنّي أعلمُ أنك تأكُلُ أكثرَ مني، لقُلتُ إن كلامَك هذا يدخُل في بابِ النصيحة. وفي اليوْم التّالي أعادَ عليه القول، فقال الآخر: يا عبدَ الله، مَعكَ رغيفٌ ومعي رغيف ولولا أنك تُريد الشرَّ لَما كُنتَ حريصاً على أن نتشاركَ في الطعام. هل تريد أن نتحدثَ ويؤنِسَ أحدُنا الآخر؟ حسناً... اجْعَل الطبقَ واحداً، ويكونُ رغيفُ كلٍّ منّا أمامَه، ولا أشكّ لحظةً واحدةَ في أنَّك إذا أكلتَ رغيفَك ونصفَ رغيفي ستجدُه مُباركاً، ولكن يجبُ أنْ أجدَه أنا لا أنت مُباركاً.

وخاقان بْنُ صُبَيْح رجلٌ ثقة، صادقٌ لا يحتاجُ إلى شاهدٍ، لكنّه معدودٌ في البخلاء، وقد حدّثني فقال:

دخلتُ على رجلٍ من أهل خراسان ليلاً. وإذا هو قَدْ أتانا بِمِسْرَجَةٍ في غايةِ الدقَّة، وإذا هو قد ألْقى في دُهنِ المِسْرَجةِ شيئاً من مِلحَ وقد علَّق على عَمُود المنارَةِ عُوداً بخيط، وقد جعلَ في العُود حزّاً ليكونَ مكاناً لربْطِ الخيط، فإذا كادَ السِّراجُ ينطَفئُ رَفعَ رأْس الفتيلةِ بذلك العُود والخيط. فقلت له: ولماذا ربَطْتَ العودَ بالخَيْط؟ قال: هذا عودٌ قد تشرّب الدُّهْن، فإن ضاعَ ولم نَحْفَظْه احتجنا إلى عودٍ آخر، ويكون عطشان، فيشرَبُ الدّهن، فإذا كنّا سنفعلُ هذا كلَّ ليلةٍ، ضاعَ من دُهننا في الشهرِ ما يكفي المِسْرَجَة ليلة. فبينما أنا أتعجّب في نفسي منْ فِطْنتهِ وَصوابِ تفْكيرِه، وأسألُ اللهَ جلَّ ذكرُه السَّتْرَ والعافية، إذْ دخَل شيخٌ مَرْوزي، فنظر إلى العُود وقال: يا أبا فلان، فَرْرت من خَسارةٍ، ووقعت في خَسارة أخرى. قال الخراساني: كيف، جُعِلْتُ فداك؟ قال المروزي: أما تعلمُ أنَّ الريحَ والشَّمْسَ تجففّان الأشياءَ المبتلّةَ أو تَأخُذان منها؟ ألمْ يكنُ العودُ البارحةَ عنْدَ إطفاء السّراج أكثر بللاً؟ وكانَ اليوم عند إشعالِكَ السِّراجَ أجفَّ

وأعْطشَ للدّهن؟ وأحدِّثُك عن خِبرةٍ وتجربة، فقد كنتُ جاهلاً مثلك، إلى أنْ هَداني اللهُ إلى الصواب، دعْ هذا العُودَ واربُط - عافَاك الله - الخيطَ بإبْرةٍ أو مِسلَّةٍ صغيرة، لأن العُودَ من خشبٍ والخِلالَ والقَصبَةَ ربّما تعلّقت بها الشعْرة من قِطنِ الفَتيلة، إذا سوّيناها بها، ورفعناها، وربّما كان ذلك سبَباً لانْطفاءِ السِّراج، والحديدُ الذي تُصنعُ منه الإبرةُ والمِسلَّةُ أملس، ولا يتشّرب الدُّهْن، وهو مع ذلك إذا ابتَلَّ لا يَجفّ

قال خاقان بن صُبَيْح: ففي تلكَ الليلةِ عَرَفْتَ فضلَ أهل خُراسان على سائرِ الناس، وفضْلَ أهْلِ مَرْو على سائرِ أهْل خُراسان.

وكان مثنّى بنُ بَشير من التجّار الذين يُجالسون العلماء، كما كانَ من أصحابِ خاقان بْنِ صُبَيْح، قال:

دخل أبو عبد الله المرَوْزِيّ على شيخٍ من أهْل خُراسان، وإذا هو يَسْتضيء بمِسْرجَةٍ من الخزف، فقال أبو عبد الله: لا تفعلُ صالح الأعمالِ واللهِ أبداً، وأراكَ تقعُ في الخطأِ دائماً، لقد عاتَبْتك في مَسَارِجِ الحِجارَة، فجئتَ بمسْرَجةٍ من الخزف، فما الفرْق؟ ألا تعلمُ أنَّ الخزفَ والحجارةَ يلتهمان الدُّهْنَ الْتِهاماً؟ قال الشيخ: جُعِلت فداك، أَعْطيتُ مسْرَجَة الخزف هذه إلى عاملٍ عندي يعملُ في حِرْفَةِ الدُّهون، فألقاها في مِصْفاة الدهون شهراً، حتى ارْتَوت من الدُّهن ارتواء لا تستطيعُ بَعده أن تنشرَّب قطْرةَ واحدة، قال أبو عبد الله: ليس هذا ما قصدت، فهذا دواؤه يسير، وقد هداك اللهُ إليه، ولكنْك لم تنتبه إلى موضِعِ النار من طرفِ الفتيلة في المِسْرَجة، فإنّه يجفّفه إحراقُ النار وينشِّفُ ما فيه من الدّهن، فيتَسَقّى الدَّهنُ ويتشربَّه حتى يبتلّ، فتعودَ النار عليه فتنسفُ ما فيه وتأكُله، ويستمرّ هذا ليلةً بعدَ ليلة، ولو أنّك قسْتَ ما يتشَّرب ذلك المكانُ من الدَّهن، بما يستمِدُّه طرف الفتيلة منه، لعلِمْتَ أنّه أكثرُ مما وفَّرْت، وبعد ذلك، ألا ترى ذلكَ الموضعَ من الفتيلةِ والمسرجة، لا يزالُ الدَّهن فيه سائلاً جارياً؟ وقد قال العالمون بالأُمور، إنّك إذا وضعتَ مِسْرجة فيها مصباح، وأخرى لا مِصْباح فيها وَجدت الأولى بعدَ ليلةٍ أو ليلتين مملوءة دُهناً، وانظُر

إلى المِلح الذي يُوضَع تَحتَ المسرجة، والنِّخالةِ التي تُوضع هناك لتسويتِها وجَعْلها مُستقرَّةً في مكانِها لا تميل، ألا تجدُهما قد تبلّلا حتى تستطيعَ أن تعْصرَ الدُّهن منهما؟ وهذا كلّه خُسرانٌ لا يَتهاون به إلا الفاسدون. على أن المُفْسدين إنما يُطْعمون الناس ويسقُونهم، فهم بهذا ينالُون شيئاً هو بعضُ الصِّيت الحَسَن، وإن كانَ أمراً لا قيمةَ له، وأنت إنما تُطعِمُ النار وتَسقي النار، ومَنْ أَطْعم النارَ وسقاها، جعله الله يومَ القيامةِ طعاماً للنار.

قال الخُراساني: فكيف أصْنعُ جُعِلْت فداك؟ قال أبو عبد الله: عليك أن تتَّخذَ قنديلاً، فإن الزَّجاج أحفظُ من غيره، والزجاجُ كتومٌ فلا يَرْشح منه الدُّهن ثم يجف، ولا يقبلُ الأوساخَ التي لا تزول إلا بالدَّلْكِ الشديد، أو بالإحراق بالنار، وكلاهما يُعيدان المِسْرجةَ إلى ما كانت عليه مِن العَطَش للدهن، والزُجاجَ يحْفَظ الماءَ والتراب أكثرَ من الذهب الخالصِ النّقي، وهو مع ذلك مصنوعٌ والذَّهب مَخْلوق، وإذا كانَ الذهبُ أفضلَ في صلابَتهِ، فإن الزجاجَ أفْضلُ في صفائِه، والذَّهب يسترُ ما خَلْفَه، والزجاج يَشِفُّ عنه، وإنما تكونُ الفتيلةُ في وَسَط القنديل، فلا تَسْخن جوانبهُ بَوهْج المِصباح، كما تسْخنُ بموضعِ النّار مِنَ المسرجة، وإذا وَقَعَ شعاعُ النارِ على الزجاج، توهَّج حتى يصيرَ المصباحُ والقنديلُ مصباحاً واحداً، وردَّ كلُّ واحدِ منهما الضياءَ على الآخر، وانْظر إلى الشَّعاع الذي يسقُطُ على سطح المرآة، أو على سطْحِ الماء، أو على الزُّجاجة، ثم انْظُر كيف يتضاعَفُ نورُه، حتى إنّه إن سقَط على عينيّ إنْسان أعْشاه فجعله لا يُبصر، وربما أصابَه بالعمى، ألَم تسْمع قولَ الله تعالى: {**الله نورُ السماوات والأرض، مَثَلُ نورهِ كَمِشْكاة فيها مصباح، المصباحُ في زجُاجة، الزجاجَةُ كأنها كوكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ من شَجَرةٍ مُباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غَرْبيةٍ يكادُ زيُتها يُضيء ولو لم تَمْسَسْه نارٌ، نور على نورٍ يهدي اللهُ لنورهِ منْ يَشاء**} والزيتُ في الزَّجاجة نورٌ على نور وضوءٌ على ضوءٍ يتضاعفان، كلُّ هذا بالإضافة إلى جمالِ مَنظر القِنْديل، وهو أفضلُ من مَنْظَر المِسْرجَة من حجارَةٍ أو خزف.

قال مثنّى بنُ بَشير: وأبو عبد الله هذا كانَ من أطْيَبِ الخلق، وكان بخيلاً، ولكنَّ في بُخله مَلاحةً وظرافة، لكنه كان مُرائياً. فقد أُدْخِل على الأميرِ القائد طاهرِ بْن الحسين، وقد كان يَعْرفه عندما كان يتولّى خُراسان، فقال له طاهر: منذُ كَمْ أنْتَ مقيم في العراق يا أبا عبدِ الله؟ فقال: أنا في العراق منذُ عشرين سنة، وأنا أصومُ الدَّهرَ منذ أربعين سنة. فضحِك طاهر، وقال: سألناك عن مسألةٍ، فأجبْتَنا عن مسألتين.

ومن أعاجيبِ أهل مَرْوٍ ما سمعناهُ من مشايخِنا قديماً. فقد قالوا: إنَّ رجلاً تاجراً من أهْلِ مَرْوٍ، وكانَ إذا حلَّ بالعراق في حجٍّ أو سَفَر، نَزل ضيفاً على رجلٍ من أهلِ العراق، فيُكْرِمُه العراقيّ، ويقومُ بواجبِ ضيافته، فكان المَرْوَزِيّ يقولُ للعراقي: ليتني أراكَ في مَرْوٍ حتى أرُدَّ لَكَ بعَض جميلك عليَّ، وإحسانِك إليّ، وما تقدِّم لي من الإكرامِ في كلِّ مرَّةٍ أزوُرك فيها، أمّا هنا فقدْ أغناكَ اللهَ عنّي.

وبعدَ زمنٍ طويل، احْتاجَ العراقيُّ إلى السَّفرِ إلى مرو، فكانَ ممّا خَفّف عليهِ مشاقَّ السفر إلى بلادِ غريبة، أنَّ له صاحباً فيها هو ذلك المروزيُ الذي كان ينزلُ في ضيِافته. فلما وَصَلَ العراقيّ إلى مَروْ سألَ عن صاحبه فدلُّوه عليه، فمضى نحوَه في ثيابِ سفره، وفي عمامَتِهِ وقَلَنْسُوته وكِسائه ليحطَّ رحلَه عندَه، وينزلَ عليه ضيفاً، كما يصنع الرجل بمنْ يَثِقَ في حُسنِ استقباله. ورأى المَرْوزيَّ قاعداً بينَ أصحابه، فارتمى عليه معانقاً، فلمْ يَبدُرْ من المروزيِّ أنَّه عَرَفه، ولا استَقْبله استَقَبالَ منْ رآه قبلَ تلكَ الساعَة. قال العراقيّ في نفسه: لعلَّه أنكرني وما عَرَفني بسببِ قِناعِ السفَر، فرمى بقناعهِ، وعاد يسلِّمُ عليه، فلم يُبْدِ المروزيُّ معرفةً به. فقال: لعلَ هذا بسببِ العمامةِ التي تغطيّ رأسي، وما رآني مُتَعَمِّماً، فنزع العمامَةَ، ثم عاد يعرّفه بنفسه، فوجده أشدَّ مما كانَ له إنْكاراً، قال، لعلَّ القَلَنْسُوة غيّرت هيئتي، فتخلَّص منها، ولم يتغيرْ إنكارُ المروزيِّ له، وعَلِمَ المروزيَّ أنَّه لم يبقَ شيءٌ يمكنُ أن يدَّعيَه سبباً لتغافلُه وتجاهُلِه العراقيَّ، فقال: لا تُتْعِبْ نفسك، فلو خرَجْتَ من جلدِكَ لما عَرَفْتك.

وقيل إن جماعةً من أهل مَرْو أو خراسان ترافقوا وتزامَلُوا، فاتَّفقوا على أنْ يدفع كلٌّ واحدٍ منهم مالاً لشراءِ اللحم، فكانوا إذا اشْتروا اللحمَ قَسَموه قبلَ الطبخْ أقساماً متساوية، وأخَذ كلٌّ نصيبه، فشكَّه بخيط، ثم رماه في قدْرٍ مملوءٍ بالخَلِّ والتوابل، فإذا انْتهى طبخُه ونَضَج تناولَ كلٌّ خيطه وقد علَّمه بعلامة، ثم اقتَسموا المَرَق، ثم لا يزالُ أحدهم يسلُّ من الخيطِ القِطعةَ بعد القطعة، حتى لا يبقى شيء، ثم يَجمعون خيوطَهم، فإنْ عادوا إلى الاجْتماع، أعادُوا تلكَ الخيوط، لأنها تكونْ قد تشرَّبتِ الدسم، فقد رَوِيَتْ، كيلا يأتُوا بخيوطٍ جديدةٍ عطْشى وليس تعاونُهم وتَشارُكُهم من طريقِ الرَّغبةِ في المشاركة والمؤاكلة، ولكنْ لأنَّ نصيبَ كلِّ واحدٍ منهم منَ اللحم لا يبلغُ مقدارَ الذي يسْتحقُّ أن يُطبخَ وحده، ولأنَّ النفقة تخفُّ أيضاً في الحَطَب والخَلِّ والثُّومِ والتَّوابلِ، ولأن القِدْرَ الواحدةَ أفضلُ من أن يَطهُوَ كلٌّ واحدٍ منهم في قِدْر، وإنّما يختارُون السِّكْباجَ المُطهوَّ من الخَلِّ واللحم وبَعْضِ الزعفران، لأنَّه يبقى عَلى الأيام، ولا يَفْسَدُ بسُرعة.

وحدثني أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام قال: كان لي جارٌ من أهل خراسان، فقلتُ له ذاتَ يوم: أعِرْني مِقلاكُم، فإني أحتاجُ إليه. قال: قد كان عندنا مِقلى، ولكنه سُرِق. فاستعرْتُ مِقْلى من جارٍ آخر لي.

وما إن سمع الخُراسانيُّ نشيشَ اللحم، وشمَّ رائحةَ البصل والبيض وهو يُرمى في الدُّهن في المِقْلى، حتى جاءَني قائلاً كالمُغْضَب: ما في الأرضِ أعجبُ منك، لو كنتَ أخبرتني أنْك تريُد المقلى للّحم والدُّهْنِ والشَّحْم لتَطبخَ الطُّباهِج، لوجْدّتني أُسرِع به إليك، إنّما خشيتُك تريدُه للباقِلاء، وأنْت تعلم أن حديدَ المقلى يحْتَرق إذا لم يكنُ الذي يُقلى فيه مخالطاً الدَّسم، وكيف لا أعيرُكَ، لو أنني عَرَفْت أنك أرَدْتَ الطَّباهِج والمِقلى بعدَ الردّ من الطَّباهجِ، أحسنُ حالاً منه وهو في البيت.

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام: دعانا جارٌ لنا، فأَطعَمنا تمْراً وسمْناً ونحنُ على مِنْضَدة خشبية، ومعنا خُراسانيٌّ بين الآكلين، فرأيتُه يقطُر

السمْنَ على المنضدة، حتى أكثرَ من ذلك، فقلتُ لرجل إلى جانبي: ما بالُ أبي فلان يضيّع سمنَ القومِ ويسيءُ المؤاكلة، ويغرفُ غرْفاً مُفْرطاً لا يجوز؟

قال: ألا تعرفُ عِلَّته؟ قلتُ: لا والله. قال: المنضَدةُ منضدَتُه استعارها جارُنا الذي دعانا، فهو يريدُ أن يدسِّمَها بالسمْن حتى يكونَ لها كالدَّبْغِ للجِلدْ، وقد طلَّق امرأتَه - وهي أمُّ أولادِه - لأنَّه رآها غَسَلت منضدةً له بماءٍ حارٍ، أذاب الدُّهْنَ منها، فعادت غَيْر مَشبعَةٍ به، وقال لها: هلا مَسَحْتِها؟

وقال أبو نُواس الشاعر: كان معنا في سفينةٍ بين البصْرة وبغداد رجلٌ من أهل خُراسان، وكان - كما قِيَل عنه - منُ عقلائِهم وفُهَمائِهم، وكنت أراهُ يأكلُ وحَده، فقلتُ له: لِمَ تأكلُ وحدَك؟ أليسَ الأفضلُ أن تأكلَ مع جماعة؟ حتّى إن الطعامَ يبدو أطيب. قال: ليسَ عليَّ لومٌ في هذا، إنما اللومُ على من أَكلَ مع الجماعة، لأنّ ذلَك هو التكَلُّف. وأكلي وحدي هو الأصْل، وأكلي مع غيري زيادَةٌ في الأصل.

وثمة حكايةٌ تبيّن مدى بُخْل الخراسانيين، ومجادَلتِهم في هذا، ودفاعِهم عنه كما يدافعون عن المُعْتَقدات والأعْراض، وقد رواها لي إبراهيمُ بن السِّنْديّ، وهو من أسرةٍ خَدمت الدولَة منذُ أوّلِ عهدها، فقد تولّى أبُوه القضاء، وكان والياً على الشام، وإبراهيمُ رجلٌ لا نظيرَ له، وكانَ خطيباً، وكان عالِماً بالأنْساب، وكانَ فقيهاً، وكان عالِماً بعلمِ النَّحْوِ والعَرُوض، وحافِظاً للحديث، وشاعراً وراويةً للشعْر، وكان فَخْم الألْفاظِ، شريفَ المعاني، وكان طبيباً، ويعرِفُ علومَ الفَلَك، كما كان عالِماً بالدولة، وكان من رؤُوس عِلْم الكلام، أحفظَ الناس لما سَمِع، وأقلَّهم نوماً، وأصبَرُهم على السَّهر، قال إبراهيم:

كان في إحدى نواحي بغداد شيخٌ خراسانيٌّ يتولى أُمورَ المياه، وكان صالِحاً بعيداً عن الفَسَاد، ولا يقبلُ الرِّشْوة، ولا يحكُمُ بالهوى، وكان عالِماً يتقصّى العلمَ والحقيقة، وكذلك كانَ في غَلِّ يدهِ عن الإنْفاق، وفي بُخْله وتقتيرِه في نفقاتهِ، فلم يكن يأكلُ أو يشربُ إلا ما لابُدَّ منه للحياة.

وكانت له عادةٌ لا يُغيِّرها، وهي أنّه في صباحِ كلِّ جمعة يحملُ منديلاً فيه رغيفان غليظان، وقطعٌ من اللَّحْم المبرَّد، بعد أن يُطْبَخَ بالخلّ، وقطعٌ من الجُبْن، وبعضُ حبّاتِ الزيتون، وصرةٌ فيها ملح، وأخْرى فيها أُشنان ليغسلَ بهِ يدَه ومنديلَه، ويحملُ معَه أربعَ بيْضاتٍ لابدَّ منها، وبعضَ عيدان الخِلَّة لأسنانهِ بعد الطعام.

ويمضي وحدَه حتى يدخُلَ أحدَ البساتين، ثم ينتقي مَوْضِعاً تحتَ شجرةٍ وسط خضرةٍ إلى جوارِ ماءٍ جارٍ، فيجلسُ، ويبسُطُ المِنديل، ويأكل من هذا مرّة، ومن هذا مرّة، فإذا وَجَد القيِّمَ على ذلك البستان رَمى إليه بدرهَمٍ، ثم قال: اشْترِ لي بهذا، أو أعْطِني بهذا رُطَباً - إن كان في موسم الرُّطَب - أو عنَباً - إن كان في موسم العنب - ويقول له: إيّاك إيّاك أن تجامِلَني، ولكن انْتَقِ لي من أجودِ ما لديك، فإنّه إن لم يكن كذلك لم آكُلْه، ولم أعُدْ إليك، ولا تخدَعْني في الثمن، ولا تُنْقِصني فيما تأتي به إليّ. فإن أتاه به أكل كلَّ شيء معَه، وكلَّ شيء أتى به، ثم خلَّلَ أسنانَه بالخِلال، وغسلَ يديه بالأُشنان، ثم تَمَشّى مقدارَ مائةِ خُطوة، ثم يضعُ جنْبَه، فينامُ إلى وقتِ صلاةِ الجمعة، ثم يستيقظُ فيتوضأ، ويمضي إلى المسجد، وكان هذا دأبَه كلَّ جمعة.

قال إبراهيم: وبينما هو على تلك الحال في يوم من أيامهِ، مَرّ به رجلٌ فسلَّم، فردَّ الخُراسانيُّ السلام، ثم قال: هَلُمَّ عافاكَ الله. فلما رأىَ الرجل قد انْثنى راجعاً، يريدُ أنْ يقفِزَ فوقَ الجدولِ أو يَعبُر النُّهَيْر، قال له: مكانَك، فإنَّ العجلةَ من عَمل الشيطان. فوقف الرجل، فقال الخُراسانيّ: إلى أين؟ وماذا تريد؟ قال: أريد أن أتغدّى. قال: ولِمَ ذاك؟ وكيف طمِعْت في هذا؟ ومن أباحَ لكَ مالي؟ قال الرجل متعجّباً: أوليس قد دَعَوْتني؟ قال: ويلَـــك، لو ظنَنْتُكَ أحمقَ هكذا، ما رَددْت عليكَ السلام، الأحْسَن فيما نحنُ فيه، إذا كُنتُ أنا جالِساً وأنت مارّاً، أن تبدأَ أنْتَ فتُسلِّم، فأقولُ أنا حينئذٍ مُجيباً لكَ: وعليكمُ السلام، فإنْ كنتُ لا آكلُ شيئاً، سكتُّ أنا وسكتَّ أنت، ومضيتَ أنْت، وقعدتُ أنا على حالي، وإن كنتُ آكُلُ فهاهنا وجْهٌ آخر، وهو أن أبدأ أنا فأقول: هَلُمَّ، وتجيبُ

أنت فتقول: هنيئاً، فيكونُ كلامٌ بكلام، فأمّا كلامٌ بِفَعال، وقولٌ بأكل، فهذا ليس من الإنْصاف، ولا أحدَ يقبلُ الظلْم، وهذا يسبِّب لنا خسارةً كبيرة. قال إبراهيم: فبُهِت الرجل، فقد سمع ما لم يكُن في حِسابِه، ولم يسمَعْه من قبل.

واشتُهر بذلك في تلك الناحية، بعد أن شاعتِ الحكاية، فقيل له: قد أعفيناكَ من السلام ومن تَكَلُّف الردِّ. قال: ما بي إلى إعفائِكم حاجة، إنما هو أن أُعفي أنا نفسي من «هَلُمَّ» فيكونَ الأمر قد استقام.

وقد كان محمد بن يسير الرِّياشيّ من أصحابِنا ومن شعراءِ البصرة، بقي فيها طيلةَ حياته، ولم يغادِرْها إلى مكانٍ قط، وإنما أَخمل ذكرَه أنه لم يكُنْ يمدحُ أحداً، فلم يُشْتَهَرْ بين الشعراء، وإنما كان رجُلاً وادعَ النفْس، لا يذهَبُ به الطُّموح، ولا يستبدّ به القَلق، وكان مأخوذاً بالنَّزعة العلمية في البصرة لا يريدُ شيئاً سوى المعرفةِ والكُتب، يفزعُ إليها حين يضيقُ بالناسِ والحياة فلم يكن يّتخذُ المعرفةَ وسيلَّةً إلى عَرَضٍ من أعراض الدنيا، لكنّه كان معدوداً بين بُخلاء البصرة. وقد حّدثني محمد بنُ يَسير عن والٍ كانَ في إحدى ولايات فارس، وقد يكون خالداً خو مَهْرَوِيه، فقال:

بينما هو يوماً في مجلِسه، وهو مشغولٌ مع كاتبه بالحسابات، إذ دَخَل عليه شاعرٌ ومَثـــــَل بين يديه، وقال إنَّه أعدَ له شِعْراً، فاستنْشَده، فأنْشَده شعراً مَدَحه فيه ومَجَّده، وزاد في مَدْحه. فلما انْتَهى من إنْشادِ شعره، قال له الوالي: أحْسَنت. ثم أقبلَ على كاتبه فقال: أعطه عَشَرة آلافِ درهم. ففرحَ الشاعرُ فرحاً، كادَ معه يطيرُ لُبُّه، فلما رأى الوالي حالَه قال: إنّي أرى أن هذا القولَ وقَعَ منكَ مَوقعاً حسناً، أيّها الكاتب، اجْعَلها عشرين ألفَ درهم، فكاد الشاعر يخرُجُ من جِلْده، فلما رأى فَرَحه قد تضاعف قال: وإن فَرَحك ليتَضاعفُ على قَدْر تضاعُفِ القول، يا فلان، أعطِه أربعين ألفاً، فكادَ الفرح يقتله.

فلما رَجَعت إليه نفسُه، وهدأت خواطِرُه، قال للوالي: أَنت - جُعِلت فداك - رجلٌ كريم، وأنا أعلَمُ أنّك كلما رأيتَني ازْدَدت فرحاً زِدتني في الجائزة، وقبولُ هذا مِنك لا يكونُ إلا مْنِ قِلَّة الشكر. ثم دَعا له وخَرَج.

قال محمدْ بنُ يسير: فأقبل الكاتبُ على الوالي وقال: سُبحان الله! هذا كانَ يرضى منك بأربعين درهماً، فتأمُرَ له بأربعين ألفَ درهم؟ قال: وَيْلَــكَ وتريدُ أن تعطيَه شيئاً؟ قال الكاتب: وهل أستطيعُ أن أَعْصِي لَكَ أمراً؟ قال: يا أَحْمق، إنما هذا رجلٌ سرّنا بكلامٍ، وسَرَرْناه بكلام، تراه حين زعم أني أحْسَنُ من القمر، وأشجَعُ من الأسد، وأنَّ لساني أقْطعُ من السيف، وأن أمْري أنفذُ من سنان الرمح، جعل في يدي شيئاً من هذا، أرجُع به إلى بيتي؟ ألسنا نعلَمُ أنه قد كَذَب؟ ولكنّه سرنا حين كَذَب لنا، فنحنُ أيضاً نَسرُّه بالقول، ونأمُرُ له بالجوائز، وإن كان كَذِباً، فيكون كَذِبٌ بكذب، وقولٌ بقول. فأما أن يكونَ كذب بصدق، وقولُ بفعل، فهذا هو الخُسران المبين.

وثمة مثلٌ جرى على ألسنةِ العوامُ يقول: «ينظُرُ إليّ شَزْراً كأنني أكلت اثنين وأطعمته واحداً» وإنما هو لأهل مَرْو، فانظر كيف بحثوا في أمور الدنيا كلِّها، فلم يجدوا إلا هذا السبب.

قال محمد بن يسير وقالَ المروزيّ: لولا أنّني أبني مدينةً، لبنيتُ مَحْبساً لدابتي، فلا يَبني هذا ولا تلك.

وقال: وأحُدثك عن أحمد بن هشام وهو السريّ الغنيّ الذي كانَ يُظهِر ترفَه وأريحيَّتَه بمخالَطة الشعراء والمغنين، حتى كانت بينه وبين اسحق بن إبراهيم المِوصلي صداقةٌ تُرْفَعُ معها بينَهما الكلفة، حتى إنّ اسحق كان يعابثُه. فقد قلتُ له وهو يبني دارَه في بغداد: إذا أرادَ الله ذَهابَ مالِ رجل، سلَّط عليه الطينَ والماء. فقال: وما يصنعُ بذكرِ الطين والماء؟ إنّما إذا أراد الله ذَهابَ مالِ رجلٍ، جَعله يرجُو التعويضَ بأكثر. لا والله ما أهْلكَ الناسَ، ولا أفْقَر بيوتَهم، ولا ترك دُورهَم خراباً، إلا الإيمانُ بالتعويض، وما رأيتُ حِصْناً قطُّ أوقى للمرَء من اليأس.

قال: وسمع رجلٌ من أهل مرْوِ الحسنَ البصريّ وهو يحثّ الناس على المعروف، ويأمرُ بالصدقة، ويقول: ما نقص مالٌ قطُّ من زكاة، ويَعِدهم سرعة الخَلَف، والتعويضَ بأحسن، فتصدَّق المروزيُّ بمالِه كلِّه، فافتقر، فانتظر سنةً بعد سنة، فلما لم يرَ شيئاً ذهبَ إلى الحسن، فقال: ما صنعتَ بي؟ ضمِنْت لي

التعويض، فأنْفقْتُ مالي بناءً على وَعْدك، وأنا اليومَ منذ سنين أنتظِرُ ما وعدتني، ولا أرى منه قليلاً ولا كثيراً، أيَحِلّ لك أنْ تفعلَ هذا بي؟ إن اللِصَّ أرحمُ، فهو يترك لي شيئاً.

والبَركةُ والتعويض قد يكونان مُعجَّليْن أو مؤجَّليَنْ، ومن تصدّق واشترطَ الشروطَ استحقَّ الحِرمان، ولو كان الأمرُ كما توّهمه المروزيُّ طمعاً، لكانت المحنةُ فيه ساقِطةً عن الناس، ولَتركَ الناسُ التّجارة، ولما بَقي فقير، ولَذَهبتْ العِبادة.

وقال أبو سعيد سَجّادة وهو من الذين ابتُلوا في محنةِ خَلْق القرآن أيّام المأمون:

كان بعضُ أهلِ مَرْوٍ إذا لَبِسُوا الخِفافَ في الستّة الأشهر التي لا ينزِعونها فيها أيّام البرد، يمشي واحدُهم على صدرِ قَدميْه ثلاثّةَ أشهر، فلا يلامِسُ كعبُه الأرض، وعلى عَقبِ رجليه ثلاثةَ أشهر، فلا يلامسُ رأسُ قدمِه الأرض، كأنهم لمَ يلْبَسُوا الخِفافَ إلا ثلاثةَ أشهر، مخافةَ أنْ تأكُلَ الأرضُ من نَعْلِ الخُفّ فيرِقُّ، أو قد ينثقب.

وحكى أبو إسحاق إبراهيم بن سيَّار النظّام عن جارِه المروزيّ الذي كانت له معه حكايةُ المِقلى، فقال: لم يكن يلبَسُ خُفّاً ولا نعْلاً إلى أن ينقضيَ موسمُ النبْق، فلا تبقى أيُّ نواةٍ في الطريق والأسواق، وكان يقول: إن نواةَ النَّبْق قد تخرُقُ الخُفَّ أو النَّعل، وفي هذا خسارةً كبيرة.

وقال: رآني مرةً أمصُّ قصبَ السكَّر، فجمعتُ ما بقي من العيدان بعد أن مصصْتَ ماءَها لأرْميَ به، فقال المروزيّ: إن كنتَ ليس في بيتك تَنّورٌ تَتَّخذُ من هذه العيدانِ الممصوصةِ وقوداً لها، وليس لك عِيالٌ تسعى إلى تأمينِ نَفَقتِهم، فَهَبْه لمنْ يكدُّ في سبيل قوتِ العِيال، ليستفيد مَنْه في التنّور. وإيَّاك أن تعوِّد نفسَك هذه العادة في أيام خِفّة حمْلك، وتعلَّم أن تستفيد بكلّ شيء، فإنّك لا تدري متى يكثُرُ عيالُك، وتزدادُ نفقاتُك، ويثقُل الحِمْلُ على ظهرِك.

* * *

المسجديون يعلّمون البخل ويتعلمونه

وقد عُرِفَ جماعةٌ من الناس في البصرة بالمسجديين، وهم قومٌ اتّخذُوا المسجدَ منتدى لهم، وكانوا يُمضون جُلَّ وقتِهم فيه، ولم يكونوا من صِنْف واحد، بل كانوا خليطاً من الناس، فمنهم الشعراءُ، ومنهم الرُّواةُ، ومنهم مُصْطنعو الحِكمة، وقد كانَ المسجدُ يزخَرُ بالعُلومِ كلّها، فكانوا يسْتطْرِفون من هذه العلوم. ولم يكونوا يُغرقون أنفسَهم في علمٍ أو فن، بل كانوا يُصيبون من هذا وذاك، يتحدّثون أحاديث شتّى، ويتجاذَبُون أطرافَ الرأي في مختلفِ المسائل، وقد كان لهم أثرٌ غيرُ قليل، فقد صحبهم أبُو نواس الشاعرُ زمناً، وكنت أجلسُ إليهم، وقد حدّثنا أصحابُنا من المسجديين حديثاً ماتِعاً عن بعضِ البخلاء، فقالوا:

كانَ في المسجد نفرٌ من هؤلاء، ممّن يتَّخِذون الاقتصادَ في النفقةِ وتكثيرَ المال مذهباً في الحياة، وقد كانَ هذا المذَهبُ عندَهم كالنَّسبِ الذي يجمعُ الناسَ على المودَّةِ والتحابُب، وكالحِلف الذي يجمعُ الناسَ على أن ينصرَ بعضُهم بعضاً. وكانوا إذا التقوا في المسجد، تذاكروا هذا البابَ وتطارُحوه وتدارسُوه، كما يتذاكرُ أصحابُ كلِّ علم علمَهم ويتطارحُونه ويتدارسُونه التماساً للفائدة من تبادُل الآراء، واستمتاعاً بذكْرِ أحاديثِ هذا الباب الذي لا يطربُون لسواه.

وقد التقوا في المسجد يوماً، فقال شيخ منهم:

ماءُ بئرنا - كما تعلمون - مالحٌ يَلْذَعُ الفمَ بمرارته وملوحتِه، لا يقربُه الحمار، ولا تستسيغُه الإبل، ولا نفعَ منْه حتى لِسقايَةِ النخل، فإنه يموتُ إن

رويْناه به، والنهرُ بعيد عنا، وفي إحضارِ الماء العذب إلى الدارِ نَفَقة، فكنا نمزْجُ ماءَ البئر بالماءِ العذب ونسقي منه الحمار، فَمَرِض بسبب هذا، وفَسَد علينا حمارُنا، وخَسِرنا أكثر مما اقتصدنا، فصرنا نسقيه الماءَ العذب صرْفاً دون أن نمزُجَه، كما نشربُ والله، وكنتُ أنا وامرأتي نغتسلُ بالماءِ العَذْب، مخافةً أن يُصيبَ جلودَنا من الماءِ المالحِ ما أصابَ جوفَ الحمار، فكان ذلك الماءُ العذبْ الصافي يذهبُ هدْراً.

ثم ألهمني الله رأياً، وفتح لي باباً مِن الإصلاح، فَعمِدت إلى مكانِ الوُضوء والاغْتسال، فَحفرتُ في ناحيةٍ منه حفرة كبيرة، وطيَّنْتها بأحسنِ الطين، وملَّسْتُها، حتى صارت كأنّها صخرةٌ منقورة، وصوَّبْت نحوها مسيلَ الماء، فنحنُ الآن إذا اغتسلْنا، تجمَّع الماء فيها صافياً لم يخالِطْه شيء، والحمارُ لا يتقززُ وينفرُ من ماءِ غُسْل الجنَابة، ولا حَرَجَ علينا في أن نسقيَه منه، وما علمنا أن كتاباً حَرّمه، ولا سُنَّةٌ نهتْ عنه، فَربْحنا ماءَنا، واستعملناه مرتين، واقتصدْنا في نفقاتنا.

فقال القوم: هذا بتوفيق من الله ومِنَّة.

وأقبلَ عليهم شيخٌ منهم فقال:

لقد قصَّرنا في حقّ اختِنا مريمِ الصنَّاع.

قالوا: وكيف كانَ هذا؟

قال: أما سمعتم بموتِها؟ لقد كانت امرأةً مقْتصدةً وصاحبةَ إصلاح. قالوا: فحدِّثنا عنها عافاك الله، لَعلّنا نستفيد. قال: حكاياتُها كثيرة، وحديثها يَطول، ولكنّي أخبرُكم بواحدةٍ من حكاياتِها، ففيها الكفاية:

زوَّجت مريمُ ابنتَها إلى أحدِ أقربائها، وهي بنتُ اثنتي عَشرةَ سنة، فزيَّنَتْها بِحُليٍّ الذهبِ والفِضّة، وكَسَتْها من نسيجِ مَرْوٍ المُوَشّى، ومنَ الحريرِ الخالص وما خالط الحريرَ فيه الصوف، ونشرت الثيابَ المُوشّاة المعصْفَرة، ودقّتْ الطِّيب، ورشَّت المسكَ والعنبر، فعظَّمَتْ أمَر ابْنتِها في عينِ زوجِها ورفعتْ من قدْرِها عنَد أهله. وانتهى العرسُ ومريم في أحسنِ حال، فقال لها

زوجُها: أخبريني يا مريم، من أينَ لك هذا كلُّه؟ قالت: هو رِزْقٌ من عنْد الله. قال: لا تتهرّبي بذكْرِ الله من الجواب، وهاتي التفْسير، واللهِ ما كنُتِ من أصحابِ المالِ قديماً، وما أعلمُ أنَّك ورِثت المالَ حديثاً، وما أنتِ بخائنةٍ في نفسِك، ولا في مالِ زوجك، إلا أن تكوني قد وَجْدتِ كنزاً ولم تُعلميني. وكيفما كانَ الأمْر فإنّني شاكرٌ لك، فقد حَمَلْت عني حِمْلاً ثقيلاً كان سيَنْقُض ظهري، وكَفَيْتِني أمرَ هذه النائبة التي حلّت بي بزَواجِ البنت، ولكنني أُريد أن أعرفَ من أين أتيتِ بهذا كلِّه؟

قالت: اعْلَمْ أنني بدأت تدبيرَ هذا منذُ ولَدْتُها، وعندما كنتُ أوفّر من دقيق كلِّ عجنة مقدارَ حَفنة، ونحنُ كما تعلم نخبزُ في كل يومٍ مرة، فإذا صارَ عندي رطلٌ من الطحين بِعْتُه، وجمعتُ الدرهَم فوقَ الدرهم. قال زوجها: يالك من امرأة حكيمة، وثبَّت الله عليك حُسْنَ الرأي والتدبير، وأنا رجلٌ محظوظ أسعدني الله بأنْ كنتِ في بيتي، وإني لأرجو اللهَ أن يكونَ أولادُك من رأيكِ السديد، وعلى مذهبكِ المحمود، وما فَرَحي بما فعلت اليوم بأشدَّ من فَرحي بما يثبِّت اللُه بكِ في أولادي من هذه الطريقةِ المثلى في العيش.

قالوا: ومتى جَنازَتُها؟ قال: الآن. فنهض القُوم بأجمعِهم إلى جَنازتِها، وصلّوا عليها، ودعُوا لها بالرحمةِ والمغفرة مُخلصين، ثم ذهبُوا إلى زوجِها، فعزّوه على مصيبتِه وشاركُوه في حزنِه.

وما إن جلسوا حتى اندفع شيخ منهم فقال:

يا قوم، لا تحقِرُوا الأمور، فإن الصغير أوَّلُ كلِّ كبير، ومتى شاءَ اللهُ أن يعظِّم صغيراً عظَّمه، وأن يكثِّر قليلاً كثَّره، وهذه أُختُنا مريم الصنّاع، رحمها لله، ضَربَت المثلَ الحسن. وهل كُنِزت الأموالُ حتى امتلأت بها الخزائنُ إلا بوضع الدْرهَمِ على الدرهم؟ وصحيح أن القيراطَ لا يُساوي إلا نْصفَ دانِق، وأن الدانِقَ جزءٌ من اثني عَشَر جزءاً من الدرهم، لكن الدرهم والدينار ليسا إلا قيراطاً إلى جنْبِ قيراط، وهل كثبانُ الرمل غيرُ حباتٍ صغيرة تجمَّعت بعضُها بجانبِ بعض؟ وهل ماءُ البحر إلا نُقطةٌ أُضيفت إلى

نُقطة؟ وهل اجْتمعت أموالُ المُوسرين والأغنياءِ إلا بدِرْهم من هُنا، ودرهمٍ من هناك؟ وأعرفُ صاحباً لنا كانَ يطعم أهلَه مما يُرمى من الذبيحة كالكِرْش والأمعاء، وكلِّ حقيرٍ من الطعام، فصارَ يملكُ مائةَ مزرعة في أرضِ العرب، وكنتُ أراه يبيعُ الفُلفُلَ بقيراطٍ، والحِمِّصَ بقيراط، وأعلمُ أنه لم يربح إلا الحبَّةَ والحبتين، فكان يجمعُ ثمانياً وأربعين حبة لتصيرَ درهماً، ولكن لا تحقِرُوا هذا الربحَ البسيط، فقد ظلَّ يجمعُ الحبةَ والحبتين، والقيراطَ والقيراطين، والدّانِقَ والدانقين، حتى تصيرَ درهماً، ولم يزلْ يجمعُ الدرهم والدرهمين من هُهنا وهُناك حتى صَار معه ما اشترى به مائةَ مزرعة.

ثم قال:

اشتكيتُ ذات يَوم من سُعالٍ أصابني حتى صِرْت أحسُّ ألماً في صدري، فنصحني قومٌ بالفانيذ، فقلت: لأصنع الفانيذ لابد لي من سُكَّر ودقيقِ شعير، وهذان مقدورٌ عليهِما، ولكن من أين لي بالترنجبين وهو الطلُّ الذي يَسْقطُ في خُراسان وما وراءِ النهر؟ ثم نصحني آخرون بعصيدة من النِّشا والسُكّر ودهْنِ اللوْزِ وأشياءَ أخرى تشبهُها، فكدت أصيح: ويلاه، ومن أين لي أن أشتري هذا؟ واستثقلت نفقاتِ ما نصحوني به، وكَرِهْت كُلْفته، ودعوتُ الله أن يَشفيني ممّا ألمَّ بي، فهو وحْده الشافي، وظللْتُ أتحمّل السعالَ والألم. وذات يَوم قيّض الله لي أحدَ الموفَّقين ممّن زادهم علماً، وقال لي، إذ عَرَف حالي: عليك بماءِ النُّخالة، واشْرَبُه حاراً. وفعلتْ كما قال لي: وشربته، فإذا هو طيِّبُ المذاق جداً، وإذا هو يقْضي على الجُوع، فما اشتهيت الطعامَ في ذلك اليومِ إلى الظهر، ثم ما إن فرغْتُ من غدائي وغسل يدي، حتى اقترب العصر. فلما اقترب وقتُ غدائي من وقت عَشائي، صرفتُ النظَر عن العشاء، وعَرَفت ما يجبُ أن أفعل. فقلت لأم العيال: لم لا تطبُخين لعيالِنا في كلِّ صباح نُخالةً؟ إنّ في مائِها جلاءً للصدر، وقد رأيتِ كيف شُفيتُ من سُعالي بها، أمّا في المعدة فإنّه غِذاءٌ يُشبِعُ ويقطَعُ شهوةَ الطعام. ثم تُجَفِّفين بعد ذلك النُّخالة، فتعودُ كما كانت، فإذا اجتمَع لديكِ منها مقدارٌ تبيعينه كما كُنت تفعلين من قبل، ونكونُ قد

رَبِحنا في الحالين. فقالت: أرجو أن يكونَ الله قد جَمَع لك بهذا السؤالِ مصالحَ كثيرة، وقد قالُوا: رُبَّ ضارةٍ نافعة، وقال سبحانه {عسى أن تكرَهُوا شيئاً وهو خير لكم} وها قد قادَك السعال إلى معرفةِ منافعِ النُّخالة، ففيها صلاحُ بَدَنِك وزيادةُ معاشِك، وما أشكُّ أن تلكَ المشورة كانت توفيقاً من الله.

قال القوم مُصدِّقين: صدقت. مثلُ هذا يُكْتسَبُ بالرأي والمشورة، ولا يكونُ إلا سماويّاً.

واندفع شيخٌ منهم، فأخرج من جيبهِ حجراً وزناداً، وقال:

أتعلمون ما هذان؟ قالوا: أتسخر منا هداك الله؟ هذان حجرٌ وزنادٌ لكي يصيرا قَدّاحةً تُوري بها النار. قال: ألم تلحظُوا فيهما شيئاً؟ قالوا، وماذا سنلحظ؟ إنهما قَدَّاحة كغيرِهما. قال: لا، إنْهما مختلفان، فالحجرُ كما تَروْن تآكلت أطرافُه، وانْكَسَرت، واسْتَدارت، فَضَعُفَ، ولم يَعُدْ يقدحُ الشرر إذا ضُرِب بالزِّناد، أما الزِّناد فلاحظوا كيَف صار كالقوسِ لكثرةِ ما أكل الحجرُ منه.

قالوا: هذا صحيح، فماذا فعلت؟

قال: كنا نتعب في إشْعالِ النار، وقد يُفاجئنا المطر، وتساقُط الماء من السقْف، ولا نصبُِر حتى اشْتعال النار، وكنا نجدُ مشقَّة في الحُرّاق، فهو لا يشتَعِل بسهولةٍ وسُرعة، فكنتُ أشتري حجَر النار بمالٍ كثير، وقَدّاحة غليظةً بثمنٍ مُوجِع. والحُرّاق لا يكونُ من الخِرَق المصبوغة، ولا من الخِرَقِ الوَسِخة، ولا مِنَ الكتّان، ولا من الثيابِ البالية، فكنا نعالِجُ الحُرّاق بمَشَقَّة، ونتكلَّف في نَتْفِ الصوفِ والقُطنِ ليصَير عُطبة تلْتقط الشرر، ومع ذلك تُخْرِجُ رائحةً كريهة، فكنا نشْتري من السوقِ عُطباً جيدة بأغْلى الأثمان.

والتقيتُ منذ أيام صديقاً من الذين هداهُم الله إلى حُسْن التدبير، ووفَّـقهمُ إلى ما فيهِ الصلاح، وتذاكَرْنا ما نلقى من مشَقَّةٍ في الحُرّاق والقدّاحة، فقال لي: اسمعْ يا فلان، أتظنُّ أهلَ البادية والأعرابَ كان عندهم حجرُ النار والحُرّاق الذي تشتريه؟ قلت: هذا صحيح، ومع ذلك فإنهم يُشعلون النار، فبماذا يفعلون؟ قال:

إنهم يقدحون الشرارةَ في أغصانِ شجر المَرْخِ وشَجَر العَفَار. قلت: هداك الله، ومن أين لنا شجرُ المَرْخِ والعَفَار؟ أتدلُّني على شيءٍ أصعبَ ممّا أنا فيه؟ قال: بل أدلُّك على ما فيه صلاحُ معاشك. أليسَ في أرضكم نخْل؟ قلت: بلى. قال: ألا تقطِفونَ البلح والرُّطَب من عناقيدِها؟ قلت: بلى. قال: فماذا يَبقى؟ قلت: تبقى العراجين. قال: فعراجينُ أغداقِ النَخْل تُغنيكَ عن كلِّ هذا، وتشتَعِل بسرعة. وعلَّمني كيف نعالُجها لتكونَ صالحةً للاشْتِعَال، ونحن نأتي بها من أرضنا بلا كُلفة، فالخادمُ اليوم لا تقدَحُ النَار إلا بالعُرجُون.

قال الآخرون: لقد استفدْنا اليومَ من أحاديثنا فوائدَ كثيرة، ولهذا قال الأولون: مذاكرةُ الرِّجالِ تُفتِّح العقول.

واندفع شيْخ منهم فقال:

هذا كُلُّه لا يساوي شيئاً أمامَ تدبير مُعَاذةَ العنبريّة. فلم أرَ مثلهَا في وضع كلِّ شيءٍ في موضعه، وفي إعطاءِ كلِّ شيء حقَّه، واستعمالَ الأمثل له. قالوا: وما شأنُ مُعاذةَ هذه؟ قال:

أهدى إليها العامَ الفائت ابْنُ عمٍّ لها أضحيةً قبلَ العيد. ومَرَرت بها فرأيتُها كئيبةً حزينةً مطرِقةً، كمن ركِبتْه الهُموم: فقلت: مالَك يا مُعاذة؟ ألم تفرحي بالهديّة؟ قالت: بلى، ولكنّي امرأةٌ أرملة، وليس في الدار رجل يقومُ بشؤوننا، ولا خبرةَ لي بتدبيرِ لحم الأضاحي، ورَحِمَ الله الذين كانوا يُدبِّرونه، ويقومون بحقّه. وقد خِفتُ أن يضيَع بعضُ هذه الشاة، ولستُ أعرِفُ وضعَ جميعِ أجزائها في أماكِنها. وقد علمتُ أن اللَه لم يخلُقْ فيها، ولا في غيرِها شيئاً، لا منفعةَ فيه، ولكنَّ المرء يعجَزُ لا محالة، ولستُ أخافُ من تضييعِ القليل، إلا أنَّه يجرُّ تَضْييعَ الكثير، فتذاكرْ معي تدبيرَ هذه الأضحية، واسمع مني:

أما القَرْنُ فأمرُه معروف، وهو أن يُجْعلَ منه كالخُطّاف، ويُسمَّر في جِذعٍ من جُذوع السقْف، فَتُعلَّقَ عليه القِفَفُ والرُّحول، وكلُّ ما نخافُ عليه من الفأْر والنملِ والقِطَطِ والحيّات والخنافِس المسماةِ بناتَ وَرْدان وما إلى ذلك.

وأما المُصْران فإنَّه أصلحُ ما يكون لأوتارِ المِنْدَفة، ومِنْدَفَتُنا كادَت تبلى، ونحنُ بأمسِّ الحاجةِ إلى مِندفةٍ جديدة، فإذا توافر الوَتَرُ، فإنَ أمْر العود سهْل. وأما جُمجُمة الشاةِ وفَكّاها وسائِرُ العظام، فإنَّ سبيلَها أن تُعرّقَ جَيّداً، ثم تُكسَّرَ، ثم تُطْبخ، وتتركَ حتى تبرد. فما ارْتفعَ من الدسَم، كانتَ له منافعُ شتى، فجزءٌ منه لإدام بعضِ أنواع الطعام، وجزءٌ للعَصيدة يُرمى عليه شيءٌ من الدقيق والنِّشا والسكَّر، وما بقي يكونُ للمصباح، ولغير ذلك. ثم تؤخذُ تلكَ العظام فنجعلُها وقوداً فلم يرَ الناسُ وقوداً قَطُّ أحسنَ منه ناراً، وأصفى منْه لهباً، وإذا كانت كذلك، فهي أسرع في إنْضاج الطعام، لقلّة ما يخالطُها من الدُّخَان. وأما الإهابُ فالجِلدُ نفُسه جِراب، أو قد نصنعُ منه زِقاً للسمْن والعَسَل، وللصوف وجوهٌ لا تُعَدّ. وأما ما يتجمع مَن بعْر الشاة، وما في كِرْشِها ومُصرانِها من الفَرْثِ، فإنَّه يُجفَف، فهو وَقُودٌ عجيب، وأفضلُ من الحطب.

قلت: هاوَجَدْتِ لكل جزءٍ مَنْفعة، فلماذا الهمّ والحُزْن؟

قالت: بقي علينا الآن الانتفاعُ بالدم. وقد علمْتُ أن الله عزَّ وجل لم يُحرِّم الدمَ المسفوحَ إلا أن يكونَ طعاماً أو شراباً. وأنَّ له مواضعَ يجُوز فيها، ولا يُعَدُّ استعمالُه فيها حراماً، وإنْ أَنا لم أعرفْ تلكَ المواضع، لأَسْتعملَه فيها، وانتفعَ به، صار حُرقةً في قلبي كالكَيِّ، وأحْسسْت كأنَّ قذى في عيني يمنعُها من الإغماض، وظل الهمُّ يعتادُني حيناً بعد حين، لأنني لم أضع كلَّ شيءٍ موضعِه الحَسَن.

قال: فلم ألبث أن رأيْتها قد انْفرجت أساريرُها، وتهلَّل وجهُها، وتبسّمت، فقلت: ينبغي أن يكونَ قد خَطَر ببالِك رأيٌ سديدٌ للانْتفاعِ بالدمّ. قالت: أجَل، ذكرتُ أن عندي قدوراً جديدةً من صُنعِ الشام، وقد سَمِعْتُ أن مَن الحكمةِ تلطيخَها بالدمِ الحارِّ الدَّسِم، فهذا أدبغُ لها، وأَزْيَدُ في قوّتها. الحمد لله، لقد استرحتُ الآن، فلقد وَقَع كلُّ شيء موقِعَه، وَوُضِعَ كلُّ شيءٍ موضِعَ الانتفاعِ به.

قال الشيخ: ثم لَقِيتُ مُعاذَةَ بعد ستةِ أشهر، فقلُت لها: كيف كان لحمُ تلك الأضحيةِ وقَديدُها؟ قالت: بأبي أنت وعافاني وإيّاك الله، لم يَجِئْ وقتُ القديدِ بعدُ. إنَّ لنا في الشحْمِ والأُلْيَةِ وجُنوبِ الذبيحة، وما عَرّقناه من العظم، وما كَشَطناه عن الجِلد مَعَاشاً، ولكلِّ شيءٍ أَوان.

فقبضَ صاحبُ الحمار والماءِ العذب قَبْضة من حصى، ثم ضَرَب بها الأرض، وقال: لقد ظننا أنّنا أحْسَنّا التدبير، ولكنك لا تعلَمُ أنَّك من المُسْرفين، حتى تسمعَ بأخبارِ الصالحين.

* * *

قصة زبيدة بن حميد

وهذا زُبَيْدةُ بن حُمَيْد الصَّيْرفِيَّ تاجرُ الرقيق، كان له أكثرُ من مائةِ ألفِ دينار، ويعَملُ في خدمتهِ الغِلمان، وكان سريعَ التَأَثُّر بالخمر. وقد استَلفَ من بقّال كان على بابِ داره درهمين وقيراطاً، فلما ردَّها له بعَد ستةِ أشهر، أعطاه درهمين وثلاثَ حبات، والقيراط أربعُ حبات، فاغْتاظ البقّال، وقال: سبحانَ الله! أنت تملُك مائةَ ألفِ دينار، وأنا بقّال لا أملك مائةَ فِلْس، وإنَّما أعيش بِكَدّي، وبربح الحبَّةِ والحبتين.

أَأُسْديك معروفاً فيكونُ جزائي أن تُنْقصني؟ وقَفَ الجمّال والحمّال على بابِك، ولم تكن تحمِلُ مالاً في تلك اللحظة، وغابَ وكيلُك، فَدَفَعْت عنكَ درهمين وأربعَ حبات، وانتظرتك ستَّة أشهر، فتعطيني درهمين وثلاث حبات! قال زُبيدة: يا مجنون استلفتُ منْك في الصيف، ورَددْت لك في الشتاء، وثلاثُ حباتٍ شتوية نَديّة، أثقلُ من أربعِ حبات يابسةٍ صيفية، وما أشكُّ أنني إذا حاسَبْتك سيزيدُ لي معَك، ولكن! سامحك الله.

وقد كنتُ أتردد على منازِل بني رِبْعيّ، وصار ابنُهم أبو الإصبغ ذُؤيب صَديقاً لي، وهو هُذَليٌّ بَصْريٌّ من الظرفاء، وقد حدّثني مرة فقال:

دخلتُ على زبيدةَ بن حُميد ذاتَ يوم، فوجدتُه قد ضَرب غلمانَه وآذاهم، فقلتُ: ما هذا الضرْبُ المُبَرِّح، وهذا الخُلُق السيّء؟ هؤلاء غلمانٌ ولهم حرمة، وعليك كفايتهُم، وتربيتهم، وإنما همْ أولاد، لقد كان هؤلاء إلى غيرِ هذا أحْوج. قال: إنّك لا تدري ذنبَهم، ولو أنك دريته لما لُمْتَني على ضربِهم. لقد أكلوا كلَّ النباتات والأعشابِ التي أتيتُ بها لأصنَع منها أَدْوية، حتى قبل سحقِها أو

تقطيعِها أو تسخينها وطبخْهِا على النار، وقد أردت أن أصنع منها الهاضوم وغيره.

قال أبو الإصبْغ: فخرجتُ إلى رئيسِ غلْمانه، فقلت: ويلَك! مالَك ولهذهِ النباتات؟ وما رَغبَتُك فيها؟ ولو أنّك أكلتَ طعاماً لعَذْرتك.

قال: جُعلت فِداك! لا أستطيعُ أن أكلِّمَك إلا وأنا مَتكِّئ، فاعْذرني لأنني لا أقوم احتراماً لك وتوقيراً، وكلّ هذا من الجوع وبسببهِ. ماذا أصنع بأعشابِ الهاضوم؟ هو نفسُه ليس يشبع، ولا يحتاجُ إليها، ونحنُ الذين نسمعُ بالشبع سَمْعاً من أفواهِ الناس، ولم نعرفْه مرة، ما حاجَتُنا إلى أعشابِ الهاضوم؟

وكان يصرخُ على غلْمانه مغتاظاً: ويلكم! صَفُّوا الماءَ جيداً، وغطُّوه كي لا يتلوَّث، وَبرِّدوه، لأقدِّمه لُزّواري وأصحابي. فقال له صديقنا غازي أبو مجاهد: جُعلتِ فداك هّلا أمَرْتهم بتغطيةِ الخُبز وتكبيرهِ، قبلَ أن تأمُرَهم بالاعتناء بالماء، فإنَّ الطعام قبلَ الشراب.

وقال مرّة: يا غلام، هات خِوان الَّنرْد، وهو يريدُ تَخْتَ النَّرد. فقال له غازي: نحن إلى خوانِ الطعام أحوج.

وشرب زبيدةُ ليلةً حتى ثَمِل، فوهبَ صديقاً له كانَ معَه على الشرابِ كساِءه، فلما صار الكِساءُ على النديم خافَ عاقِبَة الأمور، وأدْرَكَ أن ذلَك من هفواتِ السُّكْر، وعلِم أنّ زُبيدةَ، متى صحا، سيبُدو له من الأمرِ رأي آخر، ويعودُ عن أُعطيته. فمضى من ساعته إلى منزله، فأعطاه لامرأته، فجعلتهُ جلْباباً. فلما أصبحَ زبيدةُ، سألَ عن الكِساء، وتفقَّده، فقال له رئيسُ غلمانه: أَنسيتَ أنك قد وَهَبْتَه فلاناً؟ فبعثَ إلى صديقه، فأتاه، فقال زبيدة: أما علمتَ أن هبَة السكران وبيعَه وشراءَه ويمينه وصدقــَته وطلاقَه لا يجُوز؟ وبعد هذا إنِّي أكرُه ألا يكونَ لي فضلٌ فيما فَعلت، ون يقولَ الناس إني ما فعلتُ إلا على سُكْر، فُردَّه إليّ الآن، حتى أهبَه لك صاحياً عن طِيبِ نَفْس، فإنّي أكُره أن يذهبَ شيءٌ من مالي باطلاً.

فلما وجده متغافلاً عما يَسْمع، أقبل عليه فقال: يا صاحبي! إنَّ الناس يمزَحُون ويلعبون ويضحكون، ولا يُؤاخَذُون بشيءٍ من ذلك، فرُدَّ عليّ الكساءَ عافاك الله. قال له الرجل: هذا والله ما خِفتُه يومَ أمس وتَوَقعْته، فلم أضع جنبي على الأرضِ حتى حوَّرْته فصارَ جِلباباً لامرأتي، وقد زِدْت في الكمين، وخِطتُ الفتحات حتى يكونَ ساتراً، وقصَّرتُ منه شيئاً كي يناسِبَ طولَها، فإن أردتَ بعد هذا كلِّه أن تأخذَه، فخُذه. فقال زبيدة: نعم آخذُه، لأنه كما يصلُح لامرأتِك يصلحُ لامرأتي. قال الرجل، فإنه ليسَ في بيتي، بل عند الصبّاغ، لأن لونَه لم يُعجب امرأتي. قال: فهاتهِ، وأدفعُ لك أَجْره. قال الرجل: لا أعلمُ إلى أي صبّاغ أخذته امْرأتي، ولو علمت لما أَعطانيه، لأنّني لستُ من سلّمه إليه.

فعلم زُبيدةُ أنه قد وقع، وأن لا فائدةَ تُرجى من الحديثِ لإعادةِ الكساء، وتنهَّد مهموماً، وقال: بأبي وأمي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، حيثُ يقول: جُمِعَ الشرُّ كلُّه في بيتٍ، وأغلِق عليه، فكان مفتاحُه السُّكْر.

*   *   *

قصة ليلى الناعطيّة

وأما ليلى النّاعِطِيَّة، وتُنسبُ إلى ناعِطْ، وهو حِصْنٌ في جَبَل في اليمن قديم، فإنها مازالت ترقَعُ قميصاً لها وتلبَسُه، حتى اخْتفى القَميصُ الأول، وصارَت الرِّقاعُ قميصاً. وكانَ لها كساءٌ لا تغيّره، فإذا انْخرق، أو تمزَّق تَرفُوه، حتى لم يعد يَظهر من الكساءِ الأولِ شيءٌ إلا الرَّفْوُ الذي رَفته ليلى.. وسمعت أحدهم يترنّم قائلاً:

البَسْ قَميصَك ما اهْتَـدْيتَ لجيبِـه فـإذا أضـلّكَ جيبُـه، فاسْـتبدلِ

فقالت: إني إذن لَجاهِلَةٌ حمقاء. صحيحَ أنني أرفو الفتْقَ وفتقَ الفَتْق، وأرْقع الخَرْقَ وخَرْق الخَرْق، ولكنني أستبْدل القميصَ، وما زال إلى جيبهِ سبيل؟.

* * *

البخيل عندما يرى ملك الموت

وكنا - أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام، وعمرُو بن نُهَيْوى وأنا - كثيراً ما نخرُج من المدينة، بعيداً عن زِحامِها وضجَّتها، فنتبادلُ الأفكارَ والآراء، ونتناظرُ في شيءٍ من الكلام. وذاتَ يوم خرجنا، فمررنا بمجْلس وَليد القُرَشِيِّ - وكانَ على طريقنا - فلما رآنا جاءَ ليتمشَى معنا. فلما جاوَزْنا حدودَ المدينة، جلسنا في فِناء سورِ بستانٍ له، وله ظلٌّ شديدُ السواد باردٌ ناعم، وذلك لِثُخْنِ الساتِر، واكتنازِ أجزائِه، ولبُعد مسقطِ الشمس من أصلِ حائِطه. وجرينا في ضُروب من الكلام، وطال بنا الحديث، فما شعرْنا بطول جُلوسنا إلا حين رأينا الشمسَ في كبدِ السماء، والنهارَ قد انتصف، وكنا في يومِ حرّ. فقُمنا نريدُ الرجوع، فلما انصب لهيُب الشمس على رؤُوسنا واشتدْ الحرّ، أيقنْت أنا سنُصاب بضربة شمس أو بالتهابٍ في رؤوسِنا أو صدورِنا. فقلت لأبي إسحاق وعمرو - والوليدُ إلى جنبي يسمع كلامي: البلدةُ بعيدةٌ منا، وبيوتُنا أبعد، وهذا يومٌ مُنْكَرٌ حَرُّه، وقد صِرنا في ساعةِ الظهِر حيث الشمس تذيبُ أي شيء، وأنا أرى أن نعرِّج على منزل وليد، فَنَقِيلَ فيه، ونأكلَ ما حضر. فإنه يوم يُستَحْسَن أن يُخَفِّف المرءُ فيه الطعام. فإذا مالت الشمسُ نحوَ المغيب، ومال الهواء إلى البرودة تفرَّقنا، كلٌّ إلى بيتهِ، وإلا فهو الموتُ صدقوني، ليس دُونَه شيء.

قال الوليد رافعاً صوتَه في غضب: أما على هذا الوجهِ وبهذه الصورة فلا يكونُ والله أبداً، فضع هذا في سُوَيْداءِ قلبك، وتذكَّرْه جيداً. فقلتُ له مُسْتغرباً: ما هذا الوجه الذي أنكَرْتَه علينا رحمك الله؟ وهل ههُنا إلا الحاجةُ والضرورة؟ قال: لقد قُلتَ ما قلتَ بطريقةٍ فيها هزْء مني. قلت: وكيف

استنبطت من كلامي هُزءاً منك؟ واسأل عمراً وأبا إسحاق، إنّ حياتنا الآنَ في يدِك، فلماذا أهْزأ منك وأنا أعْرفك؟

فازداد غضباً، وفارَقَنا مُحْنقاً، وأوسعَ الخُطى كأنّا ضربناه. نظر كل منّا إلى الآخَرَيْن متعجّباً، فلم أر من يجعلُ أمراً توّهمه حجةً في المنع إلا هو، ولا والله ما اعتذر إلينا مما أضرّنا بهِ إلى الساعة، ولم أرَ أحداً اتخذ حجةً لإظهارِ البخل مثلَه إلا ما كان من أبي مازنٍ مع جَبَل العَمِّيّ.

وكان جَبَل العَمّيّ المغنّي خرجَ ليلاً من دارٍ كان فيها، فخافَ العسس وهم يَطُوفون ليلاً، ولمَ يأْمَنْ مِن أحد يتبعُه فيَضُرَّه. فقال لنفسه: الأفضلُ لي أن أطرُق باب أبي مازن، فدارُه أقربُ الدورِ إليّ، فأبيتُ عنده في أي مِوضعٍ كان، أو حتّى في الدِّهْليز، ولا أكلِّفه شيئاً من واجب الضيف، حتى إذا كانَ الفجر، خرجت في أوائِل من يخرُجون إلى أعمالِهم في هذا الوقت.

فدقّ باب أبي مازن دَقَّ الطارق، فلم يُجِبْه أحد. ودقّ دقَّ واثقٍ من الردّ، فلم يخرج إليه أحد، ودقَّ دقَّ الصاحبِ الصديق، فلم يلْقَ جواباً، فأخذ دَقَّ الخائف المطارَد، وفي قلبه من الخوف ما يزيُد عن الكفاية، وفيه الثقةُ بأنَّه لن يكلفَ صاحَب البيت شيئاً. عند ذاك أيقن أبو مازن أن الطارِقَ صاحبُ هدية، فنزل إليه سريعاً.

فلما فَتَح الباب، ورأى جَبَل، وَجَم كأنه رأى ملك الموت. فلما رآه جبل صامِتاً كأنما أصابه البَكْمُ فجأةً، قال له: لقد خِفْتُ العسس والذين يَطوفُون في الدروب، وأن يَتْبعني أحدٌ ليضُرَّني، فجئتُ إليك لأبيتَ عندك. فتظاهر أبو مازن بأنه سكران، وأظْهر له أن صمتَه الحزينَ كان بسبَب السُّكْر. فأخذَ يتمايل، كأن مفاصِلَه مخلّعة، وأثْقل لسانه، وقال: سكران والله.. أنا والله سكران. فقال له جبل: كن ما تشاء، وكيفما تشاء. نحنُ في أيامِ ربيعٍ، لا شتاءَ ولا صيف، فالحرُّ ليس شديداً لأَصْعَد إلى السطح، فيُضَّطَر أَهْلُك إلى أن يتَدَّثروا بالأغطية، فيَغُمُّهم الحر، وليس ثمةَ برْدٌ لأجتاحَ إلى لِحاف، وأكلِّفك فراشاً وغطاءً ثقيلاً. وأنا كما تَرى ثَمِلٌ حتى السُّكْرِ من الشراب، شبعانُ حتى

التُّخْمة من الطعام، وقد كنتُ في منزِل فلان، ومنْه خرجت، وهو من أجْوَدِ الناس، وأكثرِهم إكْراماً للضيف، ومائِدَتُه من الموائِد العامرة، ولا أريدُ منك سوى أن أغْفو في دهليزِك إغفاءةً قصيرة، ثم أقومَ في الفَجْرِ مع أوائل المبكِّرين. فأرخى أبو مازن عينيه كأنه يُوشك أن يُغْمِضَهما، وفَكّيه، ولسانَه، فصارَ الكلام يخرجُ مُفَكّكاً، ثم قال: سكران، والله، أنا سكران، أينَ أنا؟ لا واللهِ ما أعْقِلُ أينَ أنا، ماذا تقول؟ لا والله ما أفهم ما تقول.

ثم دَخَل، وأغْلَقَ البابَ في وجهِ جَبل، وهو على قناعةٍ تامّة بأنه أوضَح عُذره في عدمِ استقبالِه، ويَغْبط نفسَه، لأنه فكَر تفكيراً سديداً بُسْرعة، حتى اهتدى إلى هذه الحيلة.

* * *

قصة أحمد بن خلف
الباحث عن الشهرة بالبخل

ومن أطيبِ البُخلاء قلباً، وأظرفهم مقالاً، صديقي أحمدُ بنُ خَلَف اليزيدي، وهو ممّن عَنيتهَم بقولي لكَ في مقدمة هذا الكتاب «ولربما سمَّينا الصاحب، إذا كان ممن يُمازَح بهذا كثيراً، ورأيناه يتظرَّفُ به، ويجعلُ ذلَك الظُّرْفَ سبيلاً إلى منْع عارِه».

مات أبوه، فترك في منزله ألْفَي ألفِ درهم، وستِّمائة ألفِ درهم، ومائةً وأربعين ألفَ دينار، فاقتسمها أحمدٌ وأخوه حاتم قبلَ دفنِ الأب، فأخذ أحمد وحدَه ألفَّ ألفٍ وثلاثَمائةِ ألفِ درهم، وسبعين ألفَ دينار، من الذهبِ الخالص الموزون الثقيلِ الجيّد، سوى ما ورث من العِقار والأراضي والضِّيَاع.

وجاءنا في اليوم التالي، فقلت له - وقد ورث هذا المالَ كلَّه -: ما الذي أبطأَك ليلةَ أمسِ عنّا؟ فقال: لا والله، إلا أني تعشَّيْتُ البارحة في البيت. فقلت لأصحابِنا: لولا أنه لم يأكل في بيتهِ منذ زمن، وأن ذلك غريبٌ عليه، لما احتاج إلى هذا الاستثْناء، وإلى تقديمِ هذا العذر. وأين يتعشى الناس إلا في منازِلهم؟ وإنما يقولُ الرجل إذا سُئِل هذا السؤال: لا والله، إلا أن فلاناً عَزَم عليّ، أو: لا والله، إلا أن أبا فلان حَلف ألا أخرجَ من بيته دُون عَشاء. فأمّا ما يُستثنى ويُشْتَرط، فهذا لا يكون إلا كما ذكرت لكم قبل قليل.

وكنا وحدنا مرة، فبادرني الحديثَ، من غير أن أُشاوِره، ومن غير أن يكون للحديث مناسبة، فقال:

عليك أن تتَّخذ المثلثَّة لعيالك في الشِّتاء. قلت: وما المثلثة؟ قال: ألا تعرفُها؟ إنها طبيخٌ كالحِساء من الحِنطة تُدقّ ثُلُثي الدقِّ الكامل من دون أن

تُسلَق، وتضيفُ إليها الماءَ والدهن، إنها كثيرةُ الفائدة عظيمةُ البَركَة، وهي تنوبُ عن الغَداء، وتملأ البطن وتنفخُه حتى تُغْني عن العَشاء، وكل حِساءٍ من الأحساء يروي، فيُغْني عن طلب النبيذ وشرْبِ الماء. ومن احتسى الحارَ عرِق، والعرقُ ينظِّف الجلدَ ويُخْرج ما في الجوف مما يضرّ، وهي تملأُ النفس وتقطعُ تشهّي الطعام. وهي أيضاً تُدْفئ، فإذا حسْوت عيالَكَ منها، قامت لكَ في أجوافِهم مقامَ جمرِ التدفئة مِنَ الخارج، وحَسْوُ المرقِ الحار، يُغني عن طلب الدفء من الوقود، وعن لِبس الكثير من الملابس. وأنت تعلُم أنّني أعني بالوقودِ النبيذ، وهو يْسوِّد كلَّ شيء ويجعلُه نتناً، كما أن النبيذَ سريعُ الهضم، ولعلْ صاحبه يتعرضُ لحريقٍ، فضلاً عن ذهابِ المالِ العظيم في ثمنه، وشرُّ ما فيه أنّ من تعوَّده، لم يدفِئه شيءٌ سواه. فعليك يا أبا عثمان بالمثلثة لك ولعيالك. واعلم أنها لا تكون إلا في منازلِ أهلِ العلمِ وأصحابِ المعرفة، فُخذْها من حكيمٍ مُجرِّب، ومن ناصحٍ لا يُريدُ لكَ إلا الخير.

وكان له أصحابٌ لا يفارِقُ منازلَهم إلا قليلاً. وكان أصحابُه هؤلاء من أهل الغنى، ويتبادلون الزيارات، وكانوا أصحابَ جُود وعَطاء، يحبون الترَفَ في كل أمر، وكانوا يُهيِّئون له أفضلَ مجلس، ويُدلِّلونه، ويتركون له أن يأمرَ بما يريد، ويفعلون كلَّ ما يجعلُ المجلسَ طيباً، ويقدمون كل ما يُسلّي، ولم يكونوا يشكُّون في أنه سيْدعَوهم ذات مرة، ردّاً لزياراتِه الكثيرةِ لهم في منازلهم، وأنَّهم سيجعلونَ زيارةَ بيتِه نُزهةً ونشوة.

ولكنه كان يتغافَلُ عنهم، ويتجاهلُ دعوتَهم، ولم تتحركْ نَخْوتُه. فلما طال ذلك، لَمَّحُوا إلى الأمر، فلما تغافَلَ عن التلميح، عَمَدُوا إلى التصريح، ولكنه لم يُقْدِم على ما أرادوا، فقالوا: اجْعَلْها دعوةً يتيمة ليس لها أُخْت. وكادوا يقولون: نريدُ أن نذوقَ طعامَك وشرابَك. وأَلَحَّوا عليه في الأمر، ولَجَّ في الامتناع وأمْعَن. فلما لم يجدْ مِنَ الأمر بُدّاً دعاهم، فلما قَصدوه، قَدَّم لهم طُعَيْماً خفيفاً شَهِيّاً مليحاً، لكنه يكادُ يكونُ بلا ثمن، ولم يُكَلِّفه كثيراً. فلما أكلُوا وغسَلوا أيديَهم، بادَرهم بالحديث، فقال: أسأَلُكم بالذي لا شيءَ أعظمُ منه، ربِّ

السماوات والأرض، هل أنا الآنَ أيسر وأغنى،أم قبلَ أن تأكلوا طعامي؟ قالوا: ما نشكُّ أنك - حين كان الطعام في مُلْكِك - كنتَ أغنى وأيسر. قال: فأنا الساعةَ أقربُ إلى الفقر، أم قبلَ ساعة؟ قالوا: بل أنت الآن أقربُ إلى الفقر. قال: فمنذا يلومُني على ترك دعوةِ قومٍ قرَّبْوني من الفقْر، وأبعدوني عن الغنى، وكلما أكْثَرْتُ من دعوتهم، كنتُ من الفقرِ أقربَ ومن الغنى أبعد؟ فهو على هذا القياس يَرى أن يهجُرَ كلَّ من استسقاه شَرْبَة ماء، أو تناولَ من بُستانه تينةً أو حبَّتي عِنب، أو أخذ من خليط العَلَف الذي يقدمه لدابتهِ عوداً.

ومرّ يوماً بسوق الغنم والماعز - وكنا في زَمان التوليد حيث تكثُرُ الخرافُ والجداء - فأطمَعَهُ الرُّخْص، وتحركت شهوتُه للطعام. فبعَث غلاماً له يقال له ثَقَفْ، ليشْتريَ له جَدْياً، ووقف غيرَ بعيد يرقُب ما يحدث. فلم يلبثْ الغلامُ أن رَجعَ يعدُو، كأنه هاربٌ من مُطارِد، وهو يشيرُ بيده، ويُومئ برأسه لسيّده، أَن: اذْهب ولا تَــقِف. فلم يبرح أحمد بن خلف مكانَه. فلما دنا منه الغلام، قال: ما لَكَ ويْلَك؟ تهرِّبني وكأني مطلوب؟ قال الغلام: هذا شيءٌ عجيب. الجدْي بعَشَرة دراهم. أأنت ممن يَصلُح لهم هذا ويَصلُحون له؟ مُرَّ الآن مرّ، وابتعد عن هنا. فإذا غُلامه يرى أنْ من الغرابة أن يُباع الجدْيُ بعشرة دراهم، ويسْتَكْثِرها، والجدي بعشرة دراهم يُنكَر عندنا في البصرة، لكثرة الخير، ورَخَص السِّعر، وأما في العشائر والأرياف، فإنما يَستغرب ذلك من يستغْربه لرِخَصه وقلّة ثمنه في ذلك الوقت من السنة.

ولا تقولوا الآن: قد أساءَ واللهِ أبو عثمان لصديقهِ، بل قولوا: ما تناوله بالسوءِ، حتى بدأَ بنفسه، ومن كانت هذه صفاته، وكان هذا مذهبَه في الحياة، لا يَلُومنَّ إلا نفسَه، إن تحدَّث الناسُ بحديثهِ. هذا واللهِ الفِعلُ القبيح، والعارُ الصّرِيح، وما هو إلا من البذاءَة والدناءة.

واعلموا أني لم أقصُد من هذه الأحاديثِ إلا أن اتفق معه، وأن أنال رضاهُ ومحبَّته. حتى لقد خِفْتُ أن يحسَبني الناسُ وهم يقرؤُون كلامي جاسوساً من جواسيسه، وأن يظنّوا أنه دفعني إلى هذا دَفْعاً، ولولا بُخله لقلت: وأن يظنّوا أنه يُعطيني أجراً. ذلك لأن أحبَّ الأصحابِ إلى قلبه، ومن كان بليغَ

القولِ فصيحَه في أن يزرعَ اليأسَ في قلوب الناس من مالِه، ويقطعَ أيَّ أملٍ عندهم في أن ينالُوا منه شيئاً. على أنّي إن أحسنتُ بجُهدي هذا، فإنه سيجعلُ شكري معلَّقاً: فإن جاوزَ كتابي هذا حدودَ العراق شكرني، وَعدّني من أخلصِ أصدقائهِ، وإلا لا شكرَ لي ولا حمداً. لأنَّ شهرته بهذا البخلِ القبيح في هذا الإقليم، أغنته عن أنْ يتحدَّثَ أحدٌ عن هذا الأمر. وكيف وهو يرى أن سهل بن هَارون وإسماعيلَ بن غزوان - وقد حدّثْتك عن بخلِهما - كانا في عداد المُسْرفين؟ وأن الثوريَّ والكِنْديَّ - وهما من أبخلِ مَنْ خلَق الله - يَسْتحقّان الحجْرَ عليهما، لأنّهما من المبذّرين؟ وقد بلغني أنه يردِّد دائماً: لتعرفوا مكانَة الملائكة عند ربِّهم، وكرامَتهم على الله، تذكّروا أنهم غيرُ مُبتلين بالنفَقَةِ والإنْفاق، ولا بقولِ العيال: هاتِ هاتِ، ولو لم تعرفوا من كرامتِهم إلا هذا، لكفى لتعرِفوا حالَهم ومنزلِتَهم.

* * *

طرائف البخلاء لا تنتهي

وحدثني صاحب لي فقال:

دخلت على فُلان بن فلان، في وقت طعام، وإذا المائدةُ لم تُرفع بعد، لكنّ القومَ كانوا قد أنهَوْا طعامهم، ورفَعُوا أيديهم. فدعاني إلى الطّعام، ومددتُ يدي لآكل، فبادرني بالقول: اقْضِ على الجرحى، ولا تقتربْ من الأصحاء. فأمرني بأن آكُلَ من الدَّجاجة التي نالَ القوُم منها، والفرخِ الذي نُزع منه الفَخِذ، فأما ما زال صحيحاً فلا أَقْــرَبُه، وكذلك الرغيفُ الذي قُسِم، وأكلَ القوم منه، أو أصابَه بْعض المرق.

وقال لي صاحبي:

أكلنا عند فلان هذا يوماً، وأبوه حاضِر، وابنٌ له يروُح ويَجيءُ بيننا، فدخل وخَرج مراراً ونحن نأكل، ولم ننْتبه إلى أنَّه يراقبنا. فصاح الصبي: كم تأكُلون لا أشبعَ الله بُطونَكم! فقال أبو فلان - وهو جدّ الصبيَ: ابني وَربِّ الكعبة.

وحدثني أحد أصحابِنا بباب الكَرْخَ، قال:

قال لي صاحبُ الحمّام: ألا أروي لك العجبَ من فعل صالح بنِ عفّان؟!

قلت: ماذا فعل؟ قال: كانَ يأتي قبيلَ الفجر، فيدخلُ الحمّام، فإذا رآني غِبتُ عن النُّورةِ التي تُستخدمُ لإزالة الشعر، أخذ منها فمسَحَ عانتَه وما جاوَرها، ثم يتسترُ بالمئْزر، ثم يدخُل بين الناس فيغسل مكانَ ما طَلى. ثم يأتي في مثل تلكِ الساعة في يومِ تالٍ، فيطلي ساقيه وبعضَ فخذيه، ثم يستترُ بالمئْزر ويجلس، وينتظر الغفلة ليغْسِلَ مكان المَسْح. ثم يعودُ في مثل ذلك

الوقت، فيمسحُ قطعةً أخرى من جَسِده. فلا يزالُ يَطْلي في كل سَحَرٍ، حتى ينظِّف جسمه كلَّه دون أن يدفعَ شيئاً. قال صاحبُ الحمّام: ولقد رأيتُه وقد تركَتْ النِّورةُ في سراويلهِ أثراً.

وحدثني أبو الجهجاه النوشَرْواني فقال:

حدثني أبو الأحوص الشاعر، قال: كنا نُفِطر عند الباسياني، فكان يرفع يديه عن الطعام قبْلنا، ثم يضطجعُ على فراشِه، ويقول: إنما نُطعِمكُم لوجهِ الله، لا نريد منكم جَزاءً ولا شُكوراً.

*   *   *

حديث خالد بن يزيد
المستحيل في جمع المال والبخل به

وهذا خالد بن يزيد مولى بني المهلب، وقد اشتُهر بينَ الناس باسم خَالَوَيْه المُكَدِّي، فكأنّ الناس ضنّوا عليه باسم عربي، ونسبُوه إلى التَّكْدية. والتَّكْدِية ليست سؤالَ الناس واستجداءَهم وحسب، بل هي طريقةُ حياةٍ متعددةُ الوجوه. ففيها الاحتيالُ للحُصول على المال بالوسائل والأساليبِ غير المشروعة، وكلِّ ما يخطرُ على البال. ومنها استخدامُ العُنف والقوة، دونَ أي رادع من مروءة أو نَخْوة، ومنها الاحتيالُ بكل وسيلةٍ للسلب، واللجوءِ إلى الغَلَبةِ للنهب، ومنها أيضاً استغفال الناس، بكلِّ ما يحرك الإحساس، وشعورَ الرحمةِ والرأفة، دون أي عزة أو أنفة.

وقد بلغ خالد بْنُ يزيد في التكدية درجةَ الرياسةِ والزعامة، وفي البُخل مبلغاً لم يبلغه أحد من قبلُ ولا مِن بَعد.

وكان خالد ينزلُ في حيّ بني تميم في البصرة، فلم يعرِفْه أحد، لأنهم لم يَروه بصورتهِ الحقيقية من قبل. وكان ذاتَ يوم في مجلس من مجالسهم. فوقف عليه سائلٌ مسكين يشحذ، فمدَّ يده إلى كيسهِ ليُخْرِج فـلْساً - وفلوسُ البصرة كبيرة - فغلط بدرهم من الدراهم الكبيرة التي يسمى واحدُها الدرهَم البَغْلي، ووضَعه في يد السائل، ثم فَطِنَ إلى غلطته، فاستردَّه من يده، وأخرج فلساً فأعطاه. فقالوا: ما نظنُّ هذا حلالاً، وهذا في الأصلِ أمرٌ قبيح. قال: قبيحٌ عند مَن؟ إني لم أجمع هذا المال بعقولِكم، وحَسَب أفكارِكم وآرائكم، ولستُ مُجْبَراً على أن أنفقَه حَسَب ما ترون، أتَروَن هذا المسكين؟ هذا من مساكين الفلوس، وليس من مساكين الدراهم. قالوا: أتَعْرِفه من قبل؟ قال: ولا رأيتُه عمري، ولكني أعرفه بالفِراسة.

قالوا: وهل تعرفُ المُكَدِّين؟ قال: وكيف لا أعرِفهم؟ وأنا كنت كاجَارَ في حداثةِ سنّي. ثم لم يبق في الأرض مَخطرانيّ ولا مُستعرِضٌ إلا تفوقت عليه. ولم يبق شحاذٌ ولا كاغانيّ ولا بانَوان ولا قَرَسيّ ولا عَوّاء ولا مَشَعِّب ولا فَلْوَر ولا مُزيديّ ولا إسْطِيل إلا كان تحت يدي، يأتمرُ بأمري.

لقد أكلت مُن خبز الصدقات ثلاثين سنة، وعشتُ كل هذه السنين على ما يأتيني من التكْدية. ولم يبقَ في الأرض كعْبي ولا مُكَدٍّ، إلا كانت لي عليه الرئاسة، حتى خضع لي إسحق قَتّال الحُرّ، وبَنْجويْه شعرِ الجمل، وعمرو القَوْقيل، وجعفرُ كردي كَلَك، وحَمّويه عينِ الفيل، وشهرام حمار أيوب، وسعدَويه زوجِ أمه.

وما أراد خالد بن يزيد بهذا إلا أن يدُبَّ اليأسُ في نفس كل من تسوِّلُ له نفسه الاقترابَ منه ومن مالهِ. وكان خالدٌ قاصاً متكلّماً بليغاً داهياً، وكان أبو سليمان الأعور وأبو سعيد المدائِنيّ وهما من أحسن من يروي القصص من غِلــْمانه.

وأما الألقابُ التي ذكرها خالد وهي أنواع المُكَدِّين وتكشِف حيلَهم فإنني أفسرها لك:

المخطرانيّ: هو الذي يأتيكَ في زيِّ ناسك، ويُريك أنه تعرَّض للعقابِ في بلادِ الكفّار، لأنه كانَ مؤذناً هناك، وأنهم استأصلُوا لسانَه من أصله، ثم يفتح فمَه كما يصنعُ من يتثاءب، وتنظر في فمه فلا ترى له لساناً البتّة، فتصدِّقه وتُعطيه.

المُسْتعرِض: وهو الذي تلقاه بهيئةٍ محترَمة، وفي ثيابٍ صالحة جيدة. يتحدثُ وكأنه سيذوب حياءً، ويتلفت حواليْه مخافَة أن يراه من يعرفه، ويعتَرضك في الطريق، ولا يكلِّمُك إلا خفِية.

والكاغانيّ: الذي يتجنن، ويدّعي الصَّرعَ، فيقعُ أرضاً، ويَخْرُج الَّزبَدُ من فمه، حتى لا يَشكّ من يراه في أنه مجنون لا دواءَ له، لِشدّة ما يُنزِلُ بنفسهِ

من ادِّعاء المرض، ويتعجَّبُ من بقاءِ مثلِه حيّاً على ما فيه من العِلّة والمرض.

والبانوان: الذي يقفُ على الباب، ويرجُّ القــُفل، ويقول: بانوا. وتفسير ذلك بالعربية: يا مولاتي.

والقَرَسيّ: الذي يَعْصِبُ ساقه وذرَاعه عَصْباً شديداً، ويشدُّهما شدّاً مُحْكماً، ويبيتُ على ذلك ليلة. فإذا تورَّمَ الساقُ والذِّراع، واختنق الدُم فيهما، مسحه بشيء من صابون ودَمِ الأخوين، وهو الصَّمْغُ الذي يأتون به من سُقَطْرى وقَطَر عليه شيئاً من السَّمْن، ثم لفّه بخِرْقة، وكشفَ جزءاً منه، فيبينُ متقرّحاً مُتآكلاً، يَنِزّ منه القَيحْ، فلا يشكُّ من يراه في أنه مصابٌ بالجرب، أو الحكّة الشديدة.

العَوّاء: الذي لا يسألُ الناس إلا بينَ المغربِ والعشاء، ويرفعُ صوتَه بالسؤال، وربما غنّى وحَسَّن صوتَه وأطَرب الناس، إن كانَ ذا صوت حَسَن، وحَنْجرة شجية.

والمُشَّعِب: الذي يهيئ الصبيّ حين ولادته ليَجعله ذا عاهةٍ تفيده في التكدية، بأن يعمِيَه، أو يجعَل يدَه مُعْوجّة بأن يُيَبِّس رُسغَها، أو يجعَلَها قصيرةً لا تنفعُه بشيء، لكي يأخذه أهلُه، ويشحذوا من الناسِ بعاهته.

وربما جاءَ بالولدِ أهلُه إلى المشعِّب ليتولى ذلك، ويأخذُ منهم مالاً كثيراً، لأن الولدَ سيصيرُ مصدَر رزقٍ وفيرٍ لهم. فإما أن يدورُوا به في الأسواق والأحياء تكسُّباً، أو يؤجّروه لمن يفعلُ ذلكَ بأجرٍ معلوم. وربما أجّروا أولادهم إلى من يسافرون إلى بلادٍ بعيدةٍ كأفريقيّة، فيشحذُون بهم طوال الطريقَ وفي هذه الحالة يأخْذُ الأهلُ أجراً عظيماً. فإن كانَ ثــقةً مليئاً أعطوه الولد، وأعطاهُم الأجرَ حين يعود، وإلا كانَ عليه أن يأتي بمن يكفُلُه ممّن يرضَوْن، بأن يعيدَ الأولادَ والأجرة.

الفَلْور: الذي يحتال لخصيته ليجعلَها منتفخةً، يتسربُ سائِلٌ في غِلافِها، ويَنِزّ منها، وربما أظهَر أن بها سَرطاناً أو دُمَّلاً أو تقرّحاً.

المُزِيدي: الذي يدورُ في الأسواق ومَعه بضعةُ دريهمات، ويقول: هذه دراهِمُ جمعتها لمساعدتي، فزيدوني فيها رحمكم الله. وربما حَمَل معه صبياً على أنه لقيطٌ يتيم، يريد أن يربِّيه، وربما أرادَ أن يجمع ثَمن كفنٍ لميت.

والإسطيل: هو المُتعالي، إن شاء أراك أنه قُلعت عيناه، فلا تَشُكّ في أنَّه لا يبصر، وإن شاءَ أراكَ أن في عينيه ماءً، وإن شاءَ أراك عينيه وكأنهما فُقئتا، وليس فيهما إلا بياضٌ، تمتد فيه عروقُ العينِ الحمراء وقد انتفخت.

الكَعْبي: من أتباعِ أُبَيّ بن كعب المَوْصليّ، وقد كانَ هذا رئيسَهم بعد خالويه المكدّي.

المُكدّيّ: صاحب الكِداء، أو الذي اتَّخذ التَّكْدِيةَ حرفة وسبيلَ عيش.

وهذا تفسيرُ ما ذكره خالدُ بن يزيد مولى المهالبة، وهو خَالويه المكدي. والمُكَدُّون أصنافٌ وأشكال وأنواع، وهم أضعافُ ما ذكرناه. ولم يكن يجوزُ أن نتكّلف شيئاً ليس من الكتاب في شيء.

فلما حضرت خالدَ بنَ يزيد الوفاة، قال لابنه:

إنّي قد تركتُ لك ما يكفيك في حياتك إن حَفِظْتَه، وما لن تأكلَ منه شيئاً إن ضَيَّعْتَه، ومع ذلك، فإنّ ما أَوْرَثْتُك مِنَ العادات الصالحِة، وما علّمتك من حُسْن التدبير وصوابِه، وما درَّبْتك عليه من طُرِق حياة الصالحين المقتصدين، خيرٌ لك من هذا المال. ولو أنني أعطيتُك آلة تحفظ مالَك بكل وسيلةٍ وطريقة، ثم لم يكنُ لك معينٌ من نفسِك على ذلك، ولم يكنْ لكَ ناصحٌ من ذاتِك، ولم يكن قلبُك يأمرُك به، لما انتفَعْتَ بشيء. بل ربّما صار هذا المنعُ والنَّهْيُ كلُّه إغراءً لك لإنْفاقِ المالِ في كلّ وجه، وكان تحريضاً لك على أن تُخالِفَ وصيتي.

لقد سافرْتُ في البر إلى آخر بُقعة يصلُها إنسان، وركبْتُ البحر إلى أقصى ما تبلغُه السُّفن، وطوَّفت في الآفاق، فخُذ منّي، وليس عليك ألا ترى ذا القرنين. ولا تلْتفت إلى ما قال عُبيد بنُ شَرْيَة الجُرْهمي الذي عَدُّوه من العلماء

ورواة الأخبار ومن يعرفون الأنسابَ من أهل الجاهلية، وذكَروه بين القدماء في الحكمة، وقالوا: إنَّه من الخطباء، بل قالُوا إنه من الرؤساء، فإنه لا يعرِفُ إلا ظاهرَ الأشياء، أما حقيقتُها فلا يعرِفُها إلا من كانَ مثلَ أبيك.

أسمْعْتَ بتميم بن أوس بن خارجة من بني عبدِ الدار؟ ذاك الذي حكى عنه الحكّاؤون أن الجِنَّ حَمله وأراهُ العوالِمَ المجهولة، وأراه الدَّجالَ والجسّاسَةَ التي تأتيه بالأخبار. وقالوا يوماً إنهَ ركِبَ البحر مع ثلاثين رجلاً، فلعب الموجُ بهم شهراً، حتى رسَت بهم السفينة على شاطئ جزيرة في البحر، فلما دخلوها رأوا الجسّاسَةَ في صورة دابّة كثيفةِ الشعْر حتى ما يُعَرفُ قُبُلُها من دُبُرِها لطولِ شعرها. أسمعت به؟ والله لو رآني تميم الدارِيّ لتعلّم مني ما لم يَرَ ولَمَ يعلم.

والله ما ضِعت أبداً، وما تهت عن طريق. وإني لأعرِفُ مسالِك الأرض ودروبَها وأوديتَها وشعِابَها. أيضربون المثل في الاهتداء بطائر القطا؟ والله إني لأهدى من القطا وأفُوقُها. وإني لأهدى من دُعَيْميص الرّمل الذي كان دليلاً داهيةً ، وإني لأعْرِف ما لا يعرف رافِعُ المِخَشّ الذي دلّ خالد بن الوليد وجيشَه على أقصرِ الطرق بين القادسيةِ واليرموك، حتى التقى أبا عبيدةَ بنَ الجرّاح وجيشَه.

وما خِفْت أرضاً قَفْراً قطّ، فلقد بِتُّ الليالي في أرض الغول وهو الجن الذي يتلون في ضروب من الصور والثياب، وقد ظهر لعلقمة بن صفوان، وهو جدّ مروان بن الحكم والد الخليفة عبد الملك بن مروان، فاقتتلا حتى قتل كل منهما الآخر. وظهرت لي واحدة من نساء الجن السَّعالي، وهي السِّعلاة، مغطاة بالشعر من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، فما نفرت منها، بل تزوجتها. ولما تراءى لي الشِّقُّ وهو جنس صورة الواحد منهم على نصف صورة الإنسان، له يد ورجل ونصف رأس ونصف جسد، لم يُخِفْني، بل اصطدته.

وكنت أسمع في الليل أصواتاً تأتيني، وباسمي تدعوني، فما هبتُها، بل جاوبتها، ورأيت النِّسناسَ بيد واحدة ورجل واحدة ينقز كما ينقز الطيْر، وجاوبت نداءه وكان لي رَئِيٌّ وهو جني إذا ألف الإسنان وتعطف عليه، صار يخبره الأخبار.

وعرفت خُدَعَ الكاهن وتدليسَ العرّاف، وما يقول أصحاب الأكتاف، وهؤلاء ينظرون في أكتاف الضأن، حيث يرسم شعاع الشمس خيوطاً وخطوطاً وأشكالاً يستدلون بها على أحوال العالم، أو أحوال إنسان بعينه. وعرفت التنجيم والزَّجْرَ والطُّرُقَ والفكر، وما يدعيه كهّان العرب وعَرّافوهم، وهو ليس من جنس العيافة والخطوط والنظر في أسرارِ الكفّ وفي مواضع قرْضِ الفأر، وفي النظر في الأكتاف، والقضاء بالنجوم.

وهلْ حَسبْتني جمعتُ هذا المالَ من قَصِّ القصص ورِواية الحكايات؟ أو منْ مكابدة الليلِ في السؤال؟ أو من التَّكْدية والتسولِ والاحتيال؟ إن هذا كلَّه قد يَجمع مالاً، لكنه ليسَ مثل هذا أبداً. ولا يُجْمَعُ مثلُ هذا المالِ إلا مِنْ تَحمُّلِ مشاقِ رُكوبِ البحر والسفرِ والتجارة، أو من عَمِلَ سُلْطانٍ أو والٍ أو أمير، أو مِنَ الكشْف عِن كيمياء تحويلِ المعادنِ الخسيسة إلى فِضّة وذهب.

قد عَرَفْت الرأس حقّ معرفته، أتدري ما الرأس؟ إنه رأسُ إنسانٍ في صُورة ٍعُطارِديّة، أخذُوه بالخِداع والحيلة، وهو قابِلٌ كلَّ شيء، وأقعدوه في الزيت مُدَّة طويلة، حتى استرخت مفاصلُه، وصارَت في حالٍ إذا جُذب رأسُه انْجذب من غيرِ ذَبْح، وتتردّدُ نفْسُ ذلك الإنسان من عُطارِد إلى هذا الرأس، وينطِقُ على لسانِه، فيخبرُ بما حدث، ويجيبُ عن أيِّ سؤال.

وعَرَفْت كَسْر الإكْسير على حقيقتِه، وعلمُ الكيمياء هو الصَّنْعة، وحدُّ الصَّنْعةِ العلمُ بالإكسير، والإكسيرُ هو الحجر الذي قد يُوجد في النبات، وقد يُوجَدُ في الحيوان، من حظي به فقد نالَ الثروَة والغنى، لأنه يُرمى على الرصاص والقصدير والنحاس، فيحيلُها ذهباً.

وإني لأعلَم أن صدرَك ضيّق عن فهمِ العلومِ والألغاز، وإنّي لأَخْشى أن يكونَ العلْمُ الذي ألقيه إليك سبباً في هلاكِك وتَلفِ نفسك، ولولا هذا لعلّمتُكَ الساعةَ العلمَ الذي بلغَ به الجاهَ والثروةَ قارون، وبِهِ تمكَّنتْ من العِزّ، وصارَتْ ملكةً خاتون.

وإني لا أقْدِرُ على ائْتمانِك على سرٍّ صديق، مخافَة أن تُفشيَه، لضيقِ صدرِك عنه، فكيف أقْدِرُ على أن ألقي إليك بعلمٍ لا يحتملُه عزمُ الرجالِ الأقوياء، ولا تتسعُ له صدورُ الحُلماء؟ وإنَّ كتْمَ سرِّ الحديث، وخزْنَ الكنوزِ والجواهر، أهونُ عند العارفين مِن خزْنِ العلم.

ولو أنني آمَنُكَ على نفسِك قبلَ الآخرين، ولو أنّني لا أَخشى أن يُؤذيكَ العلمُ أكثرَ مما يُؤذيكَ الجهل، لأجْريَت الأرواحَ في الأجسادِ أمام عينيك، إذا كنتَ لا تفهمُ العلم الذي أُلقيه بما أَصِفُه، ولا تُدركه بذكري له دون أن يكونَ مَحْسوساً. ولكني - إنْ أقامني الله من هذا المَرضَ، وعدتُ سليماً معافى - سألْقي عليك العلمَ الذي به تُدرِك كل شيء، وسأعلّمك كيف تَسبُك الرُّخامَ كما تسبُك المعادن، وسأعلّمك صَنْعة الفُسَيْفِساء، وأكشِفُ لك أسرارَ السُّيوف القَلْعيّة الآتية من الهِند، ومن قَلْعة عظيمةٍ فيها مَعْدِن الرَّصاصِ النقيّ، وفيها تُضرَب السيوفُ الهنديةُ العتيقة، وصناعتُها سرٌّ لا يُطلعون عليه أحداً. وسأطلِعُكَ على العقاقيرِ التي تعالجَ بها السيوفُ اليمانيّة، وكيف يصنَعون الزجَاجَ البِلَّوْريّ النقي، فصوصاً بيضاءَ شفافة، وسرُّه من أسرارِ الأحجارِ الكريمة. وصنعةَ التلطيفِ التي بها يُعالجون الأجساد، وقد انقسمَ فيه العلُماء قسمين، وإني لأعرفُ الطريقتين معاً.

ولستُ راضياً عما أنت عليه من الفطنةِ وحَزْمِ الرأي، وإن كنتُ أراك فوقَ من هم في سنّك. ولسُت أثِقُ بك الثقةَ كلها، وإن كنتَ تبدو أقربَ إلى الرجال العاقلين، منك إلى الفتيان الأغراء. وما ذاكَ إلاَّ لأني لم أمْتحِنْك كما ينبغي لي أن أفعل، فأنت عندي سيفٌ لم يُجرب في الوغى، وفأْسٌ لم تَقْطع الجذوع.

ولماذا لست أرضاك ولا أثق بك، وأنت تظنُّ نفسكَ وقد أدركتَ وعلمتَ وعَرَفْتَ واكْتَسَبْت ما يؤهِّلك لهذا؟ لأني خبرت صنوف الناس كلِّهم.. جالستُ الوُلاة والأمراء والسلاطين، وعِشتُ مع الشحاذين الفقراء المساكين. ومرّت علي أيامٌ كنتُ فيها صغيراً في خِدمة المحتالين. ولم أكنْ أكثرَ من تابع للمُكَدِّين، وأيامٌ كنت فيها في خِدْمَة الخلفاء والسادة والموسرين، وخالطت الزهّادَ العابدين النسّاك، وعشت مع اللصوص والعيَّارين والفُتّاك، ولم يبقَ سجنٌ إلا دخلْتُه، ولا مجلسُ علمٍ وذِكْر إلا حضرتُه، وخبرتُ الحياةَ بحُلوها ومُرِّها، وأصابتني صروفُ الدهر بخيرِها وشرِّها، وعرفت من الدَّهرِ الأعاجيب، حتى صرتُ لا يدهشني أي مُستَطْرف وغريب.

لقد دخلتُ إلى الرزْقِ من كل بابٍ رأيتُه يقودُ إليه، وجريْت مع كل ريحٍ تحملُني وتجعلُني قادراً عليه، وعَرَفْتُ أيام المَسرَّةِ والنعيم، وأيام الضرِّ والحُزن والهمّ المقيم، حتى كنزتُ كنوزاً من التجارِب، وصرت قادراً على تبيُّنِ عَواقبِ الأمور، فقرّبني هذا من إدراك الأمور الغوامض في حُسنِ التدبير. وإلا كيف أمكنني جمعُ ما أخلِّفه لك؟ وكيف استطعتُ بقدْر ما ظَلَلْتُ هذه السنين أَحْبِسُه عليك؟ ولستُ أفتَخِر بجمعه، بقدْر ما أفتخر بحفظه. إن هذا المالَ لم أَنَلْه إلا بالعقْلِ والحزمِ والدهاء، وقد حَفِظْته من فتنة البِناء، فلم أبْنِ بيوتاً وقصوراً، وقد قالوا: إذا أراد الله فناءَ مالِ امرئ سلّط عليه الطين. وحفظت لك هذا المال من فتْنة النساء، ومن فتنةِ الثَّناء، ومن فتنة الرياء، ومن أيدي الوكلاء، فإنهم الداءُ العَياء الذي لا طِبَّ له ولا دَواء، لم أتخذ الجواري ولا خالطت القِيان ولا أنفقت درهماً على نساءِ الحان. ولا أوْلَمت الولائم، لذوي العمائم، كيما يقالَ إنّني من الكرماء. ولا أردتُ أن يراني الناسُ إلا على حقيقتي، فما أصعبَ أن أفتَح ابْتغاءَ كَفِّ ألسنتِهم خزانتي، وما وكلت أحداً قطّ بمال، ولا أنفقتُ إلا على بيتي والعيال.

ولستُ أوصيك بحفظِ المال لفرْط حبّي لك، ولكن لِعظَم بُغضي ومَقتي للقضاة الموكلين على الأموال. إن الله سبحانه وتعالى لم يُسلِّط القضاةَ على

أموال الوارثين إلا عقوبة لهؤلاء الملاعين. لأنَّ الأبَ إن كان غنياً، أحبّ أن يُرِيَ ابنَه مقدارَ ثروتِه ومدى قُدرته، وإن كان فقيراً عاجزاً، أحب أن يستريَح من تربيتِه وتَحمُّلِ نفقتِه، وإن كان بيْنَ البينيْن أحبَّ أن يستريح من إلحاحه وخِلقتِه. والأولاد لم يشكروا آباءَهم الذين جمعوا لهم وكَفَوْهم وحصَّنوهم في وجهِ صُروف الدهر وأحسنوا غرسَهم ورعايَتهم، كما لم يصبِروا على الأب الذي أوجب الله حقَه عليهم. وما من عاقلٍ إلا ويعرِفُ أن عاجِلَ الحق المرارة، كما عاجِلُ الباطل الحلاوة، ولكن فيه سوءَ العاقبة والمنقَلَب. فإن كنت من هؤلاء كان القاضي لك بالمرصاد، ون لم تكن منهم كان الله جل ذكرُه لك مُعيناً وخيرَ عِماد.

إن سلكت سبيلي واتبعت نُصحي وإرشادي، نَمَا مالُك ورَبَا، وصار مالُ غيركَ عندَك وديعة، وصرتَ الحافِظَ على غيرِك. وإن خالفت نهْجي وما أقول، صار مالُك وديعةً عند غيرِك، وصار غيرُك الحافظَ عليك. فإن كنت تطمعُ أن تضيّعَ مالَك ويحفَظَه غيرُك، باءَ طمعُك بالخذلان وأملُك بالخيبة.

ياابْن الخبيثة، إنّك - وإن كنت أفضلَ من أبناء هذا الزمان - فَسَدت طباعُك باكتفائِك بما عندي، وزادَ في إفسادِك معرفتُك بكثرةِ ما أُخلِّف لك. والمصيبةُ الكبرى أنَّك بِكري وأكبرُ أولادي، وأنك آخرُ أولاد أُمِّك، ربّتك مدّللاً.

وما همّني أن يذهبَ مالي كلُّه، فلو فَنِيَ لجلستُ أرْوي للناس القصَص والحكاياتِ والنوادر، وما أكثرَ من يسمعُني ويُعطيني، أو عدت أطوِّفُ في الآفاق كما كنتُ من قبل مُكَدِّياً. وجهازُ الشُّغْلِ موجود. اللحية غزيرةٌ بيضاء، والصوْتُ قوي جَهيرٌ وفيه طَلاوة، والشَّكْلُ حسن، والناس يَقبلونني ويُقبلون عليّ. إن أردتُ استعطافَ الناس سالَ الدمع من عينيّ، والقليلُ من رحمة الناسِ خير من المال الكثير، وصرتُ محتالاً بالنهارِ، لصّاً في الليل. أو خرجت إلى الطرقاتِ أقطعُها وأنهبُ المسافرين، أوصرتُ لبعضِ اللصوص العيّارين جاسوساً أو كشّافاً.

وسَلْ عنّي صعاليك الجبل في هَمْدان، ولصوصَ الشام، والغَجَر في الحُصون ورؤوسَ الفَتْك في الأكراد، وقاطعي الطرق من الأعراب، وفُتّاكَ نهر «بطّ» في الأهواز، ولصوصَ القَفَص في كرمان الذين لم يكونوا يعرفون ديناً من الأديان، وسل عنّي لصوصَ قَيقْان في البلاد التي تلي خراسان. وسل عني قراصنةَ البحر على سِيف البحرين بين البصرةِ وعُمان، وسَلْ عنّي ذبّاحي الجزيرة:

كيف بطْشي حين يكون البطشُ واجباً وعليك حقّاً، وكيف احتيالي حين لا يكون سوى الحيلةِ مَرْكباً يُنجيك صِدْقاً، وكيف أنا إذا جالت الأفراسُ بالفرسان، وكيف يكونُ ثَبَاتُ الجِنان عند رؤية طليعةِ المقاتلين، وكيف يقظتي إذا كنتُ الكشّافَ والرائد، وكيف يكون كلامي موَّقعاً عند ذوي السّلطان إذا قُبض علي وأُخِذْت، وكيف صبري فوق صبْرِ الرجال إذا جُلِدْت، وكيف أجلِسُ ساكناً مرتاحاً إذا سُجِنت كأنّي في أحسن بيت، وكيف أحتمل القيدَ، وإن أُثْقِلت.

لقد سُجنت في سِجْن الحجاج بواسط وهو المسمى «الدِّيماس» فنقبته وفَرَرت، وحُبست في سِجْن المُطْبَق في بغداد، فخرجت منه إلى الفضاء طليقاً، وهل ظل حبسٌ ما دخلته؟

سَل عنّي كيف كنتُ في بلاد السند ومعي كردويه الأقطع، وكيف كنت في فتنةِ سرنديب، وسلْ عن وقائعي وأفعالي أيامَ حربِ المولتان. فإن شئتَ أن تعرف أبَاك فسلْ عنه الذين سُجنوا سجناً مؤبداً ثم فرّوا، والذين شُدَّ وثاقُهم فحلّوه، وانطلقوا إلى الجبال، وسلْ عنه البلالية الذين خرّبوا البصرة أيام ثورة الزنج، والخُرَّبية الذين لا ينتهون عن نهب ولا سرقة، وسلْ عنه بقية أصحاب رؤوسِ الفتّاك مثلِ صخر ومُصخِر وراسٍ ومِقْلاس.

«أنا أول من لقي أزْهرَ أبا النقم، وكان آخرُ من صادقني حَمْدويه أبو الأرطال. وأنا مجيبُ مَرْدَويه بن أبي فاطمة، وأنا خلعت بَني هانئ. وأنا أولُ

من شرِبَ الغربيَّ حارّاً والبُزَيْل بارداً، وأوَّلُ من شَرِب بالعراقِ بالكَبَرة، وجعل القَنْقَل قَرعة. وأولُ من ضرب الشاهسبرم[1] على ورق القرع، وأول من لَعِب باليَرمع في البدو، وأسْقط الدفّ من بين الدّفاف. وما كان النقاب إلا هدّاماً حتى نشأت، وما كان الاستقفاءْ إلا استلاباً حتى بلغت»[2].

وأنت مازِلْتَ غلاماً، يسبقُ لسانُك عقلَك، وقد قال الحكماء: إنَّ من علائمِ الضعْف أن يسبقَ اللسانُ التفكير، وليسَ عندك ذكاءُ التدبير وحزمُ الأمور. عشتَ حياتَك كلَّها في النعمة والسرّاء، لم تكتسْب الخبرة والعِبْرَة من الضيق والضرّاء، والمالُ وفير، وحبلُ العقل عندك قصير. ولا أخاف عليك شيئاً بقدْرِ ما أخاف حُسْنَ ظنِّك بالناس. لا تَثِق بأيّ منهم، واتّهم شِمالَك على يمينِك، وسَمْعَك على بَصَرِك، وكُنْ دائماً في خوفٍ من عبادِ الله، بقدر ما ترجُو العونَ من الله.

وسأضرب لك مثلاً. إن أوّل ما جعلني أوقن أن الله سيحفَظُ عليّ مالي، وأن هَذا المال سينمو ويربُو ويزيد، وأنْ الله سيحفظ عَقِبي من بعدي، أنّي ذاتَ يوم غلبتني شَهْوتي، فأخْرجت من كيسي درهماً لأطفئ به النارَ التي اشتعلتْ في جسدي، فوقَعَتْ عيني على ما سُكَّ عليه، فرأيت اسْمَ الله مكتوباً، فقلتُ في نفسي: إني إذاً لمن الخاسرين الضالين والعياذُ بالله إن أنا أخْرجت من يدي ومن كيسي ومن بيتي شيئاً كتب عليه «لا إله إلا الله» لآخُذ بَدَلَه شيئاً لم يُكْتب عليه شيء. والله إن المؤمنَ لَيَنْزِعُ الخاتَم مَن يده لأمرٍ يريُده، فيرى عليه «حسبي الله» أو «توكلت على الله» فيكادُ يظنُ أنه خرجَ من رحمة اللهِ جلَّ ذكره، حتى يَرُدَّ الخاتَمَ إلى موضعه، وإنما هو خاتمٌ واحد، وأنا أريد أن أخرجَ في كل يومٍ درهماً عليه «لا إله إلا الله» وهي الإسلام كلُّه. إن هذا لعظيم.

وماتَ خالد بن يزيد في يومِه ذاك، فكفّنه ابْنه ببعضِ خرَقه التي كانتْ عليه، وغسَّله بماء البئر المالح، ودفنه من غير أن يسوّي ضريحَه، أو أن يأتي بمن يَلْحَدُهُ، ثم رجع إلى بيته.

(١) الشاهسبرم: نوع من الريحان، والكلمة معروفة عند العرب فقد ذكرها الأعشى.

(٢) تركت هذه الأسطر على حالها كنموذج لوعورة اللغة.

فلما صار في المنزل، نظر حوله فرأى جرّة معلّقة. قال: ماذا في هذه الجرة؟ قالوا: ليس فيها اليومَ شيء. قال: وقبل اليوم، أيُّ شيءٍ كان فيها؟ قالوا سَمْن. قال: وما كان يصنَعُ به؟ قالوا: كنّا في الشتاء نلقي في القِدْر شيئاً من دقيقٍ نَعَملُه له، فكان ربَّما زينه بشيءٍ من السمن يرشُّه عليه. قال: يقولون ولا يفعلون. السمْنُ أخو العسل. وهل أَفْسَد الناسَ عُقولَهم وضيّعوا أموالهم إلا في السَمْن والعسل؟ والله، لولا أن للجرة ثمناً لما كَسَرْتها إلا على قَبْره.

قالوا: فتفوق في البخلِ على أبيه، وما كنا نظن أن فوقَ خَالويه مزيداً.

* * *

طُرَف شتّى

ما أبشع البخل والحماقة إذا اجتمعا

كان قومٌ على مائدة يحيى بنِ عبد الله بنِ خالد بنِ أمية بنِ عبد الله بنِ خالد بن أُسَيد، فرَفع رغيفاً من على الخِوان بيده، ثم وَضعه على كفّه كأنه يقدِّرُ وزنَه، ثم قال: يزعُم المشنِّعون عليّ أن أرغفةَ خبزي صغيرة، أيُّ ابنِ زانية يقدرُ أن يأكل مَن هذا الخبز رغيفين؟ فما جَرُؤَ أحدٌ على أن يقسِمَ رغيفاً آخر، وإلا كانت أمُّه زانية.

وكنت أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام، وقد حدثتك عنه من قبل، وأبو علي محمد بن المستنير، وهو المعروفُ باسم قُطرب النحويّ وهو من مفسري القرآن، ومن المعلمين، فقد كان معلماً لولد القائد المشهور أبي دُلَف، وأبو الفتح مؤدّبُ منصور بن زياد، على مائدةِ فلان بن فلان. والخِوان من حَجَرٍ مصقولٍ فيه خطوط، والآنيةُ من الغَضارِ الصينيّ الملمّع، أو من خشبِ شجرِ الخلَنْج مصنوعةٌ في كيماك على حُدود الصين، وألوانُ الطعام طيّبة شهية، وكلُّ رغيف في بياض الفضة، كأنه البدر، أو مرآة نظيفة مَجلّوة، ولكنَّ عددَ الأرغفة كان على قَدْرِ عددِ الرؤوس. فأكل كلُّ إنسانٍ رغيفَه إلا كسرةً صغيرة ولم يشبَع أحد ليرفَعوا أيديَهم عن الطعام، ولم يأْتِهم بأرغفة أخرى ليُتمّوا طعامَهم، وظلت الأيدي معلقة، والجميعُ في حيرة، ينقِّرون شيئاً من هنا وشيئاً من هناك.

فلما طال الموقف، أقبل الرجُل على أبي الفتح، وكان تحت القصعة رُقاقَةُ من عجين نَضَجت فصارَت كأنها رغيف، فقال: يا أبا الفتح، خذ ذلك الرغيف فقطِّعه واقْسِمْه على أصحابِنا. فتغافل أبو الفتح، ولم يَرُدْ عليه. ثم أعادَ عليه القول، فتغافل، وفي المرة الرابعة أعاد القول في شبه صياح: ما لك

وَيْلك لا تقطّعه بينهم؟ قطَع الله أوصالك. قال أبو الفتح: دع هذه الرّقاقَة تُبتلى على يد غيري أصلحك الله! فخجّلناه مرة، وضحكنا مرة، وما ضحك صاحبنا ولا خجل، ولا أتى بأرغفة أخرى.

وزرتُه أنا والمكيّ وهو من الظُّرفاء، وكان طيباً، ظريفَ القوْل، عجيبَ الحيل، وكان يريدُ كل شيء على غاية الإحكام ولم يُحكِمْ شيئاً قطّ لا من الأمور الجليلة، ولا من الأمور البسيطة. وكنتُ أنا على حمارٍ مستأجر، والمكيّ على حمار مُسْتعار، وعَطِش حمارُ المكيّ حتى كادَ يهلك. فقال المكيّ لبعض غلِمان الرجل: لا أريدُ منكم تِبناً ولا شعيراً، اسقوه ماءَ فقط. فسَقَوه ماءَ بئر، وماء البئر مالح، فلم يشْرَب، وقد كاد يموُت عطشاً.

فأقبل المكيُّ على الرجل وقال: أصلَحك الله، لقد استَعَرْتُ الحمارَ من رجلٍ منزلُه على شارِع دجلة، أي إنَّه قريبٌ من النهر، فهو لا يعرف إلا العَذْب. قال: فامزجوه له يا غلام. فمزجوا الماءَ المالح بالعذب، فلم يشَربْه، فأعاد المسألةَ مراراً، ولكن الرِّجل لم يعطه إلا أُذُنَ من لا يسمعُ إلا ما يشتهي.

وقال لي مرة: يا أخي، إن بعضاً من الناسِ يَغْمِسون اللقمةَ من كل أطرافِها في المرَق، فأقول: هؤلاءِ قومٌ يحبون المُلوحة، ولا يُعْجبون بالحامض. فما ألبث أن أراهم يأخذُ أَحدُهم حرفَ الرغيف فَيَغْمسه في الخلِّ الشديد الحُموضة، ويُغرقه فيه، وربما رأيتُ أَحَدَهم يتركُ الرغيف غارقاً في الخلِّ ساعة، فأقولُ: هؤلاء قوم يَجمعون حُبَّ الحموضة إلى حُبِّ الملوحة. ثم لا ألبثُ أن أراهم يصنعَون مثل ذلك بالخَرْدل.

والإكثارُ من الخردل ليس ممّا يطيِّب الطعام. قلْ لي: ما طبائعُ هؤلاء؟ وأيُّ نوع من الناس هم؟ وما الذي أصابَهم؟ وما دواؤه؟

فلما رأيت حُمْقَه، ومذهَبَهُ في الحياة، وغَلَبَةَ البخل على طباعِه كلها، قلتُ له: ما لهم عِندي دواء يَشفيهم غيرُ أن يمتنعوا عن الصِّباغ كله، فلا يقربَون المرقَ ولا الخلَّ ولا الخَرْدل، بل يأكلون الخُبزَ جافاً. فقال صدقتَ والله، ما لهم دواءٌ غيرُ هذا.

أما صديقُنا الآخر فقد دَفع ثمنَ خوفهِ من اتّهامه بالبخل. فقد ظَنّ أنّا قد تذاكرنا أمرهَ وَوصَمْناه بالبخلِ على الطعام، وظل هذا هاجِساً في نفسِه فكان يتزيّد في تكثير الطعام، وتعدُّد أصنافِه وألوانه، وفي إظْهارِ الحرص على أن يؤكَلُ الطعام كله، حتى قال: من رَفَع يدَه عن الطعام قبلَ القوم، غرّمناه ديناراً، فكان بعضُهم يرى أن غرَم دينارٍ أولى، فذلك منه محتمل.

وكان لنا صاحبٌ عجيب في بُخله وطباعِه، فقد جَلَدَ خبّازَه بسبب إنضاج الخبز، وقال له: اجْعَل الخبز الذي يوضعُ بين يَدَيَّ ناضجاً تمامَ النُّضْج. واجعل خُبْزَ من يأكل معي بين المقدارين، فلا تُنضجْه كثيراً، ولا تتركُه عجيناً. وأما خبزُ العيال والضيوف فلا تُقرّبه من النار إلا بقدْر ما يتماسكُ العجين، ويصبحُ شبيهاً بالرغيف، فكلّف المسكينَ أمراً عويصاً، وعَجِز عن تلبية أوامره، فجلده.

فحدثت بهذا الحديثِ عبد الله العَروُضي، فضحك وقال: هذا هيّن إذا ما قيس بما فعل بالشوّاء، قلت: وما حكاية الشوّاء؟ قال: ضرب الشَوّاء ثمانين سوطاً بِسَببِ إنضاج الجَدي. ذلك أنّه قال له: ضَع الجَدْيَ في التنور حين نَضَع الخِوان، فأصرخُ أنا وأقول: ألم تُنْضِجْ هذا الجديَ بعد؟ فتقول أنْت: ما بقيَ إلا قليل. وأعيُد عليك الكلام، فتجيئُنا به مُستعجِلاً كما أمرتك. فإذا وُضع بين أيديهم ولم يُنْضَج، احْتَسَبْت عليهم أني قدّمت لهم جدْياً. فإذا لم يأكلُوه، أعدتَه إلى التنّور ثم تُحضره لنا في الغد بارداً، فيقومُ الجديُ الواحدُ مقام جديين. ويبدو أن الشوّاء نسيَ يوماً، فجاء بالجَدْي وقد أنضجه تمامَ الإنْضاج، فأعْمل فيه القوم أيديَهم، حتى لم يُبقوا منه شيئاً، فجلده حدَّ من قَذَف حُرَّة.

وحدثني أحمد بن المثنّى عن صديقٍ لي وله، ضخمِ البدَن كثيرِ العِلْم موفورِ الرِّزْق، قال:

رأيتُه مرة وقد تناولَ دجاجةً فشقَّها نصفين، فألقى نصفَها إلى الذي عن يمينه، ونصفَها الآخر إلى الذي عن شِماله. ثم قال: يا غُلام، جئني بواحِدَة

طرية، فإن هذه كانت قاسيةَ اللحم. فحسبت أنَّ أَقَلَّ ما يفعلُ الرجلان ألا يَعوُدا إلى مائدته أبداً. فوجدتُهما قَد افْتَخرا عليّ بما فَضَّلهما به عليّ.

وكان غِلمَانُه يعرفون طباعَه، ولعلَّه علّمهم، فكانوا يضعُون بين يديه طائِرَ الدُّرَّاج السمين، والدَّجاجَةَ الطرية. فانطفأت الشمعةُ في ليلةٍ من تلك الليالي، وكان على مائدته عليّ بن خالد الأسواريّ وهو من كبارِ رِجالِ المعتزلة، ولم يكنْ يقل علماً عن أبي إسحاق إبراهيم بن سيّار النظَّام، وربما فاقَه في ذلك، لكنه كان أكُولاً نهماً. واغتنم الأسواريّ الظلّمة، وعَمِلَ على طريقة أن الليلَ أخفى للويل، فأغارَ على بعض ما بين يَدَيْ صاحبنا، فَفَطِن له، وما هو بالفَطِن إلا في هذا الباب. فقال: لهذا كانتْ الملوكُ لا تأكلُ مع الرِّعاعِ السُّوقة.

وحدثني أحمد بن المثنّى أنّ غِلمانَه كانوا يَعمَدون إلى ما يُرفعُ عن مائدته من أَرْغفة الخبز، فما كانَ فيها قد لُطِّخ بشيءٍ من مَرَقٍ أو دَسَم، دَلَكُوه دَلْكاً شديداً حتى يعودَ كما كان. وما كانَ منها قد ذَهَب جانبٌ منه، قطعوا بسكينٍ من أطرافه الأخرى. بمقدارِ ما نَقَص من ذلك الجانب، لئلا يَشُكَّ من يَراه أنهم قد تعمَّدوا أن يكونَ الرغيف على هذا الشكل، وما كانَ قد ذهب نصفُه، أو لم يَبْق إلا ربعه أو أقلّ من ذلك، جعلوا بعضَه للثريد، وقطّعوا بعضَه كالأصابع، ويُقلى مع بعضِ المَرَق من اللحومِ والأكباد.

وكنت أعرفُ رجلاً ضخماً، مَهِيبَ الطَّلْعة، في ألفاظِه جزالة، وفي معانيه فخامة، نبيلَ الحركةِ والإيماءةِ والكلام، كأنما تَرَبّى في ظل ملك، موفور العلم، سليطَ اللسان، يعرفُ الغامضَ من العيوب التي قد تَخْفى على غيرِه، ويعرف الدقيق من المحاسن التي لا ينتبِه لها إلا كلَّ عاقل فَطِن، لكنه كان ضيَّق الصدر بالناس، يُسارِعُ إلى نَشْر عُيوبهم، ولا يتورَّع عن التعجيل في نهشِ أعراضهم. ورأيتُ الثريدَ بين يديه أبْلق، والبَلَق يكون باجتماع السواد والبياض، إلا أن بَياضَ ثريده ناصع، ولونَه الآخر أصهب، وقد

لاحظتُ ذلك مرتين أو أكثر، وكنتُ قبل ذلك قد هَمَمْت أن أعاتِبَه على أنه يستأثِر بالحَسَن، ويتركُ الرديءَ لغيره، ورأيتُ أن هذا واجبٌ عليّ، ولا يكونُ إلا من حقوقِ الإخلاص، ومن لُزُوم الإخاء والمصارحةِ بين الإخوان. فلما رأيت ثريدَه الأبلق، آثَرْت السلامة، ورأيتُ أن تَرْكَ الكلام أفضل، وأن الموعِظَة لَغْوٌ في بعضِ الأحيان.

وقد زعم أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله المدائنيّ، وهو أعلم الناس بأخبار الحياة الإسلامية، أنه رأى مالكَ بنَ المنذر بن الجارود العبْديّ وأبوه صحابي جليل، وقد تولى الولاية، وبين يديه ثريدةٌ بلقاء، ولعلَّ هذا غير صحيح، فما عُرف عن مالِك أنَّه بخيل. وأمّا أنا فَقد رأيت بأمِّ عيني من هذا الرجل ما أخبرك به، وهو شيءٌ، لم أره إلا فيه، ولا سمعت به في غيره.

ولسنا نهتِكُ أسرارَ الناس ولا نفضَحُ الأصحابَ المتهتّكين، ولا الأصحابَ المستورين بذكْرِ أسمائهم. أما الصاحِبُ فإنّا لا نسميه تقديراً لحرْمته وقياماً بواجِبِ حقِّه علينا. وأما الآخَر فلا نسميه لأنَّ الله ستَر عليه فلا يجوزُ أن نَفْضَحه. إنما نسمّي من خَرَج من هاتين الحالين. ولربّما سمينا الصاحبَ إذا كان ممَّنْ يُمازَحُ بهذا كثيراً، ورأيناهُ يَتَظَرَّف به، ويجعلُ ذلك الظُّرْفَ وسيلةً إلى مَنْع قبحه.

* * *

قصة أبي جعفر

ولم أرَ مثلَ أبي جعفر الطَّرَسوسي:

زارَ قوماً فأضافوه وأكرموه، وَفرَشوا له وأطعموه، ثم دَهَنوا شارِبَه ولحيتَه طِيباً من أجودِ أنواع الطِّيب وأغلاها. فحكَّتْه شفتُه العُليا، فأدخل إصبَعه في فمه، وأخذ يحكَّ الموضع من باطن الشفة مخافَة أن يَعلَق بإصبْعه شيءٌ من الطِّيب إنْ هو حكّها من فوق.

ومِثْل هذه الحكاية إنما يطيبُ جداً إذا رأيتَ الحكاية بعينك، وليَس مَنْ سمع كمن رأى. والكتابُ لا يصوِّر لك كلّ شيء، ولا يأتي لك على حقيقتهِ، ولا على حُدوده وسرٍّ ما لا تصوِّره الكلمات.

* * *

قصة الحَزاميّ

محاولة فلسفة البخل

وأما أبو محمد الحزاميّ، عبدُ الله بن كاسب، كاتبُ مويس بن عمران، وكاتبُ داوود بن أبي داوود، فإنه كان أبْخَلَ مَنْ خَلَق الله، لكنه كان أطيبَ من خَلَق الله. وله في البُخْل كلامُ كثير. وهو أحدُ من يُناصرون البخل، ويفضّلونه نهجاً في الحياة، وقد كانَ يأتي بالحجج دفاعاً عنه، ويدعو الناس إليه.

في أحد الأعوام بكَّر البردُ علينا قليلاً، فابترد الجو في تشرين الأول (أكتوبر) من ذلك العام، وخِفتُ البرْدَ على صحتي، فأخذت كِساءً من صنع قومسان في بلاد فارس، وقد كانَ كساِء خفيفاً، وكنتُ قد لبِسته مراراً. والكساء القومسي عامة ليسَ غاليَ الثمن.

ورآني أبو محمد الحَزاميّ، فبادرني بالقول: إن السرف قبيحٌ في الجاهلين ولكنه أقبحُ في العاقلين. وإنّ العامَّة ليجهلون أمورَ الحياة وحسنَ التدبير، ولكنْ جهلّهم أقلُ ضرراً من جهل الحكيم. وإني كنتُ أَعدُّك من العُقلاءِ الحكماء، وما ظَنَنْت أن إهمالَ النفسِ وسوءَ التدبيرِ قد بلغ بك ما أرى. قلت: لم يكن هذا رأيَك فيّ حتى أمس، فما الذي جَعَلك تُغيِّرُ رأيك؟ وما الذي أنكرتَه من فِعالي؟ قال: لُبْسُك هذا الكساء قبل أوانه. قلت: أنت ترى أن البرد بكَّرَ هذا العام. ولو جاءَ هذا البرد في تموز وآب (يوليو وأغسطس) لكانا أواناً مناسِباً لِلبسِ هذا الكساء. قال: فإن كنتَ تخاف البرد، ولا بدَّ لك من لُبْس السميك لتتقيه، فاجْعل بدلَ هذا الكساء المبطنِ الفاخرِ جُبَّةً محشوة، فإنها تقومُ هذا المقام، وتُغني عنه، وتكون قد ابْتعدتَ عن الخطأ، وما جانَبْتَ الصواب. فأما لبْس الصوف في هذه الأيام فغيرُ جائز. قلت: وما الذي جعله غيرَ جائز؟ قال: نحنُ في أواخر الصيف، وما زالت الريحُ تهُبَّ فتثيرُ الغبار، فإذا مَرّت

بك الريحُ، داخل الغبارُ كِساءَك، وسكنَ بين خُيوطِه، فإذا نَدِي الهواء، وربَّما سقط المطر، وابْتَلَّ كلَّ شيء، ابْتلَ ذلكَ الغبار. وما الغبار؟ إنه ترابٌ، إلا أنه لُباب التراب، وهو مالح. فإذا أصابَه الماءُ صار شيئاً مثلَ الطين، فينَقبضُ عند ذلك الكِساء، ويتجعّدُ ويتكرَّش، لأنَه من الصوف، فتنضمُّ أجزاؤُه بعضُها على بعض، فيأكلُه كما يأكل الدُودُ والسوسُ جذوعَ الأشجار، وإنه لأسرْعُ في إتلافِ الصوف من النَمل الأبيض الذي إن غزا شيئاً نخره وأهلكه حتى جذوعَ الأشجارِ الصلبة. ولكن أَخّر لُبْسَ هذا الكساء، واتَّقِ البرْدَ بما تشاء، إنما هو بَرْدُ صيف. حتى إذا نزل المطر، وسكَن الغُبار، وتلبَّد التراب، وغَسَلَ المطرُ الهواءَ مما به من الغُبار وصفّاه، البَسْه حينئذٍ على بَركة الله.

وكان يذهبُ إلى أسرتهِ مرةً واحدةً في السنة، فيشتري لهم من القَمح وغيرِه مقدارَ ما يطبخون في سنة، كما يشتري لهم من الدَّسَمِ والقوتِ ما يكفي تلك السنة. وكان يتجوَّلُ في الأسواق، يتفقّد الحبوبَ عند هذا وذاك، ويسألُ عن الأسعار، فإذا انْتهى من ذلك، أخَذَ من حَبٍّ كل واحدٍ كيْلة معلومة، ووزَنَها بالميزان، واشترى أثقلَها وزناً.

ولم يكن يفضِّل على البَلَدي والمَوْصلي نوعاً من الحبوب، إلا إذا كان سعرُه مقارباً لهما. وكان على كل حال يَفِرّ من الحبِّ المَيْساني ما استطاع، إلا أن يُضطَرَ إلى شرائِه، ويقول: إنه ناعمٌ ضعيف، والمَعدة نارُها شيطانٌ رجيم، فعلينا أن نأكلَ القاسي ليقفَ في وَجِهه، ولو استطعنا أن نأكلَ الحَجر أو ما يُشبه الحَجر لكان أفضل، وقلتُ له مرة: أعلمت أن الخبزَ المصنوع من القمح البلدي يَنْبتُ عليه فطْرٌ شبيهُ بالطين والتراب والغبارِ المتراكِم؟ قال: حبَّذا ذاك من خُبز، وليتَه قد أشْبَه الأرض بأكثرَ من هذا المقدار، ليكون بلعُه صعباً، وهضمُه أصعب.

ورأيتهُ إذا لبس القميصَ الجديدَ والمغسولَ لم يتبخّر، فسألتُه عن هذا. فقال: والله لَوْ أتوْني بكل بَخُور الأرض ما تبخّرت. قلت: ولم؟ قال: أصلَحك الله، أما علَمت أن دخان العُود يسوِّدُ بياضَ القميص؟ حتى إذا اتّسخَ القميص، وجاؤُوه بالبَخُور، لم يرْض بالتبخّر، وأن يتغلْغَل دخانُ العود ذي الرائحة

الطيّبةَ في ملابِسه وجسده، حتى يَطْلُبَ دُهناً، فيمسَحَ به صدرَه وبطنه، وتحتَ إبطيه، وما تحتَ إزارهِ ، ويقول: هكذا يَعلقُ البخور ودخانُ العود بالجِسم أكثر.

وكان يفضِّل الشتّاءَ على الصيف، فقلت له: الشتاءُ بَرْدٌ ومطر وطين في الطرقات والدروب وملابسُ ثقيلة. فقال: كم أَنت مخطئ. الشتاءُ يَحفظ عليك البَخُور لأنك لا تغتسل إلا مضطراً، ولا يحمّض فيه النبيذ، وإن تُركتْ الآنية مفتوحة، ولا يَفسدَ فيه المرق وإن بقي أياماً. ولم يكن يتبخَّر إلا في منازلِ أصحابه. فإذا كانَ في الصيف، دعا بثيابهِ فلبسها على قميصهِ القديم، لكيلا يَضيعَ من البخور شيء، وإن كان لَيس من بَخورِ بيته.

وقال لَي مرة: إن للشيبِ رائحةً كريهة، وإن بياضَ الشعر الأسود موتُه، وسوادَه حياتُه. ألا تَرى أن الشَعر حول دَبْرَة الحمار أبيض وإن كان الحمار أسود؟ والناس لاَ يرْضَون حين نلقاهم إلا باللثم والعناق، والطِّيبُ غالٍ، وياله من عادةٍ رديئة. فإذا اقتنيته فإنَّ عليك أن تحفَظَه جيداً وتحرسه من عيالِك، لكيلا يمدُّوا أيديهم إليه، فيكون الغُرْم كبيراً، وإن العطّار لَيَخْتمُه ويحفظُه بعيداً عن يدِ أقربِ غلمانه إليه. فلست أرى شيئاً خيراً من اتّخاذ مُشّط من خَشَب الصَّنْدل، فإن له رائحةً طيبة، والشَّعر سَريُع القَبول، وأقلُّ فوائد هذا المشط، أنه يُخفي رائحةَ الشيبِ الكريهة. فكانَ عطرُ الحزاميّ إلى أن فَارق الدنيا مُشطَ صندل، إلا أن يعطِّره صديقٌ أو يبخّره.

واستدان منه عليٌّ الأسواريّ مائَة درهم، فرأيتُه حزيناً مُغْتماً، وكأنه فَقد عزيزاً، يتحرّك منكسراً كأنّ مصائبَ الدهر أثْقَلت ظهره. فقلت له: إنما يَحزنَ من لا يجدُ مَهرباً من تسليفِ الصديق، وما حزنُه إلا لخوفه ألاَ يرجعَ إليه مالُه، وأن يُعدَّ هذا هبةً منه ومَنحة، أو رجل يخافُ أن يشتكي من استْدانَ منه، فهو إن لم يُسلِّف كَرَماً، أسلف خوفاً. وبابُ البخلِ عزيزٌ على قلبك، والشهرةُ فيه قُرّةُ عينيك، وأنا واثق بأنَك عَزمتَ على هذا منذُ زمن وصمّمتَ حتى صارَ لك شعاراً، وأبدَيت قلّة المبالاة بأن يقولَ الناس عنك إنك بخيل. فلماذا أنت حزين مغموم مهموم؟

قال: اللّهمّ غُفرانك! ليس هذا سببَ حزني، إنما سببُه أنّي كنت أظن أنّ أطماعَ الناس صارت بعيدةً عني، ودبَّ في قلوبِهم اليأسُ منّي، وأني قد أحكمتُ إغلاقَ هذا الباب أيّما إحكام، وأوْدَعْت قلوبَهم اليأسَ من أن يطمعوا فيَّ في قابل الأيام، بل قطعتُ السبيل حتى على الخواطرِ أن تَرِدَ في أذهانهم، فأراني واجداً الإخفاق. إن من أسباب إفلاسِ المرء أن يطمعَ الناس فيه، لأنّهم إذا طمعوا فيه احتالوا له الحِيلَ، ونصبوا له الأفخاخ، وإذا دَبّ اليأسُ في قلوبهم منه فقد صار في أمان. وما فعله الأسواريّ استضعافٌ شديدٌ لي. وما أشكّ أنه يراني جاهلاً عديمَ الخِبرة، وأنّي كبعضِ من يمكِنُ أن يخدعَه ويأكل مالَه، وهو مع ذلك يعاشِرني ويخالطني منذ سنين. فإذا كان مثلُه لم يَعرف مذهبي حقاً، ولم يعرف طريقتي في الحياة، فما ظنُّك بالآخرين؟ بل ما ظنُّك بمن ألقى من الناس؟ لكأنّي خلال تلك السنين كلِّها كمن يُنفخ في الرماد يريدُ أن يشعل ناراً، ومن يضرب الحجر بزَند يصدر صَوتاً، لكنه لا يقدحُ شَراراً. ما أخوفني أن أكونَ قد دعا عليَّ أحد الذين تُستجابُ دعواتُهم، أو أن أكونَ قد تعرّضْت لبعضِ أعمال السِّحْر. ما أخوفني أن يكون الله في عليائِه قد قَصَد إلى أن يُفقرني.

وقال لي: يقولُ المتكارمون: ثوبُك على صاحبِك أحسنُ منه عليك. والله لَهذا قَوْل الحمقى. فما يقولون إن كان أقصرَ مني؟ أليس يتعثّر في قميصي ويسيرُ كمن في عَقْله مسٌّ أو فساد؟ وإن كان صديقي طويلاً، وكنتُ أنا قصيراً جداً، ولَبِس القميص، فكيف يكونُ منظره بين الناس؟ ألا يتجمعون حوله كأنهم يَرَوْن عجباً؟ فمن أسوأُ ممَّن يجعل صاحبَه أُضحوكة للناس؟ يجب ألا أكسوَه قميصي، حتى أَعلَم أنه فيه مثلي، وكيفَ لي أن أعلم هذا؟ ومتى يمكن أن تتحَقق من أن صاحبَك في مثل جسمك؟

وسمعته ذات مرة يقول: أشتهي اللحمَ الذي أُنضِجَ حتى أصبَح مهترئاً، ولكنّي أشتهي أيضاً اللحم الذي فيه بعضُ الصلابة. فقلت له: هذا كلامٌ لا معنى له، فما أشبهَك بالذي قال: أشتهي لحم دجاجتين، ولم يقل: أشتهي لحم

الدجاج. قال: ولماذا تخطِّئ ذاك القائل؟ هاأنذا أشتهي لحم دجاجتين: واحدة مولَّدة من ديكٍ هندي ودجاجةٍ فارسية بشرط أن تكون مُسمَّنة. وأخرى خُوارزمية بضّة طريّة.

وقلت له مرة: إني لأَعجبُ من أمرك. كيف ترضى أن يُقالَ إن عبد الله بخيل؟ فقال: لا أعدمني الله هذا اللقب. قلت: وإني أراك فرحاً به. قال: ولِمَ لا أكون؟ ولا يقالُ إن فلاناً بخيل إلا وهو صاحبُ مال. فَسَلِّم إليّ المال، وادعني بأيِّ اسْم أو لقبٍ تشاء. قلت: ولا يقال: فلان سخيّ كريم إلا إذا كان صاحبَ مال، فلا يكون كريماً من كان فقيراً أو مُعدَماً، لكن لقبَ الكريم الجَواد يجمعُ المالَ والحمد، ولقَبَ البخيل يجمع المالَ والذّم بما هو مكروه. فقد اخترتَ أخسَّ اللقبين، وأوضَعَهما مكانةً بين الناس. قال: ولكنّ بينهما فرْقاً أهمُّ من هذا. قلت: فما هو؟ قال: عندما يقولون فلانٌ بخيل، يثبتُ المالُ عند صاحبهِ، وفي قولِهم فلان جوادٌ كريم ما يُخبرك بخروج المالِ من مُلْك صاحبه. صحيح أن في اسم البخيل ذمّاً، ولكن فيه حِفظاً للمال. وأنَّ في اسْم السخيّ حَمْداً، ولكنّ فيه تضييعاً وهدْراً للمال. والمالُ نافِعٌ يُكرِمُ أهلَه ويقوّيهم ويُعزهم، والحمدُ الذي تحضّني على اكتسابهِ سُمعة فارغة، وسُخْرِيةٌ عند العقلاء، واستماعُ المرء لهذا الحمد ضعفٌ في الرأي وفي العقل. وهل يُغني عنه الحمدُ شيئاً، إذا جاعَ فلم يَجْد ما يأكلُ، وعَرِيَ فلم يَجِدْ ما يَلْبَس، وظلَّ عيالُه بلا قُوت، وشمِت به من كان يحسُدُه أيام كان ذا مال؟

وكنا عند داوود بن أبي داوود في واسِط أيام كان والياً، فأتته من البصرة هدايا فيها جِرارُ دِبْس، فقسَّمها بيننا، فكل ما أخذ الحزاميّ منها أعطاه غيرَه. فأنكرت ذلكَ منه، فهو ليسَ من مذهبه، واحتْرت في تفسيره، وَجهةِ تدبيره. فقلتُ للمكيّ: أعلَم أن الحزاميَّ يجزعُ أشدّ الجزع من الإعطاء، وهو عدوُّه ومَنِيَّتُه، وأما الأخذُ فهو ضالَّته وأُمْنيته.

إنه لو أُعطي أفاعي سِجِسْتان، وثعابينَ مصرِ وحيّاتِ الأهواز، لأخذها لأنها أُعطية، واسمُ الأخذِ واقعٌ عليها، فلعلَه ما أحبّ القسمة وأراد التّفْضيل،

وأن يُؤثِرَه ابن أبي داوود بشيء. قال المكيّ: أنا كاتِبُه. وصداقتي أقدمُ من صداقتِك، وما ذلَك به، وإن في الأمر شيئاً يجبُ أن نكتَشِفَهَ. فلم يلبثْ أن دَخَل علينا، فسألتُه عن الأمرِ، فتردد قليلاً، فأَلْحَحْت عليه، فباح بِسرِّه. قال: خسارتِي في أن أَهَبه غيري أضعافُ ربحي في إبقائِه، وأخذهُ عندي من أسبابِ السَّرَف والتبذير. قلت: وأوّلُ خسائره احتمالُ الشكر والمِنّة. قال: هذا لم يخطرُ لي قَطُّ على بال. قلت: فما الذي خطر على بالك؟ قال:

أوّلُ الخسائر استئجارُ حمّالٍ لنقلِه، وهذا يجبُ أن أدفعَ له. ثم إنَّه في خطرٍ حتى الوصولِ إلى المنزل. فإذا صارَ في المنزل صار يجب أن تكونَ معه العصيدة، وفيها خسارةُ الدقيق والسمن. وأن تكون معه حلوى الأَرُزَّة، والفطائَر المحشوةُ بالجَوْز واللَّوْز وما إلى ذلك. فإن تخلَّصْتُ منه وبعتُه فِراراً مما يَجُرِّ من خسائر، جعَلْتُموني مُضْغَة في أفواهكم، وتناولتموني بألسنتِكم التي لا تَرحم. وإن أنا أبقيت عليه جرّ العصيدة وما شابه العصيدة، وجَذَب السَّمْن، والدِّبسُ طيّب مع السَّمن، ثم جَذَب السَّمْنُ أشياءَ أخرى كثيرة، وصارَ هذا الدِّبْسُ أضرَّ علينا من العيال.

وقد تقولون لي: اصنْع منه نبيذاً. فإن وافقتُ نصيحَتكم المُهْلِكة، احْتجت إلى استئجار القُدور، وإلى شراءِ جِرارٍ نظيفةٍ له، وإلى شِراء الماءِ العذبِ لِمَزْجه، وإلى استئْجارِ من يُوقِدُ تحتَه ويطبخه، ويتفرغُ لمراقبتهِ وملاحظتهِ. فإن كلفتُ الخادم بهذا العمل، اسودَّ ثوبُها بالدخان، وغَرِمْنا ثمن الصابون لتنْظفَ نفسَها وثوبَها، وازدادَ أكلُها بمقدارِ ازديادِ عملها، وفي هذا خسارةٌ أخرى.

وبعد هذا كله، قد تَفسَدُ الطَّبخة، فتذهبُ كل هذه النفقات باطلاً، ولم نستفدِ منها أيَّ فائدة، لأن خَلَّ الدِّبس يغيُر لَون اللحمِ وطعمَه ويُسوِّد المرَقَ، ولا يصلح لمطيِّبات الطَعام. وهذا إذا استحالَ خلاً، أما المصيبةُ فأن تفسَدَ الطبخةُ كلُّها، فلا نحصُلُ على النبيذ، ولا يصيرُ المطبوخُ خلاً.

وإن سَلِم والعياذ بالله، وصار نبيذاً جيّداً صافياً، لم يكن لنا بُدٌّ من شُرْبِه، ولا نحتملُ بعد هذا كلِّه تَرْكَه. فإن قَعدتُ في البيت أشربُ منه، لم يكن هذا ممكناً إلا بتوابِعه. فلابدَّ من الدجاج المُسَمَّن، وجَديٍ من الجداء من الجداء الصغيرة الطريّة، والفاكهة التي يُؤتى بها من الجَبَل، ولابدَّ من الكُمَّثرْى الصيني والتفاح الشيرازي والعِنبِ والرمان، ولابدَّ من الجوز واللوز والبندِق والفستق الهشّ الطَرِيّ، والرَيْحان الغضّ، وهذا دأْبُ من لا يَقِلّ ماله، ولا تقِلُّ موارده، ومن لا يبالي على أي جنبيه ينام، وماذا يُنفِق على الحديث المُؤْنس وسماع الغناء الجميل.

زِدْ على ذلك أنّي إن قعدتُ في البيت أشرَبُه، لم يكن لي بدٌّ من واحدٍ معي، وهذا الواحدُ لابُدَّ له من شيءٍ من اللحم، وشيءٍ من النُّقْل، وبعضٍ من الرَّيْحان، ومن بعضِ البُهارِ لِقدْر الطعام، ومن حَطَبٍ لإشعال النار، وهذا كله خسارة، وضررهُ أكبر من نفعه، وشؤمُه أكبرُ من حظِّه، وهو خروجٌ عن العادة الحسنة. فإن كان ذلك النديم غير مُوافِقٍ لي، صرت في حالٍ أحسنُ منها حالُ أهل الحَبْس. وإن كان والعياذ بالله موافقاً، فقد فتَح الله عليّ باباً من الخسارَة صعبٌ إغلاقُه، لأن الآخرين يُنفقون من مالي، بعْدَ أن كنتُ أنفقُ من مال غيري. وإذا عَلِم أحدُ الأصدقاء أن عندي زائراً ونبيذاً معَ مَا يحتاجه، جاءَ إليّ يدقُ الباب دقَّ الخلِّ الصدوق، فإن حَجبَناه فبلاء، وإن أدخلناه فَشَقاء، والنّديم يجرّ نُدماء.

وقد يقودني هذا إلى أن أبدأَ في استحسانِ حديثِ الناس وطرائِفهم ونوادرِهم، كما يَستحسِن ذلك منّي من أكونُ عِندَه الآن من المُوسرين، فأكون قد شاركتُ المسرفين، وفارقتُ إخواني من الصالحين المصلحين، وصرتُ من المبذرين إخوانِ الشياطين. فإذا صرتُ كذلك، فقد انقْلبت أحوالي، ولم أَعُدْ أكسبُ من مالِ غيري، بل صار غيري يكسِبُ من مالي، وأنا إذا ابْتُليت بأحد الأمرين لم أحتمل، وصِرْتُ من الخاسرين، فكيف إذا ابتليت بالأمرين معاً، أُعطي ولا آخذُ؟ أعوذ بالله من أن أَخذِلَ نفسي بعد أن عصمني الله، ومن أن أُنْقص مالي بعد أن زاد. وما أقبحَ هذا المذهب في هذه السنّ، ولو كان هذا في الحداثَةِ كان أهون.

هذا الدّبْسُ دسيسةٌ عليّ لا أدري ممّن، وكيدٌ من الشيطان، وخُدعَةٌ من حَسود. إنه حُلْوٌ، ولكن حلاوتَه قد تخلِّفُ المرارة. وأخشى أن يكون ابنُ أبي داوود قد مَلَّ منادمتي، فأحبَّ أن يتخلص منّي بهذه الحيلة.

وكنّا مرة في مجلس أحد الأكابر، والمجلسُ عامر، والقوم سُكوت، والمكان واسعٌ، والحزاميّ بعيدٌ مكانُه عن مكاني. فأقبلَ عليّ المكيَّ وقال بصوت عالٍ أسمَع الجميع: يا أبا عثمان، من أبخلُ أصحابنا؟ قلت: أبو الهذيل. قال: ثمّ من؟ قلت: صاحبٌ لنا لا أسمّيه إكراماً له. فصاح الحزاميّ من بعيد: إنما يَعْنيني. ثم قال: سامَحكم الله. حَسدتم المُقْتصدين على حُسْن تدبيرِهم، وتحسينِ أمورهم، ونماءِ أموالهم، ودوام النعمة عليهم، فلم تجدوا وسيلةً إلا تقبيح ذكرِهم بهذا اللقب، والإساءةَ إلى سُمعتِهم بهذا التّشنيع. فإن وجدتم مَن يُتلفُ مالَه باسم الكرم والجود، ظلمتموه بأنكم تحضّونه على المزيد من الإسراف. وإنِ وجدتم من يحرِصُ على ماله ونعمة اللهِ عليه، ظلمتمُوه بأن سميتموه بخيلاً، وما هذا إلا حسد للنعمة، فلا مَن أتلفَ ماله ابتغاء شكركم نجا من ألسنتكم، ولا من حَفِظ المال سلم من تشنيعكم وهجائكم.

*   *   *

خالد القَسْري وخالد المهزول

قال أبو عُبَيدة: نُمي إلى مسامع خالد بن عبد الله القسْري والي العراق أيام هشام بن عبد الملك أن الناس يصفونه بالبُخل على الطعام. فتكلم إلى جُلسائه يوماً، فلم يزل يُدخِل كلاماً في كلام، ويَخرجُ من حديث ليدُخَل في آخر، حتى وصل إلى حكايةِ البخل في سياقِ الحديث، ليقدِّم الأعذار لما جعلَهم يتهمونه بالبخل، وكان عذرُه شِدَّةَ كُرهه رؤيةَ الآكلين، ونفورَه من منظرِ كل آكِل.

قال خالد: نظر سيدُ قومه عَميدُ بني جحوان في الجاهلية، واسمه كاسْمي خالد إلى ناسٍ يأكلون، وغيرُ بعيدٍ عنهم إبلٌ تجترّ، فقال لأصحابِه، أستحلِفكم بآلهتكم، أتَرَوْني بمثل هذه العين التي أرى بها الناس والإبل؟ قالوا: نعم. فحلف بالآلهةِ كلِّها ألا يأكلَ ما يحتاج منه أن يحرّك الفكّين. فكان يَغْتذي اللبن، ويُصيبُ الشراب. فأضمره ذلك وأيبس جسمه. فلّما نَحَل جسمُه، واشتد هُزالُه، لامتناعه عن أكل اللحم والبُقول، سُمِّيّ: خالد المهزول.

ثم قال خالد القسْريّ: هاأنذا مُبتلى بالمَضْغ، ومضطرٌ لتحريكِ الفكّين، ومُجبَرٌ على أن أكونَ في هذا كالبعيرِ في اجْترارِه، ومُحتمِلٌ كل ما في هذا من السُّخفِ والعَجْز. فلماذا عليّ أن أحتملَه في رؤية الآخرين؟ ألا أستطيعُ أن أجنّب نفسي هذه المشقة؟ فإن كنتُ لا أرى نفسي وأنا آكل، فإنني أرى الآخرين. فليأكُلْ كلّ امرئ في منزِله، وفي موضعِ أَمْنه وأُنسه، ووراءَ بابِه وسِتْرِه.

هذا ما بلغنا عن خالد بن عبد الله القسري واحتجاجِه، ولعلَّه كلَّه كذب، فقد كان سيّداً شريفاً جواداً. بل إن مِنْهم مَن اتهمه بالكذِب، وألحق الشكوك بأصله ونسبه.

فأما خالد المهزول، فهو أحدُ الخالِدينْ، وهما سيدا بني أَسَد، وكانا من نَدامى المنذرِ بن ماء السّماء ملك الحيرة، فأغضباه في بعضِ الحديث على الشرابِ، فأمَر بقتلهما، فالمهزوُل أحدهما وهو عميدُ بني جحوان، أما الثاني فهو خالد بن نَضلَة الفَقعسي، وقد كان فارِساً وشاعراً. وقد ذكرهما معاً الأسودُ ابنُ يعفَر التميميّ الدارميّ الشاعر، وهو أعشى بني نهشل، فقال فيهما:

وقَبلَــك مــاتَ الخالــدانِ كلاهُمــا   عميدُ بني جَحْوانَ وابْنُ المُــضَلَّلِ

*   *   *

قصّة الحارثيّ:

البخيل يضع معجماً للآكلين

قيل للحارثي:

والله إنك لَتأمُر بصنْعِ الطعام الجيد، وتُكْثِر منه، مهما عَظُمت عليك النَّفَقة. وإنّك لتغالي في أمرِ الخبّاز والطبّاخِ والشوّاء بأن يُحسِّنوا الطعام، ثم أنت - بعد هذا كلِّه - لا تجعَلُ عدواً يرى هذا الخيرَ العميم، ليركبَه الغمّ والحزنُ والهموم، ولا تأتي بصديقٍ مُوالٍ لتَسُرَّه، ولا بمن يجهَلُك ليعرفَك،ولا تَسْتقبل زائراً ليُعظِّم أمرك، ولا مَن شهدَك من قبل وشكَرك، ليثبّتَ حَمْدَه، ويكررَ شكركَ. وأنت تعلمُ أن هذا الطعام الوفير، حين يأخذونَه من بينِ يديك، يصيرُ نهباً مقسَّماً بين الغِلمانِ والخدم، يتوازَعُه المستهلكون، وهم بأمره جاهلون. فلو أنك دعوتَ إلى الطّعام مِن ينفعُك شُكْرُه، ومن يبقى على الأيامِ ذِكرُه، ومن يُمتِعك بالحديث الحسن، ومن يطيب معه امتدادُ الطعام، ويَقصُرُ به الدهْر، لكان ذلك أجدى لك، وألبقَ بالذي قَدَّمته يدك. وبعدُ، لِمَ تُبيحُ الطعامَ الجيِّد الذي يجبُ أن يُصانَ لمن لا يحمدُك، ومن إذا أرادَ حمدَك لم يُحسِنْ أن يحمدَك، لأنه لا يعرف كيف يكونُ الحمد، ولأنه إذا حَمِدَ ليس لحمدِه قيمة. ومن لا يُميِّز بين الطعامِ الشهيّ الطيِّبِ الطعْمِ والرائحة، وبين الطعام الجافَ الغليظِ سيّئِ الرائحةِ كأنه نَتِن؟

قال: يمنعني من ذلك ما قالَ أبو الفاتِك. قالوا: ومن أبُو الفاتك؟ قال: قاضي الفِتيان وزعيمُهم، وهم أهلُ النخوة والمروءَة والشَّهامة. وإنّي لم آكلْ مع أحدٍ قطُّ إلا رأيت منه بعضَ ما ذمّه أبو الفاتك، وبعضَ ما قبَّحه وما

وصفَه بأشنع الصفات. فشيءٌ قبيح بالشُّطّار كيف يكون قُبْحه إذا كانَ في السّادة وأصحابِ المروءات وأهلِ البيوتات الكبيرة؟ قالوا: فماذا قال أبو الفاتك؟ قال:

قال أبو الفاتك: لا يكون المرءُ في عداد الفتيان إذا كان:

نشّالاً، وهو الذي يتناولُ الطعَام من القِدْر، ويأكلُه قبلَ أن ينضُج، وقبل أن ينزِل القِدرُ عنِ النار، ويلتئمَ شملُ القوم.

أو نشّافاً: وهو الذي يأخذُ حَرفَ الرغيف، فيفتحُه، ثم يغمِسُه في رأسِ القِدْر، ليتشرّبَ الدَّسم، قبلَ تحريكِ الطعام أو المَرَق، يستأْثر بذلك دون أصحابه.

أو مِرسالاً: وهو في الحقيقة اثنان. أحدُهما: يأخذُ اللقْمةَ من الهَريسة أو الثَّريدة أو الحَيْسةِ من تمرٍ ولبنٍ وسمْن أو طعامِ الأَرُزّ، فلا يمضغُها ولا يلُوكُها، بل يُرسلُها في جوْفِ حلقه إرسالاً. أما الآخر: فهو الذي إذا مشى في طريق يَحفُّ به نخيلٌ أو شجر، قبضَ على رأسِ سَعْفَةِ النخل، أو على رأسِ الغصْن لينَحّيهَا عن وجهه، فإذا مرَّ بها أرسلها من يده، فإنها لابد أن تسفَع وجه صاحبه الذي يمشي وراءه، لكنه لا يهتمّ لذلك، ولا يفكرُ فيما يمكن أن يصيبَه من أذى.

أو لَكّاماً: وهو الذي مازالت اللقمةُ في فمه، ولكنه لا يتأنّى في مَضْغِها بل إنه يُردِفُها بلقمةٍ أخرى قبل ابْتلاعِها.

أو مَصّاصاً: وهو الذي يأخذُ العظَمَ، فلا يستخرج مُخَّه ليأْكُلَـه الجميع، بل يمصُّ قَصَبَة العظمِ، مستأْثراً بهذا دون أصحابه.

أو نفّاضاً: وهو الذي إذا أنْهى غسلَ يديه في الطِّسْت، نفضَ يديه من الماء، فأصابَ الرّذاذُ أصحابَه.

أو دلاّكاً: وهو من لا يهتمُ بتنظيف يديه بعدَ الطعام، ولكنه يُدلِّك يديه كلتيهما بالمِنديل، تاركاً عليه أَثَر الدَّسم.

أو مُقوِّراً: وهو الذي يُقوِّرُ الرَّغيف، فيأخذُ وسطَه الناضج، ويتركُ الحروفَ السميكةَ غيرَ المُنضَجةِ لأصحابه.

أو مُغَربِلاً: وهو الذي يأخذُ وِعاءَ المِلْح والبَهار، فيديُره كما يدير الغربال، فيجمعُ البَهارَ في مكانٍ واحد، ويَسْتأثِرُ به دون الآخرين، لا يُبالي أن يَدعَ مِلْحَهم دون بَهار.

أو مُحلْقِماً: وهو الذي يتكلَّمُ وهو يأكلُ، واللقمةُ قد بلغَتْ حُلقومَه، نقولُ لهذا: دعِ الكلام إلى أن تبْلعَ اللقمةَ، وتصيرَ قادراً على الكلام.

أو مُسَوِّغاً: وهو الذي يُعظِّم اللُّقمة ويكبِرّهُا، فلا يزالُ يَغَصّ بلقمته، ولا يستطيعُ البلعَ إلا بأن يُسوِّغَها بالشراب.

أو مُلَقِّماً: وهو الذي يأخذ حُروف الرغيف، أو يدفُع ظهَر الثَّمْرةِ بإبهامه ليحملا له أكبرَ كَمِّيةٍ من الزُّبْد والسمن، ومن اللَّبأ واللبنِ.

أو مُخَضَّراً: وهو الذي يُدلِّكُ يدَه بالأُشنانِ وقد تلطّخت بالّدهن والّدسم لكنه لا يغسلُها جيداً، ويُدلِّكُ بها شفتَه.

هؤلاء عدّهم أبو الفاتِك فكيف لو رأى:

اللّطّاعَ: وهو الذي يَلْعَق أصابعَه، ثم يعيدُها في مرَق القوم أو لبنِهم أو ثريدِهم، وما أشبه ذلك.

والقَطّاع: وهو الذي يَعَضَ على اللقمةِ فيقطَعُ نصفَها في فمه، ثمَّ يغمسُ نصفَها الآخر في المرق.

والنّهاش: وهو الذي لا يأكلُ، بل ينهشُ اللحمَ كما ينهش السَّبع.

والمدّاد: وهو اثنان أيضاً. فأولُّهما: الذي يعضّ قطعةَ اللحمِ لم تنضجُ، ويشدُّها بيده، وربما انقطعت بينَ يدهِ وفمهِ، فيتناثَرُ ما عَلِقَ بها من المَرقَ على جُلَسائه. والآخر: الذي إذا أكل مع أصْحابه الرُّطَبَ أو التّمرَ أو الهَريسة أو الأرزّ، فأنْهى ما بين يديه، مدَّ إليه ما بين أيديهم .

والدَّفّاع: وهو الذي إذا وقَع في القصْعة عظْمٌ، فكان مما يليه، نحّاه وأبْعده بلقمةٍ منَ الخبز، يُمرِّرُه إلى جاره، حتى تصيرَ مكانه قطعةٌ من اللحم،

وهو يتظاهَرُ بأنه إنما يطلُب أن يتشرَّب الخبزُ المَرق، ولكن دون أن تبتعدَ قطعَةُ اللحم.

والمُحَوِّل: وهو الذي إذا كان بين قوم يأكلون التَّمر، وكَثُر النّوى بين يديه، احتالَ حتى يخلِطَه بنوى جارِه وصاحبِه.

ثم قال الحارثيّ:

والله إني لأفَضِّل دهاقين العَجَم حين عابُوا شُرْبَ الماءِ جُرعةً بعد جُرعة، وتقزَّزوا من التعرُّق، وأباحُوا لأكيلهم أن يَمُشَّ العَظْم فيستخرجَ ما فيه من المُخّ، وحين أكَلُوا بقطعٍ من الخشب ذاتِ أسنان وقطَّعوا بالسكِّين، ولزموا الصَّمْت عند الطعام، وتركُوا تجاذُبَ أطراف الحديث، واختارُوا الإشارةَ والإيماءَةَ والهمْهَمة.

أنا والله أحتَمِل الضيّفَ، وضيفَ الضيّف، ولا أحتَمِلُ الشَّرِه، ولا الذي يأكُل بيمينه ويصُدّ بشماله. وإنّ من يَرى قوماً على شرابٍ، فيتطفَّل على شرابهِم، أفضلُ عندي ممّن يتطفَّل على طعامِ الناس.

وهل من شكٍّ في أنّ الوحدةَ خيرٌ من جليس السّوء؟ وأن جليسَ السوء خيرٌ من أكيل السوء؟ لأن كلَّ أكيل جليس، وليسَ كلُّ جليس أكيلاً. فإن كان لابدَّ من المؤاكلة، ولابدَّ من المشاركة، فليكنْ مع مَن يعرف آداب المؤاكلةِ والمشاركة، فلا يُؤثِرُ نفسَه عليَّ بالمخ، ولا يلتَهم أفضلَ ما في الدَّجاجة، ولا يبادِرُ إلى أفخاذِ الطيور، ولا يختَطِفُ كُليةَ الجدْي، ولا يزدَرِدُ قانِصَة الكُرْكيّ، ولا ينتَزِعُ خاصرةَ الحَمَل، ولا يستولي على صُدور الدّجاج، ولا يُسابِقُ إلى صِغار الحَمام، ولا يتناولُ إلاّ ما بين يديه، ولا يمدّ يدَه وعينَه إلى ما بينَ يديِّ غيره، ولا يتشاوَفُ على الإخوان بذِكْر الأمورِ الثمينةِ والغرائب، ولا يَهْتِكُ أستار الناس بأن يتشَهّى ما عَسى ألا يكونَ موجوداً، ولا يَقْدِرُون عليه.

وكيف تصلحُ الدنيا، وكيف يطيبُ العيش، وكيف أحْتَمِل مُؤاكَلةَ من إذا رأُى حُواراً صغيراً على الخِوان، بادَر إلى الأكبادِ والسَّنام؟ ومن إذا وَجَدَ عِجلاً، استولى على أفضلِ ما فيه؟ وإن أَتَوا بَجْديٍ مشوي اكْتَسحه اكْتِساحاً،

وكاد يأتي عليه كلِّه، ولا يرحَمُ كبيراً في السنِّ لضَعْفه، ولا يَرِقُّ لِحَدَثٍ صغير لحِدَّة شهوتِه، ولا ينظرُ للعيال، ولا يُبالي كيف دارت بهم الحال. فإنْ كانَ لابدَّ من المعاشَرةِ والمؤاكلةِ والمشاركةِ فَمَعْ مَنْ لا يجعلُ نصيبَه من مالي أكثرَ من نصيبي.

كلُّ هذا قد يَهون، لكن الأشدَّ من كلِّ ما وصفنا، والأخْبثَ من كلّ ما عَدَدنا، وبيّنّا من صفاتِهم، أنَّ الطباخَ ربما أَتى بطعامٍ طريفٍ صنعه، وربما قدَّم طعاماً غريباً تَعَلَّمَه، والعادةُ في مثل هذهِ الألوان من الطعام، أن يكونَ الطعامُ لطيفاً منظَرُهُ، صغيراً حَجْمُهُ، وليسَ ضَخْماً لا يلْفِتُ العينَ ولا يُسيلَ اللُّعاب، كالهريسةِ، والطعامِ المصنوعِ من الفِجل، ولا كالطعام المصنوع من الكُرُنبِ المسمّى في الشامِ الملفوف. وربما عجَّل في تقديمه لأنه لا يُقَدَّمُ إلا حارّاً، من النارِ أو التنورّ إلى الخِوان، وربما كانَ الطعامُ نفسه لا يَفتُر إلا ببُطءٍ وصُعوبة. وأصحابُنا في سهولةِ ابْتلاعِ الحارّ والبارِد في طباع النَّعام، وقد قالوا إن النَّعامة لَتَبْتَلِع الحجرَ المُحمّى في النار، أو الجَمْرَةَ المتوهجة، أو الحديدَة تكادُ تنْصَهِر، وأنا امرؤٌ لا أقْدِر على الحارّ، بل أنا فيه من طباعِ السِّباع، وهل رأيتُم سَبْعاً يقرَبُ حاراً؟ فإن انتظرت حتى يفتُرَ الطعام، ويُمْكِنَ أكلُه، أَتَوا عليه ومَسَحوا الأطباق، وإن شاركتُهم مخافَة ألا أنالَ منْه شيئاً، لم أكنْ آمِناً من ضررِه.

والحارّ ربما قَتَل، وربّما سبَّب العُقْمَ، وربما سبَّبَ الدَّم في البول.

ثمّ قال: ولست أحكي عمّن لا تعرفون. هذا عليٌّ الأسواري أكل مع والي البصرة الأمير عيسى بن سليمان بن علي، وهو ابْنُ عَمِّ الخليفة أبي العباس السفّاح. فوُضعت قُدّامَهم سمكةٌ عجيبة، فائقة السِّمَن. فجرّد ظهرَها، وكَشَّط بطنَها، وإذا هو مُكَتَنِزُ شحماً، كأنّها عُلِفت. وقد كانَ الأسواريّ قد غَصّ بلُقْمةٍ، وهو من المسوِّغين، فطلبَ الشراب، فلما فَرَغ منه، وقد غَرف من بطنِها كلُّ إنسان منهم بلقمتِه غَرْفة، وكان عيسى ينتخب من يُؤاكِلونُه، ويَلْتذُّ برؤيةِ النّهِمين إلى الطعام، المفتونين بهِ. ورأى الأسواريُّ أنه قد يُخفقُ

في اللَّحَاق بلقمةٍ كبيرة، وخافَ ألا ينالَ نَصيبَه من لحم تلك السمكةِ، وكانَ عيسى أقربَهم إليه، فاستَلبَ منْ يَدِه اللقمةَ بأسرعَ من خَطفةِ الصقر وانقضاضِ العُقاب، وكانت تلك أوّلَ مرةٍ يأكلُ فيها على مائدته. فقالوا له، وَيْحَك! سلبتَ لقمةَ الأمير من يده، وقد رفَعَها إلى فمه، وفتحَ فاه لها، وليس بينكما مُمازحةٌ ولا مُؤانَسةٌ من قبْل. قال: لم يكن الأمرُ كما تقولون، وكَذبَ من قال إنّه كما تصفون. ولكننا أهوينا أيدينا كلُّنا معاً، فوقعت يدي في مُقدَّمِ الشحْمةِ، ووقعت يدُه في مُؤخّر الشحْمة، والشحْم مُلتصِقٌ بالأمعاء، فلما رفعنا يدينا معاً، كنتُ أنا أسرَع حركَة وكانت الأمعاءُ مُتَّصلةً لا يمكن فصلُ بعضِها عن بعض، فتحوَّل كلُّ شيء كانَ في لقمتهِ بتلك الجذْبةِ إلى لُقمتي، لاتِّصالِ الجنس بالجنس والجوهرِ بالجوهر. فكيف تُريدون مني أن آكلَ مع مَن يفعلُ هذه الفِعلة، ثم يقدِّم مثلَ هذه الحجّةَ الواهية؟

ثم قال: إنكم تُشيرون عليّ بإعدادِ الطعام ومشاركتهِ شِرارَ خلق الله وأنذالَ الناس، وكلَّ من يَعتَبُ ولا يُعتِبُ بل يَعيب، وكل من يَثِبُ على أعراض الناس يَنهشُها، ويَتَسرَّعُ في هذا، ولا يردَعُه خُلُـــقٌ ولا دين. وهؤلاءِ الذينَ يَرْضَون أن يَدْعُوَهم الناس، ولا يَدْعُون أحداً، وأن يأكُلوا من طعامِ الآخرين، ولا يُطعمون أحداً، وأن يتحدّثوا عن غيرهم بكل سوء، ولا يُبالون أن يُصبحوا مادةً للحديث والتندّر، هم شِرارُ الناسِ وأنذالُهم.

وهلَ ثمَّة من يجهل مُعاويةَ بنَ أبي سفيان؟ إنه الخليفةُ وفي الذُّروة من قُريش، وهو المشهودُ له بنُبْل الهمّة، وأصالةِ الرأي، وجَوْدة البيان، وكمالِ العقل، وبالثبّات عند التقاءِ الفرسان، وعند تَقَصُّفِ الرِّماح، وتقطُّعِ السيوف.

أجلس معاويةُ على مائدتِه رجلاً غيرَ معروفِ الدار والقبيلة، مجهولَ النسَب، ولم يُذكَرْ عِنده بيومٍ صالح. فأبصر معاويةُ في لقمةِ الرجل شعرة، فقال: خُذِ الشعرةَ من لُقمتِك. وكيف يمكنُ أن يَفهم عاقلٌ هذا القول إلا أنه مَحضُ نصيحة، ومن بابِ الشفَقة عليه فقال الرجل: وإنّك لتُراقبني على مائدتِك مراقبةَ من يُبصِرُ الشَّعْرة في لُقمتي من بعيد؟ والله، لا جلَستُ لك على

مائدةٍ ما حَييتُ، ولأحكينَّها عنك ما بَقِيتُ، والله، لأَنشرنَّها بين القبائل، حتى تسيرَ بها الرُّكبان والقوافل. فلم يدْرِ الناس ولا معاويةُ أيَّ الأمرين كان أجْمَل وأحسن أن يتغافَل عنه ويتركَه يبتلعُ الشعرة! أم أن يُشفِقَ عليه وينصحَه؟ وكان هذا جزاءَ معاوية على دعوتِه وشكرَه لمودّتِه.

وكيف تُريدونني أن أدعو إلى طعامي من إذا رأيتُه يُقصرِّ في الأكل فقلتُ له: كُلْ، ولا تُقصرّ في الأكل، قال: ولم فَطِن إلى الفرق بين المُقَصِّر وغيرِ المُقَصِّر؟ هاهو يراقِبُني لأنه دعاني. وإن قَصَّر وتباطأ في الأكل، فلم أَحُثَّه على الطعام، قال: لولا أن هذا وافقَ هواه لما سَكَت، ولولا أنه لا يُريدني أن أُعجِّل في الطعام لما صَمَتَ.

ثم قال: كان رجلٌ على مائدة القائِد المهلّبِ بن أبي صفرة فمد يدَهُ إلى صاحبِ الشّرابِ يَستَسْقيه، فلم يرَه الساقي، ولم يفطن له. ففعل ذلك مراراً والساقي عنه غافل، والمهلَّبُ يراه، وقد أَمْسَك الرجل عن الأكل إلى أن يُسيِّغَ لقْمَتَه بالشراب. فلما طالَ الأمر، قال المهلَّب: اسْقه يا غلام ما أحبَّ من الشراب، فلما سقاهُ الغلام صبَّ له قليلاً، فأمره المهلّب بأن يزيدَ له. وكان المهلَّب - جُوداً منه وكرماً - قد أوصى غِلمانَه بالإقْلالِ من الماء، والإكْثارِ من الخبز والطعام. قال الرجل، إنك لسريعٌ إلى سَقْي الماء، سريعٌ إلى زيادتِه. وأمسكَ يدَه عن الطعام. فقال المهلَّب: دع عنك هذا يا رجل، فإنّ هذا لا ينفعُك ولا يضرُّنا. أردنا أمراً، ففَهِمْت خِلافَه.

ومن أنا إذا قِستموني إلى معاوية أو إلى المهلّب؟ لا شك في أنهم إلى لحمي أرْتَع، وإلى ذمّي أسرع.

ولكم عِبْرَةٌ في الجارُودِ بنِ أبي سبرة، فإنّه من أفْصح الناس وأنْصَعِهم بياناً وهو راويةٌ عَلامَة شاعرٌ مُفْلِق، ولكم زاجرٌ من سيرةِ أبي الحارث جُمَّيْن المهزار. فقد كانا يُدعيان إلى الموائِد، ويُكرَمان في المجالس، لظَرْف نوادِرهما، وحُسْنِ حديثِهما، ولأن الجلوسَ إليهما يُقصِّرُ النهار. ولكنهما كان يتشهّيان غرائبَ الطعام، ويقترحان على مضيِّفِهما المآكلَ الطريفةَ النادرة،

ويَمْتحنان ما عندَ الناس بالأُمورِ المُكلْفِة، ولم يكونا يَهمُّهما أن يُثـقِلا على الناس بنفقاتِ إكرامِهما، ومع ذلك كان جزاءُ الناس من أحاديثهما عنهم، ما قَدْ علمتم.

من ذلك أن بلالَ بنَ أبي بردة، وإن كانَ والياً، وإن كان محدثاً فَصِيحاً، كان رجلاً عَيّاباً، وكان يتشهّى نهشَ أعراضِ الناس وأشرافهم حتى قال عنه الجارود: ما أمكنني والٍ قَطُّ من أُذنهِ إلا غلبتُ عليه، إلا هذا اليهودي بلال بن أبي بردة.

قال يوماً للجارود: كيف طعامُ عبد الله بن أبي عثمان؟ قال: يُعرَف ويُنكَر. فقال: فكيف هو على الطعام؟ قال: يلاحِظُ مَن كبَّر اللقمة أو أساغَها أو شرّبها. قال بلال: فكيف طعام والي البصرة سَلْمِ بنِ قتيبة بن مُسلِم الباهلي؟ قال: طعامُ ثلاثة، فإن كانوا أربعةً فقد جاعوا. قال: فكيف طعامُ السَرِيِّ صديقِ بشار بن برد، تَسْنيمِ بنِ الحواري بْنِ زياد؟ قال الجارود: كما تُنَقِّطُ العروسُ خدَّها. قال: فيكف طعامُ المنجاب بْنِ أبي عُيَيْنة؟ قال الجارود: يُردِّد دائماً: لا خيرَ في ثلاث أيدٍ في قَصْعة. وهكذا حتى أتى على كل من كانوا يُكرمون الجارود بالدَّعوة إلى الموائدِ، والمؤانسةِ في المجالس، ويخصُّونَه بإحسانِهم، ويُحكمِّونه في مالِهم، وحتى ذَكَر عامّةَ أهلِ البصرة من السُّراة والأشرافِ والمُوسِرين الكرماء. فما نجا منْه ومن لسانِه، إلا من كان يُبْعِدُه عن مجالسته ويُقصيه عن مائدته، كما لم يَنَلْ لسانُه إلا كلَّ من كان يَجّعلُه قريباً، ويُؤثِره بالطَّريف الغالي، والطعامِ إنْ كان غريباً.

وهذا مُويسُ بنُ عِمران، وكان مُترَفاً متكلِّماً مصاحِباً للشعراء، كان يُقرِّب أبا شعيب القَلاّل، وهو ممن يُصاحِبون الشعراءَ والعلماء ويُجالِسونهم، وكان مُويس من أسخى الناس على مُؤاكليه، يَغُضُّ الطَّرْف عن الجالس إلى مائدتِه لئلا يُحرجَه، ولا يُبالي بحفْظ المالِ، ولا يَحْفِل بجمع الكثير، بل يُنفقُ عن سَعَةٍ على إكرام الضّيوف. سُئِل عنه أبو شعيب، فَزَعم أنه لم يَرَ أَبْخَل منْه على الطّعام. قيل: لكننا نعرِفُ عنه غيرَ هذا، فكيف يَصِحُّ ما تقول؟ قال:

يَدُلّ على ذلك طريقةُ تقديمه الطعام. لأنه يصنعُ له شكلاً مُزخْرَفاً مُبَهْرجاً كأنه رسْمٌ في كتاب، ويُهَيِّئُه تَهْيئةَ من لا يُريده أن يُمَسّ، فضلاً عن أن يُؤْكل. وكيف يجرؤُ المرءُ على إفْساد حسْنِ تلك الصنعة، ونقضِ أصناف الطعام المنظومَةِ كالعقد - وتفريقِ ذلك التأليفِ كأنَّها الشعر؟ وقد علِمَ أن حُسْنَ تزويقِ الطعامِ يُبعِدُ الناسَ عن التهامه، وأن جمالَه الخارجي يجعَلُ له هيبَة. ولو كان سخيّاً كما يدّعي، لم يَمْنعْ مؤاكليه من طعامِه بهذا السلاح الذكيِّ، ولم يجعلْ دونَه هذا السَتْرَ من حسْن التنظيم. فحوَّل أبو شُعَيْب إحسانَ مُويسٍ إساءَة، وكرَمَهُ بُخْلاً، واستدعاءَه إلى مائدته نَهْياً عن تناول الطعام.

قال: ثم قيل لأبي الحارث جُمَّيْن: كيف وَجْهُ محمد بن يحيى البرمكيّ على غدائِه؟ وكان محمد بن يحيى رجلاً عاقلاً غيرَ مسرف، فقال أبو الحارث عيْناه عينا مجنون، تكادان تخْرجان من محْجَرَيْهما. وقال فيه أيضاً: لو كان في كفه مقدار مائةِ صاعٍ من الخَرْدل، ثم لعِبَ به كما يلعبُ الصبيان بالكرة والحُفرة، لما سقَطَت من بين أصابعِه حبَّةٌ واحدة. وقيل له: كيف سخاؤهُ على الخُبز خاصةً؟ قال أبو الحارث: والله لو أُلْقي إليه من الطعامِ بِقَدْر ما يَبِسَ من ماءِ السَّحابِ إذا غَزُر وكَثُر وسال، لما تنازَلَ عن رغيف.

وكان الشاعر أبو نواس يرتعي على خِوان إسماعيلَ بْنِ نُوبَخْت، وكان من سُراة البَصْرة ومترفيها، يَتنقّل بين الحُلْو والحامِضِ والمالحِ من الطعام، كما ترعى الإبلُ النباتاتِ الحامِضَةَ بعدَ طُول الرَّعي في الكلأ، فماذا كان جزاءُ إسماعيل بنِ أبي سهل من (أبو نواس)؟ أنه قال:

خُبــــزُ إســــماعيلَ كالوشْــــــــيِ إذا مــــا شُـــقَّ يُرْفَـــا

ولم يكْتف بتَبْخيله بأن شبّه خبزه بالقماش، بل شبَّهه بأنه يبخل على ضيوفه حتى كأن خبزَه كليبُ بن وائِلٍ سيدُ بني ربيعة في الجاهلية، وهو الذي حمى المرعى، فقال فيه:

وما خُبزُه إلا كُلّيــبُ بــنُ وائــلٍ ليالـيَ يحمي عِــزُّه مَنْبِــتَ البَقْــلِ

وكان الشاعر مروان بن محمد الشهيرُ بأبي الشَّمَقْمق ضيفاً دائماً على مائدة جعفر بن أبي زهير، بل كان يأتي معه بضيوفٍ آخرين، وكان يَعيب في طعامِ جعفر، فيقول:

رأيتُ الخبزَ عزّ لديكَ حتّى حَسِبتُ الخبزَ في جوِّ السَّحابِ
وما روَّحْتَنا لتَذُبَّ عنا ولكنْ خِفتَ مَرْزَأةَ الذُّبابِ

وقيل للجّماز: رأيناك في دارِ فلان، وبين يديك قَصْعة، وأنت تأكلُ، فمن أيِّ شيءٍ كانت القصعة، وأيُّ شيء كان فيها؟ فقال: قيءُ كلبٍ في جُمجُمَة خِنزير.

وكان الشاعر الفارس عمروُ بن مَعْد يكرِب في مكّة، وهو الأكولُ الشَّرِه، فمرّ برجلٍ من بني المُغيرة، وهم أكثرُ قريش طَعاماً، وإكراماً للضيف، فأتاه بما حضَرَ عنْده من الطَعام، وقد كان فيه فضلٌ عن حاجة الجائع. فقال عمروٌ لعمرَ بن الخطاب، ويعرف أن بني المغيرة أخوالُه: لئامٌ بنو المغيرة يا أمير المؤمنين. قال: وكيف؟ قال: نزلت بهم، فما قَرَوْني إلا طعامَ العيال. وَعدّ له ما قدّم الرجل. فقال عمر: إنّ ذلك ليُشْبع. ولكنه لا يكتفي، والكريم لا يْذكُر ما قدّم له الكريم.

وكم قد رأينا وسمعنا بمن نَزل من الأعراب بصاحبِ بِضْعةٍ من الإبل هي كلُّ ثروتهِ ومنها معاشُه، فأتاه بلبن وتمر وثريد التمرِ والأُقُط والسّمن وخبز، فأكل، وبات ليلَته، ثم أصبحَ يهجوه، وينعتُه بأقبح النعوت: كيف لم يَذْبح له، وهو لا يَعْرفه، بعيراً من إبله، وهو لا يملك أكثر من خمسة؟ ولو نَحر هذا البائِسُ لكل كلْبٍ مرَّ به بعيراً مخافةَ لسانه لما دار الأسبوع إلا وهو يتعرَّضُ لِمَن يَعْبُرون الطريق، يَسْتجْدي الناس، وَيَسْألُهم ما يسدُّ به رمَقه ورمَقَ عياله.

وسألَ زيادُ بن أبيه عن رجلٍ من أصحابه، فقيل: إنّه يلازِم الدار، ولا يتركُ غَداءَ الأمير. قال: فليأْتِ يوماً بعد يوم، فإنّ ذلك مما يُضِرُّ بالعيال،

فألزموا الرجَل ألا يأتي إلا يوماً بعد يوم. فعابُوا زياداً بذلك، وزعموا أنَّه استثــقل حُضورَه في كل يوم، وأراد أن يَزْجُر به غيرَه، فيُسقِطَ عن نفسه نفقةً عظيمة. وإنما كان ذلك من زيادٍ على جهةِ النظر للعيالات، وكما يَنْظُرُ الراعي للرَّعيَّة، على مذهبِ عمر بن الخطاب. وقد قال الحسن: تشبَّه زياد بعمرَ فَأَفْرط، وتشبّه الحجاجُ بزيادٍ فأهلك الناس، فجعلتم ذلك عيباً منه.

وكان يوسف بن عُمَرْ والياً على الكوفة، وأبوه ابْنُ عمّ الحجّاج بن يوسف الثّقفي، فكان يقولُ للقائمين على مائدته: أعظموا الثَّرِيَد فإنَّه لقمةُ الدَّرْداء والأَدْرد. فقد يحضُرُ طعامَكم الشيخُ الذي ذهبَت أسْنانُه. والطفلُ الذي لم تَنْبت أسنانُه وتقوى بعد. وأطْعِموهم ما يعرفون، فإنه أفضلُ، وأشفى للجوع، وأنسَبُ لأكْل الضعيف. فقلتم: إنّما أراد العَجَلة وسرعَة الرّاحة منهم، بسرعةِ الفراغ من الأكل، وأن يَملأ بُطونهم بالثريد. وقد قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: سيِّدُ الطعام الثّريد. ومثَلُ عائشة في النساء مَثَلُ الثريد في الطعام. ولِعِظَمِ صِفَةِ الثريد في أعينِ قريش سمّوا عمرَو بنَ عبدِ منافٍ هاشماً حين هَشَم الخبزَ وفتّــته، واتّخَذَ منه الثَّريد، حتى غلب عليه اللقبُ، وغلب على أسرتِه من بعده، فسُمُّوا بني هاشم.

وكان عَوْف بن القَعْقاعِ بنِ معبدِ بن زرارة الصحابي التميمي الدارمي يقول لغلامه: اتَّخِذ لنا طعاماً يُشبِعُ أهل الموسم. فلما رأى الخبزَ الرّقاق، والخُبزَ الغلاظ، وألوانَ الشِّواء والطعام، ورأى أن الناس يختاروُن اللونَ من الطعام بَعْد اللون، وكثْرةَ أكلِهم لكثرة ما يَرِدُ عليهم من ألوان الطعام، وأن ذلك لو كان لوناً واحداً لجعَلَ أكلَهُم أقلَّ، قال: فهّلا جعلتَه طعامَ يدٍ، ولم تجعلْه طعامَ يدين. فقُلتم: وسَّعَ على الناس، حين أَمَر لهم بالطعامِ يكفيهم كلهم، ثم ضيَّق عليهم بالثريد، وخليط التمر مع الأُقْط والسَّمْن، وكُلِّ ما يُؤكل بيدٍ دون يدين. وعوفُ بن القَعْقاعِ عَربيٌّ أصيل، كَرِهَ لقومه أن يفُضِّلوا طعامَ العَجم على طعام العرب، وأرادَ دوامَ قومِهِ على مثلِ ما كانوا عليه، وأدرك أن التَّرفَ يُليِّنُهم ويُفسِدُهم، وأنَ الذي فُتح عليهم من بابِ التَّرفُّه، أشدُّ عليهم ممّا

أغلق عليهم من بابِ اللّذائذِ الزائدة. وقد فعلَ عمر بن الخطاب من جهةِ التأديب أكثرَ من ذلك، حين دُعِي إلى عُرسٍ، فرأى قدِراً صفراء وقِدْراً حمراء، وواحدة مُرَّةً وواحدةً حُلوة وأخرى مُحَمَّضة. فجمعها كلَّها في قِدْرٍ عظيمة. وقال: إنَّ العربَ لا علْم لها بهذا، وإذا أَكَلَتْه قَتَل بعضُها بعضاً.

ثم قال الحارثي:

وأعجبُ من كل عجيب، وأغربُ من كل غريب، أنكم تُشِيرونَ عليَّ بإطعام هؤلاء المنهومين، ودعوتِهم إلى مائدتي، فكأني أُشْرِكهم في مالي، ولكنكم لا تفعلون ما تَنصحونني به. فإذا زَعمْتم أنّ مالي أكثرُ من مالِكم، وأنّي أملِكُ أكثّر ممّا تملكون، فإن أحوالَنا متقاربة، وليس بين حالي وحالِكم ما يُوجِبُ أن أُطعِمَ أبداً، وأنتم تأكلون أبداً. ولو أنّكم بذلتم من أموالِكم في أن تُطعِموا الناسَ على قدْر احتمالِكم، لعَرَفتُ بذلك أنَّكم الخير تُريدون، وأنكم بما فيه منفعتي تُشِيرون. وإلا فإنكم تشدُّون اللِّحافَ صوبَ أَرْجُلكم، وفي إنائِكم من ضرْع مالي تَحلِبون. بل أنتم كما قال الشاعر:

يُحِبّ الخمرَ مِــن مــالِ النّــدامَى ويكـــرهُ أن تُفارِقَـــه الفُلـــوسُ

ثم قال:

والله، إنّي لو لم أترك مُجالَسةَ الناس على الطعام وإطعامَهم، إلا لسُوء ما رأيتُه من عليّ الأسواريّ لتركْتُه. وما ظنُّكم برجلٍ نهش قطعةً من اللحمِ ليَنْزَعها عن العظم، فبلَع ضِرسَه وهو لا يدري. فعل ذلك في منزلِ إبراهيم بنِ الخطّاب، مولى سُلَيم.

وما رأيتم عليّ الأسواري على الطعام، ولو رأيتُموه لعَذَرْتمُوني. كان إذا أكلَ ذَهب عقلُه، وجَحَظتْ عيناه، وبَدا ثَمِلاً، وتاهَ بصرُه وتحيَّر، واندَهش وانبَهر، وتغضَّنَ وجهُه، وتاهَ منه السمْعُ والبَصَر. فلَما رأيتُ ما يُصيبُه، وما يصيبُ الطعامَ منه، صرت لا آذَنُ له بالدُّخول إلا ونحن نأكل التّمر والجَوْز وبعضَ البُقول.

وكان يفاجئني وأنا آكل تمراً، فيهجم عليه هجومَ من له ثأرٌ عنده. فَيَسُفُّه سَفّاً، ويرميه في فِيهِ كما يُرمى الحساء وثريدُ التمر والأُقُط والسمْن، ويمدّ يدَه إليه كما يَمُّد البعير يَده للمشي، فما وَجده ملتصقاً بعضُه ببعض، إلا تناول القِطعةَ الكبيرةَ منه كجُمجُمة الثور، ثم يأخذُ بطرفيها، ويرفعُها عن الأرْض، ثم لا يزالَ ينْهشُها طولاً وعرضاً، ورفْعاً وخَفْضاً، حتى يأتيَ عليها، وينتهيَ منها، ولم يفصُلْ تمرةً قطُّ من تمرة. وكان صاحبَ جُمَل، ولم يكن يَرضى بالمتفرّقات، فيتركُ التَّمرْة المنفردة ويأخذُ الكُتَلَ الكبيرة. وما رمى نواةَ تمرةٍ قطّ، ولا نزعَ القِمعَ من رأسِها، ولا نفى عنه قِشْراً، ولا فتَّشَهُ مخافةَ السُّوس والدُّود. ثم ما رأيتْه على طعام قِطّ، إلا وكأنه طالبُ ثأرٍ، أو مطالبٌ بدينٍ قديمٍ، وكأنه عاشِقٌ تكادُ تَقضي عليه شهوتُه، أو كأنَّه من الجوعِ اقْتربتْ مَنيتُّه.

والله يا إخوتي لو رأيتُ رجلاً يُفْسِد الطينَ والأوْحال، ويُضَيِّع ماءَ البحر، لَصَرَفْتُ عنه وجهي، فكيفَ إذا كانَ مثلَ عليّ الأسواريّ وما أكثر أمثالَهَ؟ فإذا كانَ أصحابُ العقل والفِكرْ والرأي والحكمة، وأهلُ الديانة والفلسفة، هذه سيرَتُهُم، وهذا مذهبُهم في الحياة، فما ظنُّكم بالعبدِ الفقير إلى الله، وهو لا يُعَدُّ ما يُعَدُّون، ولا يبلغُ من مراتبِ الفكر والأدب حيثُ يبلغون؟

* * *

حكايات الكِنْديّ

المؤجِّرون لا يتَغيرون

كان عمرُو بْن نُهَيوى والياً للمأمون حتى نكَبَه، وكان الكِنْدي من أصدقائه. ولقد حدَّثْتك من قبلُ عن الكِنْدي، وهو من رؤوس البُخل، ومن الذين دافعوا عنه، وأوردوا الحُجج في تفْضيله، وقد كانت له دُورٌ يؤجِّرها، وقد حدّثني عمرُو بن نُهَيوى عنه فقال:

كان الكِنْدي يقول لمن يسْكنُ في إحدى دوره، وربما قال للجيران أيضاً: «إنّ في الدار امرأةً حاملاً. والحُبْلى تَوْحَم، فإذا وَحَمت شيئاً ولم تَــنَلْه ربما أسقطت جنينَها، وَوَحَمُ الحُبْلى ربما يكونُ على ريحِ القِدْر الطيبَة. فإذا طبختمُ، وفاحت ريحُ قُدُورِكم، فردُّوا شهوتَها ولو بِغَرْفة، أو حتى بلَعْقة من الطبيخ، فإن شهوة الوَحْمى ربما يردُّها الشيء اليسير، وها أنا قد أعلمتُك، فإن لم تفعلْ، وأسقطت فجأةَ، فَدية جنينها في عُنقك، وكَفّارتُك أن تُعْتِقَ عَبْداً أو أَمَةً، سواء رضيتَ بهذا وألْزَمْت نفسَك به، أو أبيتَ ذلك». قال عمرو: فكان منهم مَن يصدّق الحكاية، ويُرْسِلُ إليه قصعةً من طبيخه، وربما صار في منزله من قِصاع السكّان والجيران ما يكْفيه لأيّام. وكان أكثرُهم يفطنُ لخُدْعته ويتغافَل. وكان الكِنديّ يقولُ لِعياله: أنتم أحسنُ حالاً من عِيال أربابِ الضِّياع وأصحابِ المَزارع. إنّما لكل بيت منهم لونٌ واحد من الطعام، وعندكم ألوان.

وقال عمرو:

كنتُ أتغدى عندَه يوماً، إذ دخلَ عليه جارٌ له، وكان الجارُ لي صديقاً. فلم يَعْرِض عليه الكندي الغداء، واستَحْيَيْتُ أنا منه، فقلت: لو أصبْتَ معنا ممّا نأكل. قال: قد تغدّيتُ والله. فصاح الكندي: ما بعد الله شيء. قال عمرو: فكَتّفه

والله يا أبا عثمان تكْتيفاً، وقيّده بكلامِه قيداً لا فكَاك منه. فلا يستطيعُ التراجع. فلو مُدّ يده إلى الطعامِ لكانَ كافراً، أو لكانَ قد جعلَ معَ الله جل ذِكرُه شيئاً.

وقال عمرو:

بينما أنا عنده ذات يوم، إذ سمع صوت انْقلاب جرّة من دارِ النساء، فصاحَ، ما هذا القَصْف؟ فقالت جارية مُجيبةً له: بئْرٌ وحياتِك، فطمْأَنَتْه إلى أنه لم يخْسر إلا ماءَ البئْر المالح، وكانت الجارية في الذكاء أفضلَ منه في السؤال والاسْتقصاء.

وقال لي مَعْبد:

نزلنا بدارٍ للكِنديّ أكثر من سنة، نساعده في كِراء البيوت، ونروج لها عند الساكنين، ونقضي له الحوائج، ونفي بالشرط. قلت: قد فهمْتُ ترويج الكِراء، وقضاء الحوائج، فما معنى الوفاء بالشرط؟ قال: كان يَشْترط على السكان أن يكون له روْثُ الدابَّة، وبَعْرُ الشاة، وما ترمي الدابّة منْ علَفِها، ونوى التَّمْر، وقُشورُ الرمّان، وألاّ يُلْقوا عَظْماً، ولا يرموا كُناسة الدار، لأنه يستفيدُ من هذا كله فيجعله وَقُوداً. وكان يَشترط غَرْفةً من كل قِدْرٍ تُطْبَخ للحُبْلى الوَحْمى في بيتِه، وكان في بيته دائماً حُبْلى وَوَحْمى. وكان بعد هذا كلِّه يمُنّ عليهم، فكأنه ينزلهم في داره ابْتغاءَ الأجر والثواب. ولكنهم كانوا يعلمون طيبةَ قلبه، وإفراط بخلِه، ويعرفون حُسْنَ حديثه، فكانوا يحتملون منه كل ذلك.

قال معبد: وذات يومِ قَدِمَ لزيارتي ابن عمٍّ لي ومعه أحد أبنائه. فوصلتني رقعة من الكِنْديّ يقول فيها: «إن كان هذان الزائران سيقيمان ليلةً أو ليلتين، احتْملْنا ذلك، وإن كان إطماعُ السكان بالليلةِ الواحدة، قد يجرُّ علينا طمعَ الآخرين بالليالي الكثيرة». فكتبتُ إليه «إن الزائرين لن يقيما عندنا أكثر من شهْرٍ أو نحو ذلك» فكتبَ إليّ «إن هذا يعين حساباً جديداً. إن أجرةَ الدار التي اكْترَيْتَها ثلاثون درهماً، وأنت وزوجك وأولادك ستّة، فيكون كل رأسٍ بخمسة. وإذ زاد العدد اثنين، فلا بد من زيادة خَمْستين، فأجرة الدار عليك من يومك هذا أربعون

درهماً». فاستغربت هذه الطريقة في الحساب، وكتبت إليه: «وما يَضرُّك من مقامِهما عندي؟ وهل سيَثْقُل جَسَدا هذين على الأرض التي تحمل الجبال؟ وهل نفقتهُما عليّ أم عليك؟ فاكتب إليّ بالسبب الذي يدفعك إلى هذا لأعرفه». ولم أدْرِ أنّي فتحت على نفسي باباً من أبواب جهنم. ولم أعلم أني هجمت على وكر الزّنابير، وأني أوقعت نفسي في مصيدة لسانه. فكتب إليّ يقول:

«أما الأسبابُ التي تدعو إلى هذا فكثيرة، وهي قائمة معروفة. من ذلك سرعةُ امتلاء البالوعة، وما في تنقيَتِها وتنظيفها من الكُلْفة والنفقة. وأنتم تعلمون أننا طيّناً السطوح، وجصّصنا أرضَ البيوت، وسوَّينا الدرج. فإذا كثرت الأقدام في الدُّور بكثرة السّاكنين، كثُر المشْي على الأرض والسطوح، وكثر الصّعُود والنزُول فيتقشّر الطيْن، ويَنقلِع الجِصّ، وتتكسر عتبات الحُجَر، وتنثني الجُذُوع التي تحمِلُ السقُوف، لكثرة من يطؤونها، وقد تنكسِر لما زاد من الثقل فوقها.

وإذا كَثر السكّان، كثُر الدُّخول والخروج، وفتْحُ الأبواب وإغلاقها وإقفالُها، وفي كل دخولٍ وخروج جذْب للقُــفل، وصفقٌ للأبواب، وهذا قد يُفْضي إلى تهشيمها، أو تكسيرها، أو خَلْخلتها، وقد تنقلع حديدة القُفل من مكانها، فنحتاج إلى تثبيتها. وإذا كان الكبار ينتبهون لهذا، ويراعون الله في حركاتهم، فإن الصغار لا يفعلون. فإذا كثروا في الدار، وتضاعف هذا الخليط، نُزِعت مسامير الأبواب، وقُلِعت كل حدائد الأقفال من أمكنتها. وقد يلعبُ الأطفال «الزّدُو» وهذه تحتاج إلى حُفرٍ لرمي الكرة فيها، وإلى عِصِيٍّ لضرب الكرة، فيحفرون الأرض ويهشمون البلاط. وإذا كثر الساكنون وعيالُهم، كثرت أغراضهم وملابسُهم، وهذه تحتاج إلى خطاطيف لتعليقها، أو إلى رفوف تُوضَعُ فوقَها، وهذا يعني تخريباً للحيطان.

وإذا كثُر العِيال والزوّار، والضيوف وضيوفُ الضيوف والقادمون للتسليم على الزوّار كثُر الاحْتياجُ إلى الماء، وكثرت الجِرارُ الكبيرة

والصغيرة والتي يقطُر منها الماء والتي ترشحُه، وتضاعفَ الماء في الدار أضعافاً مُضاعفة. والجرة بجانب الحائط، ترشح الماءَ أو يقطرُ منها، فيتآكل أسفل الحائط ويمتد رشح الماء إلى أعلاه، وقد يسترخي أساس الحائط وقد يؤدي هذا إلى تداعي بُنيانه.

وكلما زاد عدد الساكنين، زاد الاحتياج إلى الخبز والطعام، فيزداد إشعال النار للخبيز والطبيخ والتسْخين. والنارُ لا تُبقي ولا تذر، وما الدّور إلا حطبٌ لها، وكل ما في الدور من مَتاع طعامٌ للنار. فكم من حريق أتى على الدار كلها، فكلفتم أهلها النفقات الكثيرة لإصلاحها، وقد يأتي ذلك عندما يكون أهلها في عُسرة وشدّة حال. وربما تعدى شرارُ النارِ الدار إلى دور الجيران، وربما امتدّ إلى الأموال والأبدان.

ولا يكتفي الناس حينئذٍ بأنهم لا يقدّرون بَلِيّة صاحبِ الدار، ولا يعرفون المصيبة التي حلّت به، بل يتشاءمون به، ولا يزالون يستثقلون ذكره، ويكثرون من لومه وتعنيفه، فكأن المسكين لا تكفيه مصيبته بل صار مسؤولاً عما فعل غيرُه.

وأرضُ الدار رحبة، وفي صحنها مُتّسع، ومع ذلك فإن بعض الساكنين لا يحلو لهم إشعالُ النار، واتّخاذُ المطابخ إلا في العلالي، على ظهور السُّطُوح. ولا يقدّرون ما في هذا الفِعل من أخطارٍ قد تُحِيق بالأنْفُس والأمْوال، وتَعرُّض حُرمة الدور لتدخُّل أهل الفساد، إذا شبّ فيها حريق. مع ما في ذلك من كشْفٍ للأسرار المكتومة، وما يختفي وراء الأستار. وقد يكون في الدار ضيْفٌ استتر بالعتْم، أو ربٌّ بيت يتوارى بين أهله، أو شراب يُخفيه عن الآخرين، ثم قد يكون في الدار مال أُريد دفنُه، فيأتي الحريق فيُلْهي الناس عن هذا كله. وثمة حالات كثيرة، وأمور لا يُحِب الناس أن يُعرفوا بها.

والساكنون قد ينصبون تنّوراً، أو مَوْقِداً للقدورِ الكبيرة والصغيرة فوق السطوح، وهل السطحُ إلا خشبٌ وقَصَب وفوقَه طينٌ رقيق لا يقي من شيء؟

فكيف يحتملُ هذا السطح التنّور والموقد؟ وهل من الغريب أن تمتد النار إلى خشب السطح وقصبه فتُحرقَه؟ فإن كُنتم تفعلون هذا وأنتم عالمون بعواقبه، وما قد يصيبنا من الضرر بسببه، فهذا أمر عجيب. وإن كنتم لا تهتمون بحقّنا عليكم في أموالنِا، وحق أموالكم عليكم، فهذا أعجب.

وكثيرٌ من أصحاب الدُّور لا يملكون ما يستعينون به على قضاءِ حوائجهم، وتوفيرِ متطلبات حياتهم، إلا ما ينالون من كِراء دورِهم، وكثيرٌ منكم يتأخرون في دفع الكِراء، ويُماطِلون في الأداء، ويدّعُون القِلّة والحاجة، وتأخذ صاحبَ الدار الشفقةُ عليهم، وقد يُمهلهم، حتى إذا اجتمعت عليهم شهورٌ، فرّوا دون أن يدفعوا درهماً واحداً، وخلّوا أصحابَ الدور جياعاً يتندّمون على ما كان من إحسانِهم، وشفقتهم على الساكنين وإمهالهم، فكان جزاؤُهم وشكرُهم اقتطاع حقوقهم، والفرار بأقواتهم.

ويأتي الساكن منكم لاكْتِراء الدار، فتتنوع مطالبُه، ويشترط الشروط فنلبِّيها له. ولا نسلمه الدار إلا بعد أن نكنُسَها ونُنظِّفها، ونصلح ما تَــقَشَّر من حيطانِها، وما امتلأ بالحُفَر من أرضِها، بسبب الساكن قبلَه وعياله. كل هذا لتحسُنَ في عين المستأجر، وليرغبَ فيها الناظر. فإذا خرج منها، ترك فيها مزبلة وخراباً، وعادت أسوأ مما كانت قبل أن نُصلحها، وكلّ هذا يتطلّبُ نفقةَ موجعة لإصلاحه. ثم لا يترك حديدة لِتَرْس الباب إلا مضى بها معه، ولا سُلَّماً إلا حمله، ولا ما نُقِض من البناء أو ما زادَ من مواده إلا حَمله، ولا إناء لتبريد الماء إلا سرقه فكأنّ الدارَ غنيمةُ حَرب.

ثم يحتاجُ إلى دقّ الثوب لتنظيفه، وإلى سحْق المواد بالهاون، فلا يحلو له الدقّ إلا في أرض الدار. وقد يدقّ على الجذوع التي تحمل السقوف وعلى حواضِن الأبواب، وعلى عتبات الأبواب والنوافذ والشرفات، وإن كانت الدار قد بُلِّطت بالقرميد، أو فُرِشت بالآجرِّ، وقد كان صاحب الدار قد جعل في ناحية منها صخرة، ليكون الدقُّ عليها، ولتكون واقية لأرض الدار من

الخراب، لكن القسوة والتهاونَ والاستهتارَ بمال الآخرين والغِشَّ وانْعِدامَ المروءة يدعو الساكنين إلى الدقِّ حيث جلسوا، وإلى عدم الاهتمام بالدار مهما أفسدوا فيها. ولا يزيدون في الأجرة، ولا يطلبون السماح من صاحبها، ولا يستغفرون الله مما أحدثوا. ثم يستكثر واحدُكم إخراج عَشَرة دراهم في السنة، ويذمُّ صاحبَ الدار لأنه لا يُخْرِج ألفَ دينار في الشهر. فيتذكَّر ما يصيُر إلينا مع قِلَّته، ولا يتذكر ما يصيرُ إليه مع كثرته.

وتعلمون أن مُضيّ الأيام يَنقُض ما أُحْسِن فتْـلُه وجَدْلُه، ويفَرِّق كل جمعٍ مجتمع، ويحيلُ كل جديد قديماً بالياً، وهكذا تفعل الأيام بالدور كما تفتِّتُ الصخور، وهي تأخذ من المنازل كما تأخذ من كل رطْبٍ ويابس، وهل رأيت رطْباً إلا أيْبسَتْه الأيام؟ وهل رأيت يابساً إلا هشمته الأيام؟ وهل رأيت مهشّماً إلا نثره الزمان وفرّقه حتى لم يبق منه شيء؟

والمنازل لا تعيش أبداً، ولا تخلُد على مرّ الزمان، فلابد لها من أن تـنهدم، بل إن لها عمراً محدداً وهو قصير، وبعده إلى الانهدام تصير. والساكن فيها هو من تمتع بها عندما كانت جديدة، وهو من انتفع بمرافقها، وهو من أحالها قديمة بالية أقرب إلى الانهدام، وهو من أحالها كئيبة دميمة بعد أن كانت مشرقة وضيئة، وبسكناه فيها مع عياله هرمت، ونقَصَ عمرُها، لسوء تدبيره، واهتمامه بأمورِه، دون اهتمام منه بصاحبها ومصيره.

وهكذا يكون على صاحبها أن يعيد بناءها بعد انْهدامِها، وفي هذا غُرْمٌ كبير وخسارة عظيمة، ولا ننسى أن صاحبها يخسر أيضاً في ترميمها وإصلاحِها مرة بعد مرة، كلما تركها ساكن وسكنها ساكن جديد. فإذا قسنا هذا الغُرمَ بما أخذه من أجرتها، فإننا نجد صاحبها وقد لحِقَ به من الخسارة، بقدْر ما جنى ساكنها من الأرباح. إلا أن ما انفق المؤجرِّ على الترميم والإصلاح وإعادة البناء خرج جُملة، بينما كان يتقاضى غَلَّتَها وأجرتَها متفرقة، ودراهمَ بعْدَ دراهم.

كل هذا مع سوء الدَّفْع، والمعاناة من المماطلة والمنْع، ومع بُغْض الساكن للمُسْكِن، وحب المُسْكِن للساكن. فهو يدعو له بصحة بدنه وعافيتِه، وبأن يزيد الله في رِزْقِه، ورواج بضاعته إن كان تاجراً، وإقبال الناس على صناعته إن كان صانعاً، بينما يدعو الساكنُ اللهَ ليل نهار أن يشغلَ عنه المسكن كيف شاء. إن شاء شغله بمرض في جسده، أو ألم في عينيه، أو مصيبة من مصائب الزمان، أو تُهمة ترميه في الحبس، أو أن يزوره مَلَك الموت. لا يهمَه بم ينشغل، كل مناه أن ينشغِلَ عن مطالبته بالكِراء، حتى لو حل به البلاء، وكلما طال انشغال المُسْكِن، رأى الساكِن أنه في مأمَن.

لكنه، إن قلّ الروَاج في تجارته، أو دبّ الكسادُ في صناعته، سارع يشكو إلى المُسْكِن، يطلب التخفيف مما عليه أن يدفع من الأجرة، بينما إذا راجت تجارتُه، وجنى الأرباح الوفيرة، وأقبل الناس على صناعته، لم يقبل أن يزيد قيراطاً فيما يستحق عليه من كِراء، ولم يُسارع إلى دْفعِ الأجرة قبل موعد الاقتضاء.

وبَدلَ أن تكون الأجرة قِطعاً صحيحة، يدفع أكثرَها من القطع الصغيرة، فإن كانت من الأنْصاف والأرباع، حوّلها إلى أصغر قطع النقود، فكأنه يريد تفتيتها. وما ذاك إلا للتحايل، فلا يدع درْهماً مردوداً، أو متَّسخاً مُسْوَدّاً أو زائفاً، ولا ديناراً غير أصيل بل مغشوشاً، إلا دسّه في الغلّة، وأخفاه بمهارة، واحتال بكل حيلَة، واتّبع كل وسيلة ليدفع به الأجرة. فإن اكتشف أصحاب الدُّور بعد ذلك غشه، وردّوا إليه شيئاً من النَّقْدِ ليعطيهم صحيحاً سليماً بدلاً منه، حلف الأيمان المغلظة، بأنه ليس من دراهمه ولا من مالِه، ولا رآه قَطُّ من قبلُ، ولا كانَ في كيسِه وحلالِه.

فإن كان ربُّ الدار قد أرسل جاريته، فإنه يغريها ويُغويها، وربما حضّها على الفساد، وربّما حبّلها، وربما أحْبَلَها. وإن كان قد أرسل غلامه فربما خدعه وأغواه، ولعب بعقل الغلام على هواه. هذا مع التجسس على الجيران والتنصُّتِ لأحاديثهم، وتتبُّع سوءاتهم، والتعرض لنسائهم وبناتِهم،

لإفساد العقول، وإغواء ربّات الحجول. ومع اصطياد طيورهم، فكأنها من طيور البرّ لا أصحاب لها، فيأتي الجيران يشتكون لأصحاب الدور، وقد يهددون بأفظع الأمور.

وربما عَمَدَ الساكن إلى استضعافِ عقول الجيران، وطمِعَ في فسادهم وعيبهم، فقد يحضّهم على إتباع الشهوات، ويفتحُ لهم أبواباً من النفقات، فإذا اشتكوا قلة المال، عمد إلى إطماعهم، وأعطاهم المال إلى آجال. حتى إذا استوثق منهم، عجّل عليهم بطلب الدين، وضيّق عليهم، وشهّر بهم، فلا يجدون مفراً من بيعِ بعض الدار أو رهنِها كلِّها، تجنباً للعار، فيسترد الساكن أصل ماله، ويربح ما لم يكن ليربح من أي تجارة، ويقيم في البيت دون أن يخسر شيئاً. وربما تحوّل الرَّهْن إلى بيع، إذا ضيق عليهم قبل المهلة، وادّعى قبل الأجل، فيكون قد أخذ الدار بنصف ثمنها أو رُبْعه.

وربما بلغ من استضعافِه صاحبَ الدار، واستثــقالِه أداء أجرتها، أن يدّعي أنّ له حصّة فيها، وأنّ له فضلاً على صاحبها، ليصير خصماً من الخصوم المتنازعين عليها، بعد أن كان غاصباً لها.

وربّما أخذ مفتاح الدار ومعه امرأة يرتكب معها الفاحشة، فيدّعي أنها زوجته، وأنهما يريدان تفقُّدَ المنزل ومعاينته تمهيداً لاستئجاره، فيدخل المنزل ساعة، ويقضي وطره من المرأة، ويرد المفتاح.

وربما استأجر المنزل، فوجده يحتاج إلى بعض الترميم والإصلاح، فيشتري صاحب الدار بعض ما يلزم لذلك، ثم يبحث عن عامل ماهر في صنعته، وصبيان له، معهم ما يلزم من الأدوات والعُدَّة. فإذا شُغِل العامل وصبيانه، أو غَفَلوا، أخذ الساكن ما يقدر عليه من أدواتهم، وتركهم يتسكعون، ويلاحقون صاحبَ الدار للتعويض عليهم.

وربما استأجر الدار، لا لأنها أعجبته، بل لأنها إلى جنب السجن، لينْقُبَ أحدٌ من السجناء الجدار إلى الدار ويهرب فيقع صاحب الدار في ورطة مع

الشرطة. أو إلى جنبِ صرّاف، لينقُبَ المستأجر الجدارَ إلى داره، ويستولي على ماله، وما استأجر الدار إلا لتكون له المدة الكافية لإتمام خطته، مطمئناً إلى عدم الشكِّ فيه.

وربما ارتكب الساكنُ جناية تستوجبُ هدمَ الدار، كأنْ يقتلَ قتيلاً ويخفيه في صحن الدار، أو ربما جرّح شريفاً، أو سيداً من السادة، بأن أغوى جاريته، أو أفسد غلامه، فيأتي ذوو السلطان الدار، وأهلها إما غائبون، أو أيتام محرومون، أو ضعفاء خائفون، فلا يقنع ذوو السلطان إلا بهدم الدار وتسويتها بالأرض.

وبعد، فالدّورُ مدعاة للنحْس والشُؤْم، وأصحابُها تتوالى على رؤوسهم المكاره والمصائِب والنوائِب، وهم أطيب الناس قلْباً، وأشدهم اغتراراً بالناس، وما أكثر ما يُخدعون. لأن من سلّم دارَه ببنائِها وخشبِها وأبوابِها، حتى لو كانت مجهزة بالحديد، مُذهَّبةَ السقوف، إلى رجل مجهول لا يعرفه، فقد عرض نفسه للخديعة، وداره للخطر. وقد صار كالمُودِعُ، وصار المستأجر كالمُستودِعِ، أو صار صاحبها في موقع الرّاهنِ، وصار الساكن في موضع المُرْتَهِن.

والخيانة في التعامل، وسوء الإشراف على ما تولى امرؤ أمره، فاشية في الدور أكثر منها في غيرها من الودائع. إن أصلح السكان حالاً، من إذا وجد في الدار ما يستوجب الإصلاحَ والترميم، فأخبر أصحابَها، ففوضوه بالإنفاق على ترميمها، وأن تكون النفقة محسوبة من غلتها، تراهُ يبالغ في الزينة والبناء، ويزيد في الحساب عند الاقتضاء، فما ظنّك بقوم هؤلاء أصلحهم وخيارُهم؟ هل يأمن الشرَّ جارُهم؟

ولا تكتفون بهذا، بل ربما أجَّرْتم ما استأجرتم من غيركم، بأكثر مما دفعتم من الأجرة. فتراكم تُلحوّن عليهم وتضيّقون، فلماذا لا يكون تعامُلكم معنا مثلما تعاملونهم؟ ولماذا لا تدفعون ما عليكم، مثلما تتشدّدون في تقاضي ما يعود إليكم؟ وربما بنيتم في الأرض التي تستأجرونها، فإذا صار لكم بنيان - وإن كان بسيطاً - ادَّعَيْتم الشراكةَ، ون كانت الأرض لغيركم.

وثمة فعل شنيع آخر من أفعالكم، هو أنكم خرّبْتم دورَنا وهي أصولُ أموالِنا وقلَّلْتم من شأنها وهي غَلاّتُنا، وكان لسوء مُعاملَتكم تأثير كبير في انحدار أثمان الدّور، حتى لم يعد أحد يرغب في شرائها. وسقطت غلاّت الدور من أعين الموسرين وأهل الثروة، بل حتى من أعين عامة الناس وسُوقتهم وأرذالهم. حتى تجنبكم أهل المالِ والثروة بكل حيلة، وأبعدوكم بكل وسيلة، وتاجروا بأموالهم في كل أمر خطير، ليتجنبوا تأجير الدور، حتى قال عُبَيد الله بنُ الحسن قولاً أرسله مثلاً، وصار حجة على من لم يحسن التدبير، ومن أصرّ على التأجير. وذلك أنه قال: «غَلَّة الدار تُمسك عليك بدنك كي لا تمُوت، وغلّة النَّخْل تكفيك نفقات العيال والقوت، وإنما الغلّة غلَة الأنعام وزراعةِ الأرض عاماً بعد عام». وما الذي جعلنا في أعيُن الناس من الجاهلين المغفّلين؟ لا شيء إلا أننا نقاضيكم بقلب طيب، وحسن نية، ونصبر على مماطلتكم وتسويفكم. فنجدِكم تدفعون الأجرة مقطعة متفرقة، وهي عليكم جملة، وتجحدون حقوقَنا ومالنا، ولا ترحمون حالنا. وهكذا صارت غلّات الدور أَقلَّ بركة، وأخبث أصْلاً، وإن كانت الدور أغلى ثمناً، وأكبر دخلاً، من سائر الغلات.

فأنتم شرٌّ علينا من الهنود والروم والتُرْكِ والدَّيْلَم، بل إن أذاكُم أسرع، وفي الشرِّ أدْوَم. هذه بعض صفاتكم وحيلكم ومعاملاتكم في اكْتراءِ البيوت، ولابد لكم منها، وأنتم لها مضطرون، فكيف لو اختبرناكم في أمور أنتم فيها مُختارون؟ وكيف لو كانت أمور بيع وشراء ينتقي واحدكم ما يشاء، وليست أمورَ كِراء واكتَراء؟

وهذا مع قولكم: إن السكن في دارٍ باكْترائها، خير من السكن فيها بشرائِها. ولستُم غافلين ولا مُغفَّلين، فقد قلتم: إن من اشترى داراً ليسكنها، جمّد ماله وقيّد نفسه، وصارت له محنة وتجربة، وفتح على نفسه باباً من النفقات لا ينتهي. ومن اشترى داراً، فقد أقام لنفسه كفيلاً مؤكّداً، واشترط على نفسه شرطاً محدّداً. فإن قصّر في دين صادروها، وإن غضب عليه ذوو

السلطان خربّوها. إن غاب عنها حنَّ إليها، وانشغل بها مخافة عليها، وإن أقام فيها، ألزمته النفقات، وقد تجر عليه المشاكل والعداوات، فقد يُبْتلى بحار السوء، وقد يكره عيشه وجيرانه، وقد يتمنّى أن يغيّر مكانه، وقد تكون بعيدة عن المسجد، وقد يُتعبه التردد على السوق، وقد لا يجد حوائجه في جواره، وقد يرى أنه أخطأ في اختيارها، ويتمنى لو أنها لم تكن ملكه، ولو أنه لجأ إلى استئجارها، ويحسدُ من كان أصوب منه رأياً وأعقل حكماً، لأن ذاك اكترى، وهو اشترى، فصار عبداً لداره، وخادماً لجاره.

أما من استأجر فإنه سيِّدُ قرارِه ومالك خيارِه، والأمرُ إليه في كل وقت، فكل دار هي له متنزه إن شاء، ومتجر إن شاء، ومسكن إن شاء. لا يحتمل فيها أيّ إذلال، ولا أقلّ القليل من الظلم، ولا يجور عليه ساكن، ولا يتحمل هوان المساكن. لا يحترس من الحساد الشامتين، ولا يداري المراوغين المتعللين. بينما نلقى كل يوم صاحب الدار، يُسقى بكأس الغيظ، ويتجرع المرار، يكدّ كالأجير في طلب ما هو حقّه، ويحتمل الأذى والمذلّة، وإن كان صاحب أَنَفةٍ وكبرياء. إن عفا، فإنما يعفو وهو يكظمُ غيظَه، وأين الناصح الشَّفُوق؟ إنما يفسرون طيبة قلبهِ وحسن طويته، بعجزه عن طلب حقّه واستيفاء مكافأته. وما أكثر الذين يقابلون الإحسان بالإساءة. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الجارُ قبْلَ الدار، والرفيقُ قبْل الطريق».

وما كفاكم هذا كلُّه، ولم تقدروا حُرمةَ المساكنة وحقَّ الجوار، ولم تتذكروا حاجتكم للسكن، وأنّا قدّمْنا مبتغاكم، ولم نطلب إلا رضاكم، ونسيتم أننا أمَّنا لكم المسكن المطلوب، فرُحْتم تشيرون على الناس بترك الشراء والاكتفاء بالاكتراء.

ورُحْتم تزعمون أن دفعَ الكراء أهون من شراء المنزل، لا سيما أنه مبلغ بعد مبلغ، ودراهم بعد دراهم. ورحتم تصورون شراء البيت شدة من الشدائد، ومصيبة من المصائب، وأن كِراءَ الدور وإن كان مصيبة، أخفّ من

شرائِها. لأن المصيبة إذا وقعت جُمْلة كانت فادحة لكنها إذا تفرقت وتقطّعت، مرَّ بها المرء دون خسائر تُذكر، ولا يُحِس بالمصيبة إلا من ابتُلي بها، وكانت عليه أمراً يُنكر. ومال الشراء يخرج جملة، فيكون تأثيره في غلّة المرءِ كبيراً، فكأن الغلّة جسد تلقى طعنة نافذة. وليس كل خَرْق يُرقَع، ولا كل خارج يَرْجِع.

وقلتم إن من اكتفى بالكِراء، وامتنع عن وضع ماله في الشراء، أَمِنَ أن تمتد النار إلى داره فتحترق، أو أن يصيبها المطر والسيل بالغرق، وأَمِنَ ميلَ الأعمدة، وانكسارَ العوارض الحاملة السقف، واسترخاءَ أساس البيت بسببِ الأمطار، ونذالة المستأجرين والجِوار، وتقشُّرَ الجدران، وكلّه سبب لخسارةٍ بعد خسارة. وأَمِنَ سوءَ معاملةِ جاره، وحسَدَ مُشاكِلٍ وكارِه، وأن من عمد إلى الشراء، كان إمّا في بلاء، أو متوقعاً أن يكون في بلاء.

وزهَّدْتُم الناس في صرف المال في شراء الدور، وقلتم إن الأفضل الكراء وصاحب المال يعمد إلى تصريف ثمن الدار في وُجوه التجارات، فهو له أَرْبح، أو إلى تحويله في أنواع الصناعات، وهو له أنفع، ويكون أَعقل وأَحْصف. وإن لم يكن هذا ولا ذاك، ففي ما وصفناه له من أبواب الخسارة ما ينهاه عن هذا الفعل الأحمق، ويزجره عن أن يكون بين الناس أخرق. والعاقل الذي يسمع نُصْح الناصحين، ليتعقّل ويستْبين.

وما همَّكُم كساد الدُّور، وفساد أثمانها، وإن صارت الدور المعروضة لِلكراء أكثر من همومِ الفقراء، وفي هذا ما جرَّأَ المستأجر، وقلّل غلة الدار، وسبب الخسارة في أصل المال. وبعد هذا تزعمون أنكم حين أبعدتم الناس عن الشراء، كنتمُ تحثونهم على الكِراء، وأنكم بهذا أحسنتم إلينا، لأنكم تروّجون، دُورَنا، وما يتبع ذلك من الرخاء والنَّماء. وحقيقة الأمرِ أنكم أحرصُ على ضُرِّنا، وأبْعدُ عن السَّعْي إلى نفعِنا.

وما أكثر الخصالَ المذمومة فيكم، وما ذكرنا بعض منها، وكلها تقيم الحجّة عليكم، وتدينكم، وكلها تدعونا إلى توجيه التهمة إليكم، وأن نحذَركم كما

يجب على المرء أن يحذرَ عدواً مُبيناً. وقد كنت أتمنى والله أن أجد لكم صفةً واحدة أحْمَدُها، وأن أرى في علاقة أصحاب الدُّور بالمستأجرين جانباً واحداً يجعلنا نثق بكم، ونرضاكم.

وقد بيّنا لكم أن حُكْم الضيوف النازلين عليكم كحكم المقيمين في الدار، وما يصحُّ على هؤلاء، يصحّ على أولئك، وأن كل زيادة في عدد السكان تتبعُها زيادة في الأجرة. ولو تغافلتُ لكَ يا أخا البصرة عن زيادة رجلين، لما استغربت، بعد أن رأيت منك ما رأيت، أن تجعلَ هذا حجّةً علي، وتُلزِمني به، فيصيرَ عُرْفاً، ويصير تأجير الدار لواحد كتأجيرها لألف، دون أي زيادة، ولما عدت أعرف المقيم من المسافر، ولا القادم من الذاهب، ويصير البيت كالخان. على أنّي لو سكتُّ عن مطالبتك بالزيادة، وتغاضيتُ عن تعريفك ما يتوجَّبُ عليك، ورأيتُ في هذا نوعاً من الإحسان إليك، لذهبَ هذا الإحسان باطلاً، إذ تحسَبُني عما تفعله غافلاً، ولا توجب لي حقاً في الزيادة. ولا يصحّ فيكم غير قول عنترةَ بن شدّاد:

نُبِّئتُ عَمْراً غيرَ شاكِرِ نِعْمتي ... والكُفْرُ مَخْبثةٌ لِنَفْسِ المُنْعِمِ

وقول الشاعر:

تَبدَّلتُ بالمعروفِ نُكْراً وربّما ... تنكَّرَ للمعروفِ من كان يكفُرُ

وكأنّك في مطالبتك، تريدني أن أمحو بُغضَ المعتزلة من جماعة واصل بن عطاء للشيعة، وأن أصلح الخلاف المستحكم بين أهل الكوفة والبصرة وبين قبيلتي أَسَد وكِندَة، وبأن يحبَّ الساكن صاحب الدار. والله المستعان عليكم جميعاً. والسلام.

* * *

تلميذ الكِنْديّ ينشر أفكارهَ

قال إسماعيل بنُ غَزْوان، وقد حدثتك عنه من قبل، وكان من البخلاء المعدودين ومن الذين ينتصرون للبخل ويُدافعون عنه:

للّه درٌّ الكنديّ! وياله من رجل حكيمٍ، سريع البديهة، حاضر الجواب، واسع المعرفة، قوي الحجة، نصوحٍ لنفسه وأصدقائه، عنيف على أعدائه. سهامُه لا تَخيب، وطريقته لا تغيب.

حضرت جماعة من الذين يُفسدون عقول الناس، أو يزيِّنون لمن كان فاسداً فعلَه. منهم الشاعر الذي يتمنى أن يكون الناس من المسرفين، وأن يتجاوزوا ذلك إلى حدود المجانين، ومنهم المتطفِّلون على شراب الناس وطعامهم، ومنهم المتملِّقُون المتقربون المنافقون. فرأيت الكنديّ وقد أقبل عليهم، فقال:

تُسمُّون من منع إنفاقَ المال في الوجوه الخطأ، والأساليب الغلط، ومن حصّن المال وأعزّه وأكرمه خوفاً من أمثالكم، ومن حفظه إشفاقاً من الذِّلَّة، إن حلت به القِلَّة بخيلاً، وتريدون بذلك ذمَّه وتقبيح فعله. وتسمُّون جواداً وكريماً وبحْراً من كان بفضل الغنى جاهلاً، ولم يعرف مذلَّة الفقر، فأسرف في العطاء، وتهاون في حفظ ماله حتى ارتكب الأخطاء، واحتقر النعمة، فصارت عليه نقمة، وأهان نفسه بإكرام غيره. وتريدون بذل حمْده ومدْحه. فلستم والله مخطئين، ولكن من قدَّمكم على نفسه وعياله من الغافلين. ومن يخطئ على نفسه، أجدر أن يخطئ على غيره. ومن أخطأ في الظاهر من دنياه، وما يراه رؤيا العين، كان أجدر أن يخطئ في باطن دينه، وفيما لا يُدرك إلا بالعقل.

ورحتم تمدحون من يمدح كل أشكال الخطأ، وتذمُّون من جَمعَ في تصريفِ أموره أشكالَ الصواب. وما على هؤلاء إلاّ أن يحذروكم كلَّ الحذر، ولا يأمنوكم إلا من بَطَر.

قال إسماعيل: ولا أنسى ما قال الكنديَ يوماً:

لا يستحقُّ المال من كان في يده المال، إنما يستحقه من يعرف أساليب حفظ المال. وليس الغنيُّ من ورث الغنى أو حصَّله، إنما الغنى لمن يتمسك بالغنى ولا يجهله. ولأي أمرٍ غير حفظ المال بُنِيت الحيطان، وغُلِّقت الأبواب ليكون في أمان، واتُّخِذَت الصناديق القوية المتينة، وعُمِلت الأقفالُ المُحْكَمة المكينة، ونُقِشَت الرسوم والأختام، وتعلم الناس الكتاب والحساب؟ لكن هذا كلَّه لا يحفظ المالَ ولا يقيه، وأنتم آفتُه التي تُخْسِره، وسوستُه التي تَنخُره، والخطر الذي يتهدده كالجرب الذي يتهدد الخشب والشجر.

وقد قال الأولون: احرُسْ أخاك إلا من نفسه. ولكنْ هَبْ أنك جعلتَ المالَ في حِصْنٍ حصين، ونَقَرْتَ له في الصخر، ودفنته حتّى لا يستبين، ولم يشعر به صديق ولا جار ولا محبٌّ ولا معين، فمن يضمن ألا تكون أنت نفسُك على هذا المال أشدَّ من السارق وأعدى من الغاصب؟ وهَبْ أنك حصَّنْته من كل يدٍ لا تملكه، فكيف لك أن تُحصِّنه من اليد التي تملكه؟ إنّ هذه اليدَ عليه أقْدَر، ونوازعَ الشرِّ التي تدعوها إلى إهلاكه أكثر. ويظن الناس جمعَ المال صعباً، ويجهلون أن حفظَ المال المجموع، أشدُّ من جمعه لئلا يضيع. ومن أخطر على الإنسان من نفسه، ثم مَن جعلهم من أحبائه، ووثق بهم من أصدقائه؟ فالمال لمن حفظه قوة لصاحبه ومَنْعة عند العُسْرة، وإتلاف المال لا يجرُّ على صاحبه إلا الحسرة. وإنفاقُ المال إتلاف، وإن حسنتموه بتسميته جوداً، وزيَّنْتموه بأن لقبتم مُنْفِقه بأنه الكريم.

وشنَّعْتُم علينا أننا نهرب من البخل فنسميه صلاحاً وإصلاحاً، ومن سوء لقَبِ الشحِّ فنسميه توفيراً واقتصاداً، كما يسمي المهزومون هزيمتهم ابتعاداً عن الشرِّ وتجمُّعاً واستعداداً، وكما يسمون البذاءة في الفعل والقول جَلَداً

وصرامةً وقوةً في الكلام، وكما يُلطِّفون العَزْلَ عن الولاية بأنه صَرْفٌ مؤقت، وكما ينافقون من يجورُ على أهل الخَراج فيسمونه شديداً في الحق. بل أنتم الذين زيَّنْتُم أسوأ العادات، فسَمَّيْتُم الإسرافَ المرذولَ جوداً، والتفاخُرَ الكاذب شهامة وأرْيحية، وسوءَ تدبير المرء مالَه ورزقَ عيالِه كرَماً. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ابْدأ بمَنْ تعُول» وأنتم تحضّون هؤلاء السفهاء على أن يُغْني واحدهم عيالَ غيره بإفقار عياله، وأن يُسعد الغريب، حتى لو كان على حساب شقاءِ القريب، وأن يتفضَّل على من لا يأخذ ويمضي شاكراً بل يمدُّ يدَه أبد الدهر، فيأخذ أبداً ما يعطيه أبداً.

وقد قال أحد الأولين الصالحين: يا أخا تغلب، إني والله كنتُ أفيض الخير ما فاضت السيولُ في الوديان، وما جرى النيل على مدى الأزمان، ولكنني أدركت أنني لو أعطيتُكَ لكان عطائي على حساب من هو أحق به منك. وهؤلاء لا يشبعون ولا يقنعون، ولو أمْكنتهم من مالي، لنقضوا داري حجراً حجراً، ولما أبقَوْا مما أملك أثراً. والله ما بقي معي من مالي إلا ما منعتُه الناس، ولكني أقول: والله إني لو أمكنتُ الناس، لما توقفوا إلا بعد سلب ما لديّ من نعمة، وربما ادَّعُوا أنهم يملكونني، وأنني عبدٌ لهم.

قال إسماعيل بن غزوان: وسمعت الكنديّ - لله درُّه - يقول:

تعجبون لمن نما مالُه وازداد كيف ينام، وأعجب لمن قلّت دراهمه كيف ينام، فلا يستوي من لم ينَمْ سروراً وهناءً، ومن لم ينَمْ همّاً وحزْناً وغمّاً وشقاءً. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم المسلم كيف يُوصي قبل أن تفارق روحُه جسَده «الثلُثُ ، والثلث كثير» . فاستَحْسن الفقهاء وتمنّى الصالحون والعقلاء أن نُنْقِص من الثلُث شيئاً، لاستكثار رسول الله صلى الله عليه وسلم الثلث. فلم يأمر بأن يوصي المرء بالثلث، بل جعل الثلث أقصى ما يوصي به. وقال: «إنك إن تَدَعْ عيالك أغنياء، خيرٌ من أن تدعهم عالةَ يتكففون الناس». وهل أحكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ألا ترون

كيف يعلمنا ألا نُسْرِف ونترك عيالنا فقراء شحاذين؟ فيكف تريدون منّي أن أفضِّلكمُ على نفسي، وأقدِّمَ عيالكم على عيالي؟ ويكف تريدونني أن أفرح بالحمد والثناء وأترك الغنى والثراء؟ ألست كمَنْ يكنُزِ الرِّيحَ ويخبئ السراب، بدلاً من الذهَبِ والفضّة؟

قال إسماعيل: وما أكثر ما كان الكنديّ يعلّم عياله وأصحابه، ويفيض عليهم من كلام العقل والحكمة، سمعته يقول لهم:

لا تتهافتوا على الرُّطَبِ عند ابتدائِه وأوائِله، ولا على الفاكهة عندما ترونها أوَّل مرةٍ في الأسواق، واصبروا عنها، واقمعوا شهواتِكم. إن النَّفْس لأمّارة بالسُّوء، وإن النَّزَوات والشَّهَوات لتهيج عند كل جديد، وإن للقادم فرحة وحلاوة، وللجديد بَشَاشة وطلاوة. ولا تجعل نفسك سيدة عليك، تأمُرك فتَخْنع، فإنها بك تطمع. ولكنك إن ردَدْتها ارتدّت، وإن ردَعْتها ارْتَدعت.

والنفس غريبة عجيبة، فقد تُقبِلُ على الأشياء وترضاها، وقد تُعرِضُ عنها وتأباها، تألفُ ما أنت لها راغب، وتقبل بما هو حَتْمٌ وواجب. تحملُ ما شئت لها أن تحمِل، وتبتعد عما ترى أنه مهمل. لذا عليك أن تكُفَّ جميع دواعيها، وتقمعَ كلَ رغائبها، وتحسِمَ كل خواطرها، وتهملَ كلَّ نوازعها في أولِّ ردّة، فإنك إن فعلت صارت أضعف قُوَّة وعُدَّة. فإذا أردت أن تؤثر فيها، فَعِظْها في بواكير الأشياء بقلّة ذات اليدّ، وغلاء الأثمان، وصبّرها إلى غد. فإن ذكرّ الغلاء والقلة حجة صحيحة في كلِّ آن، وسببٌ مقنع في كل زمان.

فإذا أجابَتْك النفسُ وأطاعَتْك في بواكير الفاكهة، فالزَمْ هذا النهج في قمع الرَّغَبات، وتلطيف حدة الشهوات، حتى وإن بدأت أوائلُ الكثرة، واضرِبْ نُقصانَ الشهوة وضَعْفَ قوة الغَلَبة، فإن توالي طَرْق الحديد يجعله ليّناً وكل صعبٍ في أولِّه يصبح ممكناً. ولتكُنْ قوة الطَّرْق بمقدار الرُّخْصِ والكثرة، فإنك لن تلقى من معالجة الشهوة في أيامِك المقبلة، إلا ما لاقيت في أيامك الماضية، وابقَ على هذا حتى تنْقضيَ أيّام الفاكهة، كما كنتَ في أول ابتداء غَلَبتك، ومُجاهدتِك وقمعِك لشهوتك. وتذكَّرْ دائماً أن الشهوة فتنة، وأن الهوى

عدوٌّ يضل عن سواء السبيل، فإن لم تحسبهما كذلك، خُدِعت بهما، واغْترَرْت عنهما، وجعلتهما على نفسك أميناً، ولن تلقى وقاية منهما، ولو كانت حصناً حصيناً. إن الشهوة والهوى أعدى الأعداء وشرُّ الدخلاء. فاضمَنْوا لي نجاحَكُم في قمع الرغبة في النَّزْوة الأولى، أضمنْ لكم حُسْنَ عاقبة الصبْر، وما ترضَوْن من اليُسر، وثبات العزّ في قلوبكم، والغنى في عيالكم وبيوتكم، ودوام تعظيم الناس لكم.

إن للغنى أفضالاً لا تُحصى ولا تُنكرُ، ولو لم يكن له من منفعة إلا أنك لا تزالُ مُعظَّماً، عند من لم ينل منك درهماً، لكان الفضل في ذلك واضحاً، والغني في نهاية الأمر رابحاً. إن للثروة بَرَكة، وإن للغنى عظمة ووجاهة، ويكفي أن رَبَّ المال الكثير، إذا اتصل بقائد أو والٍ أو أمير، أو حتى بالملك الكبير، وكان في الجلساء من هو أوجب حُرْمةً وأقدمُ صُحْبة، وأصدق محبَّة، وأكثر إمتاعاً بحديثه، وأكثر فائدة وصواباً بعلمه، إلا أنه فقير الحال قليل ذاتَ اليد، لرأيت ذا السلطان يقرِّبُ هذا على ذاك. ثم إذا أراد أن يُقسِّمَ مالاً، أو يوزع هدايا، أو يعطيهم مما أتاه من الغرائب والطرائف، فإنه يجعل حظَّ الغني الموسِرِ أكثر، وإن كان في العلم والأدب والشعر والإمتاع أقلَّ من جلسائه، وحظَّ الفقير الحال أقلَّ، وإن كان في كل شيء فوق ندمائه.

*   *   *

محمد بن أبي المؤمِّل

محاججة من أجل رغيف

قُلتُ لمحمد بنِ أبي المؤمّل:

إن الناس يتّهمونك بالبخل ويشنِّعون عليك بالشحّ، وأبخل الناس من بَخِل بالطعام، على الضيوف والزوار وسائر الأنام. وإني أراك تُطْعم الطعام وتُجوِّده وتنفق عليه المال، ولكنك تُقلِّل أرغفةَ الخبز، وليس بين قلّة الخبز وكثرته توفير، أو ربح كبير. والناس يُبَخِّلونَ من قلَّ عددُ خبزه، فيرى الجالسون أرض خوانِه. والحقيقة أني أرى عددَ رؤوس من يأكلون معك أكثر من عدد خبزك. ولو لمْ تتكلَّف، ولم تُنفقْ من مالك على إجادةِ الطعام والإكثار منه، ولو أنك أكلت وحدك في بيتك، لما لامَك أحد، ولما اكترث الناس لهذا منك، ولم يحكُموا عليك لا بالبخل الشديد، ولا بالسخاء والجود، وعشتَ بعيداً عن ذِكْرهم وألسنتهم، كأي رجل من عامة الناس. ولو لم تنفق المال المخزون، وتبذلْ ممّا تحفظُ وتصُون، إلا لأنك ترغب في أن يُكْثِر الناس ذِكْرَك، ويردّدوا حمدك وشكرَك، ولتعظِّم عند الله أجرك. لكنك تهدم كل ما تبني بقلّة عدد الخبز عن عدد الآكلين، حتى صرنا نرضى لك من الغنيمة بالإياب، ولم نعد نطمعُ في أن يأتيك الحمد والشكر وحسنُ الثواب، ونكتفي بأن تكون سالماً من الذمِّ واللوْم. فزِدْ في عدد خبزك قليلاً، فبهذه الزيادة القليلة ينقلب اللوم شكْراً والذمّ حمْداً. أما إن بقيت على هذه الحال، فإنك لا تخرج بعد الكلفة العظيمة سالماً، لا لك ولا عليك، فانظرْ في الأمر رَحِمك الله.

قال: إني أعرفك يا أبا عثمان رجلاً عاقلاً، ولكنك أخطأت في حكْمِك، وخطأ العاقل أعظم من خطأ الجاهل، فإن كان لهذا عذر بجهله، فما عذر ذاك

مع علمه وعقله وفضلِه؟ وعلى قدْر ما يفكِّرُ العاقل ويكُدُّ ذهنَه لمعرفة الحقيقة، تجده ابتعد عن سبل الرشاد والصواب والحقيقة. وما أشك أنّك تنصحني بمحبّة الصديق وإشفاق الأليف. ولكن عليك أن تخافَ ممّا خوَّفْتك منه من خطأ العاقل، فإنّه مخيف.

وإنما أقول لك: إن ما أصنع لا يدلّ على البخل، بل على سخاء النفس ليأكلوا، وكأنني أحتال عليهم ليبالغوا في أكلهم. فإذا كثر الخبز على الموائد، خلق في النفس صدوداً، وكل شيء - مأكولاً كان أم غيره - إذا مَلأَ العين مَلأَ الصدر، وهذا يُميت الشهوةَ ويقمع الإقبالَ عليه. ولو أن رجلاً وضعوا أمامه بيدراً كالتلّ من التمر الجيد، أو أكداساً من الفاكهة اللذيذة، أو عناقيدَ من أجمل وأشهى أنواع الموز، لما أكل من هذا أو ذاك، إلا بقدْر ما يستطرفُ هذه الثَّمْرةَ أو هذه الفاكهة أو هذه الموزة، ولن يكون أكْلُه منها قدْرَ أكلْهِ إذا جاءه هذا على طبقٍ نظيف، يحمله خادم أليف، ويغطيه بمنديلٍ شَفيف.

وبعد، فهؤلاء ليسوا غُرباء، إنهم أصدقاؤنا وأصحابنا، ويستمتعون بما يأنسون في بيوتنا، وهم واثقون من محبتنا، ويعلمون أن الطعام الجيّدَ أُعِدَّ لهم، وإنما وضع أمامَهم ليأكلوه، فهذا إن لم نقم بواجبهم أفضل من أن يمزِّقه الخدم والأتباع ويبعثروه. ولو أنهم احتاجوا الخبز لطلبوه، ولم يخجلوا من ذلك. ومن حقنا عليهم أن يجرّبوا المرةَ والمرتَيْن، وألا يتَّهمُونا بالبخل دون أن يروا بُخلاً منّا. فإن كانوا يخجلون بعد كل ما بسطنا لهم من أسباب المودة، وما فعلنا لرفْع الكلفة، فهؤلاء يَتجنَّوْنَ علينا ويتسرَّعُون، ولست والله أحرصُ على أن أعرف سبب عَتَبِ المتجنّي والمتسرِّع.

قلت له: ولكني رأيت أكلَهم في منازلهم وعند إخوانهم، ليس مرة واحدة بل مرّات كثيرة وفي حالات مختلفة ومواضع مختلفة، ورأيت أكْلَهم عندك ولا أستطيع القول إن أكْلَهم هنا كأكْلِهم هناك، بل ثمة تفاوت بين الأمرين. فاحسُبْ أن طبع التجنِّي غالب عليهم، وأنهم يشملهُم ضعفٌ في مثل هذه المواقف، وأنهم يتسَرّعون، وأنّهم يسيئُون الظن بمن لا يُساء الظن بحُسْن مقصدِه، لم لا

تداوي هذا الأمرَ بما لا يكلِّفك نفقة زائدة، وبالشيء الذي لا قَدْر له أمام ما تُقدِّم، أو لا تعود إلى دعوتِهم والحرص على أن ترسل إليهم وتتلقى جوابهم وزيارتهم؟ والقوم لا يُلقون أنفسَهم عليك، ولا يتطفلون على مائدتك، بل يُلبُّون ما تَسْتحِبُّ منهم ويأتون إليك. فإن أحببت أن تعرف صحة كلامي، فلا ترسل إليهم، ولا تدْعُهم، ولا تعتبْ عليهم، ولا تغضبْ إذا قصَّروا، أو أبْطؤُوا في زيارتك، ثم انظر.

قال: دعْنا في الخبز. إذا كثر الخبز على الخوان، فلابدَّ أن يزيد منه الكثير، وما زاد عما يأكلون، لن يسلم من التّلْطيخ والتَّغْمير. والرغيف الذي غُمِر طرفه بالمرق، والرُّقاقَة التي تلطخت بالدسم، لا أقدر أن أنظر إليهما، واستحيي من تقديمهما ثانية على مائدتي، فيذهب كل ذلك هدْراً، والله لا يحبُّ الباطل، ويعده بالنعمة كُفراً.

قلت: إني أعرف ناساً كثيرين يمسحون هذا الخبز، فإن لم يُعيدوه إلى مائدة الغد، جعلوا منه ثريداً. فلو اتَّبَعْت طريقهم، وسلكت مسلكَهُم، قال: ألَسْتُ أعلم كيف يكون الثريد؟ ومن أي خبز صُنع؟ ألا أعلمُ أنه من رغيف تلطّخ، أو من خبز توسَّخْ؟ ألا أعرف أنه من بقايا الخبز مما وضع هذا يدَه فيه، وربما قضم منه ذاك قضمة، أو أكل منه طرفاً؟ فكيف أحضُّ نفسي على التوهُّم وأحولُ بينها وبين التذكُّر؟ ثم أليس يمكن أن يعرِفَ الضيوفُ هذا على طول الأيّام، فيكونَ هذا قبيحاً، وقد أردناه أمراً مليحاً؟

قلت: فتأمرُ به للعيال، فتطعِمُهم خبز الدقيق الأبيض وإن كان ملطَّخاً بدلاً من خبز الدقيق غير المنْخُول.

قال: عِيالي - يرحمك الله - صنفان: واحدٌ هو أعظمُ عندي وأرفع من أن أطعَمه هذا، وآخرُ لم يبلغ مبلغَ الترف بالخبز الأبيض.

قلت فاجعلْ إذاً جميعَ خبزك من الدقيق غير المنخُول، وما يمتازُ به الخبز الأبيض من حسن شكلِه وطيب طعمه، لا يستحق كل هذا السجال بين الحمد والذمَ.

قال: بل أقول لك رأياً يوصلنا إلى ما هو أفضل من هذا كله، وهو أن نضع الخبز على الخِوان بعدد الإخوان، ثم نحضر الزيادة من الخبز على طبق، ونضعه قريباً من المائدة حيث تناله يد أيٍّ منهم، فمن احتاج شيئاً منه، يكفيه أن يمُدَّ يده، ولا حاجة به لأن يطلبه. ويكون قربُه من أيدي الآكلين، عوضاً عن كثرته على المائدة.

قلتُ: ولكن من يسْتحي من طلبه، يستحي من أن يمدَّ يدَه إلى الطبق المجاور، فلا تكون قد فعلت شيئاً. أطِعْني، وأكثر الخبز على مائدتكَ وأخْرِجْ هذه الزيادَةَ من مالك كيفما شئت. واعْلَمْ أن هذا الحديث المطوّل، وهذه المذاكرة المملّة، أضرُّ علينا ممّا نهيتُك عنه من فعلٍ فاضِحْ، وما أردتُك عليهِ في طريقٍ واضِح.

وكان محمد بنُ أبي المؤمّل ضخم الجثة، ذا صوت قويٍّ عالٍ جَهْوَرِيّ، وكان إذا تكلّم يحبّ التقعُّرَ في استخدام الكلمات، والتفخيم في الألفاظ، فيتشدق بما يقول، ويشدد على الحروف، حتى لتحسبه وقف في الناس خطيباً. فلما حضر وقت الغداء، صاح «يا غلام، هات من الخبز أرغفة على عدد الآكلين».

قلت: ومن فرضَ هذه الفريضة؟ ومن حكم عليهم هذا الحكْم وجَزَم بالأمر هذا الجَزْم؟ أرأيت إن أكل أحدهم رغيفه ولمّا يشبع، ماذا يفعل؟ إنه أمام أمرين لا ثالث لهما: إما أن يمدِّ يدَه إلى رغيفِ جاره، وفي هذا وقاحة، وحرمان للآخر من إتمام طعامه، أو أن يتنحّى عن المائدة وفي النفس بقية من جوع واشتهاء للطعام، ويبقى معلقاً يدّه منتظراً أن تجود عليه برغيف أو قطعة منه. فبأي أمر كنا نتجادل ونتناظر منذ الصباح إذا كنت قد عدت إلى عادتك القديمة، واعلم أنها عادة مذمومة، وهي سبب هجائهم لك بالبخل.

قال: فلم يبْقَ حلٌّ لهذه المعْضِلةِ إلاّ أن أتْركَ عادةَ الطعام ودعوةِ الناس إليه البتّة، فهذا أهونُ من هذه الخصومة.

قلت: فهذا ما لا شك فيه، وقد أشرتُ عليك به من قبل، وقد عملتَ برأيي بالصواب، فأرحْتَ الناس ونفسك من القال والقيل، والذمِّ والتبخيل، إن وفيت بهذا القول.

وكان كثيراً ما يقول: يا غلام، هات شيئاً من الطعام المقْلِيّ، وما صنعتم من مَرَق اللحوم والأكباد، وأَقِلَّ منهما، وأَعِدَّ لنا ماءً بارداً وأكثِرْ منه.

وكان يقول: قد تغيَّرَ كل شيءٍ من أمرِ الدنيا وتحوَّل، ولم يبْقَ شيءٌ على حاله، بل تبدَّل، حتى المؤاكلة، إني والله لأذكر رجالاً كانوا يجلسون إلى الطعام، فما رأيتُ قصْعةً قَطّ رُفعت من بين أيديهم إلا وفيها بقية. وكانوا يعرفون آداب المؤاكلة، ويعلمون أن إحضار الجدْي المشويّ، إنما هو من أعراف الموائد الرفيعة وتقاليدها، وإنما جُعِل كالعاقبة والخاتمة، وكالعلامة على أن صاحبَ المائدة ميسور، ونعمتَه قائمة، وأنه لم يُحضر إلى المائدة ليُنْشِبَ كلٌّ يده فيه يمزِّقُه تُخْمة. ذلك لأن الرجل يوالي الأكل فلا يعرف مقدارَ ما أكل، حتى يشربَ الماء. وربما كان قد شبع وهو لا يدري. فإذا أكل أكثر من حاجته، أُتْخِمَ وَصَدّت نفسُه عن لُقمته. أما إذا شرب من الماء شيئاً بعد شيء، فإنّه يعرف مقدارَ حاجته، فلا يزيد إلا بقدر ما يحتاج. واسألوا الأطباء فإنهم يعلمون أنّ ما أقول حقّ، ولكنهم يُخادعون ولا يقولون الصدق، لأنهم لو أخذوا بهذا، ونشروه بين الناس، لتعطلوا، ولم يطلبهم أحد، ولما كَسَبوا درهماً واحداً، وما حاجةُ الناس إلى المعالجين والأطباء، إن كانوا سالمين في أبدانهم أصحاء؟ فعليكم بشربِ الماء على الغداء، فإن هذا يجعل الطعام مَريئاً، وتطعمونه هنيئاً.

وكان يقول: عَجِبتُ لبعض الرجال، يقول واحدهم: يا غلام اسقني ماء، أو اسْقِ فلاناً ماء، فيأتيه من الماء على قدر ما يرويه، وربّما أقلّ، فيسكت. فإذا قال: أطعمني شيئا، أو هات لفلان طعاماً أتاه من الخبز بما يكفي الجماعة وقد يزيدُ، فلا يرضى، ونُتَّهمُ بالبخل، أليس الطعام والشراب أخوين متحالفيْن متآزريْن؟

وكثيراً ما كان يقول: إنما العِلَّة أن الخبزَ غالٍ والماءَ رخيص، ولولا رخص هذا وغلاء ذاك، لما تكالبوا على الخبز وما يتبعُه من الطعام، وزهدوا في الماء، والناس أشد ما يكونون تعظيماً للمأكول إذا غلا وكثُرَ ثمنه، أو كان قد جُلِب من أماكن بعيدة، فيعدُّ من طرائف الطعام. وخُذ الجزر بألوانه المتعددة، والفولَ الأخضر العبّاسي، أليسا أطيب وأشهى من كُمَّثْرى خراسان، ومن مَوْز البستان؟ ولكن الناس يطمَعُون،فلا يرضون بما بين أيديهم ولا يقنعون، ولا يَتشهَّوْن إلا على قدر الثمن، ولا يطلبون الشيء ويحنون إليه إلا إذا كان قليلاً. وهؤلاء العوام يقلدون الكُبراء في طعامهم، أو يُحاولون تقليدهم، ولكن على موائد غيرهم، وهم لا يبحثون عن طيِّبِ الطعام، أتظنُّ أني أطلبُ الجزرَ المسلوقَ المنقوع بالخلّ والزيت والمطيبات، وأترك الكَمْأَة باللحم والزُّبْدِ والفُلفل، لأن ذاك رخيصٌ وهذا غالٍ؟ لا.. ما همّني هذا، إنما آكلُه لأنه طيّب في الحقيقة، ولأنه مناسب لطبيعة الجسم. ولا يهمني بعد ذلك ما يقوله الآخرون، عَلِمَ مَنْ علم وجَهِل من جهل.

ولمحمد بنِ أبي المؤمّل حكايات عجيبة. وكان يستعمل على مائدته من أصناف الخُدَع، وأنواع المكائد وغرائب التدبير، ما لم يبلغْه ولا بعضَه بطلُ يوم داحس والغبراء قيس بن زهير بن جذيمة، وكان أبوه سيد عبس، ولا المهلب بن أبي صُفرة والي البصرة لمصعبِ بن الزبير وألدُّ أعداءِ الخوارج الأزارقة، أصحاب نافع بن الأزرق، ووالي خراسان لعبد الملك بن مروان حتى توفي فيها، ولا خازمُ بنُ خزيمة النهشلي، أحد الجبابرة، وقامعُ الثورات على العباسيين، ولا هَرْثَمةُ بن أعين عاملُ الرشيد على فلسطين، ومطفئ الفتن في أفريقية، وقائد جيوش المأمون في الزحف على بغداد. وكان عنده من الدهاء والاحتيال ما لا يعرفه عمرو بن العاص، ولا المغيرة بن شعبة والي البصرة لعمر بن الخطاب ومخمد الفتن بين الشيعة والخوارج.

وكان كثيراً ما يمسك أعواد الخلّة في يده، كأنه ينظّف أسنانه، فيدخل عليه الصديق، وربما تقدَّمه الزائرُ والزائران، فيرى الخِلال، فيدبُّ اليأس في

قلبه من الغداء. وربما عزم على إطعام الزائر أو الزائرين، وربما دخل بعدهما صديق له، وربما ضاق صدره بالثالث، وإن كان قد دعاه وأرسل مُلِحّاً إليه، وربما جاء رابع، فيضيق صدره أكثر، فيعمد إلى الاحتيال ليمتنع عن تقديم الطعام. فما إن يدخل الزائر أو الصديق ويخلع نعليه، حتى يقول محمد وهو يرفع صوته بالتنويه وكأنه يشنِّع: هاتِ يا غلام لفلان شيئاً يأكلْه، هاتِ له شيئاً ينلْ منه قليلاً، هاتِ له شيئاً يتذوَّقْه، هاتِ له شيئاً، اتِّكالاً على خجلِ الزائر أو الصديق، أو غضبه مما يسمع، وامتناعاً لعزّة نفسه، أو طمعاً في أن يقول بعد أن يسمع: قد تغدّيت، أو قد طَعِمْت، أو قد فعلت.

فإذا أخطأ الرجل، وغضب، أو ضعف قلبه، أو تحير وأُسقِط في يده أو ارتبك ولمَ يدْرِ بم يُجيب سوى بالقول «قد فعلت» علِمَ أنه ناله وأوثقه، ورماه وراء ظهره، ولكنه لا يرضى بذلك حتى يقول «وبأي شيء تغدَّيْت؟» فلا بُدَّ للمسكين من أن يكذب، أو ينتحل وصف شيء لم يكُنْ. فإذا أدرك أنه وَثِق من ربْطِه ربْطاً مُحْكماً، وتركه مقيداً بكلامه لا يقدر أن يَزيح عنه، لم يكتفِ بما فعل، بل يبدأ حديثاً، يقول في معرضه: «كنّا عند فلانٍ، فدخل عليه فلان، فدعاه إلى غدائه، فامتنع. ثم بدا عليه أنه اشتهى الطعام، فقال: في طعامكم كذا أو كذا، وأنتم تُجيدون صنعه، ثم مدّ يده» فكأنه يزيد في وثاقه، وفي سدِّ الأبواب في وجهه، وفي قطع الطرق أمامه، ومنعه من أي نزوة. حتى إذا بلغ غايته من هذا كله قال: «يا غلام، أمّا إذا تغدّى فلانٌ واكتفى، فهات لنا شيئاً نتسلّ به».

فإذا وضعوا الطعام، فإنه يبحث عن تقليل عدد الآكلين، وعن إنقاصِ ما يأكلون، ولذا يتوجه إلى أحد اثْنين: أشدِّ الحاضرين حياءً، أو أكثرهم وأسرعهم أكلاً، فيسأله عن حديث قديم، أو حكاية سمعها منه، أو خبر طويل. ولا يسأله إلا عن حديث يحتاج فيه المتحدث إلى الإشارة باليد أو بالرأس، وما ذلك إلا كي يشغله عن الطعام. فإذا أكلوا قليلاً، ولم يكتفوا، أظهر الفُتور في الأكل والتشاغل عنه، وراح ينْقُر من هنا وهناك كالشبعان الممتلئ، لكنه لا يرفع يدَه

عن الطعام، ولا يقطعُ أكلَه. إنما هو لقيمة من هنا، ولقيمة من هناك، وتعليقُ اليد بينهما. فلابدّ من أن ينقبضَ بعضهم لذلك، ويرفعَ يده عن الطعام، وربما فعلوا ذلك كلُّهم. فإذا علم أن حيلته انْطَلَت عليهم، وأنه بدأ ينال منهم مبْتغاه، تابع فِعْله حتى يقلعَهم من مواضعهم حول الخوان، ويعيدهم إلى مواضِعهم من مجالسِهم، عاود الأكل بنشاط، فأكل أكْلَ من لم يذُقْ طعاماً منذ أيام، وقال: إنما الأكل والشرب مدٌّ وجزْر، كما الحربُ كرٌّ وفرّ.

وكان إذا أتاه أصحابه مبكرّين عن موعدهم، يقول لهم: لمَ لا نشربُ أقداحاً على الرِّيق؟ فقد قيل إن الشراب على الرِّيق يقتلُ الديدان، ونُنشِّط أنفسَنا. والشُّرْبُ على الرِّيق يشهِّي الطعام بعد ساعة. والعارفون بأمور الشرب والنبيذ مُتَّفقون، على أن الشرب على الرِّيق وليس على التخمة أطيب ما يكُون، وسُكْره طيِّبٌ ومأمون. أما الشرْب على الامتلاء، فإنّه نوع من البلاء. ومَن لم يشرب على الرِّيق، عدُّوه ضعيفاً في الفتوة، غيرَ أهل لأن يكون من أهل النَّخْوة، ودعيًّا في أصحاب الجلسةِ والمنادمة. فإذا قال لكم أحدُهم: إنه يخاف على كبده من الشرب على الرِّيق وسَوْرتِه، فاعلموا أنه بعيدُ عهد باللحم ولذَّته. والشرب في الصباح يغسل ما في الجسم من الدهن والدَّسَم، وينفي عن المرء الامتلاءَ والتُّخَم، وليس لِسكْر الليلة الفائتة من دواء، إلا الشربُ على الريق وليس على الامتلاء، فكل ما يصيبك من صداع، يذهب إذا حسوت الأنصاف والأرباع، والأعشى كان أعلم الناس بهذا، حيث يقول:

وكأسٍ شربتُ على لذَّةٍ ... وأخرى تداويتُ منها بها

فهذا اليوم - حفظك الله - هو اليوم الذي لا يذوقون فيه لقمة واحدَة، وليته يعوضهم عن الطعام بالنَّقْل، بل لا يأتيهم بحبة واحدة، وهو يوم سروره التام، لأنه تمتّع بمنادمتهم، دون أن يتكلف إطعامهم.

واشترى ذات يوم سمكة شبّوط وهو في بغداد. والشبّوط أطيب ما في الأنهار من سمك، وأحسنها في القدّ والامتلاء، وأطراها لحماً، ولذا فإنه

أرفعها ثمناً، وأفضلها في أي نوع من أنواع الإعداد والطبخ. ومحمد بن أبي المؤمِّل بصري، ولا يصبرُ عن السمك طويلاً، وكان قد مضى عليه زمن لم يذُقْ فيه طعمه، فاختار سمكة عظيمة في حجمها وشكلها وما همّه ارتفاع ثمنها. وحمل السمكة مغتبطاً بها، لغلائها وسِمَنِها وكِبَرِ حجمِها، ولشدّة شهوته لها. وأمرَ بإعدادِها، فجاؤوه بها طيبة شهية.

وخلا بهذه الشبوطة العظيمة وقد منّى النفس بأن يتمتع مُنفرداً بأطايبِها، وحسر عن ذراعيه، وكادَ لعابُه يسيل من شدقيه، واستعد لها أتمّ استعداد، بعيداً عن الضيوف والزوّار والأولاد، وعندها هجْمتُ عليه ومعي السِّدْرِيّ. فلمّا رآه كان كمن رأى الموت الأحمر، والطاعون الجارفَ الذي لا يُبقي ولا يذَر، فَحَوْقلَ وتعوّذَ وبسملَ وكأنه رأى القضاءَ بعينيه، وسمعه بأذنيه، ورأى أمامه المصيبة التي تقْصمُ الظَّهْر، وأيْقَنَ بأسوأ أنواع الشرّ، وعلم أنه ابْتُلي بالضربة الماحقة، كمن لاقاه التِّنِّينُ أو أصابته الصاعقة.

والسِّدْرِي محمد بن هشام بن أبي خميصة، وكُنيتُه أبو نَبْقة، كان شاعراً مغموراً، ولكنه كان أكولاً مشهوراً. وما إن ردّ ابن أبي المؤمّل التحية حتى كان السِّدْرِيّ قد هجم على وسط السمكة فيما يشبه موضع السُرَّة من الإنسان، فقوّره تقويراً، فأقبل عليّ قائلاً: «يا أبا عثمان، السدْرِيّ تُعجبه السُّرَر» وكأنه حَسِب أن السدري سيكتفي بهذا، فلم يكَدْ يُنهي كلامه حتى كان السدْرِيُّ قد قبض على ظهْر السمكة فانتزع الجانبين معاً، فقال: «والسدْرِيّ تعجبه الظُهور» فما فرغ من كلامه، إلا والسدْرِيّ قد اجْتَرَف جانبي السمكة، فقال «والسدريّ تُعجبه الجوانب» وقد ظنَّ أن السدريَّ لا يعرف قيمة ذنب الشبُوط وطراوة لحمه وطيبَه وعذوبته، وظنّ أن السدريَّ سيكتفي ويترك له ذنبها، ومعرفة ما ينويه السدري من المستحيلات، فلم يدْرِ إلا والسدري قد اكتسح ما على الوجهين معاً، من الرأس إلى الذنب. ولولا أنّ السدريَّ باغتَه، ولجمته المفاجأة، وشلَّ بهجومه على السمكة رأي ابن أبي المؤمّل، وكدَّره، وملأه

غضباً وغيظاً، لكان قد أدرك معه جزءاً من السمكة، فقد كان من الأكولين السريعين النهمين، لكن الغيظَ الذي ملأه كان من أعوان السدري عليه.

فلما أكل السدري جميع أطايبها، وهو ينظر إلى فعله بها، ولم يبْقَ في يده مما كان يمنّي النفس به من تلك السمكة إلا الغيظ والمرارة، والغُرْمُ والخسارة، راح يعزّي نفسه بأنه ربما وَجَد في السمكة ما يُشبِع به بطنه، ويُسكت جُوعَه، ويطفئ شهوته، وذلك ما كان يجعله متماسكاً لا ينتفض، فلّما رأى السدريَّ قد أتى على السمكة شَقّاً وتقطيعاً، والتهم أجزاءها جميعاً، قال: «يا أبا عثمان، السدريّ يُعجبه كل شيء». فتعاظم الغيظ في صدرِه، وأخذته رِعْدَة كأنما سائرٌ إلى قبره، فاربْدَّ وجهه واكْفَهرَّ، وتلوَّن وجهه وتغيَّر، وأصابه القيء والإسهالْ، وركبته الحمّى.

وكان بعد هذا، أن أعلن توبة صادقة صحيحة نصوحاً، عن ألا يُؤاكِلَ أحداً، أكان من أمثال السدريّ، أم من الزاهدين، وألا يشتري سمكة أبداً، لا غالية الثمن ولا برخص التراب، وألا يقربَها حتى لو أتتْه هديةً من بعض الأصحاب، وأقسم ألا يَمَسَّها حتى لو وَجدَها مطروحة، وأن يمتنع عن عادة أكل السمك القبيحة.

*   *   *

أسد بن جاني

البخل دافع إلى الاختراع

وأما أسدُ بن جاني فكان يتخذ لنفسه سريراً للنوم في الشتاء، لئلا يكون قريباً من الأرض الباردة، فكان يجعل قوائمَ سريره من قصب غير مُقشَّر، وكان يقول: «إن البراغيثَ تنزلق عن قشر القصب لشدّة لينه وملاسَتِه».

والناس إذا دخل الصيف عمدوا إلى صنع مَرْوَحةٍ لتلطيف الحرارة، بأن يُعلِّقوا قطعة قماش سميك بالسقف مثل شراع السفينة، ويُشَدُّ بها حبل، ويُدارُ بها، وتُبَلُّ بالماء وتُرَشّ بماء الورد. فإذا أراد الرجل النومَ في القّيلولة أو في الليل، جذبها بحبلها، فتذهب بطول البيت وتجيء، فَيهُبُّ على الرجل منها نسيم طيب الرائحة بارد.

وأمّا أسد بن جاني، فكان إذا دخل الصيف، وصار البيت حاراً نَكَش أرض بيته بمقدار ما تغوص فيه المسحاةٍ، أي نحو شبر، ثم يصب عليه جراراً من ماء البئر المالح الذي لا يصلُح للشُّرب، ثم يُعالجه ويُسوّيه حتى يستوي، وحتى يغوص الماء في أرض الدار. فلا يزالُ بيته بارداً ما دام نديّاً. فإذا امتد به الندى، ودام برده بدوامِه، اكْتفى بذلك التبريد ذلك الصيف، وإن جفّ قبل انْقضاء الصيف، وعاد عليه الحرّ، أعاد الكرة في النكْش والصبّ. وكان يقول: «مروحتي أرض بيتي، وماؤها من بئري، وبيتي أبرد، ونفقتي أخف. وأنا أفضلُهم حالاً بفضْل الحكمة وجودة التدبير».

وكان طبيباً، فقلّ الطلبُ عليه، وأصابه الكساد، فقال له قائل: «الأوبئة كثيرة هذه السنة والأمراض فاشية، وأنت عالم ولك خبرة وحكمة، ولك بيان

ومعرفة، فلماذا لا يدعوك الناس، ولا يطلبون منك تطبيبهم؟». قال: «لأسباب كثيرة. أوَّلُها أني مسلم؛ وقد اعتقد الناس، قبل أن أدرسَ الطب وأبرعَ فيه، لا بل قبل أن أُخْلَق، أن المسلمين لا يُفلحون في العلوم ولا سيما في الطبّ. وثانيها أن اسْمي أسد، وكان يجب أن يكون جبرائيل أو جرجس أو يوحنّا. وثالثها أن كنيتي أبو الحارث، وكان ينبغي أن تكون أبو عيسى أو أبو زكريا، أو أبو اسحق. ورابعها أني كبقية الناس أرتدي رداءً من قطن أبيض، وكان يجب أن يكون ردائي من حرير أسود حتى في الصيف. وآخرها أني أتكلم بلسان عربي مُبين، وكان ينبغي أن تكون لغتي تَشي بأصلي غير العربي كلفة أهل جُنديسابور».

* * *

الثـوريّ

فيلسوف آخر من فلاسفة البخل

كان أبو عبد الرحمن الثورِيّ رجلاً ذا بديهة وصرامة وقُدرة على الكلام، وكان سليط اللسان، يهوى الأدب، ويروي الآثار المختلفة، مثقفاً بثقافة مَن حوله. كما كان من أشد أنصار البخل حماسة. وقد ألف فيه كتاباً. للدفاع عن البخل والبخلاء، كما صنع سهل بن هارون. وكان يعمل في التجارة في بغداد، لكنه بَصْرِيُّ الأصل، ويملك خمسمائة مزرعة من أجود الأراضي، لا يقل طول الواحدة منها عن ألف وخمسمائة ذراع، وكان يتحيَّنُ الفُرص، فلا يشتري إلا كلّ أرض طيّبة، مشهورة بتربتها الكريمة، وموضعها المميّز، وغلتها الكثيرة.

قال صديقي وصديقه الخليلُ السلُوليّ: أقبل علي الثوري يوماً، فقال دون مناسبة: «هل شربتَ ماءَ الزيتون إداماً مع الخبز قطّ؟» فقلت متعجباً ومستنكراً: «لا والله». فقال: «أما والله لو فعلتَه لما نسيتَه». فقلت هازئاً - لكنه لم ينتبه على الرغم من ذكائه - : «أجل، إني والله لو فعلته لما نسيته».

قال السلُولي: وكان يقول لعياله:

إيّاكم أن تلقوا نوى التمر والرُّطَب حين تأكلونهما، بل تعوَّدوا ابتلاع الثمرة بنواتها، وعَوِّدوا حلوقكم تَسْويغَها. أما سمعتم كيف كان الأقدمون يفعلون بالنوى؟ لقد كان الكَلْدانيون - وهم من الحكماء - يدقُّون نوى التمر وينقعونه، ويَتَّخِذونه طعاماً للأبقار والخراف لتسْمينِها، فما يصلحُ للأغنام والبقَر، يصلح أيضاً لبني البَشَر. لأن النوى يعقِدُ الشحم في البطن، ويُدْفِئ

الكُلْيتين والكبدَ وسائرَ الأعضاء بذلك الشحم، أما ترون أفضل الأنعام تُعْلَف بالنَّوى؟ أما والله لو حملتمُ أنفسَكُم قليلاً على ابتلاع البَزْر والنوى، وعلى قَضْم الشعير وأكل البرسيم، لوجدتموها مستساغة سريعة القَــبُول. وقد يأكل الناس البرسيم أوّل ما يُزهر، وقد يشوُون سنابل الشعير الأخضر بَدلَ القمحِ ويجعلونه فريكاً، وقد يأكلون نوى الرُّطَب وهي خضراء، وقد يأكلون نوى الثمرة الناضجة، فإنّما بقيت عليكم الآن عقبة واحدة. لو رغبتم بما يُدْفِئُ أجسادكم لبحثتم عن الشحم، ويجب أن تطلبوه. فالشحم يغنيكم عن طبخ النبيذ، ودخان وَقُوده، وشناعة سُكْره، ويكفيكم كُلْفةَ ما تخسرون لأجله. والشحم يفرِّجُ القلب، ويبيِّضُ الوجه، والتماسُ الدفءِ بالنار يسود الوَجْه. ولست أنصحكم إلا بما أقدرُ عليه، وذهبتُ إليه. أنا أستطيع أن أبْتَلعَ النوى كما أشاء، وأعلِفَ به الشّاء، ولكني أنبِّهكم إلى ما فيه صَلاحُ أمُورِكم.

وكان يقول: كُلوا الفول بقُشوره، فإن طعَمه أطيب، ونفعه أكثر. لأن الفول يقول: من أكلني بقشوري فقد أكلني، ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي آكلُه. فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعاماً لطعامكم، وأكْلاً لما جعله الله أكْلاً لكم؟

واغْتنى الثوريّ وكثر مالُه وضِياعه، وظلّ آخرَ عمره بلا وارث، فكان يسخرُ ببعض من يحيطون به فيقول مُشهداً على كلامه من حولَه: علمتم أنني لا وارث لي، فأنا أُشْهِدُكم على أنني إذا مِتُّ فهذا المال لفلانٍ فيفرح من أوْصى له، ويحرِصُ على خدمته ومعاونته ودعوته، لكنه بعد أيّام يوصي بالمال نفسه لفلان آخر، فإن قيل له: «ولكنك أوصيت بهذا المالِ من قَبْلُ لفلان». قال: «قد نقضتُ وصيتي الأولى وها آنذا أوصي الآن».

وقد رأيتُه زماناً من الدهر، فما رأيتُه قَطُّ إلا ونعلُه في يده، ويمشي حافياً، أو يمشي طول نهاره في نعلٍ اهترأ عَقِبُها فصارت بلا عقب، مع ما في ذلك من الشدِة على صاحبها. وكان يقول مُتعذِّراً: «هاهم المجوس يملؤون البصرة وبغدادَ وفارسَ والأهواز والدنيا كلَّها، ولا يمشون إلا بنعالٍ سِنْديةٍ غليظةٍ، تُصدِرُ صريراً عند المشي بها، وليس لها شِراكٌ تربطها بالكاحل».

فقيل له: ولكن المجوسيَّ لا يستَحِلُّ في دينهِ النعال ذات الشِّراك، فأنت لا تجده إلا حافياً أو لابساً نِعالاً سِنديّه، وأنت مسلم، ومالك كثير. قال: وهل على من كان ماله كثيراً، أن يفتح كيسه للنفقات الزائدة، ويترك مالَه لمن يسرقونه وينهبونه؟ قالوا: ما أسخف هذا القياس! أليس من منزلة بين المنزلتين؟

قال الخليل: جلس الثوريّ إلى جماعة المسْجديين، وكانوا يُسمونَ أنفسَهم المصلحين، فسمع رجلاً كان يبدو عليه أنه مِن أثراهم يقول: اجْعلوا لكل شيء بِطانة، فإنها وقاية، وإنه أبقى. ولأمرٍ ما جعل اللهُ الدارَ الآخرة باقية، لأنها خافية، ودار الدنيا فانية.

ثم قال: إني رأيت الكساءَ المُبَطَّنَ الواحد قد يُقطَعُ إلى أربعة قمصان ورأيتُ العمامةَ الواحدة تكفي إزاراً لأربعة رجال. أتعلمون ما السبب؟ كثرةُ طيَاتها، وترافدُ أطرافها على أوساطها وثنياتِها. فَبِّطنوا الحصير، وبطّنوا البِساط، وبطّنوا المَلاءة، وبطّنوا النعال تحفظوا بقاءَه، وبطَنوا الغداء، ببارِدِ الماء.

قال: فقال الثوريّ: أحسنت رحمك الله. لم أفهم مما قلت إلا هذا الحرفَ وحدَه، نصرك الله كما نصر جُنَده.

وكان الثوريّ يتَّخِذُ هيئة العلماء، ويحكي كما يحكي الحكماء، فيقول: إذا رأيتُ الرجل يشتري الجَدْيَ أشفقتُ عليه من نفسه وسفهه، فإن رأيته يشتري الدجاج لغداء أهله وعياله، احتقرته وسقط من عيني فإن رأيته يشتري الدُّرَّاج والحمام وغيرهما من الطُّيُور، حرّمت على نفسي مكالمتَه، والشراءَ منه ومُبايَعتَه.

قال الخليل: أُصيب الثوريّ يوماً بالحمّى، وأصيُب معه أهل بيته وعيالُه وخدمه، فلم يقدروا مع شدة الحمّى عليهم على أكل الخبز، فربح في تلك الأيام صاعاً أو بعض صاعٍ من الدقيق، ففرح بهذا الربح فرحاً عظيماً. فقلت له: أتفرحُ لأنك وفَّرْت صاعاً من دقيق، وقد أصابتك الحمّى أنت وعيالك؟ فقال: لو كان منزلي سوق الأهواز، أو نَطاةَ خَيْبر، أو وادي الجَحْفة لما همني،

مادمت سأربح كل سنة مائةَ دينار. فلم يكن يبالي أن يُحَمَّ هو وأهله أبداً، إذا كان سيوفِّر من طعامهم بعض الدقيق.

أقول: سوق الأهواز من المواضع التي يُضرب بها المثلُ في فسادِ الهواء واعتلالِ صحةِ من يسكنها. ليس في الأرض صناعة مذكورة، ولا أدب شريف، ولا مذهب محمود، لهم في شيء منه نصيب وإن كان قليلاً. ولم أرَ بها وجنةً حمراءُ لصبي ولا صبية. وهي قتّالة للغرباء. على أن الحمّى فيها ليست أسرع إلى الغريب منها إلى القريب. وقد تصيب الحمّى والوباء جميعَ البلدان، ثم تزول عنها، لكنها تبقى فيها ما بقي الزمان، لأن بَلِيَّتَها من المياه الراكدة فيها، وما يصدر عنها من بخارٍ فاسد. بل ربما تلد المرأة فيها الطفل، فيكون محموماً.

وأما نطاةُ خَيْبَر فأحد المواضع التي استوطنتها الأوبئة، وهي من مناطق حصن خيبر المشهور، وقد كانت خيبر مشهورة بالحمّى، والناس يقولون: حمّى خيبر، وطواعين الشام، ودماميل الجزيرة، وجَرَب الزَّنْج، وطِحال البحرين.

ووادي الجحفة الواقع على البحر على الطريق يبين مكة والمدينة، خرابٌ لا ساكن به، وهو مشهور بالوباء نظراً لموقعه. حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين قَدِم المدينة: «اللهم حبِّب إلينا هذه المدينة كما حبَّبْتَ إلينا مكْة أو أشدّ، وباركْ لنا فيها، وانقل حُمّاها إلى الجحفة».

وقال الخليل: كان الثوري يقول: للإصلاح طرق كثيرة، ومنه ما هو جائز، ومنه ما هو واجب. أوّل الواجب أن يَسْتجيد المرء لنعله طبقةً من جلد يُبطِّنُها بها، ون يخرز الطبقتين معاً، وأن يشحِّم النعلَ في كلِّ الأيام لئلاّ يَعْلَق بها الماءْ، وعقد أطراف الشِّراك، كما يفعلُ النُسّاك لكيلا يَطَأَ عليها إنسان فيقطعها. وإذا اتَّسخت القَــلَنْسُوة، فإن من الإصلاح الواجب، قلبَ خرقتها، وغَسْلَها بعد قلبِها من اتِّساخِها، وعليه أن يجعلها من القماشِ المخطَّطِ

المصنوعِ في اليمن من قُطن أو كتّان. ومن الإصلاح الواجب، على كثير المطالب، ألا يغيِّرَ قميصَ الصيف، بل يتَّخذه جُبَّة في الشتاء، واتخاذُ الشاةِ اللبون، واتِّخاذُ الحمار القوي غير الحرون، فهذا خير من غلَّة ألف دينار، لأنّك تركبُه فتريحَ قدميك، وتوفر نعليك، وبه تدركُ البعيد من الحوائج والأغراضْ، وإيّاك أن تلجأ إلى الاكتراء أو إلى الاقتراض، وعليه تطحن، فتوفر ما يربحه منك الطحّان، وتنقل عليه حوائجه وحوائجك حتى الحطب، وتنقل عليه الأشياء، وتَسْتسقي عليه الماء. وهذه كلها نفقات، إذا اجتمعت كلَّفتك العشرات والمئات، وكانت في السنّة مالاً كثيراً.

ثم يقول: أشهد أنَّ الاقتصادَ بركة، وأنَّ الجهل شُؤْمٌ ومَهْلكة. وحسبنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الرِّفق يُمْنٌ والخُرْق شؤم». اشتريت مَلاءَةً فيها بعض عيب، فَلبستها حيناً طويلاً من الدَّهْر رداءً ومَلْحَفةً. ثم احتجت إلى طَيْلسان، فقطَّعتها، وجعلت منها طيْلساناً كأحسنِ ما كان. ثم احْتجت إلى جُبَّةٍ، فجعلتُ ذلك الطيلسان ظِهارَة جبّة مَحْشُوَّةٍ بالقطن وبطَّنْتها، فلبستُها ما شاء الله. فلمّا اهترأت أطرافُها وبطانتُها، أخرجت ما كان فيها صحيحاً فجعلته من الوسائِد، وجعلتُ القطْن للقناديل، أما القِطع الصغيرة التي لا تصلح للوسائد، فقد جعلتها للقلانِس، والقَلَنْسُوة المَخيطةُ من هذا القماش عجيبة. ثم عَمَدت إلى أفضلِ ما بَقِي وأَصحِّه، فبِعْته إلى أصحاب الصّينيّات، ذلك لأنّ أصحاب الصينيات، ولا سيما منها النوع المسمّى الصلاحيات، يحتاجون خِرَق القماش لدَعْكِها وتنظيفها وتلميعها، وليس أفضل من هذا القماش لهذا. وجعلت خرقاً أخرى لا تصلح لهذا ممحاةً لي وللجارية، إذا نحن قضينا حاجة الرجال والنساء، وعَمَدت إلى ما سَقَط منها، وإلى الخرق الصغيرة، وما صارَ كالخيوط أو كالقطْن المنْدوف، فجعلتُها أغطية لرؤوس القوارير.

وقد رأيت أبا عبد الرحمن الثوري، وسمعت منه في البخل كلاماً كثيراً. ولم أرَ أبخلَ منه من أصحاب الثروة. ولم أرَ شيخاً ذا ثروة اجتمع عنده وإليه من البخلاء، مثلما كنت أرى في بيتهِ. وقد كان كما قلت من أهل البصرة،

وكان هؤلاء يفضِّلون النزول بجوار مسجد ابن رُغبان، وهو عبد الرحمن بن رُغْبان، وكان مولى لحبيب بن مسلمة، وكان كاتباً وشاعراً، وقد وَلِيَ ديوانَ العطاء لأبي جعفر المنصور، والمسجد مشهور باجتماع أهل العلم والفضل فيه. فكنت أرى في دار الثوري إسماعيل بن غَزوان، وهو من غُلاة البخُلاء، وجعفر بن سعيد، وكان على صلة ببيت الخلافة العباسية، وقد كان فكه الروح، بارعاً في توليد المعاني، ولكنه من البخلاء. وأبا يعقوب الأعور، وهو إسحق بن حسان القَوْهيّ، وقد كان جيّد الشعر، وله كلام قويّ، وقد اتصل بمجموعة من الشعراء والرُّواة فتعلّم منهم، وقد عَمِيَ في آخر عمره، والسخرية في شعره جلية واضحة، وأبياتُه الهجائية قوية فاضحة، وخاقانَ بن صُبَيح، وعبد الله العَرُوضيّ وعبد الله بن كاسب الحراميّ، وكلهم من البخلاء المشهورين، وقد حدثتك عنهم من قبل. وكان الثوريّ من أشدهم بخلاً، وكان يدافع عن البخل دفاعاً قوياً، ويُوصي به، ويدعو إليه. وما علمت أحداً ألَف في ذلك كتاباً أو رسالة إلا هو وسهل بن هارون.

وأبو عبد الرحمن الثوريّ هذا هو الذي قال لابنه:

أي بنيّ، لا تستَقِلّ شيئاً من الرزْق، ولا تحقِرَنَّ شيئاً منه، فتقول هذا قليل فلا جرم في إنفاقِه، فإنّ إنفاقَ القراريط يفتح عليك باب إنفاقِ الدَّوانيق، لأن قيراطين يُساويان دانِقاً، وإنفاقَ الدوانيق يفتح عليك باب الدراهم، لأن اثني عشر دانقاً تساوي درهماً، وإنفاقَ الدراهم يفتح عليك بابَ الدنانير، وإنفاقَ العشرات يفتح عليك باب إنفاق المئات، وإنفاق المئات يفتح عليك باب إنفاق الآلاف، حتى يأتي الإنفاق على الفرع والأصل، كالنار تبدأ في الأطراف، ثم تأتي على كل ما في الحقل، فهو طاعون لا يُبقي ولا يَذر، يطمِسُ العيْنَ والأثر، ويأخذ القليلَ والكثير، ويبدأ بالصغير فلا يكتفي حتى يأخَذَ الكبير. أي بُنيّ، أتعلمُ ما تأويلُ الدِّرْهم؟ إنه «دارُ الهمّ». وتأويل الدينار «يُدْني إلى النار». لأن الدرهم إذا خرج من كيس صاحبه ولم يخلُفْه درهم، ولم يأخذ عِوَضاً عنه، دارَ الهمّ على صاحبه حتى يندمَ على إخراج أوّلِ دانق. وقيل:

إن الدينار يُدني من النار، لأنه إذا أنفقه، ولم يأت بخلفه، وأخرجه دونما بدل، بقي مُخْفِقاً مُعْدِماً، وفقيراً يدُه والتُّراب، يتحرّج في إيجاد مخْرج مما هو فيه. وقد تدعوه الضرورة والحاجَة إلى اللجوء إلى المكاسب الرديئة، وأن يَطْعَم ويُطْعِم أهله الخبيث بدل الطيّب. والكسبُ الخبيثُ يُسقِط الرجولة، ويذهبُ بالمروءة، ويُوجِبُ الحدَّ على كاسِبه، من الدرهم إلى الدينار، فكله يُدْخِلُ النار.

وهذا التأويل الذي تَأوَّلَه الثوريّ للدرهم والدينار ليس له، وليس من بنات أفكاره، إنما هو شيء كان يتكلم به عبد الأعلى القاص، وكان من القصاصين الظرفاء وله طرائفُ ونوادر. فكان عبد الأعلى إذا قيل له: لِمَ سُميَّ الكلب قَلْطيّاً؟ قال: لأنه قلَّ ولطى. وإذا قيل له: ولِمَ سميَّ الكلبُ سلُوقيّاً؟ قال: لأنه يستَلُّ ويلقى. وإذا قيل له: ولم سميّ العصفورُ عُصفوراً؟ قال: لأنه عصى وفرّ. وعبدُ الأعلى هذا كان طيِّبَ النوادر، فكان يقول في قصصه: غداءُ الفقير ضرب بالسياط حتى يتوجَع، ومرقتُه أن يُلْطَمَ ويُركَلَ ويُصفَع، ورغيفُه أن يُضرَب قدماه بالعِصيِّ حتى تتقطَّع، وسمكته أن يُرمى بالحصى حتى يُصرَع.

وبعض المفسِّرين من أمثال عبد الأعلى يزعُمون أن النبيّ نوحاً عليه السلام، إنما سُمِّي، نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه. وأنّ آدم عليه السلام إنما سُمِّيَ آدم، لأنه سُوِّي من أديم الأرض. وقالوا: كان لونه في سمرة لون تراب الأرض. وأن المسيحَ عليه السلام إنما سُمّي المسيح، لأنه مُسِحَ بدُهن البركة. وقال بعضهم: لأنه كان لا يقيم في بلد واحد، وكأنه كان ماسحاً يمسح الأرض.

ونرجِع بالحديث إلى أعاجيب أبي عبد الرحمن الثوريّ: كان الثوريّ يُعجَب بالرؤوس، ويحمد أكلَها، ويصفها لمن يسألُه ومن لا يسألُه. ولم يكن يأكل اللحم إلا في عيد الأضحى، أو من بقية أضحيته في ذلك اليوم، أو عندما يكونُ في عُرس، أو دعوة، أو سُفرة. وكان يُسمّي الرأس مَرة الجامع، ومرّة الكامل، لكنه في أغلب الأحيان كان يسميّه العرس، ويقول: كما تجتمع في العرس الألوان في الثياب والناس والطعام والشراب وأنواع العزف والغناء، وسائر الأشياء، كذلك الرأس تجتمع به الألوان الطيبّة، فالرأس هو العرس.

وكان يقول: «الرأس شيءٌ واحد، ولكنه ذو ألوان عجيبة وطُعومٍ مختلفة. وكلّ طعامٍ في قِدْر، وكلّ شِواء على جمْر، لونٌ واحد، إلا الرأس. ودعْني أُبيِّنْ لك. الرأس فيه الدماغ، وللدماغ طعْمٌ خاصٌ يختلف عن سائر الطُّعوم، وفيه العينان وطعْمهما لا يشبه طعم غيرِهما، وفيه الشَّحْمة التي بين أصلِ الأُذُن ومؤخَّر العين، وطعمها مختلف عن غيرها من الشُّحوم، على أن هذه الشَّحْمة خاصّة أطيبُ من المخّ، وأنعَمُ من الزُّبْد، وأدْسَم من الدُّهْنِ المُذاب، وفي الرأس اللِّسان، وله طُعوم وليس طعماً واحداً، إن كان مسلوقاً أو مَشْوياً، ثم تضع فوقه الزيتَ والخلَّ أو دبْسَ الرمّان، وفيه الخيشوم، والغُضْروف الذي في الخَيْشوم، وطَعمُهما مختلف عن سائر الطُّعوم، وفيه اللحم الذي في الخدّين، وطعْمه مختلف عن غيره من اللُّحوم».

وكان يقول: «الرأس سيّد البدن، وفيه الدِّماغ وهو معدِن العقل، ومنه تتفَّرق الأعصاب التي فيها ينتقل الحِسّ، وبه قِوام البدن. وفي الرأس الحواس الخَمْس. وإنما القلب باب العقل، كما أن المدركة هي النَّفْس، والعينُ بابُ الألوان، والنفس هي الذّائقة، وإنّما الأنف والأذن بابان، ولولا أن العقلَ في الرأس، لما ذهب العقل من الضربة تُصيبه».

وكان يقول: «إن الرأسَ هو المثَل وهو المقدَّم. ولذلك يقول الناس عن الرأي المُحْكمَ: هذا رأسُ الأمر. وعن فارس الكتيبة وقائدها: رأسُ الكتيبة. وعن سيِّد القوم: هذا رأسُ القوم، وعنِ السادة والأشراف: رؤوسُ القوم وخراطيمُهم وأنوفُهم. واشتقّوا من الرأس الرئيس والرِّياسة. فهل بعد هذا يسألُ عنه ذو كِياسة؟».

وكان إذا فرغ من أكل الرأس، ولم يترك عليه ولا بداخله شيئاً، عمد إلى الجُمجُمة والفكّين، فوضعها بجانب بيوت النمل، فإذا اجتمع النملُ عليه، أخذه فَنفَضه في طِسْت مملوء ماء، فلا يزالُ يعيد ذلك في تلك المواضع، حتى يقلعَ أصْل النملِ من داره، فيعمد إلى إلقائه فوق الحطب، ليكون من سائر الوَقُود. وكان في يوم الرؤوس ربّما أقْعد معه ابنَه على الخوان. ولم يكن هذا

يَتِمُّ بسهولة، وإلا بعد تَشرُّط، وبعد أن يُفهمه ما يُريدُه. فإذا قَعَد الصبيّ بدأه بحديث أشدّ عليه من الجوع، وكان فيما يقول له:

«إياك ونَهَم الأولاد، فإن هذا من طبائع الأوغاد. وإيَّاك وشَرَه النَّعام، فإنها تَبْلَع ولا تأكل، كما ينقُر الطير الجارِح. وإياك وأخلاقَ النّادبات والنوائحِ، ودَعْ عنك سُلوكَ المّلاحين والفَعَلَة، ولا تنْهش كما يَنهشُ الأعراب بلا عَياء، أو كما ينهش الأغبياء. وكُلْ من بين يديك، فإنّما حظُّك الذي وَقَع وصارَ أقرب إليك. وَاعْلَمْ أنه إذا كان في الطعام شيءٌ غريب طريف، ولُقمةٌ نادرة كريمة، ومضغةٌ شهية، فإن هذا يكونُ للشيخ المُعَظَّم والصبيّ الصغير المدلَّل، وأنت لا هذا ولا ذاك. فأنت قد تُدعى إلى الدَّعوات، وقد تذهب إلى الولائم، وتدخلُ المنازل مع ذوي العمائِم، ولم يمْض على أكلك اللحْمَ وقتٌ طويل، وإخوانُك أشدُّ اشتهاءً للَّحْم منك. وإنّما هو رأس واحد، فلا تهجم هُجموم السِّباع، فقد تأخذُ من بعضِه، وتتركُ بعضَه، فلا تنظُرْ إلى ما فاتَك وكأنّه ضاع.

وأنا بعد هذا أكره لك الإكثار من أكل اللحم، فإن الله يُبغِض أهل البيت اللحْميين. وكان عمر بن الخطاب يقول: إيّاكم وهذه المجازر، فإنّ لها ضراوةً كضراوة الخمر. وأقول: بل إن شِدّتها وشِدَّة الولع بها أفْتَكُ مما تفعلُ الخمر. وكان عمر يقول: مُدْمِن اللحم كمدمن الخمر. وصدق والله. ورأى المسيح عليه السلام رجلاً يأكل لحماً فقال: لحمٌ يأكلُ لحماً، أُفٍّ لهذا عملاً. وذكر هَرِمُ ابنُ قُطبة اللحم فقال: وإنّه ليقتل السِّباع الضارية. وقال المهلب بن أبي صُفرة، وقد سئل عن اللحْم يأكله من لم يمْض على أكله اللحْمَ وقتٌ طويل، ولم تَشتدّ شهوته له، فقال: هذا هو الموت الأحمر. وكان الأولون يقولون: أهلكَ الرجالَ الأحمران: اللحْم والخمْر، وأهلكَ النساءَ الأحْمران: الذَّهَب والزّعفران.

أي بنيّ. عوِّد نفسَك ألا تكون أنانياً، وأن تُفضِّل غيرك على نفسِك، وعلِّمْها مُجاهَدة الهوى والرَّغَبات، ومقاومة الشّهَوات. فإذا جلسْت إلى الطعام فلا تبلَعْ بلْعَ الأفاعي، ولا تأكل بملء فمك كما يأكل الحصان، ولا تُدِم الأكل

لقمة بعد لقمة كما تفعل النِّعاج، ولا تجعل لقْمتكَ كبيرة كلُقَم الجِمال. قال: أبو ذرّ الغفاريّ لمن تبدَّلوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «تأكُلون بملء أفواهكم كالخُيول، وموعدنا الله». إن الله فَضَّلَك وجعلك إنْساناً، فلا تجعل نفسَك بالأكل بهيمة ولا من السِّباع. واحْذَرْ سرعة الشَّبع حتى الامْتلاء، واحْذر الإسرافَ في الأكل حتى التُّخمة. وقد قال بعض الحُكماء: إذا كنت تأكلُ حتى التُّخْمة فعُدَّ نفسك من المرْضى مَرَضاً مزمناً. وقال الأعشى: «والبِطْنة ممّا تُسَفِّه الأحلاما». واعْلمْ أن الشبَعَ يدعو إلى التُّخْمة، وأن التخمةَ تؤدِّي إلى الأمراض والعِلل، وأن العِلّةَ تؤدي إلى الموتِ وانتهاء الأَجَل. ومَن مات هذه المِيتَة فقد مات مِيتةً لئيمة، وقد قتل نفسَه بَدَل أن يجعلَها كريمة. وإذا كان القاتلُ يَسْتحقُّ الحدّ، فإن قاتل نفسه أشدّ. وقال الله جل ذِكْره: «ولا تقتُلوا أنفسكم» وسواء قتلنا أنفسَنا، أو قتل بعضُنا بعضاً، كان ذلك للآية تأويلاً، وللمعنى تحويلاً.

أي بنيّ، إن القاتلَ والمقتولَ في النار. ولو سألت أحذق الأطباء وأمهر النِّطاسِيّين، لأخبروك أنّ أكثرَ أهلِ القبورِ كانوا من المُتْخمِين. ولا تُصدِّق من يقول: أكلة وموتة. فهذا رأيٌ باطل، ومن ذا الذي يسعى إلى الموتِ العاجل؟ وخذ بقولِ مَن قال: ربَّ أكْلةٍ منعتْ أَكَلات. وقد قال الإمام الحسن البصري: يا ابن آدم، كُلْ في ثُلُث بطنك، واشْرب في ثلث بطنك، وَدَع الثُلُثَ للتَّفكُّر والتنفّس. وهذا مأخوذ منْ قولِ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما ملأَ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطن. بِحسْب ابن آدم لُقَيْماتٌ يُقِمْنَ صُلْبَه، فإن كان لا محالة، فثُلُث لطعامِه، وثلث لشرابِه، وثلث لِنَفَسِه».

وقال العابدُ الزاهد بكر بنُ عبد الله المزني، وهو رفيق الحسن ويقرن ذكره به: ما وجدتُ طعم العيش حتى تركت التخمة والعناء، وأخذت بعدمِ الامتلاء، وحتى لم ألبس إلا ما يخدمُني، ولا أصير خادماً له، وحتى لم أكل إلا ما لا أحتاج إلى غسل يدي بعده.

أي بنيّ: والله ما أدى حقَّ الركوُع والسجود في الصّلاة من كان أكولاً حتى التُّخْمة، ولا خشعَ لله كما ينبغي للمؤمن من كان يأكل أكثر مما يقوتُه. والصومُ فيه الصحَّة، والوجبات ما يكفي لعيش الصالحين.

أي بنيّ، إن من الحكمة أن يسألَ العاقل: لم طالت أعْمارُ أهل الهند ولماذا كانت أجسامُ أهلِ البادية أقوى وأصحَّ من أجسامِ أهلِ المدن؟ ولله درّ الحارث بن كلدة حين قال: لا دواء خيرٌ من الحِمْيَة، ولا شيء أضر من إدخالِ الطعامِ على الطعام.

أيْ بنيّ، لِمَ كانت أذهان العرب صافية، وهِممهُم عالية؟ ولم كان الأعرابُ أصدقَ إحساساً، وأقوى أجناساً؟ ولم صار الرُّهبْان صحيحي الأبدان على الدوام، لا يعرفون النِّقْرِس ولا وجعَ المفاصل ولا الأورام، مع طول الإقامة في الصوامعِ والأديرة، لا يبتغُون إلا الآخرة؟ إن سببَ هذا كُلِّه وعِلَّته قلَّة الطعام، وخِفَّة ما يأكلون، والاكتفاء باليسير وأقل القليل.

أيْ بنيّ، إن المرءَ مخيَّرٌ بين أن يعرفَ نسيمَ الدنيا هانياً، وأن يكون في هذه الدنيا بصحَّتهِ باقياً، وبين أن يُدني أجلَه. فإن أراد الثانية كانَ من الأَكَلة، وإن أراد الأولى خفّف من الطعام، ولم يشْكُ ثِقَلَه. وإني والله أنصحك بتدبير يحفظ عليك صحة البدن، وصفاء الذهن، وصلاحَ الآخرة، والعيشَ مكتفياً غانماً ميسوراً، والقربَ من عيش الملائكة.

أيْ بُنيّ، أتدري لِمَ صار الضبُّ أطول شيء عمراً؟ لأنه يعيش بالنَّسيم. أتدري لِمَ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الصومَ وقاية؟ لأنه أراد أن نجعل الجوعَ حماية، يحفظُنا من شرِّ الشهوات، ومن الرغبات التي تَعْتَمِل في النفس جامحات. فافْهم تأديبَ الله ورسولِه، فما قُصِدَ به إلا من كان مثلَك.

ولماذا أضرب لك الأمثالَ من الحيوان أو من بني الإنسان؟ هاأنذا أمامَك وقد بلغت التسعين، وما زلت بحمد الله قويّاً وذا عزْمٍ مكين. ما نقص لي سنٌّ، ولا تحرّك لي عظْم، ولا أيقظني في الليل عَصَب، وما شكوتُ في يوم من الأيّام، التَّعَب، ولا عَرَفت طنينَ أُذُن، ولا سَيَلان عين، ولا سلس

بول. وهل خلقني الله معجزة بين العباد؟ لا. ولكنني كنت دائماً أُخفِّفُ من الزاد. فإن كنتَ تُحب أن يُطيلَ الله عُمْرك وأن يَزيدَ بين الناس قَدْرَك، فهذا هو السبيل، وإن كنت تُحب الموت، فلا يُبعِدُ الله إلا من ظلم».

هذا كان درسَه لابنه في يوم الرؤوسِ وحده، فما بالك ببقية الأيّام؟ وليت الابنَ المسكينَ كان ينالُ شيئاً من الرأس بعد هذا، فلم يكن نصيبُه إلا أن ينظرَ الطعام ويُمَصْمِص العظام.

ولم يكن يَشتري الرؤوس إلا في آخر الشهر، إذ يقولون إن الدماغ يكون أوفَرَ في مثل هذا الوقت ولم يكن يشتري إلا رأس ذبيحة فتيّة لوفرة الدّماغ في رأسها، لأن دماغَ الفتى أوفر ومُخّه أنقص، ودماغ المُسِن أنقص ومخه أوفر. ويزعُمون أن لدورة القمر في الأدمغة والدماء تأثيراً، فقد يكون الدماغ صغيراً أو كبيراً، وقد يكون الدم قليلاً أو وفيراً حسب الأهلَّة. ويزعمون أيضاً أن بينها فرقاً بين الربيع والخريف. ويزعُم البَدْو والأعراب أن النُّطفةَ إذا وقعت في الرَّحِم في أولِ الهلال، خرج الولد قوياً ضخماً، وإذا حدث الحمل في أوان المحُاق، كان الولد ضعيفاً ضئيلاً.

وكان أبو عبد الرحمن الثوريّ يشتري الرؤوس من جميع بائعي الرؤوس في بغداد، إلا من البائعين بجوار مسجد ابن رُغبان. ولم يكن يشتريها إلا يوم سبت. واختلط عليه الأمر فيما بين الشتاء والصيف، فكان يشتريها مرة في هذا الزمان، ومرة في هذا الزمان.

وأما سببُ امتناعه عن شراء الرؤوس من البائعين بجوار مسجد ابنُ رغْبان، فلأن الحيَّ كلَّه كان حيّ البصريّين، والبصريون يُحِبّون لحم الماعز ويُفضّلونه على لحم الضأنْ كلّه، ورؤوس الضأن أكثر شحماً، وأوفر لحماً، ولحمها ألْيَن وأطرى، وأطْيب وأشهى.

وأما اختياره شراء الرؤوس يومَ السبت، فلأن القصابين في جميع الأنحاء يذبحون يوم الجمعة أكثر، ولا يشتري الناس الرؤوس، بل يشترون

اللحم، فتكثر الرؤوس يومَ السبت على قدر زيادة عدد الذبائح، والعوامّ والتجّار والصنّاع لا يشتهون أكل الرؤوس يوم السبت، وقد أكلوا لحماً يوم الجمعة، وربما بقي عندهم فَضْلَةٌ من يوم الجمعة، فهي تسدّ الشهوة. والناس لا يَجمعُون على خِوانٍ واحدٍ بين اللحم والرؤوس.

وأما اختلاطُ التدبير عليه بين الشتاء والصيف، فوجْهُ ذلك أن شراءه الرؤوس تحكُمه شهوته وبُعْد عهده بها، صيفاً وافق ذلك أم شتاء، فإن اشتراها في الصيف، فلأن اللحم في الصيف أرخص، لوفرة الذبائح، والرؤوس تابعة للَّحْم، ولأن الناس يُعرضون عنها في حرِّ الصيف، ويقبلون عليها في الشتاء. فكان يختار موسم الرخص على حسن الموقع. فإذا قويت رغبته، وتحركت شهوته في الشتاء قال: «رأس شِتويّ واحد، يساوي رأسين صيفيّين لأن البهيمة المعلوفة غير البهيمة التي ترعى في البَرّ، وما أَكَل العَلَف في الزريبة محبوساً، غير ما أكل الحشيش في البريّة مُطلقاً.

* * *

بخلاء على الهامش

حدّثني المكيُّ أبو إسحاق، وقد حكيت عنه عند ذكر يحيى بن عبد الله وبُخله، قال: كنتُ يوماً عند العنبريّ، فجاءته جارية أمه، ومعها كوزٌ فارغ، فقالت: «أُمُّك تُسلِّم عليك وتقول: بلَغني أنّك لَفَفْت جرَّتكم بالخَيْش، وجعلت بينه وبين خَزَفِها التِّبْن، وتجعلُه نديّاً دائماً، فصار ماؤُكم بارداً، ويومنا يومٌ شديدٌ الحرّ، فابْعث إليّ بشَرْبة منها في هذا الكُوز أُطفئْ بها حرّ جوفي». قال: «أنتِ والله كاذبة، أمّي أعقلُ من أن تبعثَ بكوزٍ فارغ، لكي نردُّه لها ملآن ماء بارداً. اذهبي فاملئيه من ماء جرّتكم، ثم عودي وفرّغيه في جرّتنا، ثم املئيه ماء بارداً، حتى يكون شيء بشيء».

قال المكيّ: وإذا هو يريد أن تدفعَ أمّه جوهراً بجوهر، وعَرَضاً بعرض، وماءً بماء، فلا تربحُ أمُّه، ولا يخسرُ إلا الفرقَ بين المائين بين حار وبارد، فأما عدد الجواهر والأعراض، فمِثْلاً بمثل. وأما أن يرسل إلى أمه كوز ماء بارد، فلا يَسْتحِلّه.

وقال المكيّ: دخلت عليه يوماً، وإذا هو جالس وأمامه قُفَّة تمر، وإذا مرضعتُه جالسة قُبالَته، وكلما أكل تمرة، رمى بنواتها إليها، فتأخذها، وتمصّها حيناً من الوقت، ثم تضعها في وعاء مخصص للنوى. فقلت للمكيّ: أكان يدع على النواة من شحم التمر شيئاً؟ قال: لا والله. ولقد رأيتها لاكَتْ نواة مرة بعد أن مصَّتْها، فصاح بها صيحة، زلزلت من تحتها الأرض، فلو كانت قتلت قتيلاً، أو كانت هتكت العِرْض، لما ارْتجف أكثر من ذلك بالطُّول والعَرض. إنما كان لها أن تأخذ حلاوة النواة، ثم تجمع النوى ليصير وقوداً.

قال الخليل السلولي: كان أبو قطبة يملك ثلاثة آلاف دينار يتَّجِر بها، ولكنها كان لبخله يحيا حياة من لا يملك ثلاثة دراهم. وكان من بُخله أنه يؤخِّر

إخراج ما تجمّعُ في بالوعته من الأوساخ، إلى يوم المطر الشّديد، حين تسيل الدروب كالسيول والأنهار، فيستأجر رجلاً واحداً فقط، يخرج ما فيها، ويصبّه في الطريق، فيجرفه سيل المطر، ويذهب به إلى قناة التصريف. وكان بين موضع حفرة بالوعته والمَصَبّ قَدْرُ مائتي ذراع، فكان لكي لا يخسر درهمين، يحتمل الانتظار شهراً أو شهرين، ولا يهمه أن يصبّ الأوساخ في الطريق ويؤذي بها الناس.

قال الخليل: حدثتني امرأة تعرف الأمور، فقالت:

كان في الحيّ مأْتم اجتمعت فيه عجائزُ من عجائزِ الحيّ. فلما رأين أن أهلَ المأتم قد أَقمْن المناحة، اعتزلن في رُكْن، يتبادلن الأحاديث. ثم قادهنّ الحديث إلى ذكر برِّ الأبناء بالأمّهات، وإنفاقهم عليهن. وتعرف كيف تجري الأحاديث في مثل ذلك المجلس، فأخذت كلٌّ منهنّ تذكر ما يقدم ابنُها لها، وأم فيلويه ساكتة. وكانت امرأة صالحة، وابنها يظهر النسك، لكن البخل عنده دِين لا يدانيه الشرك، وله حانوت بجوار مقبرة بني حصن يبيع فيه ما يجمع الصبيان مما يَسْقط من رطب النخل.

قالت: فأَقْبَلَت المرأة على أم فيلويه، فقالت لها: ما لك لا تتحدثين معنا عن ابنك كما يتحدثن؟ وماذا يصنع فيلويه وكيف يبرّك؟ قالت أم فيلويه: كان يُعطيني في كل أضحى درهماً، ثم قطع عطاءه أيضاً. فقالت لها المرأة: وما كان يخصص لك إلا درهماً كل أضحى؟ قالت: ما كان يعطيني إلا ذاك، وربّما أدخل أضحى في أضحى، فلا أنال الدرهمَ إلا كل أضحيين. قالت المرأة: يا أم فيلويه كيف يدخل أضحى في أضحى؟ قد يقول الناس: إن فلاناً أدخل يوماً في يوم، وأسبوعاً في أسبوع، وشهراً في شهر، أما أضحى في أضحى، أو فِطْراً في فِطْر، فهذا ما لم يفعله أحد من قبل، وهذا شيء لابنك، لا يشاركه فيه أحد.

*   *   *

تمّام بن جعفر

ما أكثر فلاسفة البخل

كان تمّامُ بن جعفر من أبْخلِ خلقِ الله، ولم يكن يخفي بخلَه على الطعام خاصة. فإن أكل أحد خبزه، وبّخَه وقرّعه، ولو كان يستطيع لقطعه، وكال له شنيعَ التُّهم، بحسب عددِ اللُّقَم، وربّما ظلّ وراءه حتى يستخرج أن دمه حلال.

وكان إن قال له أحد جُلسائه: «ما في الأرض أحد أشدُّ قدرة على المشي منّي، ولا على ظهرها أحد أقوى على الركض منّي» قال له: «وما يمنعك من أن تمشي أكثر من الجَمَل، وتَعْدو كالحصان، وأنت تأكل أكل عشرة؟ وهل يحملُ الرجلَ إلا بطنُه؟ لا حَمِدَ الله من يحمَدُك». فإن قال: «إني والله أضعف الخلْق عن المشي. لا أقدِرُ عليه، وربما سبقني الصبي الصغير. وإني لينقطعُ نفسي ويصير لهاثي كالشخير، إن مشيت ثلاثين خطوة أو أقل» قال: «وهل في هذا غَرابة؟ وكيف تمشي، وقد جمعت في بطنك حراماً وحلالاً، مالا يقدر على حمله عشرون حمّالاً؟ وهل تنطلقُ القدمان في المشي إلا مع خفّة الأكل؟ وأيُّ أكولٍ شَرِه يقدِرُ على الحركة؟ إنّ مَن أتْخمت بطنُه ليعجزُ عن الركوع والسجود، وعن القيام والقُعود، أفلا تريدُه أن يعجز عن المشي الكثير السريع؟».

فإن قال الجليس مشتكياً ضرسه: «لم أذُق البارحة للنوم طعماً من شدّة وَجَعه وضرباته» قال تمّام: «لا أعجب من هذا، بل أعجب من أنّك اشتكيت ضِرساً واحداً، ولم تشْتك جميع ضروسك. وكيف بقيت إلى اليوم في فمك سنّ؟ وأي ضرس يقوى على المضْغِ والطَّحْن؟ والله إن الرَّحى المصنوعة في الشام لتكلّ وتتعب، وإن العصا الغليظة ليتعبها الدقُّ والضرْب. وأعجب أن هذه العلة لم تأْتِكَ قبل اليوم. ارْفُق بنفسك وضروسك».

فإن قال: «أحمدَ الله على أنّي ما اشتكيت ضرساً لي قط، ولا تحلحل لي سِنّ عن موضعه، منذ بدَّلْت أسناني ووعيت» قال: «يا مجنون، أما علمت أنّ كثرة المضْغ تُقّوي الأسنان، وتدَبغُ اللثة وتغذي أصولها؟ وأن إعفاءَ الأضراس من المضغ يُوهنها ويُضعفها؟ وإنما الفمُ جزء من الإنسان، وكما أن الإنسان نفسه يقوى ويصلُبُ عوده إذا عَمِل وتحرّك، وإذا طالَ سكونُه لان ووَهَن واسترخى، كذلك الأضراس والأجزاء الأخرى، ولكن رِفْقاً، فإن الإتعاب يهدمُ القوّة فلا تهدمْ بكثرة المضغ هذه الثروة، ولكل شيء مقدارٌ ونهاية، وليست قوتك الآن كما كنت في البداية. وإذا كنت لا تشتكي ضرسَك مع كل هذا الأكْل، ألا تشتكي بطنك وأنت تضع فيه كل هذا الحِمْل؟.

فإن قال الجليس: "كأنني أُصبِْت بداء الظمأ، فأنا أشرب وأشربُ ولا أرتوي، وما أظن أن أحداً في الدنيا يشرب من الماء أكثر مني" قال: «وما الغريبُ في هذا؟ إن التراب يشتهي الماء ويحتاجه ليرويه. وحتّى الطين يحتاجُ ماء يبلّه وينديّه. ومع ما أرى من شدّة إقبالك على الطعام، وحرصِك على تكبير اللقمة وتعظيمها، لو شربت ماء الفرات لما وجدته كثيراً عليك. أنت لا تدري ما تصنع على الطعام، ولا ترى نفسَك، فسَلْ عن هذا من لا يُحابيك ولا يجاملك، بل يقول لك الصدق، عندها تعلم أن ماء دجلة كله، يقصُرُ عن إرواء جوفِك وما حشوتَ في بطنك».

فإن قال: «ما شربت منذ أصبحت من الماء ما يكفي الطفل الصغير، وما شربت يوم أمس كله إلا مالا يملأ القدح الكبير، وما في الأرض كلها إنسان أقلُّ مني شرباً للماء» قال تمّام: «أتدري لماذا؟ لأنه ما في الأرض كلها أشدُّ نهماً إلى الطعام منك، فلا تدَعُ للماء موضعاً، ولأنك ترصّ الطعام فوق الطعام في جوفِك، فلا يجد الماء مدْخلاً. والعجيب ألا تَتْخم، لأن الشرِهَ إلى الأكل، من لا يشرب الماء على الخوان، لا يدري مقدار ما أكَل، فهو لا يتوقف عن المضغ ليشرب ويلتقط أنفاسه، وربما شبع وأدرك الكفاية ولم يتوقف، ومن جاوز مقدار الكفاية، لا بد أن يُصاب بالتخمة».

وقد يرى شحوباً في وجه من يُجالسه، وذبولاً في عينيه، فيسألُه عمّا به، فيقول الجليس: «لقد أهلكني الأرقُ وأنهكني، وما أنام من الليلِ إلا أقلّه، وما نمتُ ليل الأمس كُلَّه» فيقول تمّام: «وكيف تنام؟ وكيف لمن ملأ بطنه حتى التخمة، فتولّدت عنده النَّفخة، وراحت أمعاؤه تنقبض وتتلوى وتصدر قرقرتَها أن ينام؟ بل كيف لمن أكل هذا الطعام كله ألا يَجِفّ ريقُه وييبسَ لسانه من العطش؟ وهل يترك العطشُ الرجل ينام؟ ومن أكل كثيراً كان كالإبل الظماء، ولم يرتوِ من شرب الماء. ومن شرب كثيراً احتاج إلى التبوّل كثيراً، ومن أمضى ليلَه كلَّه بين إرواء عطشه بالماء، وإخراج هذا الماء، كيف له أن يعرف النوم؟».

فإن قال الرجل: «أنا بحمْد الله خَلِيٌّ من كل همّ، فما هو إلا أن أضع رأسي على المِخَدَّة حتى أذهبَ في نومٍ عميق، وأظلّ كالحجر الملقى إلى الصُّبح» قال: «ليس في هذا عجب، ذلك لأن الطعام كالخمْر يُسْكر، ويُضعف الهمّة ويُخدِّر، وبالطعام الكثير يضعُف الدماغ، وتبتلّ العروق، ويسترخي به جميع البدن، ولا أعجب أن تنامَ كالحجر، أو كمن كسَّر طول يومه الصخور، بل إني لا أعجب أن تنام الليل والنهار والشهور».

فإن قال: «أصبحت اليوم وأنا لا أشتهي شيئاً من الطعام». قبض عليه تمّام، وحذره بسرعة: «إيّاك أن تأكل قليلاً ولا كثيراً، فإنّ مَن ضَعُفَت شهوتُه وأكل القليل، أصابه من الضرر مثلما يصيب من جمحت شهوته وأكل الكثير، ولماذا تشتكي؟ وكيف يمكن أن تشتهي اليوم طعاماً، حتى لو كان كِسْرة، وقد رأيتُك بالأمسِ وقد أكلتَ طعامَ عشرة؟».

وكان تمّام بن جعفر يقول لندمائه: «إياكم والأكل على أثر شُرْب حتى السُّكْر، فإنّ من كانت هذه حالَه لا دواء له إلا الشراب. إن عدَم الإفاقة من سُكْر الخمر تخمةٌ وحده، والمتخم إذا أكل مات لا محالة. وإنّي لكم ناصح. إياكم والإكثار من الطعام في أعقاب الحِجامَة، أو الاحتياج إلى فَصْدٍ، أو الخروج من الحمّام، وإياكم من الإكثار، وعليكم بالتخفيف في الصيف كلِّه، واجتنبوا اللحم خاصة، تتجنّبوا الأضرار».

وكان يقول: لا يفسدُ أخلاقَ الناس إلا عديمو الإحساس. هذا الذي يأتي بأقبح الأفعال في المجالس، ويتشدق بالكلام البارد، ويأتي بالطُّرف المسْتنكرَة يظنها حارّة مضحكة، لو لم يلْق من يضحك لنوادره، ويشكرُ له ظُرْفَـــهَ، ويستحسن منه كل طُرْفَـــه، ويُظهر السرور بقبيح الإشارات والحركات تيهاً. فها هم يقولون للأَكُول النَّهِم، ولمن يتّصِف بالشره، ولمن لا تحرِّكُه إلا رغبته في الطعام: «فلان حَسَنُ الأكل». ويسمعُ مدحَهم وتقريظهم وتشجيعهم، ولا يدري أن هذا ما قد يهلكه، ويكون السبب في دُنوِّ أجله، حتى جعل ذلك عادة، بل صارتْ وسيلة لكسْب ضحكهم وعُجبْهم والاستزادة، وربما أكل ما فوق شبعه حتى التُّخْمة، وربما فوق التخمة ما لا يُطيقُ فقتله، ولا تراه إلا هاجماً على طعامِ أيّ من العباد، فيلتهم ما بين يديه ويتركه بلا زاد، فلو أنهم، بدل قولهم: «فلان حَسَنُ الأكل»، قالوا: «فلان أقبح الناس أكلاً» لارْعوى عن عادتهِ الذميمة، ولسلك في الأكل الطرق السليمة. ولكان ذلك صَلاحاً للنهم وصاحب الطعام.

وترى الناس يتهمون الرجل بالبخل على الطعام، ويحارُ المسكين فيهم، فلا يجد لنفي التهمة عنه إلا أن يدعو كل نَهِمٍ أكول، وكلَّ شَرِهِ لا يشبع. ويحضر له الطعام الطيب، والغريب النادر، ولا تراه ينجو من ألسنتهم، ولا يفيده ما فعل.

ولو كانت شدّة الأكل وكثرته، والنّهم على الطعام، مما يُعَد في محاسن المرء وأفعاله الحميدة، يُذكر بها في المجالس، لكان الأنبياء أكثر خلق الله أكلاً، ولَخصَّهم الله جلَّ ذكرُه من الرغبة في الطعام، بما لم يُعطه أحداً من خلقِه. ولكننا نجده سبحانه وتعالى جعلهم غيرَ هذا. وفي مأثور الحديث «إن المؤمن يأكل في مِعىً واحد، وإن المنافقَ يأكل في سبعة أمعاء» فالمنافق يأكل أكل سبعة مؤمنين، وكأنه صلى الله عليه وسلم يعلمنا أن كثرة الأكل من علامات النفاق. هل سمعتم بنبي اشتهر بالنَّهَم، وبكثرة الأكل وتعظيم اللُّقَم؟ بل

نرى في سيرهم أنهم اشتهروا بأنهم أقل العالمين أكلاً، وأكثرهم زهداً في الطعام. ونسمع أن فلاناً كان يفتخر بأنه ابن أشجع العرب، أو ابن أفرس العرب، أو أحْكم العرب، وقد يُمدح هو نفسُه بهذا، فهل سمعتم بأحد قطّ افتخر بأنه «آكَلُ العرب»؟ أو افتخر بشدة أكل أبيه فقال: «أنا ابن آكَلِ العرب»؟.

وشرب مرّة، وغنّاه المغني، فتملكه الطّرب، فشقّ قميصَه، وهكذا يفعل كثيرون عند السماع، وكان هذا غريباً منه. فقال لرجل كان من قبلُ مولى له يقال له «المحلول» وكان صيرفياً، ويجلس إلى جانبه: «ويحَك؟ ألم تطرب؟» قال المحلول: «بلى والله» فقال: «فلِمَ لَمْ تشقَّ قميصك؟» قال المحلول وكان من الأعاجيب في البخل، ويباري تمّام بن جعفر فيه: «لا والله لا أشقّه، وليس عندي غيرُه» قال تمّام: «لا تهتمَّ بهذا. شُقَّه وأنا أكسوك غيره غداً» قال: «فأنا أشقُّه غداً» قال تمّام «وما فائدة شقِّك له غداً ونحن الآن في مجلس الطرب؟ وماذا أستفيد من شقّك له غداً؟» قال المحلول: «وأنا ماذا أستفيد من شقِّه الآن؟».

فلم أسمع باثنين من خلق الله يتجادلان ويتناظران في أمر هو ابن ساعتهِ، ولا يُستحسن إلا في لحظتهِ كشقِّ القميص لغلبة الطرب، إلا هو ومولاه محلول.

* * *

بخلاء آخرون على الهامش

دخل عليٌ الأعمى على يوسف بن كلٍّ خير، فقال يوسف: «لو بكّرت يا عليّ قليلاً، فلقد تغدّيتُ، ولكن! يا جارية، هاتي لأبي الحسن شيئاً». قالت: «لم يبْقَ عندنا شيء». قال: «هاتي ويحَك ما تجدين، فليس من أبي الحسن حشمة، وأبو الحسن يَعذُر». فما شكّ علي في أنها ستأتيه برغيف أُكِل طرفُه، ورقاقة لُطِّخت بالدسم، وبقية مَرَق، وعظْم عليه شيء من لحم رقيق طيِّب، وفُضلَة شواء، وبعض ما زاد في الصحون الكبيرة. فأتت إليه بطبَق ليس عليه إلا رغيف ناشف من أرغفة الأرز، ولا شيء معه، فوضعته على الخوان وقرّبته من عليّ، فأجال يده في الطبق كما يفعل الأعمى، فلم يجد إلا ذلك الرغيف. وقد علِمَ أن قولَ يوسف: «ليس منه حِشْمة» يعني أن يأتوه بالقليل، دون أن يستحوا من ذلك القليل. فلم يظنّ أن الأمر يصل إلى هذا الحد. فلما لم يجد غير الرغيف، رفع صوته قائلاً: «ويلكم، كان الأفضل أن تعتذروا، ولا تأتوا بمثل هذا، رفعتم الحشمة كلها، وأبو الحسن صديق، وأبو الحسن يعذُر، قاتل الله بخلكم».

وحدّثني محمد بن حسّان الأسود، قال: أخبرني زكريا القطّان، قال: كان لرجل يُدعى الغزّال قطعة أرض وأمامها حانوتي. فأجّر نصفها لسمّاك، لكي يُسقط ما استطاع من أجرة الأرض. قال: وكان الغزّال أعجوبة في البخل وآية في الشحّ، وكان يأتي من منزله ومعه رغيف، فكان أكثر أيامه يأكل هذا الرغيف دون أي شيء من الإدام معه. وربما اشتهت نفسُه شيئاً من الإدام مع الرغيف، فيأخذ من السمّاك سمكة من أردأ أنواع السمك. فإذا أراد أن يتغدّى أخذ السمكة فمسحها على وجهِ الرغيف، ليأخذ الخبز منها رائحتها، ثم يأكله.

وربما فتح بطن السمكة، وراح يضع فيه اللقمة بعد اللقمة ويأكلْها. فإذا رأى أن هذا قلّل من جسْمها، والتصق طرفا بطنها أحدهما بالآخر، طلب من ذلك السمّاك شيئاً من ملح السمّك، فحشا جوفَها لينفُخَها، وليُوهم أنّ هذا ملحُها الذي مُلِّحت به. ولربّما غلبته شهوته إلى الإدام، فيعض من طرف أنفِها قطعة يدسّم بها لقمته، ولا يكون هذا منه إلا في آخر لقمة من طعامه، ليطيِّب بها فمَه، فكأن غداءه كلّه كان سمكاً. ثم يضعُها في ناحية. فإذا اشترى من امرأة غزْلاً، راح يجمع ويطرح، حتى يدخِلَ ثمن تلك السَّمكة في ثمن الغزْل، ويحسبُها عليها بمثل ما اشتراها. فيسترجع رأسَ ماله، ويبقى له الإدام.

وروى أصحابنا عن عبد الله بن المقفَّع، قال:

كان ابن جُذام الشَبيّ يأتي إلي، فنجلس ونتحدث، فإذا حان وقت الغداء انصرف معي إلى منزلي، فيتغذّى معنا، ويبقى عندنا إلى أن تميل الشمس إلى الغروب، ويبرد الهواء. وكنت أعرف أنه كثير المال شديدُ البُخل، والواحد من هؤلاء يشتدّ بخله بمقدار ازدياد ماله. وكان يُلِحّ عليَّ في أن أزوره، فكنتُ أعتذر منه مرة لهذا السبب ومرة لذاك. فلما تكرر هذا مرات كثيرة منه ومنّي، قال: جُعِلتُ فِداك، أنت تظن أنّي ممّن يتحرّج من أصدقائه، ويتكلّف مالا طاقة له به لإرضاء جلسائه، وها أنت تعْتذِر عن الزيارة، إشفاقاً منك عليّ من الخسارة، لا والله، إن هي إلا كُسيرات خبز يابسة، وملح، وماء الجرّة. فقلت لنفسي: «لعلّه يقول هذا ليجذبني إلى الزيارة بتهوين الأمر. ولعلّ هذا كقول الرجل، يا غلام، أطعمنا مما حضَر من الطعام، تواضعاً منه. أو كقول الرجل: أطعم السائل خمسَ تمرات. ولكن هذا لا يكون كما قال، بل ربما كان أضعاف أضعاف ما قاله. وما أظن أحداً يدعو أحداً مثلي ليقطعَ البصرة من شرقها إلى غربها، مع ما في ذلك من المشقة، ثم يأتيه بملح وماءٍ وكِسرات، أو ببضع لقِمات».

وهكذا اتّكلت على الله وزرته، وقدّم الطعامَ، فإذا هو كما قال، فاستحييتُ أن أردّه، وإذ بسائل مسكين وقف بالباب، فقال: أطعمونا مما

تأكلون، أطعمكم الله من طعام الجنة وأنتم شاكرون. قال ابن جذام: بارك الله فيك ولك ورزَقك. فأعاد السائل القول، وأعاد الشبيّ الجواب. فلما تكرر هذا، قال الشبيّ: اذهب - ويلك - فقد رَددْنا عليك، أم تأتي لنخضع بين يديك؟. فقال السائل: سبحان الله، ما رأيت أحداً من الكرام، يردّ لُقمة عن سائل، وبين يديه الطعام. فقال: قد رَدَدْنا عليك، فاذهب ويلك، وإلا خرجت إليك، فوالله لن أتركك حتى أكسر ساقيك. قال السائل: سبحان الله، لقد نهى جلّ ذكره عن نَهْر السائل بقوله «وأما السائلَ فلا تَنْهر» وأنت تهدّدني بكسْر ساقيّ؟ فلم أُطِق صبراً، وقلت للسائل: اذهب يا هذا وأَرِحْ نفسك، فوالله لو تعرفُ من صدْق وعيده، مثلَ الذي أعرف من صدْق وعدِه ومواعيدِه، لما وقفتَ لحظة، وبعد سماعك ما قال.

وكان أبو يعقوب الذقنان يقول:

ما فاتني اللحم، ولا انقطع من داري يوماً، منذ ملكتُ المال. قال العارفون بحقائق أمر داره، والمطَّلعون من الأصحاب على أسراره، هذا صحيح. وهو يعني أنه ما فاتَتْه رائحةُ اللحم. لأنه إذا كان يوم الجمعة، اشترى لحم بقر بدرهم، ولحم الضأن أغلى، وأطيب وأشهى. ثم اشترى بصلاً بدانِق، وباذنجاناً بدانِق، وقرْعاً بدانِق، فإذا كان هذا أيامَ الجَزَر فجزراً بدانِق. فيطبخون اللحم في القِدْر، ثم يصفّون ما اشترى طبقات فوق طبقات، ثم يغمرونها كلّها بالماء، ويُنْضِجونَها. ففي ذلك اليوم يأكل وعيالُه خبزَهم بشيء من دسم رأس القدر، وتبقى طبقات الخضراوات كما صفُّوها. فإذا كان يوم السبت ثردُوا خبزهم، وصبوا عليه شيئاً من المَرق، وأكلوه. فإذا كان يوم الأحد أكلوا البصل، فإذا كان يوم الاثنين أكلوا الجَزَر. فإذا كان يوم الثلاثاء أكلوا القرْع. فإذا كان يوم الأربعاء أكلوا الباذِنجان. فإذا كان يوم الخميس أكلوا اللحم. فلهذا كان يقول: ما فاتني اللحم منذ ملكتُ المال.

وقال أصحابنا: نزلنا بناسٍ من أهل الجزيرة، وإذا هم في بلاد باردة، وإذا حطبُهم شرّ حطب، وإذا الأرض كلُّها غابة من شجر يقال له الطَّرفاء،

فقلنا: « ديار من أجمل الدِّيار، وشجر من أكرم الأشجار، وما في الأرض أكرم من الطرفاء» قالوا: «نعم، إنه شجر كريم، ومن كَرَمه نفرّ كما يفر الناس من المجذوم». قلنا: «فما الذي يجعلكم تفرون؟» قالوا: «أما علمتم أن حطب الطرْفاء كثير الدخان؟ إن دخان الطرفاء هذا يهضِمُ الطعام، فيظل المرء جائعاً على الدّوام، وعيالُنا كثير».

قال المكيّ: كان لأبي عمٌّ يقال له سليمان الكثريّ، وقد سميّ بذلك لكثرة ماله، وكان يبخَلُ حتى على عياله. وكان يقربّني وأنا صبيّ إلى أن بلغت مَبْلَغَ الرجال، فوالله ما وهبني يوماً شيئاً من مال، ولا نلتُ منه هدية من حلال. فلقد جاوز في بُخله حدّ البُخلاء. فدخلت عليه يوماً، وإذا أمامَه قطع من الحلوى الرخيصة لا تُساوي قيراطاً؛ فلما نال حاجته منها، تاقت نفسي إليها، فمددت يدي لآخذ قطعة، فنظر إليّ نظرة صقْر، فقبضت يدي، فقال: «لا تقبض يَدك، وانْبسط واسترسل، وليحسُنْ ظنُّك، فإن حالَك عندي على ما تحب، وأنت كأنك واحد من عيالي، فخذها كلها، ولا تترك منها قطعة، فهي لك جميعاً، نفسي بذلك سخيّة، فامْدُدْ يدك، بل كلتا يديك، والله يعلم أنّي مسرور بما وصل من الخير إليك» فعافتها نفسي، وتركتُها بين يديه، وقمت من عنده، وجعلت وجهي إلى العراق، فما رآني وما رأيته حتى مات.

وقال المكيّ، سمعني سليمان أنشد من شعر امرئ القيس:

لنا غَنَمٌ نُسوِّقها غِزارٌ ... كأن قُرونَ جِلَّتها العِصِيُّ

فتملأُ بيتَنا أقِطاً وسمْناً ... وحسبُك من غنىً شِبْعٌ ورِيُّ

فقال: لو كان ذكر مع هذا شيئاً من الكسوة لكان أجمل.

وعُوتب في شدّة عُبوسِه وتقطيبِ جبينه وقلّة الضحك، فقال: «إن الذي يمنعني من الضحك أن الإنسان يكون أقرب إلى البذل والعطاء، إذا ضحك وطابت نفسه وأَنِس الصفاء».

وصلَّيتُ العشاء في مسجد الجامع ومعي محفوظُ النقّاش، ثم جلسنا في المسجد نتذاكر بعض الأمور، حتى انصرف كل إلى منزله، وكان طريقي

وطريق محفوظ واحداً، فسرنا معاً. فلما صِرْنا قرب منزله، وكان منزله أقربَ إلى مسجد الجامع من منزلي، قال لي: «لم لا تبيت الليلة عندي؟» فرفضت، فقال: «يا أبا عثمان، منزلي منزلك، وأين تذهب في هذا البرد والمطر، والظلام دامس، لا نجم ولا قمر، وليس معك ما ينير لك الدرب؟ وقد ولدت نِعاج لي، فعندي لِبَأٌ لم ير الناس مثله في دَسَمِه وكثافتِه، وتمْرٌ لم يذقْ أحد في مثل جودته وحلاوته» فقلت: «أما والله ما أردتُ أن أثقلَ عليك، ولكنك سددت عليّ دروب الاعتذار فلما صِرْنا في منزله، أبطأ علي نحو ساعة، ثم جاءني بطبق كبير فيه لِبأ، وآخر مثله فيه تمر. فلما مددْتُ يدي قال: «يا أبا عثمان، إنه لِبَأٌ دَسِم كثيف غليظ قِوامُه، وصعب هضمُه، وهو الليلُ وركودُه، لا حركة ولا بركة، بل كسل واسترخاء، وهذه ليلة مطر ورطوبة من أشد ليالي الشتاء، وأنت لم تعد شاباً، بل طَعَنْت في السن، ولم تزل تشكو من آثار الفالج أوجاعاً بين الحين والحين، وأنت في الأصل لا تُحب العشاء، بل تحب أن تنام خفيفاً. فإن أكلْتَ الآن من هذا التمر واللِّبأ، ولم تستكثر حتى تشبع، وزجرت النفسَ على أن تقنع، كُنتَ بين البينين: لم تأكلْ ولم تترك، ولم تستفد إلا أن تُهيِّجَ شهوتك، فألَحّ الجوعُ عليك، ثم قطعت الأكل وهو أشهى ما يكون إليك. وإن بالغتَ في أكل اللِّبأ حتى تشبعَ، بِتنا في أسوأ ليلة من الاهتمام بأمرك، وما قد يُصيبك من الأوجاع والعِلَل، ونحن لم نُعِدّ لك قدحاً من نبيذ أو عسل. وإنّما أقول لك هذا الكلام، لئلا تقول غداً: كان وكان، وتتهمني بأنني بخلت بالطعام. والله قد وقعت بين نابي أسد. لأنني ذكرتُ اللِبأ لك، فلو لم أَجِئْك به، قلت: قد عاد عمّا وَعَد، وردّه البخل عمّا لا يُستردّ. وإن جئتك باللبأ والتمْر، ولم أحذرك مما في أكلهما من خَطَر وشرّ، ولم أذكِّرْك بما قد يصيبك، قلتَ، ياله من صاحب لم يشفق علي ولم ينصح. فها أنذا بريء إليك من الأمريْن جميعاً، وما عليك إلا أن تُحسن صنيعاً. فإن شئتَ فأكلةُ لِبأ ومَوْتَة. وإن شئت فبعض الاحتمال هذا الليل، ونوم على سلامة، واحْسُبْ أنك صُمْتَه».

فوالله ما ضحكت يوماً كضحكي تلك الليلة. ولقد أكلتُه جميعاً، فما شعرتُ بأي ثِقَل، وما هضمه إلا الضحكُ والنشاط والسرور، وما كنت أعرف أن هكذا ستسير الأمور. ولو كان معي من يفهم طيب ما قال محفوظ، لأتى عليّ الضحك والانشراح، ولقضى علي السرور قبل طُلُوع الصباح. ولكنّ ضحكَ من كان وحدَه، لا يكون مثل الضحك بمشاركة الأصحاب.

وقال أبو القماقم بن بحْر السقّاء: أول صَلاح الأمور ألا يُرَدَّ ما صار في يدي إلى أحد غيري. فإنْ كان ما صار في يدي مِلكي، فهو لي، وإنْ لم يكنْ، فأنا أحقَ به ممن وضَعه في يدي. ومنْ أخرج من يده شيئاً إلى يدِ غيرِه، من غير أن يُضطرَّه شيء لهذا، فقد أباحه لمن صار في يده. وتفريق الشيء والتفريط به مثل إباحته.

وقالت له امرأة: ويحك يا أبا القماقم، إني قد تزوجت رجلاً لا يأتيني إلا نهاراً، وبعد ساعة وقته، وأنا لم أهيئ نفسي، فخذ هذا الرغيف فاشتر لي به ريحاناً، واشتر بهذا الفلْس طيباً، فإنني سأدعو لك، ولك الأجر والثواب، فعسى الله أن يُلقي محبتي في قلبه، فيمنحني خالص ودّه وحبه، وأصير زوجة دائمة له، فيرزقني الله على يدك بيتاً وسكناً وأسرة، فقد والله ساءت حالي، وضِقْت بالمَضَرّة، والعمر يمضي، وليس ليس سند ولا ولد. فأخذ منها الفَلْس والرغيف، وغاب فلم يعُد. فلقيته بعد أيام، فقالت، قاتلك الله، أما في قلبك رحمة مما صنعت بي؟ استنجدت بك فخذلتني وسوّدت وجهي. قال: ويحك، لم تسأليني عما حدث لي. لقد ضاع مني الفلس. قالت: سقط منك الفلس، فماذا عن الرغيف؟ قال: ركبني الهمّ، وشعرت بالغمّ، فأكلت الرغيف.

وتعشّق أبو القماقم امرأة، فتبعها، فصدّته، فلم يزل يلاحقُها، ويبثّها لواعجه، ويبكي بين يديها، حتى رحمته، وواصلْته. وكانت ذات مال، وليس لها عيال، وكان قليل المال. فقال لها يوماً: «أنتم أحذقُ الناس بصُنع الهريسة» فصنعتها له. فلمّا كان بعد أيام، قال لها: «إني والله أشتهي الرؤوس، وليس

عندي من يطبخها». فأتته بها. ولم تمضِ أيام حتى طلب منها ثريد الأَقِط والتمر والسمن، فصنعت له جاماً. فلمّا كان بعد ذلك تشهّى عليها العصيدة. فقالت المرأة: «ويْحك علمت أن عِشْقَ العاشق يكون في القلب وفي الكبد وفي الشِّغاف، وعشقُك لم يتجاوز معدتَك التي تشتهي الأصناف. أنت بحاجة إلى امرأة تطبخ وتطعمك، وليس إلى امرأة تعشقها».

وذهب أبو القماقم إلى قوم يخطِب امرأة منهم، فألَحّ في السؤال عن مالها، فراحوا يَعدُّونه له وهو يحصيه، ثم قالوا: قد أخبرناك بمالها وما تملك، فأخبرنا لنتبيَّن الرشْدَ في أمرِك. فقال: وما سؤالكم عن مالي؟ إنّ ما معها يكْفيها ويكْفيني.

وكان الأصمعي يقول: جنان الدنيا ثلاث: غوطة دمشق، ونهر بَلَخ، ونهر الأبلّة. أما أهل الأبلّة على شاطئ دجلة البصرة في زاوية الخليج، فأمرهم عجب. سمعت شيْخاً من مشايخهم يقول: إن فقراء أهل البصرة أفضل من فقراء أهل الأبلّة. فظننت أنه يقصد أنهم أكثر كدْحاً، وأشدُّ عفّة، وأكرم نفْساً. فقلت: سبحان الله؟ وهل ثمة فقير أفضل من فقير؟ قال: نعم، لأن فقراء البصرة أشدّ تعظيماً للأغنياء، وأعرفُ بواجبِ ذوي المال، ولا يستوي الذين يعلمون والجُهلاء.

ووقع خلاف بين رجلين من أهل الأبلّة، فأسمع أحدُهما صاحبه كلاماً غليظاً، وشنعه بما يكره. فردّ عليه الآخر بمثل كلامه وأشد. فرأيتهم قد أنكروا ذلك إنكاراً شديداً، ولم أرَ لذلك سبباً. فقلت: سبحان الله، أسمعه كلاماً، فردّ عليه بمثله، والبادئ أظلم، فلم أنكرتم عليه أن يتكلم؟ قالوا: لأن الأوّل أكثر مالاً من الآخر، فهذا لا يجوز وإذا قبلنا هذا منه، ولم ننكرْه عليه، قبلنا من الفقراء، أن يردّوا على الأغنياء، ويكونوا لهم أنداداً وأكفاء، وفي هذا الفساد كلّه.

وقال حَمْدان بن صباح، وهو من أهل الأبلّة: كيف صار لرِياحٍ أن يتكلم وأسمعه، وأتكلم ولا يسمعني! أهو أكثر مالاً مني؟ لو كان لسكتُّ الدهر كلَّه.

وقال: يكون الرجل من أهل البصرة زائراً عند رجل من أهل الأبلّة، ولايبدو على هذا أنه يستعجل انتهاء الزيارة ومغادرةَ ضيفه. فإذا جاء المدّ قالوا: «ما رأينا المدَّ ارْتفعَ قطُّ مثل هذا الارتفاع» وقالوا: «ما أطيب ركوب الماء والسير في المدّ» وقالوا: «إن السير في المدّ إلى البصرة أطيب وأهون من السيْرِ في الجزْرِ إلى الأبلّة» فلا يزالون يُسمعونه مثل هذا الكلام، حتى يرى أن الأفضل له أن يُغادر، ويغتنم هذا المدّ بعينه.

وكان أحمد بن اسحاق الخاركيّ، نسبة إلى جزيرة خارك من جُزر البحر الفارسي، شاعراً هجّاء، لكنه كان ضيّق الفهْم، سريع التصديق، ضعيف النظر في الأمور. وكان الخاركيّ بخيلاً، وكان مغروراً متكبّراً يدّعي ما ليس له، وأن ترى الرجل يتكبّر بماله أمرٌ يبعث الغيظ، لكن الأغيظ أن ترى من لا يملك يدّعي أنه يملك. وكان يجعل لجُبَّتِه أربعة أزرار، وكل الناس يجعلون للجُبّة زُرّيْن، ولكن ليوهم الناسَ بأنه يرتدي جُبّتَيْن. وكان يشتري من بائعِ العُشب عناقيدَ الرُّطّب وسعفَ النخل، فإذا جاء بها الحمّال، تركه ساعة أمام الباب حتى يصرخ هذا، ليوهم الناس بأن له بساتين نخل، وأن ذلك السعف والعناقيد من أرضه. وكان يسْتأجرُ من الخمّارين قُدورَ النبيذ، ولا يختار إلا أكبرها، يدّعي أنه سيصنع في بيته نبيذاً، ثم يهرب من الحمّالين، كي يقفوا ببابُه محنقين، ويرفعوا أصواتهم بالصياح غاضبين «يشربون الخمرَ والنبيذ، ويحبسون الحمّال على بابهم بأجرته» وليس عنده في منزله رِطْلٌ من الدبس، فما بالك بالنبيذ؟ وسمع قول الشاعر:

رأيت الخبزَ عزّ لديك حتّى ... حسبتَ الخبزَ في جوّ السحابِ
وما روَّحْتنا لتَذُبَّ عنّا ... ولكن خِفت مَرْزِئَةَ الذُّبابِ

فقال: ولِمَ روّح عنهم قاتله الله؟ هل يريدُهم أن يبتردوا لينشطوا؟ ولَمَ ذبَّ عنهم لعنة الله؟ ما أعلم هذا يكون إلا ليشهي إليهم الطعام، وما كان ينقصه إلا أن ينظّف لهم القِصاع، ويبرّد لهم الماء، ويهيِّئ لهم الأجواء، ليشجعهم على الأكلِ لا أصابوا الهناء. ثم لماذا يطرد عنهم الذباب؟ لماذا لا يتركه يقعُ

في قصاعهم، ويُنغّص عيشهم بالوقوف على أنوفهم وأعينهم؟ إنه والله يستحقّ أن يُهجى بهذا وبما هو أعظمُ منه. فكم من مرةٍ أمرتُ الجاريةَ بأن تُلقي في القَصّعةِ الذبابةَ والذبابتين والثلاث، حتى يتقزَّز من لا نهتم لأمْرِه، أو يُريحَنا الله من شرِّه.

ثم قال: وأما قوله:

رأيتُ الخبـزَ عـزّ لـديكَ حتّـى حسبتَ الخبزَ في جـوّ الـسّحاب

فإذا كنت لا أُعزّ الخبز، وهو قِوام أهل الأرض، وأصلُ كل قُوتٍ وطعام، وأمير الأغذية مذ خلَق الله الأنام، وهو في الغذاء كالسَّنام، فأيَّ شيء أُعِزّ؟ إني والله أُعِزُّه وأعزه وأعزه وأعزه، ما دام النفس يجري في صدّري، وما حَمَلَتْ عيني الماءْ.

وحدّثني عنه إبراهيم بن هانئ وكان ماجناً خليعاً كثير العبث متمرداً، فقال: أتدري يا أبا عثمان ما بلغ من ادّعاء الخاركيّ؟ قلت: إنه يدّعي كثيراً، ولا أستغرب منه أمراً، فماذا فعل؟ قال: كنت عنده يوماً، إذ مرّ بنا بعض البائعين وهو يصيح «الخْوخ.. الخوْخ». فقلت: «يا سبحان الله، كيف تمرّ الأيّام، وها قد جاء الخوّخ». فقال: «نعم لقد جاء، وقد أكثرنا منه حتى كدنا نملّ» فاشتهيتُ أن أضربَه غيظاً منه، فناديت البيّاع، وأقبلت على ابن الخاركيّ فقلت: «ويحَك نحن لم نسمعْ بأنه صار في السوق، وأنت أكثرت منه حتى مَلِلْته؟ وتعلم أن أصحابّنا أكثر مالاً منك وأترَفُ، فمن أين جاءك هذا السَّرَف؟» ثم أقبلت على البيّاع، وقلت: «كيف تبيعُ الخوْخ؟» فقال: «ستُّ خوْخات بدرْهم». قلت: «أأنتَ ممّن يشتري ست خوْخات بدرهم، وأنت تعلم أنه يُباعُ بعد أيام، مائتا حبّة بدرهم؟ إني أراك لم تَذقْه إلا ضيفاً والله أعلم. ثم تقول: وقد أكثرنا منه، وهذا البيّاع يقول: ست خوخات بدرهم». فلم يستحي، بل قال: «وأيُّ شيء أرخص من ستّة أشياء بشيء».

قال أبو كعّب الصوفيّ، وهو قاصٌ طريف مثلُه مثلُ يزيد بن أبان الرقّاشيّ، وقد ذكرته من قبل: كنت جاراً لموسى بن جَناح، فدعا مرّة جماعة

من جيرانه، ليُفطروا في شهر رمضان، وكنتُ منهم، فعجبنا لذلك، لما نعرفه من بُخله، وقال أحدنا: نخشى أن يكون الرجل أصيب في عقله. فلمّا صلّينا المغرب، ودنونا من الخِوان، أقبل علينا ابنُ جَناح، ثم قال: «لا تعجَلُوا فإن العجلَةَ من الشيطان، ومن صبر النهار كلَّه، لا يُعجزه أن يصبر أقلَّه. وكيف لا تعجلون، وقد قال الله جلَّ وعلا: «وكان الإنسانُ عَجُولاً» وقال: «خُلِقَ الإنسانُ من عَجَل». واسمعوا منّي ما أقول، فإن فيما أقولُ حُسنَ المؤاكلة، والبعدَ عن الأنانيةِ المرذولة، والعاقبةَ الرشيدة، والسيرةَ المحمودة: «إذا مدَّ أحدُكم يده إلى الماء أو طلبَه، وأنتم واقِعون في طعام ليّن، أو ببعض ما يجري في الحلق سريعاً، ولا يحتاج في بلعه إلى الماء، ولا يحتاج بلعه إلى عناء، بل لا يحتاج إلى المضغ، وهو طعام يدٍ لا يدْين، لسهولة تناوله وبلعِه، ولا يتعبُ آكله في تمزيقه، وهو يذهب سريعاً في طريقه، فأمسِكوا عن الطعام حتى يفرغ صاحبكم من الشرب. فإنكم إن لم تفعلوا، ومضيتم في المضغ والبلع، ربما تُنغِّصُون عليه الشربة، إذا عَلِم أنه لن يفرغ من شُرب الماء، حتى تُفرغوا ما في قِصاعكم، وقد يغصّ بالماء، وقد يختنق. وربما تغيظونه بفعلكم، ولا يجدُ بدّاً من اللحاق بكم، وربّما يتسرّع بعد هذا إلى لقمة حارّة، فيُحْرِق جوفه ويموت أمام أعينكم، ويكونُ دمه في أعناقِكم، وأقلّ من هذا أنكم تحضّونه على الأكل بسرعة، وعلى أن تكون لقمته كبيرة. ولهذا قال الأعرابي، حين قيل له: «لم تبدأ باللحم الذي فوق الثريد؟» قال: «لأنّ اللحم مسافر، والثريدَ مقيم». وأنا، وإن كان الطعام طعامي وقد دعوتكم إليه، لا أفعل إلا كما قلت، فإذا رأيتم فعلي يُخالف قولي، فلا طاعة لي عليكم، وإني قد برئت إليكم».

قال أبو كعب: فاستعذنا بالله، وتمنَّيْنا لو أننا لم نُلبِّ الدعوة، حتى لو صمنا الليل وواصلنا. فربما نسِيَ بعضُنا، فمد يَده إلى القصعة بينما يشرب صاحبه، ولم يكْمل الجرعة، فيقول له موسى: يدَك أيّها النَاسي. ولولا الحياء وأنك في بيتي لقلت لك: يا متغافل.

قال: وأتانا بعد الطعام بقطعة من حلوى الأرز، ولو شاء إنسان أن يعُدَّ حبّاتها، لاستطاع عدّها، لتَفرُّقِها وقِلّة عددها. فنثروا فوقها شيئاً من دبس بمقدار فنجان، فلم يكد الدبس يُغطّيها. فتناولت قطعة ووضعتها في فمي، وكان إلى جانبي، فسمع صوتَها حين مضغتُها، فضرب يده على جنبي، ثم قال: «اجرُش يا أبا كعب اجرش» فقلت: «ويلك! أما تتقي الله؟ كيف أجرش جزءاً لا يتجزأ؟».

* * *

ابن العَقَدِيّ

إياك أن يسمعك

كان لابن العَقَدِيِّ بُستان، فكان يتنزّه فيه، ويُباهي به، ويدعو إليه أصحابه في بعض الأحيان. وكنت أعرف من بُخله ما يجعلني أستغربُ منه هذا الفعل وأُنكِره. فسألت ذات يوم بعض زُوّاره، فقلت: «إحْكِ لي أمْركم» قال: «وتستر عليَّ؟». قلت: «نعم أفعل، ما دمت في البصرة فإن خرجْت منها فأنا في حِلٍّ». قال:

يشتري لنا أرُزّاً بقشرِه ويحملُه معه، ليس معه شيء مما خلق الله مما يُؤكل إلا ذلك الأرز، فلا دسم ولا لحم ولا شيء. فإذا وصلنا إلى أرضه، كلَّف أجيرَه أن يَجْرُشَه، ثم أن يُذرِّيَه ويُغرْبِله. ثم يجمع الحبات التي لم تُجرش، فيطلبُ منه أن يجرُشَها ثم يذرّيها ويغربلها. فإذا انتهى من الشراء والحمل، ثم من الجرش والتذّرية والغربلة، كلّف الأجير أن يطحنه في رحاه وعلى ثورِه. ثم كلَفه أن يغلي له الماء، وأن يجمع الحطب المتناثر في الأرجاء، ثم يكلّفه عَجْنه، لأنه بالماء الحارّ يصير ألين وأكثر بَركَةً كما يقول. ثم يكلِّفُ الأجير أن يصنع منه أقراصاً تشبه الأرغفة ويَخْبزَها. وقبل ذلك يُكلِّف أجيرين له أو ثلاثة أن ينصبوا الشُصوص لاصطياد السمك، ثم أن يغلقوا البوابات بالشِّباك صغيرة الفتحات، كي لا يدخل صغار السمك في السواقي، ويقول: «صغار السمك لا تملأ البُطون، ولا تُعجب العيون». وننتظر حتى يعلقَ السمك بالشُّصوص، ثم ننتظر تنظيفه وسلخَه وجعله كباباً، فإذا صار كلّفه أن يضعه على نار الخبز، حتى لا يحتاجَ من الحطب إلى كثير. فلا نزال من الصباح إلى الليل في كدٍّ وجوعٍ وانتظار، ثم لا يكون

عشاؤنا إلا خبز أرُزّ أسود غير منخول، مع شيء من كباب السمك، فإذا أكثر أحدنا اتهمه بأنّه أكول. ولو قَدر على غير ذلك لفَعل.

قلت له: «فعندي رأي أحسن» قال: «وما هو؟». قلت: «لِمَ يكلف نفسَه عناء شراء الأرز ونفقته، ونقله ومشقته؟ أليس الأفضل له والأوفر، أن ينتقي لكم قِطعاً متفرقات من رِقاق أرضه التي لا تحتمل النخل والشجر، فيبذُر لكم فيه الأرز، ويرويه بماء النهر. فإذا كان أوان حصاده، حصدتموه بأيديكم، ويكون الخيار في يده، إن أراد أن يُعجِّل عليكم، أطعمكم من صغار حبّاتِه، وإن أراد تأنّى ليطعمكم أجْوَدها». قال: «والله لئن سمع منك هذا الكلام ليفعلَنَّ ما تقول. اللهَ اللهَ فينا، فنحن قوم مساكين، لا نملك حدائقَ ولا بساتين، ولو قَدَرنا على شيء لم نحتمل هذا البلاء». فأدركت أن الفقرَ ذلٌّ صريح، يجعل هؤلاء يحتملون هذا الشحيح.

*   *   *

مزيد من البخلاء صور تكمل المشهد

حدثني أبو إسحاق المكّيّ، وقد حدثتك عنه من قبل، فقال:

مررت بمنزل إسماعيل بن غزوان، فكأنّما أنكر قُدومي، فلما أخبرته أنّي تعشيت عند مُوِيْس بنِ عمران حتى أُتْخمت، وأني شربت حتى امتلأت، وحملْت معي قِرْبة نبيذ، أنس بي، ورحّب بي لأبيت عنده، فلما مضى من الليل أكثره، وترك فينا النبيذ أثرَه، ركبني النوم، فلم يُقدِّم لي فراشاً، فجعلت البساطَ فراشي، ومرفقي مِخدّتي ولم أر في الحجرة إلا سجّادة يصلّي عليها ومِرفقةَ وَمِخدّة. فأخذ المِخَدّة فرمى بها إليّ، فأبيتُها عليه، ورددْتُها إليه، لكنه أَبى، وأَبَيْت فلما طال ذلك قال: «سبحان الله! أيمكن أن تَتوسَّدَ مِرْفقك، وعندي مِخَدّة زائدة؟» قلت: «ليس عندك غيرها». قال: «عندي المِرْفقة وهي تكفيني». فأخذتها، فوضعتها تحت خدّي. وحاولت النومَ، لكني لم أستطع، ولعلّ هذا كان بسبب تغيّر الموضع، وأني ليس تحتي فراش ليّن. وظنّ أني نِمْت، فجاء قليلاً قليلاً، ينسلّ كما يَنْسلّ الثعبان، وسلّ المخدة من تحت رأسي. فتركته يمضي بها قليلاً، وضحكت. وقلت: «ما كنت بحاجة إلى أن تفعل هذا، فلقد أَبَيْتُها عليك، لكنّك أَلْحَحْت». فقال: «إنّما جئت لأُسوّي رأْسَك، لترتاح في النوم، فلا تتَّهِمْني بظلْم». قلت: «لقد تركتك تأخذها، ولم أكلِّمك حتى مضيتَ بها». فقال: «ما كان هذا قصدي، إنما جئت لأساعدَك، فلما صارت المخدة في يدي، نسيت ما جئت له. والنبيذ كما تعلم قاتله الله، يُضيّع مِن الإنسان رشْدَه، فلا يعرف قصْدَه».

وحدثني المكيّ والحزاميّ، وعبد الله العَروضيّ، وقد أوردنا ذكرهم من قبل، قالوا: سمعنا إسماعيلَ بنَ غزوان يقول: «زعموا أن البخيل جاهل، وأن

السخيَّ عاقل. بل زادوا في الافتراء، فقالوا: إن جميع الأسخياء، لا يُعدُّون إلا مِن العقلاء، وإن جميعَ البخلاء، وإن كانوا من المشهود لهم بأنهم علماء، لا يُعدُّون إلا من الجهلاء. وهانحن أولاء، فينا من يزعُم الناس أنه سَخيٌّ جواد، وفينا من يزعُم الناس أنه بخيلٌ شحيح. فلينظر أيٌّ فينا، وليقل رأيَه الصَّرِيح، أي الفريقين أعقل؟ هاأنذا إسماعيل بن غزوان، ومعي سهل بنُ هارون، وخاقان بن صُبُيْح، وجعفر بن سعيد، والحزاميّ، والعَروضيّ، وأبو يعقوب الخريمي - وقد ذكرناهم جميعاً من قبل - فهل بقي في الجانب الآخر إلا المكي أبو إسحاق؟

وحدثني المكيّ فقال:

قلت لإسماعيل بن غزوان مرة: «كم يُنكرُ الناس المعروف. فلم أرَ أحداً قطّ أنفق مالَه بسخاء على الناس، فلما احتاج إليهم، قابلوه بمثل ما بادرَهُم». فوافق هذا القول آراءه وهواه، فقال: «لو كان ما يفعلون من إنفاق المال موافقاً للحقّ، ولو كان ممّا يرضاه الله، لما جَمَع الله عليهم لُؤْمَ أهلِ الأرض، وغدرَهم بهم. إن هذا من الإسراف، والإسراف إتلاف وهو خلق مذموم. ولو كان غير هذا، لما ابتلاهم الله جلَّ ذكره بالعُقوق من جميع خَلْقِه».

وحدّثني تمّام بن أبي نُعيم، قال: كان لنا جارٌ معروف ببخله، فأقام داره عُرْساً، فجعل طعامَ العرس كلَّه من حلوى الفالوذج، فقيل له: إن الكُلْفةَ تعظُم. فقال: «أعرف هذا، وأعرف أن في هذا الخسران، وأن فيه ذَهابَ المال، ولكني أحتمل الخسَارة لأكسَبَ راحة البال، لعنَ الله النسوان، وما يصنعنه بالقيل والقال، وما أشكّ في أنّ مَن أطاعهنَّ شرٌّ منهنّ، أو هو حيوان».

وحدثنا الأصحاب فقالوا: إن رجلاً أوغَلَ في البُخل حتى بلغ منتهاه، وصار فيه إماماً، تُحكى عنه الحكايات، وتُروى الروايات، وكان إذا صار في يده الدرهم، أبقاه في كَفِّه طويلاً، وهو يخاطبه ويناجيه ويفدّيه. وكان مما يقولُ له: «كم من أرض قطعتَ، وتجوَّلْت بين الناس، وكم من كيسٍ فارقتَ، وتنقَّلْت بين الأكياس، وكم مِن خامل الذِّكْر رفعتَ، وكم من رفيع الشأن أذْللت

وأَخْملت، إن لك عندي ألاّ تعرى أبداً، فلا تخرجُ من هذا الكيس، وألا تبقى وحيداً منفرداً، بل يكون إخوة لك مدداً». وبعد أن يتأمَّلَه طويلاً، يُلقي به في الكيس، ويقول له: «اسْكنْ على اسم الله في بيتٍ لا تَذِلُّ فيه ولا تُهان، ولا يزعجُك ويقلق راحتَك إنسان». وقالوا: إنه لم يُدْخِل في كيسه درهماً قَطُّ وأخرجَه.

وقالوا: إن أهل بيته اشتهوا يوماً فاكهة أو حلوى، فألحّوا عليه في شرائِها، وأكثروا عليه في إنفاق دِرْهم، فقال: «هذه والله بلوى». وقاوم إلحاحَهم ما قدر على ذلك. فلمّا أضْجروه، حمل درهماً واحداً فقط. فبينما هو في الطريق إذ رأى حاوياً يُلاعِبُ الحيّات، فأرسل على نفسِه أفعى كبيرة تكاد تخنقه، فما زاد ما جمعه له المتفرجون عن درهم، فقال في نفسِه: الله الله، هاهنا رجل يكاد يُتلِفُ نفسه من أجل درهم، وأنا أُنفقه في أكْلةٍ أو شربة؟ والله ما هذا إلا موعظة لي من الله. فرجع إلى داره، وردّ الدرهم إلى كيسه، ولم يلتفت إلى توسلات أهله. فكان أهله منه في بلاء، يتمنَّوْن موته وأن يحين القضاء.

فلما مات، وظنوا أنهم استراحوا من بُخله، فرحوا بهذا الخلاص، وتمنّوا أياماً أفضل. وقدم ابنه الوحيد، فاستولى على ماله وداره، وبعد أن أحصى كل شيء قال: «بماذا كان أبي يأتدم في طعامه؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون في الإدام، وأكثر الإنفاق يكون على الطعام» قالوا: «كان أبوك يتأدّم بجبنة عنده» قال: «اجلبوها إلي لأُعاينها» فوجد قطعة كبيرة من الجُبن فيها حزٌّ كأنه جدولٌ بين تَلَّيْن، فقال: «ما هذه الحفرة فيها؟» قالوا: «لم يكن يقطع الجُبن، وإنما كان يمسحُ خبزه على ظهر القطعة، فيحفر فيها كما ترى». فغضب وقال: «فبهذا أهلكني، وجعلني كأني لا مالَ لي بين الناس. والله لو أني علمت فِعله، لما صلّيتُ عليه». قالوا: «فأنت ، ما إدامك ؟ وكيف تريد أن تصنع؟». قال: «أضعها بعيداً عني، وأشير إليها باللقمة، كأنني أمسحُ عليها، وتكفيني رائحتها».

ولا يعجبني هذا الجزء الأخير من الحكاية. وإنما أحكي لك ما كان من قصص بين الناس، وما يجوز أن يكون فيهم مثلُه، أو ما كان من طرائق البخلاء وحججهم، أو الحجّة عليهم. فأما سائر حديث هذا الرجل فإنه من هذا الباب، وأما الجزء الأخير وهو كلام ابنه عن الطعام، فإنه من المبالغات غير المقبولة.

قال ابن جُهانةَ الثقفيّة:

عجبت ممّن يمنع النبيذ عمّن جاء يطلبه، ولماذا يُطلب النبيذ؟ إمّا لأن طالبه كان في يوم فَصْد لعلاج من مرض، أو في حِجامَة لتخفيف الأوجاع وإزالة الصداع، أو لأن عنده زائراً يريد أن يُكْرِمه، أو عنده أكلةُ سمك طريّ، فالنبيذ يُسوِّغه، أو إنه سيشرب دواء، فيريدُ نبيذاً يُزيلُ به طعمَ الدواء المرّ من حلقه. ولمْ نَرَ أحداً طلب من أحد نبيذاً وعنده نبيذ، ولا ليدَّخِره، أو ليحتكره، أو ليوفِّره، ولماذا يفعل، وهو مُتاح عند الجميع؟ وما رأينا أحداً طلبه ليبيعَه. والنبيذُ شيء يَحْسن طلبه من الأصدقاء، ويَحْسُنُ بالأصدقاء أن يتبادلوه، وأن يهبَه أحدهم للآخر، وهو في الأصل كثير وكاسد عند التجّار، فما وجهُ مَنْعه عن الصديق والجار؟ إني أرى أن من يمنعُه لاحَظّ له من أخلاق الكِرام، بل ربما نستطيعُ أن نَعُدَّه بين اللئام. ولكني إذا وهبتُ منه الأصدقاء والجيران، لستُ أخافُ على نبيذي النُّقْصان، لأني إذا أحتجبت عن النُّدْمان، بقَدْر ما وهبت للخلاّن، ظلَّ عندي منه فائض، أو رجع إليّ نبيذي على حالِه، وكنت قد كَسَبْت الحمدَ بما لا يضرني، فمن تركَ طلبَ الحمد بما لا يضرّه، كان عن الحمد بما يضرُّه أبعد، وكان في حياته أسْعَد.

وهكذا تفاخر ابن جُهانةَ بماله من الكرم بأنه يهب النبيذ من يطلبه، ولم يخجل من أنه يحجب النديم والزّائر، ليوفّر النبيذ الذي كان سيشربه.

قال الأصمعيُّ أو غيره: أعارَ بعضُ الناس رجلاً حصاناً، فأخذه الرجل إلى منزله، وربطه إلى المعلف، ونام. ثم انتبه من نومه فوجد الحصان يأكل

العلف، ثم نام. وانتبه من نومه ثانية فرأى الحصان يعتلف. فتحامل على غضبه ونام. ولكنه استيقظ بعد قليل، ورأى الحصان يأكل، فتَمّلكَه الغيظ، وصاح بغلامه «أي ابن الفاعلة، خذ هذا الحصان اللعين فبعه بأبخس ثمن، أو هَبْه إلى من لا يهتم، أو رُدَّه إلى صاحبه العفن، وإن احتاج الأمر للخلاص منه أن تذبحه، فافعل، نمت واستيقظت ثلاث مرات، وهو لم يَنَم، وكل مرة أراه يَعْتلف، فأرى أنه يذهب بحُرِّ مالي، وما أراه يريد إلا استئصالي».

وقال أبو الحسن المدائني:

كان لدينا في المدائن بائع تمر من أبخل الناس، فكان غلامه إذا أرسله التاجر إلى داخل الحانوت ليحضر شيئاً، ركبه الهمّ وأصابه الغمّ، إذ ربّما يحتاج أن يبقى في الحانوت طويلاً، فيتّهمه سيّده، وكان يفعل. فقد قال له: «أنت تُطيل البقاء في هذا الجُحر، لتأكل التَّمرْ» فأنكر الغلام وأقسم، فلم يصدِّقْه البائع، وجاء بقطنة بيضاء، ثم قال: «هاك، امضغها» فامتثل الغلام، ثم أعطاها لسيده، فوجد فيها البائع حلاوةً، ووجد لونها قد تغيّر إلى الأصفر، فقال مُغضباً: «تُطيل البقاء في الدّاخل لتأتي بفعلك المنكر، وهذا دأبُك كل يومٍ وأنا لا أدري. اخرج من داري، ولا تُرني وجهك».

وكان عندنا رجل من بني أسَد، يرسل ابن الحرّاث الذي يعمل في أرضه، ليصعد إلى نخلْة، ليلتقط له رُطَباً ناضجات قبل أوان نضوج الرُّطب، فكان قبل ذلك يملأ له فمه ماءً لئلا يأكل شيئاً. فسخر منه الناس، وقالوا: «إنه يستغفلك، فيشرب الماء، ويأكل الرطب وهو على النخلة، فإذا أراد النُّزُول، بال في يده، ثم وضع شيئاً من بولِه في فمه» فكان بعد ذلك يملأ فمُ الصبيّ بماءٍ متغيّر اللون أصفر أو أخضر، لكيلا يقدر على ابتلاعه وهو على النخلة. وهذا رجل مغفل البخل، فالرطب أهون على أولاد الحراث، وعلى غيرهم من الأولاد، من أن يحتمل أحدهم جزءاً من هذا الفعل المكروه، وهو أن يضعَ بولَه في فمه.

وحدّثني المِصريّ، وكان جار الداردريشيّ، وهذا مالُه لا يُحصى، فقال: كنت عنده ذات يوم، فوقف عليه سائل، فلم يكْفه ألا يعطيه شيئاً، بل انتهره، ثم وقف عليه آخر، فانتهره أيضاً، ولكنه أظهر في الثانية الغيظ والغضب. قال: فأقبلت عليه وقلت: «ما أظن أحداً يُبغض السائلين كما تُبغضهم» قال: «أجل، ألا تسألني عن سبب بُغضي لهم؟ إن عامة من ترى منهم أيْسرُ مني». قلت: «فهل تبغضهم لهذا، أم لأنّك تكره أن تعطيهم؟» قال: «أتدري ما مُراد هؤلاء؟ لو قَدَر هؤلاء على داري لهدمُوها، وعلى حياتي لنزعُوها، وعلى أرضي لخرّبوها، وإعطاء الواحد يفتح الباب للجميع، كالغيث أوله قطرة. ولو أنّي أعطيتهم كلما سألوني، لما تركوا لي من مَزِيد، ولكنت صرت مثِلهم منذ زمن بعيد. فكيف تظنّ بُغضي لمن يتمنى لي الإفلاس، وأن أكون شحّاذاً على أبواب الناس؟».

وكان أخوه شريكه في كل شيء، ولم يكن أقلَّ منه بخلاً. فخرجنا من صلاة الجمعة معاً، وجلسنا أمام داره، فوضع أخوه بين أيدينا طبق رطب - وكنا في موسمه - يُساوي في البصرة دانقين، فبينما نحن نأكل ونتبادل الأحاديث، إذ جاء الداردريشيّ، فمرّ بنا ولم يسلّم، حتى دخل الدّار، فاستغربنا منه ذلك، وكان قبل ذلك اليوم يُظهِر البِشْرَ والحفاوة، ويجعلُ البِشْرَ دون مالِه وقاية، فهو يُعطيك من كلامه حلاوةً، بشرط ألا تُخْسِره، وكان يعلم أنه إن جمع بين البُخل والتكبرُّ قُتل. قال المصري: فلم نعرف سبب تجهمه ومروره دون أن يسلّم، ونظر بعضُنا إلى بعض، ونظرنا إلى أخيه، فلم ينطق بحرف، وإن كان لم يظهر القبول أو الرفض.

فلما كان يوم الجمعة التالي، جلسنا مجلسنا، ودعا أخوه بطبق رطب كما في الجمعة السابقة، فبينما نحن جلوس نأكل، إذا خرج من الدار، فلم يلتفت ولم يُسلِّم، ولم يقف، فأنكرنا ذلك ولم ندْرِ ما سببه. فلما رأى الأمر نفسه في الجمعة الثالثة، ظهر في وجهه الغضب، وانصرف مُحْنَقاً. وكتب إلى أخيه كتاباً يقول فيه: «يا أخي، كانت الشركة بيني وبينك مُذْ كنّا صغاراً، وقبل أن

يكون لنا أولاد ويكثروا، ومع الكثرة يقع الاختلاف، ولست آمَنُ أن يكبر أولادي وأولادك، فيخالفوا ما اتفقنا عليه، وما ارتضيناه شركة، وهم لا يدرون أن الشركة بركة، ويقع بينهم الخلاف الذي قد يؤدي إلى العداوة. وهاهنا أموال باسْمي ولك نِصْفها، وثمّة أموال باسمك ولي نِصْفها، وثمّة أشياء في منزلي وأخرى في منزلك لا نعرف فضلَ بعضها على بعض. فإن جاء أمرُ الله، وما من ذلك بدٌّ وإن طال الأجل، لم نضمن أن تَنْشَبَ بين هؤلاء الفتية عداوة وبغضاء، وأن يطولَ الصخب بين النساء. فالرأيُ أن نبادر اليوم إلى حسم الأمور، ووضع كل شيء في نصابه، لِنُجنبِّهم العواقب».

فلما قرأ أخوه الكتاب، هالَهُ الأمرُ والمُصاب، ولم يدر ماذا يكتب في الجواب. وراح يقلب الأمور في خياله، وفكر بكتاب أخيه ساعة ثم ساعة، فلم يزده تقليب الأمور على وجوهها، والتفكير في أسبابها إلا جهلاً فوق جهل. فجمع أولاده، وأقسم ليعاقبنهم إن لم يَصْدُقوه، وقال: «تالله لأعاقبن من أخطأ منكم بكلمة واحدة وسبّب هذا البلاء، ولن يكون هذا إلا أقلَّ الجزاء» فأنكر الأولاد، وأقسموا بربّ العباد أنهم وأولاد عمهم كالسمن والعسل. فقال: «هذا البلاء، لا يكون إلا من جرائر النساء». فأنكرن ذلك.

فلما عرف براءة نسائه وأولاده من كل ذنب، قام إلى أخيه حافياً حاسراً. فقال: «نشدتك الله، ما يدعوك إلى القسمة والتمييز: ادْعُ خِيارَ القوم من أهل الحيّ الكرماء، أو قم بنا الساعة إلى أهل المسجد الصُّلَحاء، لأشهدهم بأن كل شيء لك، وهو من حرِّ مالك، وأني لست إلا وكيلاً لك في هذه التجارة والضِّياع، وخذ إلى منزلك كل شيء في منزلي، واتركني على الأرض اليابسة، فإن وجدتني أروغُ أو أتحايل، فافعل ما بدا لك. أمّا الآن فلا أريد منك سوى أن تُخبرني بذنبي، وما بدا منّي من خرق، حتى تصرّ على أن نفترق» قال الداردريشيّ: «ما لك من ذنب يُذْكر، ولكن ما من القسمة بُدٌّ، وإن كانت من المنكر». وعاد أخوه يستحلفه ويرجوه وهو على عناده، فظلَّ عنده إلى نصف الليل، يناشده ويتوسل إليه.

فلما طال الأمر، وبلغ منه الجهد، ورأى أن ما من المصارحة بُدّ، قال له: «إذا كنت على الأمر مُصِرّاً، فإنني سأقول لك ما رأيتُه منك نُكْراً. حدثني عن فرشك الحصير أمام الدار، وتقديمك الرُّطَب للزوّار، وإحضار الماء البارد، حتى جعل الناس مجلسَهم على بابي كل جمعة. هل ظننت أننا كنا عن هذه المكرمة عُمْياً؟ اليوم تطعمهم الرُّطَب، وغداً تطعمهم السُكرَّ، وبعد غدٍ الحلوى، ثم يليها العسل ويبدأ الأمر بالجلوس يوم الجمعة، ثم ينتقل إلى سائر أيام الأسبوع، ونبدأ بالرطب ثم نصير إلى الغَداء، ثم يؤدّي الغداء إلى العشاء، ثم قد تزيد في السخاء، فيصير الأمر إلى الأثواب والكساء، وبعد ذلك تدعوهم إلى الجِداء، ثم إلى الحِمْلان، ويعلم الله وحده إلى أين يؤدّي فعلك. والله إني لأرثي لبيوت مال المسلمين، ولما يجمع الجباة من الخراج إن تحمّلت هذا، لأنه سيفقرها، فكيف بمال تاجر جمعه من الحبات والقراريط والدوانيق والأرباع والأنصاف، لا من الدراهم البغليّة، ولا من الدنانير الذهبيّة؟». قال أخوه: «أهذا هو السبب جُعِلت فداك، لقد أرحتني وأذهبت عنّي العجب. أتريد ألا آكل رطبة واحدة منفرداً؟ ولك عليّ يمين، لا أن أكف عن دعوتهم وحسب، بل ألا أكلِّمهم أبداً». قال الداردريشي: «لقد أخطأت مرة، فإياك أن تخطئ أخرى. لقد أخطأت بدعوتهم وإطماعهم فيك، فلا تخطئ في اكتساب عداوتهم. وكما دخلت في هذا الأمر اخرج منه. وكما أسْرفت في الإنفاق عليهم، أبعدهم عنك بسلام، فلقد دخلت مدخلاً صعباً، فاخرج من مخرج سهل.

وكان أبو الهُذَيل أطْيب الناس قلباً، وأسْلم الناس صدْراً، وأحْسَن الناس طويةٍ وسريرة، وألْيَنهم عريكة، وأغْفَلهم عند الضّرورة. وكان قد أهدى دجاجةً إلى مُوَيس بنِ عمران، وكان كما ذكرت من قبل سرياً نبيلاً واسعَ الثراء كريمَ النفس فيّاضَ الجود. ولم تكن تلك الدجاجة ممّا يُقدِّم لأمثال مُويس، ولكنه بكرم نفسه وحسن خُلُقه، أظهر كل عُجْب من سِمَنِها وطيب لحَمِها وطراوته، وقد كان يعرف أبا الهُذيل بالإمساك الشديد حتى يُعَدَّ في البخلاء. فقال أبو الهذيل: «وكيف رأيت تلك الدجاجة يا أبا عِمران؟» فقال

مويس: «كانت عَجَباً من العَجَب» فكان أبو الهذيل يُعيد قوله: «لو أنك تدري يا أبا عمران ما جِنْسها، وتدري ما سِنُّها، فالدجاج ليس سواء، وإنما يختلف طعم لحمه باختلاف جنس الدجاجة وسِنِّها، ولو أنك تدري كيف وبأي شيء كنّا نُسمِّنُها، وفي أي مكان كنا نعلفها» فلا يزال يُعيد مثل هذا الكلام على مُويس متباهياً مُتفاخراً، والآخر يضحك ضحكاً نعرف معناه، ولا يعرفه أبو الهذيل لغَفْلته.

وظلَّ هذا دأْبَ أبي الهذيل. فإن ذكروا في مجلس مويس دجاجة قال «وأين كانت يا أبا عمران من تلك الدجاجة.؟» فإن ذكروا بطة أو سَخْلَةْ أو جدْياً أو حتى ذبيحة أو بقرة، قال: «فأين كان هذا الجدْي في الجداء، وتلك الذَبيحة في الذَّبائِح من تلك الدجاجة في الدجاج». وإن قالوا: إن الشحوم قد تكون طيبة مُستساغة، وقد تكون ثقيلة كريهة، قال أبو الهذيل: «عُذوبة الشحْم تكون في البقر بين الذبائح وفي البطّ بين الطيور الكبيرة، وفي بطون السَّمَك، وفي الدَّجاج بين الطيور عامة، ولا سيما ذلك الجنسَ من الدجاج». وإن ذكروا ميلاد طفل، أو حدوث أمر، أو قدوم أحد، قال: «كان ذلك بعد أن أهديتُها لك بسنة، أو حدث هذا بعد إهدائها بأسبوع، أو قال: ما كان بين قُدوم فلان، أو ميلاد ابن فلان، وبين البعثة بتلك الدجاجة إلا يوم». فصارت الدجاجة مثلاً في كل شيء، وتاريخاً لكل شيء.

وكان محمد بن الجهم معدوداً في البخلاء، وهو من المدافعين عنه كسهل بن هارون، وذكر بعضهم أنه أوصى عند وفاته، فقال: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الثلث، والثلث كثير. وأنا أقول: إن ثلث الثلث كثير. والمساكين حقوقُهم في بيت المال، إن طلبوه طلَب الرجال أخذوه، وإن قعدوا عنه قُعود النساء حرموه، فلا رَحِم الله من يرحمهم». وقد كان من فلاسفة المتكلمين، ومن كبار المثقفين، ولأنه تربّى في ظل البرامكة فقد سمي البرمكيّ.

وكنا والأصحاب مرة عند محمد بن الجهم، فأقبل عليه أبو الهذيل متباهياً، وما أبشع البخيل يتباهى على البخيل، فقال: «إني أمرؤ مُنخرِق الكفّين لا أستطيع حفظ المال، إلا بقدْر ما يبقى الماء في الغربال. ويدى هذه يد ماهرة في الكسب والتجارة، ولكنها في الإنفاق خرقاء، تُسبِّب لي الخسارة، وما أظنني سأترك عادتي في السرف والإنفاق، حتى أصير شحاذاً في الأسواق. كم تظنّ من مئات آلاف الدراهم قسمتُها على الإخوان، في كل مجلسٍ مائة ألف؟ إنّك لا تدري، ولكن أبا عثمان يعلم ذلك. أسألك بالله يا أبا عثمان، ألا تعلم ذلك؟». فقلت: «يا أبا هُذيل، ما نشكّ في كلامك». فلم يَرْض - غفر الله له - أن يكذب هذا الكذب المفضوح، بل استشهدني، وأرادني على الكذب الصريح. ولم يَرْضَ بأن أكون شاهد زور، بل أرادني أن أحلف على ذلك.

* * *

المرابي البخيل يتظاهر بعزة النفس

كان أبو سعيد المدائني إماماً في البخل، وعلماً من أعلامه عندنا بالبصرة وكان من كبار المَعِينين وأثريائهم، وهم الذين يتاجرون بالعِينة، بأن يبيع الواحد منهم سلعة إلى أجل مُسمّى، بثمن معلوم، ثم يشتريها من الشّاري بأقل من الثمن الذي باعها به، ثم يأتي له الرجل بعينة من آخر فيسدده، ويبيعها إلى ثالث وهكذا، وهو الربا بوجه عام.

وكان أبو سعيد مع هذا راجحَ العقل، شديدَ الذّكاء، فصيحَ اللسان، حاضرَ الحجة، بعيدَ النظر في الأمور.

وكان لأبي سعيد حلقة يأتي إليه فيها أصحابه من المرابين، ومن البخلاء الذين يتذاكرون الإصلاح والصلاح، كما يفعل المسجديُّون، فبلغهم أن أبا سعيد يذهب إلى طرف المدينة كل يوم، ليسترجع من رجل هناك خمسة دراهم بقيت عليه من دين سابق، واتفقوا على أن «هذا خطأ عظيم، وتضييع للكثير من أجل القليل. وإنما الحزم أن يتشدّد في مطالبته، في غير تضييع. وصاحبنا أبو سعيد سبب لنفسه ضروباً من البلاء والخسارة».

فاجتمعوا في حلقته، لإبلاغه بما يرون، والاستفادة من ردّه، فقال قائلهم: «نراك تصنع شيئاً لم نَعْهدْه فيك. ولو كان هذا الخطأ من غيرك، لكان أهون عندنا من أن يكون الخطأ منك. وقد أَشْكَل علينا هذا الأمر، واحترنا في فهمه، وضاقت صدورُنا به، فأخبرنا عن حقيقته وما دعاك إليه». قال: «فما الأمر الذي أنتم فيه حائرون، وجئتم بجمعكم عنه تسألون؟».

قالوا: «إنا لا نرضى لك أن تذهب إلى الخُرَيْبة في أقصى المدينة، لتَقْتضيَ خمسة دراهم، ونقول هذا لأسباب. أوَّلُها أنّا لا نأمن عليك من اعْتلال بدنك، وأنت رجل تقدَّمْت في العمر، وإذا اعْتللْت فإنّك تدفعُ للطبيب الكثير، بسبب القليل. وثانيها أنك بعد أن تتعبَ هذا التَّعب كلَّه، لا بُدَّ لك من أن تطلب مزيداً من الطعام في العَشاء، إن كنت ممّن يتعشّى، أو أن تتعشّى إن كنت من قبل ممّن لا يتعشّى، فإذا حسبنا طعام العشاء أو الزيادة فيه، فإنها تكون أكثر من خمسة دراهم. وثالثها أنك تحتاج في ذهابك وإيابِك إلى أن تشقَّ طريقك وسطَ ازدحام السوق وعليك ثيابك. الحمّالون والجوالون والبائعون والشارون خلفك وقُدّامك، فمن هنا نَتْرة، ومن ههنا جذبة، فإذا الثوب قد تمزَّق أو كاد. وبعد هذا فإن كثرة مشيك في الأسواق والدروب تجعل ساق سراويلك تتَّسِخ وتبلى، وتجعل نعلك تَرِقّ، أو ربما يصير فيها خرق، بسبب حصاة هنا أو نبْقة هناك، ويُخشى أن تعثُرَ بشيء في الطريق، فتتقطَّعَ شِراكُ نعلِك، وقد تتمزقُ النعل كلها. وبعد، فإن كل ما تقتضيه قليل لا يستحق الجهد والعناء. وأنت عندنا أفضل من هذا، وما حصَّلْت شيئاً. إلا أننا نحب أن تجلو الأمرَ وتُوضِّحه، فإن كان أكثرنا يُقِرّ لك بالفضل وحُسْن الرأي والتدبير، فما كلّنا يثق بصوابك في الأمور».

قال أبو سعيد: «أما ما ذكرتم من اعتلال البدن، فإني أخاف على بدني من الكسل والدِّعة، أكثر مما أخاف عليه من الحركة. وما رأيتُ أصح من أبدان الحمّالين والطّوافين، وهم طوال يومهم في حركة دائبة لا تنقطع، وأهل البادية أصح أجساماً من أهل المدن. أليس يقول الناس: والله إن فلاناً أصح بدناً من العسس والشرطة؟ وهل يمْشي أحد بل يعدو أكثر من هؤلاء؟ ولربّما أَقمْت في المنزل وقتاً قد يطول، فأكثر من الصعود والنزول، خوفاً من قلة الحركة.

وأمّا أنّي أشغل نفسي بالبعيد عن القريب، فإني لا أُجَشِّم نفسي عناء الذهاب إلى البعيد، حتى أكون قد فَرَغْت من مقاضاة القريب. وأمّا ما ذكرتم

من الزيادة في الطعام، فإني قد اطمأن قلبي، وعوّدت نفسي على مقدار لا يزيد مهما كانت الأحوال، وأنها إن دفعتني إلى مزيدٍ من الطعام وإِكثار، أيام التّعب والانْشغال، حاسبتها أيام الراحة والبقاء في الدار. وأمّا ما ذكرتم من مزاحمة أهل السوق، ومن تدافع أصحاب الحمير والبغال والنُّوق، ومن النَّتْر والجذْب، فإنني وقتي ملكي، فأقطع السوق والناس منشغلون ببيعهم وشرائهم في حوانيتهم، قبل قيامهم لصلاتهم، ثم يكون رجوعي، بعد أن يخِفَّ الازدحام. وأمّا ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل، فإنني قبل أن أخرج من منزلي، إلى أن أصل قرب باب من أقصده، أحمل نعلي في يدي، وسراويلي تحت إبطي. فإذا صرت إليه لبستهما قبل أن أقرع الباب، فإذا انتهيت منه خلعتهما في الإياب، فهما في ذلك اليوم أحسن حالاً من بقية الأيام، مهما كان الوقت من العام. فهل بقي الآن لكم مما ذكرتم شيء؟» قالوا: «لا». قال: «إذن أكشف لكم ما تجهلون، وأُعلِّمكم ما لا تعلمون، وهذا أمر يفي بكل ما ذكرتم ويزيد. قد يكون لي على مَدِين قريب الدار ألوف الدَّنانير، فإن رآني أتراخى في الاقتضاء، أحس بالفرج يأتيه من السماء. أمّا إن رآني أشدد في الاقتضاء على بعيد الدار، ورأى شدّة مطالبتي بإصرار، لمن ليس لي عليه إلا الدَّراهِم، أتاني بحقّي في ميعاده، ولم يطمع في المَطْل وازدياده. وهذا تدبير يجمع لي رجوع مالي وطول راحة بدني، ثم أنا في ترك الراحة أو الخلود إليها مُخيَّر، لأني أقسم راحتي ووقتي على الأشغال كيف شئت وأسيطر، ولا أترك دَيْني يقلّ أو يكثرُ. وثمة أمر آخر، هذا الدين القليل، أليس فُضلةً من مال كثير وموصولاً بدَيْنٍ لي مشهور؟ فكيف أتركه لهذا المماطل، وأتخلى عنه لمن يُجادل؟ والله لا أدع فلساً يُطمع فيّ من تبقّى من الغُرباء». فقاموا، وقالوا بأجمعهم: «لا عدمناك يا أبا سعيد، وإنك لذو رأي سديد، والله لا يخالفك الرأي بعد اليوم إلا كل غافل وجاهل».

وكان أحمد المكّيّ أخو محمد المكي الذي تحدثنا عنه من قبل متصلاً بأبي سعيد، لأنه كان يحتاج إلى أن يستدين منه ولو بالربا، ولما يأتي به أبو سعيد من الأعاجيب وحديثه الشائق. حدثني أحمد عنه. فقال:

قلت لأبي سعيد مرة: «كل من في السوق، بل في البصرة، يعلم أنّك كثير المال، وإنَّكَ من العقلاء ولستَ من الجاهلين، ولكنّي أرى قميصَك وسخاً، فلِمَ لا تأمر بغسلِه؟». قال: «فلو كنتُ قليلَ المال، ولست من العقلاء المتعلمين، فماذا كنت تقول لي؟ تظنّ أنّي لم يخطُر لي هذا على بال؟ إني قد فكّرْت في هذا منذ ستة أشهر، فلم أصل إلى جواب شافٍ، ولا وَضَح لي وجه الأمر فيه.

أقول لنفسي: إذا اتَّسخ الثوب، أكل البدنَ كما يأكل الصدأ الحديد. فإذا تعرَّق لابسه يوماً بعد يوم، وجفّ العرق، وتراكم الوسخ على القميص ولَبَد، أكل الخيوط وأحرق الغَزْل، والعرق ملح خفيف، والملح عدوٌّ للقطن والصوف، هذا مع نَتَن رائحته التي تفوح، ومنظره المُنفِّر القبيح. وبعد، فإني آتي أبواب الغرماء لاقتضاء ما عليهم من دَيْن، وغلِمان غُرمائي جبابرة، كأنهم من الأكاسرة، فما ظنك بهم إذا رأوني في ثياب وسخة، وأسمال درنة؟ ستراهم يقابلونني بوقاحة وصلافة مرّة، ويحتجبون فلا يفتحون الأبواب مرة. فيرجع ذلك علينا بالضرر بدلاً من النفع، وبالخيبة في كل الأحوال، بدلاً من إصلاح المال، مع ما يداخلني من الغضب، وما ألقى من المكروه.

فإذا اجتمعت هذه الخواطر، هممتُ بغسلِه. فإذا رأيتُني إلى الأمر بغسله أبادر، عارضني رأي آخر، يأتيني من جهة الحزْم المكين، ومن قِبَل العقل المبين. فيقول لي ذلك العارض: ولماذا تفتح عليك باب الغُرْم والخسارة؟ وأول الغُرم يكون في الماء والصابون، والصابون نُورة، والنُّورَة تأكل الثوب حتى يَبْلى، وتأكل الخزَّ أكلاً. ثم الغرم في الجارية التي إذا غسلت زادت أعباءً، وأضفنا إلى عنائها عناءً، فإذا ازدادت تعباً ازدادت أكْلاً، وفي هذا

خسارة أخرى. ولا يزال الثوب في خطر حتى يُسَلَّم إلى الدقِّ والتبييض، ثم إذا ألقي على الحبل أو عُلِّق، لا نضمنُ أن يسلمَ من نترة أو جذبة، وقد يتمزّق. ولابدَّ من الجلوس في ذلك اليوم في البيت. ومتى جلستُ في البيت، فتحوا علينا أبواباً من النفقات وأشكالاً من الشهوات، وهذا غُرم آخر كنا في غنى عنه. ولابدَّ للثياب من دقّ، فإن دقَقْناها في البيت، لا نضمن أن نُقطِّعها، وإن أسلمناها إلى القصّار ليدُقَّها، فغُرم على غرم، كما أنه قد يُنْزِل بها من الضرر ما هو أشد مما قد يصيبها في المنزل. وما جلست في المنزل قطّ، إلا تقوّل علي الغرماء الأقاويل، ونشروا عني الأكاذيب، وادّعوا علي الأمراض، وفي ذلك فساد لهم والتواء، ومماطلة عند الاقتضاء، وطَمَع في أن تزيد الأعباء.

فإذا غسلتُها، فابيضَّت وحَسُنت، وطابت رائحتُها، وتغيرت هيئتها، تبينت عند ذلك وسخ جسدي المتراكم، وطول شعري المتعاظم، وقد كان وسخ القميص متصلاً بوسخ الجسد، ففرقتهما، فاستبان لي ما كان مخفياً غامضاً، واكْترثْت لما كنت له رافضاً. فيصير ذلك سبباً للذهاب إلى الحمّام، وفي هذا غُرم ثقيل مزعج، كنا لغيره أحوج، مع المخاطرة بالثياب أن تضيع أو تُسرق. وبعد هذا كلِّه، لي امرأة جميلة شابة، إذا رأتني بيَّضْت ثوبي، وغسلت جسمي، وقصَّرت شعر رأسي، وزيَّنْت نفسي، قابلتني بلبس أحسن ثيابها، وفاحت منها رائحة طيبها، وتعرّضت لي بالدّلال، ودلال النساء يفتنُ الرجال، وأنا فحل، والفَحلُ إذا هاج، لا يردّ شيءٌ رأسَه، ولا يستطيع أن يضبط نفسه، فإذا رأت أنني تملكتني الشهوة، ولم يعد لي من مُبتغى إلا الخلوة، نثرت علي الحوائجَ نثْراً، فلا أملك أن أَعصي لها أمراً، ثم احتجنا إلى تسخين الماء للاغتسال، وأشد من هذا كله أن تحمل، فيزيد الإنفاق بازدياد العيال، وأول الغُرم أن نأتي لها بمرضعة لولدها، فنكون قد بدأنا بشيء يَجرُّ علينا أشياء.

كل هذا مع أمور أخرى كثيرة نسيَ بعضَها أحمد المكيّ، وبعضَها أنا.

وعلى الرغم من أن أبا سعيد كان إماماً في البُخل، فإنه كان يُظهر غزة النفس، وأَنَفَة الكبرياء. وقد بلغ من أمره، ومن إيغاله فيه، أنه كان قد أقرض رجلاً ألف دينار، وكان الرجل من ثقيف، وقد حلّ أَجلُ دفع المال، فكان يذهب إليه لاقتضاء الدين، لكن الرجل كان في عسرة، فطلب إمهاله. وتكررت زيارات أبي سعيد، وكان ربما أطال الجلوس، حتى يحين موعد الغداء، فيتغدى معه.

فلمّا طالت المماطلة، بين سؤال وردٍّ ومجادلة، قال أبو سعيد للرجل، وهو على مائدته: «إن لهذا المال زكاةً مؤداة وهذا أول غُرمنا، لأنها أنقصت مقدارَه. وقد علمنا حين أخرجنا هذا المال من أيدينا، أنه معرَّض للذهاب. وللمنازعات الطويلة، وأنه لن يعود بسهولة، وقد يصل إلى أن يكون في الميراث، فالله وحده جلَّ ذكرُه يعرفُ الآجال. وما ظنّنّاه بك من حُسْنِ الالتزام بالوعْد، والوفاء بالعهد، ولولا ذلك ما أخرجنا هذا المال من أيدينا. وهذا المال إذا كان شرطُه أن يرجع بعد سنة، وأمهلناك لردِّ الدَّيْن شهراً أو شهرين، ثم مكثَ عندي كشيء مهمل، أو عاملٍ لا يعمل شهراً أو شهرين، إلى أن نجد له مُقتَرِضاً آخر مثلك، ذهب كل ما فيه من فائدة، بل خرجنا من الأمر كله بالخسارة. ومثلك يكتفي بالقليل، وقد طال اقتضائي، ومرّ على الموعد زمان طويل، وأنت تتغافل، وكأني سأزهد فيه أو أنساه». وقال هذا الكلام كله، وهو لا يتوقف عن الأكل.

فأقبل عليه رجل من ثقيف، فقال: «لو كنت لا تريد إلا التقاضي واسترداد المال، لقمت غير هذا المقام، وتغيّر السؤال. وكان يمكن أن تفعل هذا في المسجد، وليس في المكان الذي يحضُر فيه الغداء». فقطع أبو سعيد الأكل، ثم ارْبَدَّ وجُهه واحتقن بالدم حتّى كاد يتفجّر، ونظر إلى الرجل نظرة الجمل الغاضب، وأرعد وأزبد، ثم أقبل عليه فقال: «لا أمَّ لك! لقد ارتضيت لنفسي أن يكون طعامي خبزاً جافاً دون خَلٍّ ومشهيات أغْمِسُه فيها، وما همّني

أن يفنى جسمي من حُسْنِ العَقْل، وأحببت الغنى لأني أُبغض الفقر، وفعلت من أجل هذا كلَّ فعل، وأبغضت الفقر بفضل أَنَفتي من احتمال الذلّ. أتُعيِّرني لا أمَّ لك بأني أرغب في غدائه؟ والله ما أكلت معه إلا ليستحي من حُرمة المؤاكلة، ولأنتهي من هذه المسألة، وليكون كرمُه سبباً في تعجيل السَّدَاد، لا لأنني أشتهي طعامه والزّاد».

ثم نهض أبو سعيد، فأخرج الصكَّ من جيبه، فضرب به الحائط حتى انكسرت الطِّينةُ المختومة بختم الرجل، ثم بصقَ على الكتاب، وَحكَّ بعضه ببعض، ثم كوَّره في يده، لكن هذا لم يَشْفِ غليله. فمزّقه قطعاً صغيرة، ورمى به. ودار بعينيه على كل من شهد المجلس، وقال وهو في ذروة غضبه: «لقد كان لي على أبي فلان ألف دينار، وأنا أُشْهِدكم الله الساعةَ، وقبل أن أخرجَ من هذه الدار، على أني قد قبضْت كل ديْنٍ كان لي عَليْه، وأني لا حق لي في أن أعود إليه، وأنه بريء من كل شيء أطالبه به» ثم خرج.

فنظر القوم بعضهم إلى بعض متعجبين، ثم أقبل الغريم على الرجل الذي استثار أبا سعيد فقال: «أترى أثر فعلك؟ وما دعاك إلى هذا الكلام؟ وكيف تقول ما قُلتَ للرجل وهو على مائدتي؟ ولماذا تقدم بهذا الكلام على من لا تعرف مكانه في السوق وعلاقتي به؟ أتظن أنّك كنت تدافع عنّي لتنفعني؟ وهل أنا عاجز لتدافع عنّي؟ أما والله قد قَدَّمْت له النفْعَ وسببت لي الضَّرر، لقد كنت أرجو أن أُطيلَ مماطلتَه إلى أن يحين بيع الثمر، فيأتينا منه ربحٌ وفير، فندفع الدين ويبقى لدينا الكثير. أما بما فعلت، فقد أوجبْت عليّ أن أعجل الدفع له. يا غلام، اذهب بذلك الثمر إلى السوق، فَبِعْه بأي ثمنٍ يُعرض عليك، لنعطي الرجلَ مالَه». فباع الثمر، وذهب إليه بالمال، فأبى أبو سعيد أن يأخذه، فلما أكثر من الإلحاح عليه، قال: «ما أظنّ صاحبك تجرأ عليَّ وقال ما قاله، إلا لأنّه عربيٌّ من ثقيف، وأنّي من الموالي. فإن جعلتَ شُفَعاءك عندي من الموالي، أخذت حلالي ومالي، وإن لم تفعل، فإني أقسمت بالله ألا آخذَه». فجمع الثقفي كل شعوبي في البصرة فشفعوا عند أبي سعيد، حتى قبل بأخذ المال.

وكان أبو سعيد يمنع الخادمة أن تُخْرِج الكُناسَة من الدار قبل أن يراها، وكان يأمرها أن تجمع قُمامة من يستأجرون دُورَه، فترميها فوق قمامتهم. فكانت الخادم تفعل، وتأتي له بالقمامة قُفَّة وراء قفة، فيعزلها واحدة واحدة، وينثرها ويفتشها. فإن أصاب درهماً، أو قطع دراهم، أو صُرَّة فيها مال للنفقة، أو ديناراً، أو بعض الحليّ، فإن هذا كُلَّه أمره معروف. وأما ما وجد فيها من القطن والصوف، فيُجمع في ناحية، وكان وجهُه أن يُباع، بعد أن يبلغ مقداراً، إلى من يصنعون البرادع التي توضع على ظهور الحمير والبغال، فهم يحشونها بالرديء من القطن والصوف.

وأما قطع الأكْسِية، وما كان من خرق الثياب، فتباع إلى أصحاب الصِّينيَّات وما أشبه، يصنعون منها أغطية مطرزة لها. فإن وجد قشور الرّمان، فهذه إلى الصباغين والدبّاغين، وليس كقشر الرمّان في ثبات الصَّبّاغة ودبْغ الجُلود. وأمّا ما كان من القوارير المكسورة فإلى أصحاب الزجاج. وما كان من نوى التَّمرْ، فإلى أصحابِ الخُشوف. وما كان من نوى الخَوْخ، فإلى أصحاب الغَرْس، يغرسونها، فإذا طالت قليلاً باعوها لأصحاب البساتين. وما كان من المسامير وقطع الحديد، فللحدّادين. وما كان من القراطيس والصحف، فتصنع منها سدادات لأفواهِ الجِرار. وما كان من الخشب فللذين يهيئون إطار البردعة وهيكلها. وما كان من قطع العظام، فيرُمى مع الوّقود. وما كان من قطع الخزف والطُّوب والآجُرِّ المكسور، فإن الانتفاع بها يكون بأن تُدَقَّ كلها معاً، ثم تُنَخَّل، ثم تَخلَط بالغُضار اللَّزِج، فيعجَن هذا كلّه لصناعة التنّور. وما كان من قِطع القار - إن وجدت - فتباع للقيّار. ثم لا يبقى إلا التراب خالصاً، وهذا يُضرب منه اللَّبِنُ للبيع أو للحاجة إليه في المنزل، لكنه يبخل بالماء، فيأمر جميع من في الدار ألا يتوضؤوا، ولا يغتسلوا إلا على هذا التراب، فإذا ابتلَّ وصارَ طيناً، جعلَه لَبِناً. وكان يقول من كان لا يعرف الاقتصاد كما أعرفه، فلا يتحدَّثَنَّ عن أمرٍ لا يعرف منه طرَفَه.

وفقد أحد الساكنين شيئاً كبعض ما يُسرق في البيوت. فعلم أبو سعيد بذلك. فقال: لا تتَّهِموا أحداً، ولكن اطرحوا الليلة في أرض الدار تراباً، فعسى أن يندم من أخذه، فيلقيه في التراب، ولا يُنكَر أن نجده هناك، ولا يَخشى أن يعرفه أحد، لكثرة من يجيء إلى المكان. ففعلوا، وصادف أن طُرِح ذلك الشيء المسروق في التراب، وكانوا يجمعونه ويلقونه على كُناسة أبي سعيد، ورآه قبل أن يراه المسروق منه، فأعطاه له، وأخذ منه أجر الكنس في ذلك اليوم.

* * *

الأصمعي يتمنطق

واشترى تاجر من الأصمعيّ محصولَ نخيله، وأخطأ التقدير، وتهاوت الأسعار، فطلب منه أن يُنزِل له من الثمن شيئاً، وأن ينظر في أمره بعين الإشفاق. وتشفع إليه بمجموعة من الصلحاء، فكلموه، فقال الأصمعيّ: «أسمعتم بالقِسْمَةِ الضِّيزى؟ إنها قسمة الخسارة التي تريدونني عليها. وأي تجارة هذه؟ يشتري منّي على أن تكون الخسارة عليّ، والربح له. اذهبوا فاشتروا لي نخيل العراق كله على هذا الشرط. على أني لا أدري: هل هو صادق أم كاذب في ادّعائه. وهَبْهُ كان صادقاً، وهَبْني لبّيْتُ طلبَكم وأجبتكُم إليه، فلماذا أجيبكم ولا تُجيبونني؟

والله ما مشيتُم معه تشفعون له، إلا وأنتم ترون أن حقه عليكم واجب، وأنّ له عليكم أن تُعينوه. وأنا لا أعرِفُه، وليس بيننا من الصِّلاتِ ما يفرض عليَّ حقّاً له. ولو كنت أرى أن عليّ واجباً له، لما كان من الضرورة أن تأتوا شُفَعاء معه، فَهَلُمُّوا نقتسم هذه الخسارة بيننا بالتساوي، فيكون عليّ ما يكون على الواحد منكم. وأرى في هذا فِعلاً حسناً ممّن يحتمل حقاً ليس عليه واجباً، إذا قِسناه إلى من يَجِب عليه مثل ذلك».

فقاموا من عنده، ولم يعودوا إليه بعد ذلك، وأَيِس التاجر، وسلّم أمره إلى الله، وخرج إليه من حقّه، ونقده الثمن كاملاً.

* * *

أبو عُيَيْنة

البخيل المثقف

حدّثني جعفر ابنُ أخت واصل بنِ عطاء، قال:

قلت لأبي عُيَيْنة: «قد أحسن الذي سأل امرأته عن لحمٍ أتاها به فأكلته، وقالت: قد أكله الهِرّ. فأخذ الهِرَّ فوزنه، ثم قال: «هذا وزن اللحم فأين الهِرّ؟ فقال أبو عينيه: «كأنّك تُعَرِّضُ بي» فقلت: أنت والله تستحقّ هذا. إنك شيخ قارب المائة، وتأتيك غَلَّة تكفيك وتكفي عشرة معك، وليس لك عيال ينتظرون منك أن تنفق على معاشهم، وتُعطَى الأموالَ على مذاكرة العلم، والعلم لذَّتُك في الدنيا وصناعتُك فيها، وبدلاً من أن تَقعُد في بيتكِ لمُذاكرة العلماء، تراكَ رِجْلٌ في البستان، ورِجْل عند أصحاب النخيل، ورِجْل في السوق، ورِجْل في محلة الكِلاء على البحر. تطلب من هذا نُقْرةً في جِصّ، ومن هذا شيئاً من آجُر، ومن هذا قطعة من نحاس، ومن هذا هكذا. ما هذا الحرصُ على الدنيا؟ ولماذا تُتعب نفسك هذا التعبَ كله؟ وإلى متى تشْغَلُ نفسك بهذه الأمور الصغيرة؟ فلو كنت شاباً في مُقتبل العمر، يريد زوجاً وأولاداً وبيتاً، ماذا كنت تفعل؟ ولو كانت ديونك كثيرة وعيالك حولك يطلبون ولا يقنعون، ماذا كنت تفعل؟ وقد رأيتُك في أيام سالفةٍ تلبس الأسمالَ والأطمار، وتمشي حافياً نصف النهار».

قال جعفر: وقلت: «بلغني أنك فقدت قطعةِ بطِّيخ، فألححت في السؤال عنها كأنها قطعة ذهب، ولكي تكُفَّ عنهم، قالوا لك: لقد أكلها الهِرّ، فرميت باقي القطعة إلى الهِرّ، لتعرف صدقهم من كذبهم، لكن الهِرَّ لم يأكل البِطّيخ،

فغرّمتهم ثمن بطيخة كاملة. وقالوا لك: لقد كنّا في ليل، ولعل الهِرّ الذي أكلها كان من هِرَرة الجيران، فإن يكن هِرُّنا هذا أكلها، فإنك رميت إليه قطعة البطيخ وهو شبعان منه. فاصْبر علينا، فإننا سنمتحنه في غير هذا، ولا تغرِّمْنا ثمن البطيخة، فأبيت. فما هذا البخل؟

قال أبو عُيَيْنة: ويلك! أنا أعلم أنّ ما فعلتُ من الفساد، ولكنّي لا أصل إلى منعهم من الفساد إلا ببعض الفساد. وقد قال زياد بن أبيه في خطبته المشهورة: «والله إنّي ما أصلُ منكم إلى أخذ الحق، حتى أخوض الباطل خوضاً». فما كفاه أن يصل إلى أخذ الحق بالباطل، بل خاض فيه خوْضاً. وأمّا ما تلومني عليه من أنني هنا وهناك، وأنني أبتغي هذه وتلك، فإنما ذهبت في هذا إلى قول زياد: «لو أن في يدي فسيلة، ثم قيل لي إن القيامة تقوم الساعة، لبادرتها فغرستها» فأنت تلومني على أنني كذا وكذا، وهو يغرس الفسيلة ويعلم أنها لن تصير نخلة إلا بعد سنوات، مع أنهم يقولون له: إن القيامة ستقوم الساعة. وقال أبو الدرداء في مرضه الذي مات فيه: «زوِّجوني، فإني أكره أن ألقى الله عَزَباً» والعرب علمونا أن من احتاط لأمره في الصيف، لقي الراحة في الشتاء فقالوا: «من غلى دماغه في الصيف، غلَت قدوره في الشتاء». وقال مُكْرَز: «العجْز فراش ليّن لا ينصرف إليه إلا الفاشل الكسول». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إياكم والراحة، فإنها عُقلة» فلم يقنع بالنهْي عن الراحة بل سمّاها قيداً. وقال: «لو أن الصبرَ والشُّكْر بعيران، ما همّني أيَّهما أركب» وانظر كيف يعلِّم ممّا تعلَّم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو يريدنا أن يكون الواحد صلباً، ذهبت عنه طراوة الصِّبا، وأن يأخذ نفسه بالتقشف والغِلَظ في المعاش، حتى يكون الرجل صلباً خفيفاً يثب على ظهر حصانه وثباً دون أن يضع رجله في الرِّكاب، فيقول: «تَمعْددُوا واخْشَوْشنوا، واقطعُوا الرُّكَب، واركبوا الخيل نَزْواً». وما هذا إلا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اخشوشنوا، فإن النِّعَمَ لا تدوم». وتأخذ عليّ أنني أسير حافياً، وقد أوصى عمر بهذا، لأن من اعتاد الحفاء كان

أسرع إلى النهوض والفزعة إلى الأمور، قال عمر: «احتفوا، فإنكم لا تدرون متى تكون الجَفْلة». وقال: «إن يَكُن الشُّغْلُ مَجْهدة، فإن الفراغَ مَفْسدة». وقال لسعيد بن حاتم: «احْذرِ النِّعْمة كحَذَرِك من المعصية، ولَهِيَ أخوفُهما عليك عندي». وقال أكثم بن صَيْفيّ: «ما أحبّ أني مَكْفيٌّ كلَّ أمرِ الدنيا، فإنّي أكره عادةَ العَجْز».

فتريدني أن أدع وصايا الأنبياء، وأقوال الخلفاء والصحابة، وتأديبَ العرب وحِكَمَهم، وآخذ بقولك؟

* * *

بخلاء من كل الطبقات

ودعا محمد بن الأشعث إلى الغداء، يحيى بنَ خالد - وقد تحدثنا عنهما من قبل - فتذاكرا الزيت، ومتى يكون أفضل من السَّمْن، ومتى يكون السمْنُ أفضلَ منه، ثم تذاكرا الزيت المعصور من زيتون غض، والزيت الذي يخلط بالماء، ولا يختلطان. فقال محمد: «عندي زيتٌ لم يرَ الناس مثلَه، وقد عُصِر لي لا لغيري». فقال يحيى: «لا نحكم حتى نرى، ألا جئتنا منه بشيء؟». فدعا محمد غلامه فقال: «إذا دخلت الخزانة تجد جِراراً، فانظر الجرَّةَ الرابعةَ عن يمينك إذا دخلت، فجئنا بشيء من الزيت». قال يحيى: «ما يُعجبني السيِّد يعرف موضعَ زيته وزيتونه، وربما بقية المؤونة».

وكان أسدُ بنُ عبدِ الله القَسْرِيّ، أخو خالد القسري، والياً على خراسان أيام ولاية أخيه على العراق، في زمن هشام بن عبد الملك، وكانت له حكايات على الطعام. فقد جاءَه الشوَّاءُ يوماً بشِواءٍ أنضجه كثيراً، وكان أسد يحبُّ الشِّواء طرياً قليل النُّضْج، فقال للشّوَّاء: «أتظنّ أنك تخدعُني، وأنني لا أعلمُ ما تفعل؟ أنا أعلم أنك لستَ تبالغ في إنضاجه ليصيرَ أطْيبَ، ولكنك بفعلِك هذا تسْتحلِبُ جميعَ دُهنهِ وشحمِهِ ودَسَمِهِ، فتجمعُه وتنتفِعُ به» فبلغ قوله أخاه خالداً فقال: رُبَّ جهل خيرٌ من علم.

وكان رجل يدعو نفسَه إلى طعام الجوهريّ، فكان ضيفاً دائماً على مائدته، وكان يتحرى وقتَ طعامه ولا يخطئ. فإذا دخل في وقت غداء أو عشاء. والقوم يأكلون، أو حين يُوضع الطعام على الخِوان، قال: «أكاد أصدِّق قولَ القَدَرِيَّة الذين قالوا إن كلَّ أمرٍ مُقدَّرٌ على الإنسان لا يستطيعُ منه فَكاكاً.

من كان يستطيع أن يصرِفَني عن هذا الطعام، وقد كُتب لي في اللوح المحفوظ أنّي سآكله؟». وأكثر من غاراته، حتى ضجّ منه القوم، فقال له رِياح: «تعال في وقت الغداء أو العشاء، فإن وجدت شيئاً، فكن قدريّاً، أو فالعن القدريّةَ وآباءَهم وأمهاتهم».

وكان خالد بن صفوان بنِ عبد الله بن الأهتم من بني مَنْقر خطيباً مفوهاً من خطباء عصر بني أمية، وعاش إلى أن أدرك أبا العباس السفاح ومات في عهده وهو من الخطباء المشهورين عند العامّة، والمقَدَّمين عند الخاصة. وكان راوية حافظاً، يروي خطب الأولين ويسابقهم، كما كان مؤلِّفاً مُجيداً. وكلامه مَلِيحٌ مقبول، وعظيمُ القدرِ جليل.

وجاءه غلامُه بطبق خَوْخ، فما ندري إن كان هديّة من أحد، أم أن غلامه جاء به من البستان. فلما وضعه بين يديه، قال خالد: «لولا أني أعلم أنك أكلتَ منه، لأطعمتُك واحدة».

وحدّثني أحد الأصدقاء الثقة فقال: «كنت مع شيخ أهوازيّ في مَرْكَبٍ في دجلة، وكنتُ في أوّل المركب من جهةِ الرأس، وكان في آخره. فلمّا حان وقت الغداء، أخرج من سلّة كانت معه دجاجةً وفرخ طائر مَشويَّيْن، وراح يأكل، ويتحدَّثُ ولا يعرِضُ عليَّ المشاركة، وليس في السفينة غيري وغيرُه. نظرَ إلي، فرآني أنظر إليه مرَّةً، وإلى ما بين يديه مرّة. فتوهَّم أني أشتهي الطعام. وأريدُه أن يدعوني، فقال لي: «لم تنظر إليّ هكذا؟ من كان عنده طعامٌ أكل مثلي، ومن لم يكن عنده اكتفى بالنظَرِ مثلك». وأكل لقمة أو لقمتين، ثم وجدني مازلت أنظر إليه، فقال: «يا هذا، أنا رجلٌ حَسَن الأكل، ولا آكلُ إلا طيِّب الطعام، وأنا أخافُ أن تكون عينُك مالحة، وعين مثلَك سريعة، وقد تَـفلُق الصخْرة المَكينة، أو تُغرِق السفينة، فاصرْف عنّي وجهك». فوثبت وثبة سبع ضارٍ، وانقضضْت عليه، فقبضْت على لحيْته بيدي اليُسرى، ثم تناولت الدَّجاجة بيدي اليُمنى، فمازلت أضرب بها رأسه، حتى تقطَّعت في يدي، ثم تركته خامداً، وعدت إلى مكاني وقد شفيت منه غليلي.

فمسح وجَهه ولحيتَه، ولملم ما بقي من طعامه، ثم بادرني بالقول: «لقد أخبرتُك أن عينك مالحة، وأنك ستصيبني بعين، وها قد فعلتَ».

قلت: «وما علاقة ما بيننا بالإصابة بعين؟». قال: «يا هذا، إن الإصابة بالعين تعني أن مكروهاً سيحدث، وهاقد أصبتنا بعينك، فنزل بنا أعظم مكروه». فضحكت ضحكاً لم أضْحك مثله من قبل، حتى ضحك معي، وتحدَّثْنا حتى كأنّه لم يقل قبيحاً، وكأني لم أُفْرط في صبِّ غضبي عليه.

قالوا: كان المغيرة بنُ عبد الله بنِ أبي عقيل الثَّــقــفيّ والياً على الكوفة، وكان من عادته أن يأتوا له بِجدْي يُوضع على مائدته بعد الطعام، ولكنه لم يكن يمسُّه، فلم يكن أحد من ضيوفه يفعل، وكأنما الجدي للزينة. فأكل أعرابيٌّ على مائدته يوماً، فلمّا وضعوا الجدْي - ولم يكن يعرف عادة المغيرة - هجم على الجدي فمزّقه تمزيقاً، ولم يرض بأكل لحمه، بل عرَّقَ عظامَه تَعْريقاً. فقال له المغيرة: «كأن بينك وبين هذا الجدي ثأراً، هل نطحتك أمُّه؟». وكان الأصمعيّ يقول: إنما قال: «يا هذا، ألم يكف لاشْتفاء الثأر من هذا البائس أن تُمزِّق لحَمه، حتى عَّرقت عظمه؟ هل نَطحتْك أمُّه؟».

وكان عبد الرحمن بن طارق رئيساً لشرطة المغيرة، فقال لشرطي من شرطته: «هل تجرؤ على الانقضاض على جَدْي الأمير؟» قال الرجل: «أفعل». فقال عبد الرحمن: «إن فعلْت أسقطت عنْك نوبة الليل سنة». فبلغ قولُه الأمير، فشكاه إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، فعزله، وولّى مكانه زياد بن جرير بنِ عبد الله البَجْليّ، فكان أثقلَ عليه من عبد الرحمن، ولم يقدر على عزله، لأنه كان من رجالِ الحجّاج ومحلَّ ثقته. فكان المغيرة إذا خطَبَ الناس يقول: «يا أهل الكوفة، من جرَّ عليكم المصائبَ والغواية، وسعى بكم إلى أميرِكم بالوِشاية، فلعنَهُ اللّه ولَعَن أمَّه العوراء». وكانت أمُّ زياد عوراء، وقيل: كان هو نفسه أعور. فكان الناس يقولون: «ما أرينا تعريضاً قَطُّ أطيب من تعريض المغيرة بزياد».

ويُضرب المثلُ في الطَّمع بأشعب، وهو أبو العلاء أشعب بن جبير، وقد أدرك عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل إنه كان مولاه، فأعتقه فيمن أعتق يوم مقتله. وكان أشعب شديد البياض أحْولَ أصْلعَ ألْثغ، وكان لا يَبين الراء واللام، يجعلهما ياء. وكانت فيه صفات حميدة: كان حسن الصوت في قراءة القرآن، وربما صلّى إماماً، وكان أطيبَ أهل زمانه عِشْرة، وأكثرَهم نادرة، وأحسن الناس أداءً لغناءٍ سمعه، وكان يقول: أخذت الغناء عن مَعْبد، وكنت آخذ عنه اللحن فإذا سئل عنه قال: عليكم بأشعب فإنه أحسنُ أداءً له مني. وكان سراة المدينة المنورة ومياسيرها يستظرفونه، ويستطيبون مجلسه، لنوادره وحسن غنائه. وفد في آخر حياته إلى بغداد أيام أبي جعفر المنصور، فأقام فيها زمناً، ثم خرج إلى المدينة فمات فيها.

وكان زياد بنً عُبيد الله بنِ عبد الله الحارثي خالَ الخليفة أبي العباس السّفاح. ولاه أبو العباس على المدينة ومكة والطائف واليمامة، فظلّ عليها حتى عزله أبو جعفر المنصور. وكان لزياد جدْيٌ كجدي المغيرة الثقفي يوضع على المائدة لتزيينها، فلا يمسُّه ولا يمسُّه غيره. فعشّى ذات ليلة من رمضان قوماً وفيهم أشعب. فلم يقربوا الجدي إلا أشعب فقد مزّقه. قال زياد: «هل لأهلِ السجن إمام يُصلّي بهم؟» قالوا: «لا أيها الأمير». قال: «فليكن أشعب إمامَهم فإنه حسن الصوت». فارتعب أشعب، وقال: «هل لك في أمرٍ خيرٍ من هذا أيها الأمير؟». قال: «وما هو؟». قال أشعب: «أحلف بالأيمان المُحْرِجات، وبأني بريء من دين محمد، ألاّ آكلَ لحمَ جدْي أبداً».

وكان عبد الملك بن قيس الذئبي من أعجب الناس، فما ردَّ سائلاً قطّ، وكان جواداً بكل شيء عن طيب نفس، إلا على الطعام، فكان يعد من البخلاء. دعا رجلاً من أشراف أهل البصرة، ليقيم عنده زمناً، فقبل الرجل الدعوة شاكراً. فلما رآه عبد الملك يأكل ضاق به ذرعاً، فقال له: «هاهنا عرضٌ خير لك من أن تبقى معنا ونحبسك عندنا، وتُعفينا من دعوتك، أعطيك ألف درهم». فاحتمل خسارةَ ألفِ درهم، ولم يحتمل أكل رغيفٍ وإدامهِ.

وأكل أعرابي على مائدة سليمان بن عبد الملك بن مروان، فمدّ يده إلى دجاجة كانت أمامَ سليمان، فقال: «ألا يكفيك ما بين يديك وما يليك؟».

قال الأعرابي: «وهل على المائدة حِمَى لأمير المؤمنين؟». قال: «فخُذْها لا بارك الله لك فيها».

وكان معاوية بنُ أبي سُفيان تُعجبه الرَّقبةُ من الذبيحة، وتغدّى معه ذات يوم صَعْصعة بنُ صَوْحان، فمدّ يده وتناولها من بين يدي معاوية. فقال معاوية: «إنك لتطلب الكَلأَ لغنمك في مكان بعيد» قال صعصعة: «من أجْدبت دياره طلب الكلأ في ديار غيره».

وقالوا: دخل هشام بن عبد الملك بن مروان بستاناً له، فيه أنواع وألوان من الأشجار المثمرة، وكان معه بعض أصحابه، فجعلوا يأكلون الثمر، ويدعون بالبركة. فقال هشام: «يا غلام، اقْلع هذه الأشجار واغْرِس زيتوناً».

قالوا: وكان المغيرة بنُ عبد الله بنِ أبي عقيل الثقفي - صاحب الجدي - يأكل وأصحابه تمراً، فانطفأ السِّراج، وكانوا يلقون النوى في طست له رنين، فسمع صوت نواتين معاً، فقال: «كل الناس يلعبون بكَعْب واحد، فمن هذا الذي يلعب بكعبين؟».

وكان حُوَيْطب بنُ عبد العزّى بنِ أبي قُبَيْس من المؤلفة قلوبهم، أسلم يوم الفتح، وعاش إلى آخر خلافة معاوية. باع داراً لمعاوية بخمسة وأربعين ألف دينار، فقيل له: «أصبحت كثير المال»، قال: «وما نفع خمسة وأربعين ألفاً مع ستّةٍ من العيال؟».

وقالوا: سأل سائلٌ خالدَ بنَ صَفْوان، فأعطاه درهماً، فنظر السائل إلى الدرهم، وكأنه يجده قليلاً، فقال خالد: «يا أحمق، لا تستقل الدرهم، إن الدرهمَ عُشْرُ العَشَرة، وإن العَشَرة عُشْر المائة، وإن المائة عُشْرُ الألف، وإن الألف عُشْر العشرة آلاف. أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى مقدار دِيَة مسلم؟».

وكان بلال بن عامر بن أبي موسى الأشعري قد وَلِيَ البصرة وقضاءها نحواً من ست عشرة سنة في عهد خالد بن عبد الله القسريّ، وكان أميراً وقاضياً وداهية أديباً. وهو أول من أظهر الجور من القضاة. وكان يقول: «إن الرجلين ليتقدمان إليّ، فأجد أحدهما أخف على قلبي، فأقضي له». وقد انتشر الجُذام في سنة من السنوات، فخاف على نفسه. فوصفوا له أن ينقع بدنَه في السَّمْن. فكان يملأ حوضاً بالسَّمْن، ويتمدَّد فيه، فإذا فرغ من الاستنقاع، أمرهم بردّه إلى جراره، وبيعه في السوق. فاجتنب الناس في تلك السنة شراء السمْن من الأسْواق.

وكان يدعو بعض الناس إلى الإفطار في رمضان على مائدته. فكانوا يجلسون في حلقات، وتوضع لهم الموائد، فإذا أقام المؤذن الصلاة، نهض بلال إلى صلاة المغرب. ويسْتحيي الآخرون فينهضون معه. فإذا قاموا جاء الغلمان فرفعوا الطعام.

وكان عمرو بن يزيد الأسديّ على شرطة الحجّاج قالوا: وخبّرنا جار له، قال: رأيتُه يتخلَّل من الطعام بعود خِلّةٍ واحد شهراً، كلّما تغدّى كَسَر من رأسه شيئاً، ثم تخلل به، ثم وضعه في مجرى دواته.

وأكل رجل على مائدة خالد بنِ صفوان، فوضع الغِلْمان بين يدي خالد دجاجة، وبين يدي الرجل حبات من الزيتون. فأخذ الرجل ينظر إلى ما أمامه مرة، وإلى الدجاجة مرة، فقال خالد: «كأنك تهمُّ بها». قال: «ومن يمنعُني إذا فعلت؟». قال خالد: «أنا أمنعك، لأنني أصير أنا وأنت في مالي سواء».

وقالوا: كان الحكَمُ بنُ أيوب الثقفي عاملاً للحجاج على البصرة، فولّى على «العِقْر» جريرَ بن بَيْهس المازني، وكان يلقب جرير المطرَّق، وخرج الحكم مرة يتنزّه، وكان يومها باليمامة، فدعا المطرَّق إلى الغداء فأجاب دعوتَه. وكان بين يدي الحكم طائر من طيوُر الدُّرَّاج، فتناوله المطرَّقُ من بين يديه، فعزله من منصبه، وولّى مكانه نُوَيْرة المازنيّ وهو لا يدري أنه ابن عم جرير المطرَّق، فقال نويرة:

قد كان في العِرْقِ صيْدٌ لو قَنَعْتَ به — فيه غنىً لك عن دُرّاجَــة الحكَــمِ
وفي عــوارِضَ لا تنفــكّ تأكلُهــا — لو كان يَشْفِيك لحمُ الجزْر من قَرَمِ

فلما سمع الحكم البيتين، وعلم أن نويرة بن عم المطرَّق، عزله من منصبه كما عزل ابن عمّه، فقال نويرة:

أبا يوسُفٍ لو كنت تعرفُ طــاعتي — ونُصْحي، إذاً ما بِعْتَنــي بــالمحلِّقِ
ولا انْهلَّ سرّاقُ العِرافَــة صــالحٌ — عليَّ، ولا كُلِّفْــت ذنــب المطــرَّقِ

فذهب قوله: «ولا كُلِّفْت ذنبَ المطرَّق» مثلاً.

وأكل رجل على مائدة أمير ضخمْ كان لنا، فأخذ بيضة من أمام الأمير. فقال: خُذْها، فإنها أول بيضة باضتها الدجاجة. وكانت تلك المرة آخرَ مرّة يأكل فيها مع الأمير حتى مات.

وذهب إلى ضيْعة له يتنزه فيها، ورافقه خمسة رجال من خاصَّة خاصتِه، وقد حملوا معهم طعاماً يكفي خمسمائة. وثَقُل عليه أن يأكلوا معه، وكره لبخله أن يدعوهم إلى الطعام، واشتد جوعه، فجلس على طرف أرض مزروعة بالبُقول، فأقبل ينتزِعُ الفِجْلة من الأرض، فيطوي جزرتها بورقها وعِرْقها، ثم يأكلها من غير أن تُغْسل، من كَلَب الجوع، ويقول لواحد منهم، كان أقرب الخمسة إليه مجلساً: «لو ذهب هؤلاء الثُّقلاء لكنا قد أكلنا».

وكان عبد الرحمن بنُ نفيع بن الحارث الثقفي تابِعياً بصرْياً، ولاّه زياد بن أبيه بعض أعمال البصرة، ويعرف بعبد الرحمن بنِ أبي بَكْرة. قالوا: وتغدى عبد الرحمن بن أبي بَكْرة على مائدة معاوية بن أبي سفيان، ولفت نظرَ معاويةَ كِبَرُ لقمة عبد الرحمن. فلمّا كان الليل، ذهب أبو بكرة إلى معاوية، فقال: «ما فعل ابنك كبير اللقمة عظيمُ الأَكْلة؟».

قال: «تركته عليلاً يتوجع». قال معاوية: «احْمَدِ الله أنه لم يُصرْع، فَمَن كانَ مثلَه لابدَّ مِن أن تُصيبَه العِلَّة».

وأكل أعرابي مع أبي الأسود الدُّؤَليّ، فأنْكَر منه كِبَرَ لُقْمتِه، وهالَهُ ما يصنعُ على مائدتهِ. قال: «ما اسمُك؟» قال الرجل: «لُقْمان». قال «صدَق مَن سمَّاك. أنت لُقْمان».

قالوا: وكان لأبي الأسود دكّانٌ لا يكاد يتَّسِع إلا لمقعده، وخِوانٍ صغير يوضع بين يديه، فلا يتَّسِع إلا لطُبَيْق أو اثنين، وقد جَعَل موضع المَقْعدِ والخِوان مرتفعاً، ولم يَجْعل له عَتَباً، كي لا يصعدَ إليه أحد. وانتبه أعرابي إلى فِعْله، فقرّر أن يُناكده في بُخله. فكانَ يتحيّن وقت طعام أبي الأسود، ثم يأتيه على فرس، فيصيرُ كأنه معه في الدكّان، وكأنه جالس إلى الخِوان. واغتاظ منه أبو الأسود، فأخذ دبّة من نحاس، وجَعَل فيها بعض الحصى، واتَّكَأ عليها. فإذا رأى الأعرابيّ أقبل عليه، تظاهر بأنه يخوِّل مُتَّكَأَه من جنْب إلى جنْب، فَتُقَعْقِعُ الحصى في الدبة، وتصدرُ صوتاً مزعجاً، فينفر الفرس. قالوا: فلم يزل هذا دأبَه كلما جاءه الأعرابي. الأعرابيّ يصرُّ على مُؤاكَلةِ أبي الأسود من على ظهر الفرس، وأبو الأسود يُقَعْقِع بالحصى كأنها الجرس، حتى نفر الحصان مرةً فأوقعه. وكان يصرعه، فلم يعد إليه أبداً.

* * *

درس في الكرم

رسالة أبي العاص بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي إلى الثقفي

$

أما بعد، فقد بلغنا أنك من روّاد مجلس الأصمعي، وأنك تُظْهِر الإعجابَ بسَهْل بنِ هارون، وأنّك ترى الرأي الرّاجِحَ فيما يقول إسماعيل بن غزوان، وأنك تُـقَــبِّح جُودَ مويس بنِ عِمران، وأنّك تخالط ابن مُشارِكٍ وتُصاحبُه، وأنك تتودّد إلى ابن التوأم وتُقاربُه. ورأينا أنّك تُكْثِر من ذِكْرِ المال، وتكثر من التَّحريض على حِفْظه من الزّوال، والسعْي إليه في كل مجال، وتُسْهِب إسهاباً شديداً في وصف التَّرْويج والتَّثْمير، وفيما يجب على المرء من حُسْن التعهُّد والتوفير. إن هذا كلَّه دليلٌ على فَسادِ سرائرِك الخَبيئة، وعلى عيوبٍ في مَسالِكك مُسيئة. وكل هذا بعد أن ترى أَن ذكْرَهم ثقيل، وأن أفعالَهم أحطُّ من فعل الذليل، بل هو أشنع، وللمروءة أضْيَع، وتعجب كل العجب من مذهبهم في النفقات، وتسرف في ذمِّهم ووصف أفعالهم بالموبقات. ولا يكثر ذِكْر أمْرٍ على لسان أحد مديحاً، إلا أن يراه أمراً صحيحاً. ولا يأنس بالبخلاء، ولا يَغْشى مجالسهم، إلا من استوحش من الأسخياء، وترك نفائِسَهم.

وها أنت تردد الآن قول سهْلِ بنِ هارون في «الاستعداد عندما يكون المرء من عمره وقوَّتِه، وفي عدم الثقة بالزمان وصولته، وأن أقْبحَ التفريط ما طالت به المدّة، وأن الحزْمَ كل الحزم، والصوابَ كل الصواب، أن يستعد المرء لما قد يأتيه من المصائب، وألا ينفق إلا ما يحفظ الأبْدان، وأن يجعل ما

يوفّره، ويجمعه ويُقَتِّره، حمايةً له من صروف الزَّمان، فإن الإنسان لا يُعَد عاقلاً، ولا يُنسب إلى الحكْمة، ما دام بقيمة المال جاهلاً، ولا يحمي أصل النِّعمة، بأن يجمع ما زاد منها توفيراً وتقتيراً، وأن يجعل ذاك لها سوراً».

وفي تحفُّظِك هذا القولَ وترديدِه شاهد على إعجابك بمذهبه، وبرهان على ميلك إلى طريقته في الحياة. ولسنا نتجنّى عليك، ولا ننسب ما ليس فيك إليك، بل نسُوقُ إليك البرهان والدليل، على صوابِ رأينا وما نقول، ويكفيك أنك تستحسن رواية الأصْمعيّ في أن أكثر أهل النار من النساء والفقراء، وأن أكثر أهل الجنة من البُلْهِ والأغنياء، وأن أصحاب الغنى والثروات استأثروا بالمكْرُمات والحسنات.

ويكفيك أنّك فضَّلت كلام إسماعيل بن غَزْوان حين قال: «تتنعَّمُون بالطعام الطيّب، وترفلون بالثياب الفاخرة، وتهنؤون بالشرّاب الرَّقيق وتُشنِّفون الآذان بالغناء المُطْرب، ونتنعَّم بالثروة وما فيها من عزٍّ ومجدْ، والنَّظر في عاقبةِ الأمورِ وما يأتي بعد، ونهنأ بتكْثير المال، وبأننا آمنون من سوء الحال، ومن ذلِّ الفاقَةِ والحاجة إلى الرِّجال. والعجز عن تأمين قوتِ العيال، فتلك لذَّتُكم في الحياة الدنيا، وهذه لذَّتُنا لا نرى ولا نريدُ أعلى.

إنما نسعى إلى أن نسلم من الذمِّ، وأنتم تسعون إلى أن تنالوا الحمْدَ الجمّ. وإنما ينتفع بالحمد من كان سليماً، خالي البال من أي حزن أو غمّ وهمّ، ويُسَرُّ باللذات صحيحُ البدن الآمن على العيال، الصادقُ الحس في كل الأحوال. فأما الفقير فلا يسعى إلى أن يَحمَدَه أحد، بل أن يجد ما لا يجعله محتاجاً إلى أحد، والطعام الذي تنفقون عليه يصير فضلات، والشراب الذي تشربون في الصبح والمساء، يصير بولاً، لا يختلف في هذا عن الماء، وما تبنون مَردُّه أن ينهدم، والغناء ريحٌ تهُب، وسواه للمروءة أوجب، وسخافة تفسدُ العقل والرُّوح، ولا تقود إلا إلى كل قبيح. فأنتم تبحثون عن اللذة فيما يجلُب الفقرَ والقلَّة، ونحن نبحث عما يضاعف الغِنى، ويحمي المروءة والهمَّة. نحن نبني، وأنتم تهدمون، ونحن نُحكِمُ الأمور وأنتم تنْقُضون، ونحن في طلب

العزِّ الدائم، وإن فاتتنا بعض اللذة، في سعي حثيث، وأنتم تعرضون أنفسكم للذل الدائم، في تهافتكم على كل خبيث».

لقد فهمنا حكايتَك ومقاصدك، وانكشفت كل الأُمور، وما عدت تقدرُ أن تخفيها في قليل أو كثير. وبان الدليل على تغيُّرِ طباعِك، وعلى أنك انْقلَبْتَ من النقيض إلى النقيض، وأن أمورَك أدْبَرت، ومَدارِكَك تأخَّرت، وأنك صِرْت تَسْتحسن ما كنت تَستقبح، وأن ما كنت تُبغضه صِرْتَ تعشقه وتراه أملح، فبُعْداً لما قد فعلت، وسُحْقاً لما قد أتيت. ولا يبعد الله إلا مَن ظلم. وصدق الشاعر حين قال عنكم:

فإن سمِعْتَ بهُلْكٍ للبخيل فقُلْ ... بُعْداً وسُحْقاً له من هالكٍ مُودي
تُراثُه جنَّة للوارثين إذا ... أودى، وجثمانُه للتُّرْب والدُّودِ

وصدق الآخر حين قال عنكم:

تبلى محاسن وجهه في قبرْه ... والمالُ بين عَدوِّه مقسومُ

والحمد لله الذي لم يُمِتْني حتى جعلني أراك على هذه الحالْ. فأنت وكيلٌ على المال، وأجيرٌ لدى العيال، وحارس يحفظه للوارثين من الزَّوال، وهاأنت قد تعجلت الفقرَ قبل أوانهِ وسعيت إليه، واتَّخذته لنفسك سبيلَ عيش، فما قيمة الغنى إذا كنت تعيش عيش الفقراء؟ وما ظنُّك بمن ضاع كل مالِه، ورأى المكروه في عيالِه، وظهر عليه الفقر والحاجة، وشمت به العدوُّ والكاره؟ هل تظنُّ هذا أسوأ ممن اتخذ البُخل نهْجاً في حياتِه، فانصرف عنه الأصدقاء المؤنسون من ثِقاتِه، ولم ينل إلا بُغْضَ عيالِه، لما يعذِّبُهم به - وهو ذو مالٍ - من ملابس خشنة لا تستُر، وما يُطعِمهم من طعام لا يُرضى، فلا يزيدهم إلا كُرْهاً له وبُغضاً.

إن هذا كله مجتمع في البخيل، وهو من علاماتِ الشَّحيح، ومُعجِّلٌ للَّئيم. ألا إنَّ منفق مالِه قد رَبِح حمْدَ الناس وثناءَهم، والتفافَ الأصدقاء حوْلَه وبقاءَهم، وحدَّث بما أنعم الله عليه، وتمتَّع بما صارَ إليه، ولم يحبس ما رزقه

الله عن نفسه وعياله والناس أجمعين، ووفى كلَّ خَصْلة من هذه الخِصال حقّها. ومن يمسك المال يعذِّب نفسَه وأهلَه بالحِرْان، يكدّ ويشقى دون عِوَض مدى الأزمان، وليس له فيما يفعل حُجَّة، فما هو بين الناس فقير مُعدم، وليس ما يُجبره على تعريض نفسه للإهانة والذمْ، لكنه ببخله يُحكِّم النّوازع السوداء من نفسه، ويُسلِّطها على أهله وعِرضه، ويستكين إلى تنغيص عيشه بالبخل المرذول، والقضاء على كل سرورٍ في القلوب مأمول.

لقد سرت إليك من هؤلاء عدوى، فدبّ في نخوتك ومروءتك خَوَر، وما عهدنا هذا الضعف في أعراقِك، فكأنما طُعِنْتَ في الصَّميمِ من أخلاقكِ، ومذهبُك الذي أخذت به عنهم ليس من صميم أخلاق ثقيف، ولا من شيم قريش العريقة، وهي في المكان المنيف. ولقد تغيّرت من أخلاقِ أهلك وصفاتِهم، فكأنما صرت هجيناً لست من العرب، ولا تعتزّ بصافي النسب. ولقد قال معاوية: «من لم يكن من بني هاشم جواداً سخياً فهو منبوذٌ دعيٌّ غريب، ومن لم يكن من آل الزبير شجاعاً فهو يدَّعيهم وليس منهم، ومن لم يكن من بني المغيرة فخوراً، فهو دخيل عليهم». وقال سَلْم بن قتيبة: «إذا رأيت الثّقفيّ يبتغي العزَّ دون أن يُطعِمَ الطعام، ولا يُنفقُ المال مخافة ما تأتي به الأيام، فلا تحسبه من ذوي الحميّة، ولا من ذوي النفوس الأبية». وقال ابن أبي بردة: «لولا شبابُ ثقيف وفتيانهم، لما كان لأهل البصرة مال».

إن الله هو الجواد الكريم الذي لا يبخل، وهو الصِّدْق الصَّدوق الذي لا يكْذب، وهو المتكبِّرُ الذي لا يَعجب، والوفيُّ الذي لا يغدر، وهو الحليم الذي لا يَعْجَل، وهو العَدْل الذي لا يَظلِم، وهو السلام وإليه نُسْلم. ولقد نهانا عن البخل وأمرنا بالسَّخاء، حتى لو كان بكلمة طيبة وابتسامة عند اللقاء. وأمر بالصدق ونهى عن الكذب، وأن نؤدي للّه والناس حقّاً وجب. وأمرنا بالحِلْم والأناةِ، وعدَّهما من الإيمان، ونهانا عن العجلة فإنها من الشيطان. وأمرنا بالوفاء بالعهد، ونهانا عن الغدْر من قبْل ومن بعْد. ونهانا عن الظلم فقال: «يا

عبادي، إني حرّمت الظلم على نفسي فلا تظالموا» وأمر عباده بالعدل وأن يتراحموا، وإلا لماذا سمّى نفسه الرحمن الرحيم؟ وأمرنا بالكرم لأنه الكريم. فلم يأمرنا سبحانه وتعالى إلا بما اختاره لنفسه من الصفات، ولم يزجرْنا إلا عمّا لم يرضه لنفسه من السيّئات.

وقد قال الأقدمون جميعاً: «إن الله أكرم الأكرمين وأمْجدُ الأمجدين» كما قالوا: «إنّ الله أرحمُ الراحمين، وأحسنُ الخالقين». وقالوا في تأديب السائل، وتعليم الأجواد: «لا تُجاوِدوا الله، فإن الله جلَّ ذكرُه أجودُ وأمجد». وذكر نفسه - جلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤه - فقال: «ذو الفضل العظيم» و«ذِي الطَّوْلِ لا إله إلا هو». وقال سبحانه وتعالى: «ذو الجلال والإكرام».

ومالنا لا نتعلَّم من سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم؟ لقد قالوا: لم يضعْ درْهماً على درْهم، ولا لَبِنة على لبنة إلى أن توفاه الله. وملك صلوات الله عليه جزيرة العرب، فقبض الصدقات والزكوات، وجبيت له الأموال ما بين حدود العراق إلى أودية عُمان، ومن تخوم الشام إلى بحر اليمن، ولكنه انتقل إلى الرفيق الأعلى وعليه دَيْن، ودِرْعُه مرهونة، ولم يُسأل عن حاجةٍ قَطّ فقال لا. وكان إذا سُئِل أعطى، وإذا أعطى أجزل، وإذا وَعَد كان وعدُه كالعِيان، وإذا أطْمع كان إطماعه كالإنجاز. مدحه الشعراء بالجود، والسَّخاء بلا حدود، وذكره الخطباء بالسَّماح. ولقد يهب للرجل الواحد القطيع من الغَنَم، وما يملأ المرْجَ من الإبل. ولم يَهَبْ مَلِكٌ من ملوك العرب قط أكثر من مائةِ بَعير، فيقال: وهب هُنَيْدة. وإنما يُرادُ بذلك القول غايةُ المدْح. ولقد وهب رسول الله لرجل ألف بعير، فلّما رآها تزدحم في الوادي، قال: «أشهد أنك نبيّ، وما هذا ممّا يجود به عامة الناس».

وفخرت هاشم على سائر قريش والعرب، فقالوا: نحن نحيي بالطعام النفوس، ونعلُو بالسيوف الرؤوس. ووصفهم بعض العلماء فقالوا: هم الأجواد الماجدون، يهشون للضيف ويُقرون، وهم الذين إذا قالوا يفعلون، وقولهم كالسيف المسنون. وأجمعت الأمم كلُّها، قديمُها وحديثُها، قويُّها وضعيفُها،

مرذولُها وجليلُها على ذَمِّ البخل والتنفير منه، ومدْح الجود والتحبيب به، كما أجمعوا على ذمِّ الكذب وحَمْد الصدْق. وقالوا: أفضلُ الجُود الجودُ بالمجهود.

وقالوا: أفضل الجود جودُ المُقِلّ، ومن أخْرَج الجُهْد وأعطى الكُلّ، وإذا كان من يجودُ بمالهِ يحوزُ الفضلَ والذِّكْرَ الحَسن، فإن من يجُدْ بنفسِه له الفضلُ عليه على مرِّ الزَّمَن.

وذكروا أن العرب تحكم بأن حاتماً أجودُ العرب، ولو قدّموه على هَرِم بن سنان في الجود لما أخطؤوا. ولكن ما تحدثت به الركبان عن جود حاتم لا يبلغ جزءاً من جود كَعْبِ بنِ مامَة، لأن كعْباً بذل النفس حتى قتله الكرم، وبذل المجهود من المال، فساوى حاتماً من هذا الوجه، وتفوق عليه ببذل المهجة، فقال الفرزدق:

على ساعةٍ لو كان في القوم حاتِمٌ - على جُوده - ضَنّتْ به نفسُ حاتِمِ

فضرب الفرزدق المثل بكَعْب بنِ مامَة الذي جاد بنصيبه من الماء لمن طلبه بنظره، وهم في شهر القيظ، وقد ضلّوا وعطشوا، فهلك لأنه لم يشرب. وما رأينا عربياً رأى في جود حاتم بجميع ماله سفاهةً، ولا رأينا أحداً منهم قال إن كعْباً كان سفيهاً أحمق، ولا إن فعله كان فعلاً أخرق. بل جعلوا من كعب فخْراً لإياد كلِّها، وجعلُوا جودَ حاتمٍ مأثرةً لطيِّئ، تباهي به أهل الكرم، وتُسابق نحو القِمم، بل صار جوده فخْراً لعدنان على قَحْطان، ثم للعرب على العجم، ما سارت الركبان، على مرِّ الزمان، ثم لسكان جزيرة العرب، ولأهل تِلْك التُّــرْبة على سائر التُّرَب.

فمَن أراد أن يُخالف ما وصف الله جلَّ ذِكرهُ به نفسه، وما أسْبَغ من ذلك على نبيه صلى الله عليه وسلم، وما جعله فيه من فضائل الجود، وما أجمعت على تفضيلِه العُرْبُ كافةً، لا يشذ عن هذا الطريق أحد، وما اتفقت عليه أممُ الأرض قاطبةً، لم يكن له منّا إلا الاحتقار، فلا نَعُدُّ منّا من اتّصف بهذا الصَّغار.

ومن يعرف تاريخ الأمة لا يجدُها قابلت الكريمَ بالبُغض، ولا واجَهت جُودَه بالرفْض، ولا عاملتْه بالازْدراء، بل أحبَّتْه أعظم الحب، وكالت له المديحَ والثناء. بل إن الأمة أحبت لحبّه نسْلَه وعيالَه، وأعْظمتْ من أجلهِ أهلَه وقومَه. والعرب يكرهون السَّرَف إلا في الجُود، فلم نجدهم أبغضوا جواداً، لأن جُودَه جاوز الحدود، ولا قابلوه وتحدثوا عنه إلا بالتعظيم والإجْلال، بمقدار ما يزيد في إنفاق المال. بل رأيناهم يتعلمون منه حَسَن الصِّفات، ويتدارسون في أحاديثهم ما كان له من المكرمات، حتى أضافوا إليه من حكايات الجُودِ ما لم يكن يفعلُه ولا عَلِم، وقصُّوا عنه ما لم يكن يبلغه من نوادرِ الكَرَم. ولذلك قالوا إن الثناء على فعل الخير يُضاعَفُ في الدنْيا، كما تضاعَفُ الحَسَنات في الآخرة. وقد تجدُ مديحاً شارداً لا يُعرف صاحبُه، فيُضاف إلى مدائح الجَواد. وقد تجد معروفاً يجهلون من فَعَله، فينسبونه إلى الكريم، ويسيرُ ذِكْره بين العباد.

ثم وجدنا هؤلاء يفعلون بالبخيل ضِدَّ ما فعلوا بالكريم، ومذهبهم في معاملة البخيل خلاف هذا المذهب. فوجدناهم يُبغضون البخيل كما يُبغضون المرض، ويَفِرُّون منه فِرارهم من المجذوم، وينْأَوْن عنه بمقدار ما يتقرّبون من الكريم، بل إنهم - لشدّة بغضهم إيّاه - يُبغِضُون أهلَه وولَده، فيكون قد جرَّ المصائب على أهله مرتين: مرة لأنه جعلهم يَحْيَوْن في ضنَكٍ ويباس، ومرة لأنّه بَغَّضَهم إلى الناس. ووجدناهم يحتقرون البخيل، ويحتقرون معه من لاذ به، وكان منه من الأقربين، ولا يهتمون لرأيه في أمُورِ الدُّنْيا والدّين. والبخل عندهم ملازم للُّؤْم والخِسَّة والدَّناءة، وتراهم يضيفون إلى سيرة البخيل نوادرَ البخل اللئيمة، ويُضيفون إلى بُخله غرائب البُخل الجديدةَ والقديمة، حتى لم يكتفوا بذمِّ مَسْلكِه في الحياة، بل ضاعفوا من سُوءَ الذِّكْر والسيرة للبخلاء، بقَدْر ما ضاعفوا حُسْنَ الثناء على الكُرماء.

على أنّا نجد المصائب أسرعَ إلى أموال البخلاء منها إلى أموال الأسخياء، ولا رأينا عددَ من افتَقَر من البخلاء أقل من الكرماء.

والبخيل عند الناس ليس الذي يبخَلُ على نفسه فقط، فقد يستحِقُّ عندهم اسمَ البخيل، والتَّحْقيرَ والتقْليل، من يتبعُ نفسَه في أهوائِها، فلا يدري داءَها من دوائِها، ومن لا يترك لرغباته حاجة إلا قضاها، ولا شهوة دنيئة إلا ولَغ فيها إلى آخر الطريق، لا يهمه لومُ المُحِبِّ ولا إشفاقُ الصديق، وإنما يقع اسم البخيل على من يفعل هذا، لكنه يبخل بما يوجب شُكْرَ الشاكرين، ومَدْح المادحين، وحمْدَ الحامدين، وما يجعل له بين العباد ذِكْراً، وما يحفظ له عند الله أجْراً.

وقد يسرف البخيلُ، ويرهقُ نفسه بالمُؤَن، وقد يتحمّل الكُلَف العظيمة الفائِقة، والنفقاتِ الباهظةِ والمُرهقة، وقد يكون له العديدُ من الجواري والخَدَم، وقد تَمتلِئ داره بالدَّواب والحَشَم، وقد يقتني أغربَ الأواني والأطباق والكؤوس، وقد ينفقُ على الثياب الفاخرة مما تشتهيه النفوس، قد يُكلِّف البخيل نفسَه في هذا كله ما يربُو على نفقة السخيّ، وأضعافَ ما يذهبُ بالجود من مال الجواد الكريم. فيذهبُ مالُه وهو مذمُوم، ويتغير حالُه وهو ملُوم، وربّما غلب عليه حبُّ الجواري المغنيات الحِسان، واستهْتر بالخِصْيان. وربما أفْرط في حُبِّ الصيد، وأنفق الكثير لاتّخاذ عُدَّتِه، وتركَ الأعمالَ طوالَ مُدَّته. وربما استولى عليه حبُّ المراكِب، يدعو إليها كلَّ صديق وصاحب. وقد يُتلِفُ مالَه في وليمةِ العُرْس، وفي ألوان الطعام في صباح الوِلادة من كل جنس، أو في الطعام الذي يُعَدُّ عند الختّان، فيشتري كل شهيّ، أو في طعام العقيقة للبنات والصبيان، أو في طعام الانتهاء من البناء، يدعو إليه البنّائين والأصدقاء. وقد تذهب أمواله في تجارة مصيرها الخُسران، أو في وديعة لا تُردُّ وإن طال الزّمان. وربّما كان شديدَ البخل، ولكنه شديدُ الحبِّ لأن يُذكر، فيكون بُخلُه أنكر، ولوْمُه أكبر. فينفق المال، لا هو اشترى به الصيت المحمود، ولا هو اشْتُهِر بالجُود، ولا نجا من لوم اللائِمين، واحتقار الذّاكرين.

وقد تسأل: كيف يكون هذا؟ أتظنّ البخيل لا يكون هدفاً للخديعة؟ والبخيل، أليس رجلاً كبقيّة الرّجال؟ ألا يجوز أن تفتنُه أمور عن المال؟ ألا

يُمكن أن يعِّرضَ ماله للضَّياع؟ ألم تسمعْ ببخيل راح مالُه في التّفاخُر الكاذب، أو بخيل فقد ماله في إعْلاءِ البناء واقتناء الضِّياع؟ أو بخيل ذهب ماله في السِّحْر والكيمياء، ومحاولات تغيير طبيعة الأشياء؟ ألا يجوز أن يفقُدَ مالَه إذا ركبه طَمَع كاذِب، وأنفق الكثير في سبيل أمل خائب؟ ألم تسمع ببخيل فقد المال في طلب الولاية والإمارة، وفي ضمان الكبار، حتى مُنِيَ بالخسارة؟ قد سمعنا بكثيرين فتنتهم الإمارة والرياسة، فأَمِلُوها، وتخلَّوا عن الذَّهب والفِضَّة دون تعقُّلٍ ولا كياسة. وقد رأينا منهم من يُنفق على الطعام والشراب، وعلى غرائب الفاكهة ونوادر الحلوى ألف درهم كل يوم، وعنده في كل يوم وليمة من أجل أن يعلو فوق القوم، مع أنه لو طعن طاعِن في دين الإسلام، لكان أهونَ عليه من أن يمزِّق الرغيف الثاني على مائدته، ومع أن شقَّ عصا الطاعة، ومفارقةَ الجماعة، أهون عليه من شق رغيف، ومفارقة الطعام خوانَه، وقد لا يَعُدُّ شتمَ عِرْضه جُرْحاً سديداً، لكنه يرى في قطعِ جزء من جدْي أو دجاجَةٍ أذى بعيداً.

أتدري لمَ تُسارِعُ الآفات إلى أموال البخلاء فتأكُلها؟ ولِمَ تتكالُب عليهم المصائبُ فتُفني ثرواتهم؟ لأنهم أقلُّ من الأجواد توكلاً على الله، ولأن الأسخياء أحسنُ منهم ظنّاً بالله، وثقةً بكرمه ونَدَاه. والجواد متوكِّلٌ على الله، يعتمد على ما قدّر الرحمن، وأنه أرحم بالإنسانِ من الإنسان، وكيفما دار أمرهُ وتبدّلت به الأحوال، فإنه يتَّكِلُ على الله، وليس على حَزْمه في الأمور، ولا على عقلِه في التدبير. والبخيل يحتج بأن أمور الحياة من طبعها التقلُّب، وقد تأخذ المرء على حين غَفْلة، ويُسيء الظن بالزّمان وتصاريفه وأهوالِه، فيلجأ إلى الحرص على تكديس أمواله، وما هذا إلا كناية عن سوء ظن بخالق الدُّهور، ومُصرِّف الأمور، ربِّ الغنيِّ والفقير، وعنده أحسن الثواب والأُجور. وهل يجري أمر في هذه الدنيا إلا حَسَبِ تقدير الحكيم؟ وهل تختلف الأزمنة إلا حسب تدبير العزيز العليم؟ أَوَلَسْنا - وإن جَهِلْنا الأسباب - نعلم أن الأمور تسير إلى غاياتها كما شاء القويّ الوهّاب؟

والبُخْل ليس عن خوف من الفقر، لكن اللُّجوء إلى الجَمْع، ومعاملة الآخرين بالمنَعْ، إما أن يكون عادةً من عادات البخيل، أو طبيعة فيه أصيلة. ودليلنا على هذا أنّك قد ترى بخيلاً، يملك الضياعَ الكبيرة، وتأتيه الغِلال الوفيرة، وليس له عيال ينفق عليهم، أو أهل تكلِّفُه مساعدتُهم، وتجدُ الرجل الجوادَ أقلَّ من ذاك مالاً، وأدنى غلالاً، وأكثر نفقةً وعيالاً.

ولو كان البخل دليلاً على رجاحة العَقْل وسداد الفِكْر، وحُسْنِ التبصُّر في العواقب، والرَّأْي الصائِب، لكان ينبغي لفارس أن تكون أسخى من الروم، وتكون الرُّوم أجودَ من الصقالبة. وكان ينبغي أن يكون الرجال بعامّة، أبخلَ من النساء بعامّة، وكان ينبغي أن يكون الصبيان أسخى من النساء، والجهلاء أكرم من العلماء. وكان ينبغي أن يكون أقلُّ البخلاء عقْلاً، حتى يكاد يُعَدُّ أحْمَق، أعقل من أفْضلِ الأجواد عَقْلاً. وكان ينبغي للكلب - وهو الذي يضرب به في اللُّوْم المَثل - أن يكون أعقلَ من الدِّيك، وأعرفَ منه بالأُمور، والديك يُضرب به المَثــلُ في الجود، وقالوا: هو أسخى من لافِظْ، وهو الديك يأخذ الحبَّ بمنقاره، فيرميه أمام الدجاجة. وقالوا: أْلأَمُ من كلب على جِيفَة، وقالوا: ألأم من كلب على عظم. وقالوا: أَجِعْ كلبَك يتْــبَعْكَ ونَعِمَ كلب في بُؤْس أهله، وسمِّن كلْبَك يأكُلْك. وقالوا: اخْسَ كما يُقال للكلب، وكالكلب في مَرْبط الدَّواب، لا هو يَعتلف، ولا يترك الدابة تعتلف. وقال الشاعر:

سَرَت ما سَرَت من ليلِها ثم عرَّسَــتْ   على رجلٍ بالعَرْجِ ألأَمَ مــن كلــبِ

وقال الله جلَّ ذكره في سورة الأعراف: «فَمَثَلُه كَمَثَل الكَلْب إنْ تحمْلْ عليه يَلْهثْ أو تَــتركْهُ يلْهَثْ». بل ثمة دليل أقوى من هذا. إذ لو كان البخل دليلَ رجاحة عَقْلٍ وطُولِ أناة ورَوِيّة، لوجب في هذا القياس، أن نَقْسم الناس، فنجعلَ أهْل مروٍ أَعْقَلَ البَرِيَّة، وأهل خُراسان أعْقَلَ العُقلاء، وأعلم العلماء.

إن العاقل يفرُّ من صفة المُسْرِف إلا في الجود، فهذا لا يعرف السَّرَف وليس له حدود. لكن البخيل يفرُّ من اسم المتهوِّر، كما يفِرُّ المُسْتحيي من صفة

الخَجِل. ولو قيل لخطيب ثابت الجَنان، فصيح اللسان، قويّ الحجة والبرهان: وَقَاحٌ، لأصابه الجَزَع، ولانتفض وفَزِع، ولو لم يكُنْ للجود إلا فضيلةٌ واحدة، هي أن الذين يتجاوزون حُدودَ الإنفاق، حتى لو أدّى إلى الإملاق، يفِرُّون من صِفَة السَّرَف إلا الجَواد، لكان في هذا الكفايةُ ليبينَ قدْرُه، ويبقى ذِكْره.

لقد قَرَن الله جلَّ ذِكْرُه المال بالأولاد، وسمّاهُما فتنة العباد، والأموالُ ممنوعة، والنفس راغبة وليست قنوعة، وهي على ما مُنِعت حريصة.

وقد قال الأولون:

أحبُّ شيء إلى الإنْسانِ ما مُنِعــا   وزادَها كَلَفــاً بالحــبِّ أن مُنعــت

ولو كان البخلاء لأولادهم يجمعون، ولإسعادِهم يكُدُّون، ومن أجلهم يحرِصون، لما قتّروا عليهم في الإنفاق، حتى عاشوا عِيشَة الإملاق، ولجعلوا لَهُم كثيراً ممّا يطلبون، ممّا يَرَوْن في الدكاكين والأسواق، ولتركوا محاسبَتَهم على كل كبيرة وصغيرة ممّا يشْتَهُون. إن هذا بعضُ ما دبَّ في قُلوبِ الوارثين، بُغْضَ الأهل المورِّثين، وهيَّجَ النوازِع في نفوس الأخلاف، لأن يتمنوا قِصَر عُمر الأسلاف. ولو كان البخلاء كما يدّعون، لأولادهم يبْنون، وللآتي من الأيام يكنِزْون، لما جَمَع الخِصيان المال، فلا أمل لهم في العيال، ولما كنز الرُّهْبان الكنوز، فالزواج والإنجاب في دينهم لا يجوز، ولسَلِم العاقِرُ من إلحاح الرغبات بالحِرْص والمنع والتقتير، واستراح العقيم من ذُلِّ البُخل والتوفير، بل إننا قد نجدُ البخيل بعد أن يموت ابنه الذي كان يدّعي أنه يبخَلُ لأجْله، ولحمايته من الفقرِ عاجلِه وآجلِه، يبقى على حاله في الحِرْص والطَّلَبْ، وعلى مثل ما كان عليه من جَمْعٍ ومنْعٍ دون سبب.

وللعَامّة خصالُهم وصفاتُهم، ولهم مطالبُهم ورغباتُهم، وهم في طلبها يُلِحُّون، والبُخلاء الأشِحّاء الحريصون، لا يقِلّون من جُهْدِهم ولا يَجُدُّون، فهؤلاء حسب رغبتهم يطلبون، وأولئك حسب بُخلِهم يحرصون ويمنعون، مع أنهم يعلمون أنهم في دار حَلٍّ وارْتحال، وما مالُهم إلا متاعُ الدنيا التي لا تدومُ

على حالْ، ومصيرُ كل حيٍّ فيها إلى زوال. حتى لو كانوا موقنين بالخلود، ما كانوا حرصوا على الأموال، تنتقل إلى الأحفاد من الجدود. فالبخيل يجتهدُ ويتحوّط والعاميُّ لا يُقصِّرُ بل يَسْخط. فمن لم يَسْتعِن على ما وصفنا من صفات البخيل الشّحيح، وصيتهِ القبيح، بقوة الإرادة والسَّعْي إلى السعادة، وبنظرة صافية إلى مَتاعِ الدنيا، وهو مَتاعُ الغُرور، كان إما عاتيّاً لحوحاً، وإمّا بخيلاً شحيحاً، فيَدَعُ احتجاجَهم بأولادهم، وادِّعاءَهم الخوف من تَلوُّنِ الزمان، إلى الجودِ في كل حالٍ وأوان، مُتَّكِلاً على ثقته برزْق الرحمن.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوافدٍ كَذَب عنده كِذْبة، وكان جواداً سخيّاً: «لولا خَصلَةٌ وَمَقك الله بها لشرَّدْت بك من وافدِ قوم». وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم: «هل لك في بيض النِساء والإبل الحمراء؟» قال: «ومن هم؟» قالوا: «بنو مُدْلِج» يحضونه على غزوهم، فقال: «يمنعني من ذاك أنهم يَقْرون الضيف ويَصِلُون الرَّحِم» وقال لهم أيضاً: «إذا نحروا شَجُّوا، وإذا كبُّوا عَجُّوا» أرأيت كيف حماهم كرمُهم من الغزو؟ أرأيتَ كيف مدحهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، بأنّهم إذا نَحَروا للأضيافِ أكْثروا من الَّذبائحِ حتى لَتسيلَ الدماء؟ وأنهم إذا دُعُوا إلى القتال ملؤوا بالغُبارِ والعَجاجِ الفضاء؟

هل تعرف جُدَّ بنَ قيس؟ إنه جُدُّ بن قيس بنِ صخر، من كعب بن سلمة وكان سيد بني سَلَمة، وهو صحابي أنصاري، ولكنه يُتَّهم بأنه كان منافقاً، ويُقال إنه تخلَّف يوم الحديبيّة عن البيعة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار: «من سيِّدُكم؟» قالوا: «جُدُّ بن قيس، إلا أنّه يُتَّهم بيننا بالبخل) فقال: «وأيُّ داءِ أدوى من البخل»، فجعل البخلَ داء، بل جعله أَبشعَ الأدواء. وقد أنشد حسان بن ثابت في هذا أبياتاً منها:

وسال رسـول الله، والحـق لازم	**لمن سال منّا: من تُسمُّون سـيدا؟**
فقلتُ له: جُدَّ بنَ قيس على الـذي	**نُبخِّلُه فينـا، وقـد نـال سُـؤْدَدا**
فقال: وأيُّ الداء أدوى من التـي	**رميتُم بها جُدَّاً، وأغلى بهـا يـدا**

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار مادحاً: «أما والله ما علمتكم إلا لَتَكْثرُون عند الفزَع، وتَقِلُّون عند الطمع» فعِفَّتُهم وتَرَفُّعهم عن المغانم، لا تقِلَّ قيمة عن نجدتهم ونخوتهم إذا حَمِيَ القتال وتطايرت الجماجم. وقال: «لو أن لابن آدمَ واديَيْن من ذهب لابْتَغى ثالثاً، ولا يُشبعُ ابن آدمَ إلا التراب، ويتوبُ الله علىَ من تاب». ويكفي لنهيك عن الغِواية، وإرشادك إلى الهداية أن تسمع قوله صلى الله عليه وسلم: «السخاءُ من الحياء، والحياءُ من الإيمان». وقوله: «إن الله جَوادٌ يحِبُّ الجود». وقوله لبلال: «أنفق يا بلال، ولا نخشَ من ذي العرش إقلالاً. ولم يُسَمِّ الذهبَ والفضَّة الحجرين، إلا وهو يريد أن يضعَ من أقدارهما، ومن فتنة الناس بهما. وقال لقيْس بن عاصم: «إنما لك من مالِكَ ما أكلت فأفنيت، وما لبست فأبْلَيْت، أو أعطيتَ فأمضَيْت، وما سوى ذلك فللوارث».

وأنت تعرف الشاعرَ النَّمِرَ بنَ تَوْلِب الذي أدرك الإسلام، وعاش إلى أيام عمر بن الخطاب، وتعرف أنه كان شاعراً مُتْرفاً لا يقول الشِّعْر في مدح أو هِجاء، وأنه كان مُقِلاً في شعره، ولكن أبياتَه كانت سائرةً بين الناس، ويتمثلون بها، وقد سمَّوْه العاقِل لجودة شعره وحُسْنِه، وكان يشبه حاتم الطائيَّ في شعره، وفي الجود وإتلاف الأموال، وأريحيَّة الطبع، والتغني بذلك في القصيد.

قال النَّمِرُ بنُ تَوْلِبْ:

وحثَّتْ على جمْعٍ ومنْعٍ، ونفسُها ... لها في صُروفِ الدَّهْر حقٌّ كَذُوبِ
وكائِنْ رأينا من كريم مَرزَّأٍ ... أخي ثِقةٍ طَلْقِ اليدين وَهُوبِ
شَهِدْتِ وفاتوني، وكنتُ حَسبْتُني ... فقيراً إلى أن يشهدوا وتغيبي
أعاذِلُ إنْ يُصبِحْ صدايَ بقَفْرةٍ ... بعيداً نآني صاحبي وقريبي
تَرَيْ أنَّ ما أبقيتُ لم أكُ ربَّه ... وأن الذي أمضيتُ كان نصيبي
وذي إبِلٍ يسْعى ويحسبُها له ... أخي نَصَبٍ في سَقْيِها ودؤُوبِ

غَدَتْ وغدا ربٌّ سواه يسوقُها وبُدِّلَ أحجاراً وجال قَلِيبِ

وقال أيضاً:

قامَتْ تباكى أن سَبَأْتُ لِفتيةٍ زِقّاً وخابيةً بِعَودٍ مُقْطَعِ

أتَبَكِّياً من كل شيءٍ هيّنٍ سَفَهٌ بكاءُ العين ما لم تدمعِ

فإذا أتاني إخوتي فدعيهُمُ يَتعلّلوا في العيشِ أو يلهُوا معي

لا تطرُديهم عن فِراشي، إنّه لا بُدَّ يوماً أن سيخلو مَضْجعي

هلاّ سألتِ بعادياءَ وبيتهِ والخيْل والخمْر التي لم تَمْنعِ

وقال شاعر هُذَيْلٍ أبو ذُؤَيب المجاهد:

إنْ الكرامَ مْناهِبُو كَ المجْدَ كُلُّهُمُ فَناهِبْ

أخْلِفْ وأتْلِفْ، كل شيءٍ ذَرَعْتَه الريحُ ذاهبْ

ومما قرأناه لامرأة في هذا الباب أيضاً:

أنت وَهَبْت الفِتْيةَ السَلاهِبْ وإبْلاً يحارُ فيها الحالبْ

وغَنَماً مثل الجراد الهاربْ متاعَ أيّامٍ، وكلٌّ ذاهبْ

وكان أبو ذرٍ الغِفاريّ الصحابي الجليل الزاهد العابدُ الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أصدق الناس، وتنبأ له بأنه يعيش وحدَه ويموت وحدَه، ويأتي يوم القيامةِ أمَّةً وحده كان يقول: «لك في مالك شريكان، الوارث وتقلُّبات الدهر».

أما تميم بن مُقبل وهو الشاعر الذي أدرك النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقد رأى المال شيئاً مُستعاراً لا يُردّ، فكان يدعو إلى جُودٍ لا يُحَدّ، وكان يقول:

فأخْلِفْ وأتْلِفْ، إنّما المال عارَةٌ وكُلْهُ مع الدهْر الذي هو آكِلُهْ

أتعرف أصدقَ بيت في الشعر العربي، والبيتَ الذي يُكتفى به، فلا يُحتاجُ إلى ما يُكَمِّله، والبيت الذي يُكْتفى بكلِّ شطْرٍ منه؟ فلماذا اتَّفق الرُّواة والعلماء والكتّاب والشعراء على أنه أصدق بيت في الشعر؟ إنه قول الحطيئة:

من يَصنْعِ الخيرَ لا يَعْدمْ جَوازِيَــهُ   لا يَذْهبُ العُرْفُ بين اللّه والنــاسِ

وجاء في الأثر: إن أهلَ المعروف في الدنيا أهلُ المعروفِ في الآخرة، وقالوا في الأمثال: «اصنَعِ الخيرَ ولو إلى كلب» وعلّمنا الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم أن رجلاً أحسن إلى كلْبٍ ظامئ بأن حمل إليه من البئر ماءً وسقاه، فغفَر الله له، وفي الحثِّ على بذل القليل، فضلاً عن بذل الكثير، قال الله جلَّ ذكره: «فمن يَعْملْ مِثْقالَ ذرَّةٍ خيرْاً يَرَهُ، ومن يَعْملْ مثْقال ذرَّةٍ شرّاً يَرَه» وقالت أمُّ المؤمنين عائشةُ بنتُ الصدِّيق رضي الله عنهما في حبة عنَب: «إن فيها لمثاقيلَ ذَرّ»، ولذلك قالوا في المثل: «من حَقَر حَرَم». وقال سلْمُ بن قُتيبة: «يستحي أحدهم من تقريب القليل من الطعام، ويأتي أعظم منه». وقال: «جهدُ المرء أكثر من عفْوه». وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم جهْدَ المُقلِّ على عَفْو المُكْثِرْ، وإن كان مبلغ جهده قليلاً، وكان مَبلغُ عَفْوِ المُكْثِر كثيراً.

وقالوا: «لا يمنعك من معروف صغَرُه». وعلمنا رسولُ الله ألا نمتنع عن التصدق لأننا لا نملك، فقال: «اتَّقُوا النار ولو بشِقِّ ثمرة». وقال صلّى الله عليه وسلّم: «لا تَحْقِروا اللقمة، فإنها تعود كالجبل العظيم»، لقول الله جل ذكره: {يَمْحَق اللهُ الرِّبا ويُرْبي الصَّدَقات}.

وقال: «لا تردوا السائلَ ولو بِصلَة حبل». وقالت العرب: «أتاكم أخوكم يستَتِمّكم فأَتِمّوا له». وقالوا: «مانِعُ الإتْمام ألْأم».

والبخيلُ أشدُّ الناس إلحاحاً في السؤال، وأكثر الناس مماطلة إن طُلبَ منه شيءٌ من المال. ولذلك قالت العرب: «البخيل إن سأل ألْحَفْ، وإن سُئِل سوَّف». والبخيل يُنكر ما أنعم به عليه الله، فإن اضطُرَ إلى العطاء بلغ غضبُهُ مُنتهاه، ولذلك قالت العرب: «إن سُئِلَ جَحَد، وإن أعطى حَقَد» ولا يتمنّى البخيل شيئاً سوى ألا يُسأَل حتى من أهله الأقربين، فيردّ بالنفي قبل أن يَسْتبين، ويركبه شيطانُ الغَضَب، دونما أيّ سَبب، قبل أن يسأله السائلون، ولذلك قالوا: «يردُّ البخيل قبل أن يسْمع، ويغضب قبل أن يفهم». وإذا سئل البخيل تملكه الحزنُ والغَضَب، وإذا سئل الكريمُ شعر بالطَرَب، فقالت العرب:

«البخيل إذا سُئِلَ ارْتزَّ، والجوادُ إذا سُئِل اهتزّ». وقال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: «ينادي كل يوم مُناديان من السماء، يقول أحدهما: اللهمَّ عَجِّلْ لمُنْفقٍ خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهمَّ عَجِّل لمُمْسِكٍ تَلَفاً». وقالوا: «شرُّ الثلاثة المُليم: يمنعُ خيرَه وخيرَ غيره».

وأشفقوا على من يُلْجئُه الزَّمان إلى بخيل، فقالوا في المثل: «شرٌّ ما ألْجأَك إلى مُخّةَ عرقوب»، كمن يطلب المخّ في ركبَة الدابَّة وليس فيها.

وقال الله عزّ وجلّ: {**ويُطْعِمُونَ الطَّعامَ على حُبِّه مسْكيناً ويَتيماً وأسيراً**}. وقال جلَّ من قائِل: {**لن تَنالُوا البرَّ حتى تُنْفِقُوا ممّا تُحبُّون**}. وقال سبحانه وتعالى: {**ويُؤْثِرُونَ على أنْفُسِهِمْ ولَوْ كان بهم خَصَاصَةٌ، ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُون**}. وقالوا قديماً: «خيرُ الناس خيْرُ الناس للناس، وشرُّ الناس شرُّ الناس للناس». وقالوا أيضاً: «خيرُ مالِك ما نفَعك».

وقال الرّاجِزْ:

كلُّنـــا يأمُـــلُ قـــدَّاً فـــي الأجَـــلْ　　والمنايـــا هـــيَ آفـــاتُ الأَقَـــلْ

وكان عُبيدُ الله بنُ عِكْراش، وأبوه عِكْراشُ بن ذُؤَيب الصحابي، رسولُ قومِه بني نزال بن مُرَّة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول:

وإنّـــي لأَرْثـــي للكـــريم إذا غـــدا　　على طَمَعٍ عنـــد اللئـــيم يُطالِبُـــهْ
وأرْثي لهُ في مجلسٍ عنـــد بابِـــهِ　　كمرْثِيَّتي لَلطَّرْفِ والعِلْـــجُ راكبُـــهْ

وقَرَن عبيدُ الله ثلاثةَ أمور بعضَها ببعض: الزَّمنُ المتقلّب، والكاسب الذي تصعب معاملته، ولا تحسُنُ مقابلتُه، والوارثُ الكارهُ المُتعجِّل، يريد أن ينال ما كان يُؤَمِّل. لكنّه فضّل الأخيرَ وإن كان ليس حسناً، فقال: «زمنٌ خَؤُون، وكاسب حَزُون، ووارث شَفُون، فلا تأْمَنِ الزمنَ الخَؤُون، وكن الوارث الشَفُون، ولا تكن الكاسب الحَزُون». وقال أيضاً: «يهرم ابن آدم، وتشبُّ معه خَصْلتان: الحِرْصُ والأمل». وكانوا يُعيِّرُون بالبخل من يأكلُ

وحده، وقالوا: «ما أكل عبدُ الله بن عمر رضي الله عنهما وحدَه قطّ». وقالوا أيضاً: «ما أكل الحسنُ بن عليٍّ رضي الله عنهما وحدَه قطّ». وسمع مُجاشع الربَعِيّ من يقول: «الشحيح أفضلُ من الظالم». فقال: «أخزى الله أمرين خيرُهما الشُّحّ».

وكان زاهد البصْرة الذي لم يذكر اسمُه إلا مقروناً باسم الحسن البَصْري، بكْر بنُ عبد الله المزْني، حتى كانوا يقولون: شيخ البصرة الحسن، وفتاها بكر، لا يتزيى بزِيّ الزُّهّاد، كان يقول: «لو كان هذا المسجدُ مُفْعماً بالرجال، ثم قيل لي: من خيرُهم؟ لقلت: خيرُهم لهم». وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: «ألا أُنْبئُكم بشِرارِكم؟» قالوا: «بلى يا رسول الله» قال: «من نزل وحدَه، ومنَعَ رِفْدَه، وجَلَد عبده». وقالت امرأة في جنازة رجل ترثيه وتمدحه: «أما والله ما كان مالك لبطنك، ولا أمرك لِعرسك».

* * *

ودرس في البخل

رد ابن التوأم على رسالة أبي العاص

فلمّا بلغت الرسالة ابنَ التوأم، كرِهَ أن يُجيبَ أبا العاص الثقفي، لما في ذلك من المنافسة والاختلاف بين القبائل، وخاف أن تتطور المسائِل، إلى أكثر من هذا الحد.

وابن التوأم هو ضُبارُ بنُ التوأمِ اليَشْكُري، من قبيلة الشاعر الجاهلي الحارث بن حلِّزَةَ اليَشْكُري، وقد كان من أصحاب الحكمة والرأي الصائب في كثير من الأمور. فقد كان يقول: «الرُّوح عمادُ البَدَن، والعلْم عِمادُ الروح، والبيان عِمادُ العلم». وهو معدودٌ في البخلاء المشاهير، يدافعون عن البخل بكل لسان، ويحُضُّون عليه بحُسْنِ البيان، كسهل بن هارون، وإسماعيل بن غزوان. قال ابن التوأم: «علِّم ابنَك الحساب قبل الكتاب، فإن الحساب أكْسَبُ من الكتاب، ونفقة تعلُّمِه أيسر، ووجوه منفعته أكثر» ووصفه رجل فقال: «رأيتُه مُشَحَّم النَّعْل، دَرِن الجورب، مُغَضَّن الخُفّ، وَسِخَ جيبِ القميص».

أما أبو العاص فأبوه عبد الوهاب بنُ عبد المجيد الثقفي، وقد وصفه النظّام بأنه أحلى من أَمْنٍ بعد خَوْف، ومن خِصْبٍ بعد جَدْب، ومن غِنَى بعد فَقْر، ومن طاعَةِ المحبوب، وفَرَج المكروب. ويرجع نسبه إلى الحكم بن أبي العاص الثَّقَفي، وهو من أوائل من نزلوا البصرة وأقاموا فيها، فآل الثقفي من أعرق أسر البصرة ومن مياسيرها. وقد كانت الجارية جنان معشوقة أبي نواس في بيوتهم.

ولهذا كتب ابن التوأم الردَّ على رسالة أبي العاص الثقفي، وبعث بها إلى الثقفي نفسه الذي بعث أبو العاص رسالته إليه:

$

أما بعد. فقد بلغني أنّ أبا العاص ذكرنا في رسالتهِ، ونوّه بأسمائنا في مقالته، وأكثَرَ علينا من التشْنيع، ونسَب إلينا قبيحَ الصنِيع في روايته، وليس يمنعنا من الجواب، إلاّ أنّه إن ردَّ على رسالتنا، لم يكن جوابنا على قوله الثاني أَحقَّ بالتَّرْك من جوابنا على قولِه الأول. فإن نحن جعلنا لرسالته الأولى جواباً، ثم ردَّ علينا، فجعلنا لرسالته الثانية جواباً، نبيِّنُ فيه خطأً، ونثبت فيه صواباً، خرجنا من تخاطُب العقلاء إلى تشاحُن السفهاء، وصرنا إلى ما يشبه تلاسُنَ النِّساء، وما يكون من ادِّعاء الخير بينَ الجهلاء. ومن رضيَ بذلك، فقد رضي باللّجاجَة حَظّاً، وبأسخف الكلام لفظاً.

ومن عَرَف أسبابَ عدمِ الثبات على خُلُق وطبع وشيمة، ابتعد عن أسباب الصخب والخُصومة. ومن حَفظه الله من سوء التطَاوُلِ وسخفه وعَصَمه من سوء العناد ونَكَده، اعْتَدَلَت منه الطِّباع، وابْتَعد عن أسباب الصِّراع، وتساوتْ في نفسِه الخواطر، وكان له من اعتداله عن سوء السُّلوكِ زاجِر. ومن كان الاعتدال ديدَنه في كل عمل، وتساوت خواطره في الثّـــقل، لم يعرفْ في حياتِه الغلط، وكان دائماً في الوسط، لا يعرف في التدبير، إلا أن يكون بين الإفْراط والتقْصير، لأنّ طبائع الاتِّزان، تولدُ مع الإنسان. ومن صمّم على أن يسير الشوط إلى آخره، لا يثنيه زجر ولا نصيحة، إلا أن يصل إلى غايته، وإن كانت مُتلِفة صريحة. والذي تعود التطاول، لا تعرف كيف توقفه في غَيِّه عن السرف، ولا كيف تصل إليه، كأنه الدائرة ليس لها طرف، فلا تتعب نفسك في إصلاح أمرِه، ولا في نهيه وزجْره، فقد أعْيتْ الناسَ فيه الحيل. ومن لم يكن ثابتاً على طبع وخُلُق، فقد تقاطعت إليه الطرُق، كشراع انحلت عُقدُه، فراحت الريح تذهب به كل مذهب.

وإني أنصحُك. لا تخالط من لا يثْبت على رأي، بل هو مع الناس، يتحرك حسب أهوائهم، فإنه مريضٌ فاسدٌ عقلُه. ولن تجد خيراً عند المتلِّون الذي يفاجئك برغباته، ويغير كل يوم نزواتِه، ولا في العنيد الحَرُون الذي إن صمم على أمْرٍ، لا يفيد نهيه ولا زَجْره. والمتلِّون شرٌّ من العنيد المصمَّم، لأن هذا يثْبُت بعناده على الأمر إن اعتقد أنه الصَوَاب، والمتلِّون لا يبقى على حال، ويميل مع هواه حيث مال، فلا تعرف كيف تأتيه، من أيِّ جهة، ومن أيِّ باب. ولذلك صار العاقلُ يخدَعُ العاقلَ ولا يستطيع خداع الأحمق الجاهل، لأن العاقِلَ تُعْرَفُ أبوابُه في التدبير، وحيلُه في تصريف الأمور، ولأن السُّبُلَ التي تمضي فيها أفكاره مسلوكة، ولأن أساليب تفكيره محصورة معدودة، يمكنك أن تعرفَها من دراسة أفكار العقلاء ومذاهبهم، وهم مُتشابهون في تنافرهم وتجاذبهم.

أما الأحمق فليس لتدبيره جهة واحدة، ولا تحدُّ حِيلَه وتصنُّفُها قاعدة. والخبر الصادق عن الشيء الواحد واحد لا يتغيّر، والخبرُ الكاذب عن الشيء الواحد بلا عَدَد، ولا يُوقُف منه على حدّ.

فإذا قلنا فإننا لا نقصدُ أبا العاص بأي مقالة، وإن احتججنا فلسنا نردّ على ما جاء في الرِّسالة. لكنا إليك نقصدُ بكل جُملة فصيحة، وأنت من نتوجه إليه بالنَّصِيحة. وقد قالوا: «احْفظْ سرَّك، فإنّ سرَّك من دمك» وقياساً على هذا نقول: «سواءٌ في أذاك وضُرِّك، من يسعى إلى ذهاب نفْسِك، ومن يسعى إلى حِرْمانِك مما تقوم به نفسُك». قال المُنجاب العنبري: «ليس بكبير ما أصلحه المال». وقد سُئِل بعضُ الصالحين عما هو أعظمُ من الأمور، فقال: «فَقْدُ الشيء الذي به تصلُحُ الأمور، ويَتِمّ التدبير». ولذلك مدحوا الإِبِلَ بأنها يكْفيها أنها تحقنُ دماء القبائل. وقال قيس بن عاصم في وصيته لولده: «لا تسبّوا الإبل، فإن فيها حقْن الدمِ ومَهْرَ الكريمة». وما كرّمُوا الإبل إلا لأنّ الدِّيَة تُدفعُ بها، فالشيء الذي هو ثمَنُ الإبل وغير الإبل، أحقّ بالصّوْنِ منها، ووضعه في أرْفعِ محلّ. وقد قضَوْا بأن جمعَ المال عسير، لكن حفظ المال أشدُّ بكثير. وقال الشاعر:

وحِفْظُك مالاً قــد عُنيــتَ بجمْعِــه   أشدُّ من الجمع الذي أنــت طالبُــه

ولذلك يقول بائعُ الأرض لشاريها: «أدفعُها إليك بطيئةَ الإجابة لكنها عظيمةُ المردُود» فيقول الشاري حين يَنقُدُ المال: «أدفعُه إليك بطيءَ الاجتماع، لكنه سريعُ التفرّق، فإذا تفرّق ضاعْ وإذا تفرَق عطِشَ صاحبُه وجاع».

ويشبّهون الدنيا بالرَّحى، لأن هذه تدور، وتلك تدور. وكما أنَّ الرحى لابدّ لها من قُطْبٍ تدور حوله، كذلك الدنيا لابدّ لها من قُطب، وقطبُ الدنيا الدِّرْهم، علمت هذا أم لم تعلم. وللدرهم نزوات، وله تَقَلُّبٌ وتَفَلُّتٌ إلى كل الجهات، فإذا كان صاحبُه وحارِسُه صحيحَ العقل، بعيداً عن الهَفَوات والكَبَوات، شدّه بوثاقِه، وردَّه إلى عقالِه، وأحْكَم حوْله ضرْبَ نطاقِه، ولم يسمحْ له بتبديل أحوالِه. ولكنا وجدنا ضعف الحارس عن ضبط المال، بقَدْرِ قَلَقِ الدرهم لا يستقرُّ على حال. فاعلم أن الذي يحمي نفسَه من سُكْر الغنى، يحمي نفسه من الهمّ والضَّنى، وإنه لشديد، وعزمه أكيد.

ولا تغترَّ بقولهم: مال صامِت. فالمال لا يكون صامتاً، بل هو أبلَغُ الخطباء، وأفصَحُ من الشعراء، وأفضلُ المتكلِّمين، والأسرعُ بين النمّامين. ويقولون: إن الذهب والفضة حجران، ومن طبيعة الحجر الجمودُ والسكون. والحجر ساكنٌ لا ينتقِل، مقيمٌ على طول الزمان لا يَمَلّ. فلا تتوهم هذا، فإن عملَهما وهما ساكنان، وما يغيران من طبائع الناس وأخلاقِهم وهما ثابتان، أكثر من صنيع السمِّ الناقع في الأبدان، وضراوة الوحش إذا سطا على الحِمْلان. فإن كنت لا تسعى إلى جمعِه حتى تفقده، ولا تكتفي بصنعِه حتى تشرِّدَه، ولا تحتال في الحفاظ عليه، كما تحتال في الوصولِ إليه، فإن القبرَ خيرٌ لك من الفقر والمهانة، والسجن خير من تعْيير فلان وفلانة.

وإنّي لك ناصح، وكلامي مُرٌّ وجارح، ولكنه يُعقِب حلاوةً إلى الأبد. وكلام أبي العاص شهيٌّ متناغم، مصبوغ وحُلْوٌ وناعم، ولكنه يُعقب مرارة وقسوة إلى الأبد. فكن حازماً في اتخاذ القرار، وكن واثقاً مما أنت عليه، ولا

تَرْضَ أن يكون الحِرْباءُ الراكبُ العود أحزمَ منك، مع أنه يُضرب به المثل في الحزم، فيقال: «أحزمُ من حِرْباء» ولكنه يضرب به المثلُ في التلوُّن، فيقال: «يتلوَّن كما يتلوَّن الحرباء»، ولهذا قال الشاعر:

أنّى أُتيح لها حِرباءُ تَنضُبة   لا يُرسِلُ الساقَ إلا مُمسكاً ساقا

ولا تَستَهِن بالدرهم، ولا تَحْقِرْه من مَغْنم. ولا تُخرج درهماً من مالك، حتى ترى خيرْاً منه في حلالك. ولا تغرُنَّك الكثْرة، ولا تودينَّ بحرصك الوَفْرة، فإن رمل الصحراء كُلِّها، لو أخذت منه حبَّة ولم ترد، لذهب عن آخره.

إن القومَ أكثروا من ذِكْر الجُود، وأفاضوا في تفضيله، وأطنبوا في ذِكْر الكرم، واسترسلوا في تشريفه، بل جعلوه قِمَّة الشرف، حتى إنهم بالغُوا فامتدحوا السَّرَف، ولم يسمُّوه باسمه، بل جعلوه جوداً وكرماً. وكيف يكون السرفُ خلقاً محموداً، وفِعْلاً مجيداً، وهو نتاج ما بين الضعف والتباهي الأحمق؟ والعطاء لا يكون سرفاً إلا إذا جاوز الحقَ، والريح لا تكون ريحاً إلا إذا جاوزت النسيم، والمطر لا يكون مطراً إلا إذا جاوز الطلَّ والقَطْر، ثم يصير منهمراً كالوابِل، وليس وراءَ الحق إلّا الباطل. وإذا كان الباطلُ كرماً وطَبْعَ الكرماء، كان الحق لؤْماً وطبْع اللُّؤمَاء. والسَّرَف - حفظك الله - معصية، فإذا كانت معصية الله كرماً، كانت طاعته لؤْماً. والحقّ ضدُّ الباطل، والصدق ضد الكذب، والوفاءُ ضدُّ الغدر، والظلمُ ضد العدل، والعلم ضد الجهل، ويجمع هذه الخصالَ اسم واحد، ويشملُها حكمٌ واحد.

وما الحكمةُ إلا من كتاب الله، فإذا عُدْنا إليه فإننا نجد أن الله جلَّ ذكرُه عابَ السرفَ ونهى عنه، وعاب الحَمِيّة، وعاب العَصبيّة، ووجدناه قد خصَّ السَّرَف بما لم يخصَّ به الحميّة. فحبُّ المرء لأهلِه وقومِه ليس من العصبيّة، وأن يرفضَ الظلْمَ ويأباه، ليس من حميّة الجاهلية. وإنّما العصبيَّة ما جاوز الحقَّ باستكْبار، والحميّة المَعِيبة ما تعدى الحقَّ بتصميمٍ وإصرار. وفي تعاليم المولى وحكمته التي لا تفنى، قد نجد اسم الأنفة والكبرياء، يقع عليه الذمّ، كما

يقع عليه الحمدُ والثناء، ولكننا لا نجد اسمَ العصبيّة ولا اسمَ السَّرَف إلا مذموماً، ومن يُبتلى بهما أو بأحدهما مكروهاً ملوماً.

ويخدعون الناس بالسرف، ويزيِّنونه عندهم، وما علموا أن اسمَ السّرفِ لا يُسَرُّ به إلا جاهل، ولا يتبِّعهُ إلا غافل، أو رجل جاوز حدّ الجود والكرم، فسمّوه مسرفاً لأنه يبطَرُ بالنِّعَم. وقد بيْنتُ لكَ أن مجاوزة الحقِّ لا تفضي إلا إلى الباطل. فإن سُرَّ باسم السرف من غير هذا الوجه، فقد شارك مادحيه في الخطأ، وترك الماءَ الفرات إلى الظمأ، وشاكلهم في وضع الشيء في غير موضعه.

وبهذا ترى أنّ الكرمَ الذي أكثروا في ذكره، وأطنبوا في الإشادة، به ليس إلا خَصْلة كبعض الخِصال المحمودة التي لم تسْلمْ من أن يلحقَ بها بعض الذمّ الصريح، كما تحظى بالثناء والمديح. وليس شيءٌ يخلو من بعضِ الوَهْن والنقْص، والكمالُ لله وحده. وقد زَعم الأوّلون أن الكرم بسبب الغنى، ولكنهم قالوا إنّ الغنى يُسبِّبُ البلَه، وقالوا إن الأبله ليس بعدَه إلا المعتوه. وقد حكوا عن كسرى أنه قال: «احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع». وسواءٌ جاعَ فكان من الظالمين، وأغضبَ الأبعدين والأقربين، وأخذ بالعُنف والقوة والظُّلْم ما كان يمكن أن يأخذ باللين. وسواءٌ جاع فصار من الكاذبين، وذَلَّ وخضعَ أكثر من خضوعِ المسكين، وبالغ حتى جاوز حدَّ اليقين. وسواءٌ جاع فظلمَ نفسه، أوجاع فظلم الآخرين، فإن الظلمَ لؤم.

وإذا لم يكن الظلمُ لؤماً، والظالم من اللؤماء، فإنّ الإنصاف ليس كرماً، والمنصف ليس من الكرماء، والجود يكون على من يستحقّ الجود، وعلى من لا يستحقه. فإذا كان الجودُ على من يستحقّ الجودَ كرماً، فإن الجود لمن وجب له الجود ليس كرماً. فالجود إذا كان للّه، وكان شكراً له ما أنعم، كان أفضل الكرم، لأن الشكر كرم. فكيف يكون الجود كرماً إذا كان معصية للّه؟ وقد بينت لك أن السرف الذي يدعونه جوداً وكرماً مذموم كالمعصية. فإذا كان الجوادُ لا يشكر الله، بل يتوصل بما أنعم عليه إلى المعصية، وبما وهبه إلى التماس غضبه، فكيف يكون كريماً؟ ليس الكرم إلا الطاعة، وليس اللؤم

إلا المعصية، وليس يجوزُ أن نسمّي ما جاوز الحق جوداً، ولا يجوز أن نسمي ما خالفَ شكرَ نعمة الله كرماً.

فإن كنتم على أقوال العامّة تَتَّكِلون، فالعامة ليسوا قدوة، ولا يعرفون الفرق بين الباء والنون. ومتى كان العامة قدوة، وليسوا أهل رأي ولا نظَر، ولا علم يُذكرون به فيمن ذُكِر؟ وكيف نقتدي بهم، وهم منشغلون عن التفكير بأمور التدبير، تُلهيهم المشاكل والهموم عن تحصيل الآداب والعلوم؟

وإن كنتم تأخذون بأقوال الشعراء، وما كان عليه أهل الجاهلية الجَهْلاء، فهؤلاء أسفه السفهاء، وكم قبحّوا وذمّوا من الأشياء، ما لا يشكُّ عاقل في حسنه. وكم مدحوا وقرّظوا من الأشياء ما لا يختلف اثنان في قبحه، ولسنا نشغَلُ أنفسَنا بالبحث والاستقصاء، فهو أكثر من أن نحصيه عدداً.

وأيُّ عطاءٍ لا يُوجب الشكرَ ليس جوداً، ولا يجوز أن نَعدَّه فِعلاً محموداً. وليس بخلاً أيُّ مَنْعٍ لا يوجبُ لوماً، ولا يَسْتتبعُ ذمّاً. والعطاءُ ليس إنعاماً على المُعْطَى، إلا إذا كان لا تشوبُه الجوائِح، وليس يُقصدُ به إلا نفسُ ذلك المعْطَى، لا إلى غير ذلك من المصالح. وليس كل عطاءٍ يستوجب الشكرَ إلا مع توفر القصد. فمن كان جودُه يرجِعُ إليه، ويرتدُّ ثناءً عليه، ولولا هذا لما جاد عليك. ولو توافَر له هذا المعنى في سواك لما قصد إليك، فإنه لا يهدِفُ إلى منفعتك، ولا يريدُ هبوب الريحِ على أشرعتك، إنما أنتَ وسيلة للتّباهي والتفاخُر، ومَعْبرٌ لإدراك حاجتِه، ومركبٌ لبلوغ غايته. ولولا أن يُقال إننا نبالغ في الاستقصاء، لقلنا إن عليه أن يتوجّه إليك بالحمد والثناء، لأنك كنت الوسيلة لتحقيق مصلحتِه.

فمن كان هذا فعِلَه، لا يستحق شكراً، ولا أن تلهجَ به ذِكْراً، لأنه إنما عمل لنفسِه. لأنه لو تهيأ له ذلك النفع في غيرك، لربّما لم يصل به إلى ذِكْرِك.

فإذا أردنا النفاذ إلى كبِدِ الحقيقة، وإذا أردنا اعتمادَ العقل وحدَه حُجَّة، فإن من يُوصفُ بالجُود، ويُشكرُ على النفْع، هو الذي إن جادَ عليك فإنما لكَ

يجُود، وإن سعى إليك بنفع، فإنما نفعَك يريد، من غير أن يعودَ عليه ذلك الجودُ بشيء من المنافع، ولا أن يحقق له غاية من غاياته، وليس يُتاجر بأعطياته، ولا يرجو من جُوده مصلحة من أي جهة من جهاته، وهو الله وحده لا شريك له.

وإنَّ شُكْرَنا للناس بعضَ ما قد يأتينا من نَفع على أيديهم، إنما يكونُ لأمرين: أولهما التعبُّد، وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بأن نعبدَه، وأن نتقرب إليه بتعظيم الوالدَيْن، حتى لو كانا شيطانين، بل ببرِّهما، والسعي إلى خيرِهما، حتى لو لم نَنَلْ إلا البلاء من شرِّهما، ونعبد الله جلَّ ذكرُه بمعاملة الأسنِّ منا بالاحترام والتوْقير، حتى لو كنا أفضلَ منهم في حُسنِ التدْبير. والأمر الآخر أن الناس يختلفون في الفكر والعقلِ والذكاء، وليس كل امْرئٍ يفنِّدُ الأُمورَ ويميّزُ معاني الأشياء، فالسابق إلى النفسِ أن تُحبَّ من جرى لها خيْرٌ على يدِه، وأن تغْدِقَ عليه الثناء، حتى لو كان لم يقصدْ إلى أن تنالَ الخير ويأتيَها النفْع، إنما جاءها عرضاً.

ولسنا نطلق الأحكامَ جُزافاً حتى لو جانَبَت الصَواب، فعطية الرجل لأي صاحبٍ من الأصحاب، لا يمكن أن تكون إلا لإحدى غايتين: إما أن تكون للّه، وإما أن تكون لغير الله. فإن كانت للّه فإن المُعْطِي يبحث عن الثواب، والثوابُ عند الله لا عندي، وكيف يجب عليّ شكرُ المعطي، وهو لم يقصدني وحدي؟ ولو أنه وجد قبلي مسكيناً أو فقيراً أو ابن سبيل، لأعطاه ما يريد أن يعطي، ولما نالني منه كثير أو قليل.

وإما أن تكون عطيَّتُه لي لينال الذكر الحَسَن، فإذا كان الأمر كذلك، فليس له فضل عليّ، وإنما جعلني سُلَّماً إلى تجارته، واتّخَذني وسيلة لتحقيقِ بُغْيته. أو أن يكون إعطاؤه إياي من باب الرحمة والرقة والشفقة، ولما يجدُ في فؤاده من ألم يعتصره، ونارٍ كادت أن تحرقه، فإن كان لذلك قد أعطى ومنح، فإنه إنّما داوى نفسَه من دائِه، وأراح قلبَه من بلائه، وخرجَ من همٍّ كاد أن يخنقَه. وإذا كان قد أعطاني وهو يطلبُ المجازاة، ويبحث عن المكافأة فأمر

هذا معروف. وإن كان إنما أعطاني خوفاً من ضرر ألحقه بي بيدي أو لساني، أو ليتخذ منّي مُعيناً ونصيراً، فإن ما قلناه عمّا سبق ينطبق عليه. فإن كان العطاء لغير الله، فإنه لا يخرج عن هذه الوجوه، فلا يخدعنَّك كلامهم، فَتَتُوه.

والجُود جُودان: أحدهما حقيقة، والآخر مجاز. فما كان من الجود حقيقة إنما هو جودُ الله جلَّ ذكرُه، والمجازُ المشتقّ له من هذا الاسم. وما كان للّه خالصاً صريحاً، كان جُوداً ممدوحاً وكان للّه طاعة وعبادة وإذا لم تكن العطيّة من الله، ولا للّه، فليس يجوز الاسمُ على ما سمَّوْه جوداً، ونسبوا إليه رفعةً وشرفاً، فما ظنَّك بهذا الجود الذي سمّوه سرفاً؟.

افهم ما أقوله لك، وما آتيك بصفاته، وتفكّر في أسبابه وعِلاّته: لقد سادت بين الناس عاداتُ الرِّبْح بكل وسيلة، والتكسب عن أي طريق شريفة أو مرذولة، والتطفل على موائد الآخرين بالخديعة. ولا تَغُرنَّك الأسماء الطنانة، ولا ما يُسبِغُون بعضهم على بعض من الصفات الرنّانة، فقد ترى من يُوصفون بالنزاهة والتكرُّم، ومن يُنسبون إلى صيانة ماءِ الوجوه، ويتّـقُون كلامَ الناس والشُّبُهات، وقد سادتهم هذه العادات، وأخذوا منها بنصيبٍ وافر. فما ظنُّك بعد هذا بدَهْماء الناس وغوغائهم، وجمهور المتطفِّلين المتكسِّبين الذين نعرفهم بأسمائهم؟ بل ما ظنّك بمن يُبِّدلون كلامهم في كل حينٍ من الشعراء. أو بالذين يقفون في الناس خطباء، وهم ما تعلَّموا المنطق وتزويقَ الكلام إلا للتكسُّب؟ هؤلاء قوم يحسُدون أرباب الأموال الموسرين ويتمنَّوْن لو أنَّهم فقدوا سلامة العقل، وصاروا من المغفَلين، حتى لا يكون للأموال حارس، ولا يقف بينهم وبينها حاجزٌ أو مانع.

فهؤلاء فاحْذرْهم حذرك العقربَ والأفعى، والذئب الذي إلا للهجوم عليك ما أقْعى. ولا تخدعنّك هيئاتهم الحسنة، ولا ملابسهم الفخمة، فإن المسكينَ يقنع وواحدُهم لا يقنع، ولا تنظر إلى ما يركبون، فتحسبهمْ بما هم فيه قانعين مكتفين، فإن السائل وابن السبيل يَعفُّ وهم لا يعفّون. ولا تغُرنَّك ثيابهم الجِياد، فإن واحدهم يخبِّئ مسكيناً مُلْحِفاً بالسؤالِ تحت تلك الثياب،

وروحُه روحُ نَذْلٍ صعلوك، وإن كان إهابُه إهابَ الملوك. وقد يختلفون في طريقة السؤال، وفي أسباب طلَبِ المال، وفي مقدار ما يطلبون، ومن مالك يرتَجُون، حسَب نوعية الرجال، ومن حالٍ إلى حال، لكنهم كلَّهم في نهاية الأمر يتمسْكنُون. إلا أن واحداً يأخذهُ الفخْرُ والكِبْر، فلا يرضى إلا بالنفائسِ والفضّة والتِّبْر، وآخر تُرضيه أكلةٌ هانية، أو ما تستغني عنه من الثياب البالية. واحد يرضى بالفلوس والدوانيق، وآخر لا تقنعه الدراهم القليلة، ولا الدنانير الذهبية، فيطلبُ الألوف. لكن جهةَ هذا هي جهةُ ذاك، ومطلبُ هذا مطلبُ ذاك، وإنما تراهم يختلفون في مقدار ما يطلبون، على قَدْرِ البراعَةِ والمهارة، وما أعد كل منهم لهذا من أساليب الشطَارة. فاحذرهم، واحْذَر ما أعدُّوا لك من الخُدَع، وكُن يقظاً من شِراكهم كيلا تقع. واحْرس النعْمَةَ التي أنعم الله بها عليك، وحصِّن نفسَك من دَسائِسهم، فلا يصلون إليك. اعلم أن سِحْرهم يشغَلُ الذِّهنَ ويختطف البصر، فقاوِمْه، ولا تُصْغِ إلى كلِّ من حدَّثك بحديثهم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ من البيانِ لسِحْراً». وسمِعَ عمر بن عبد العزيز رجلاً يتكلم في حاجة فقال: «هذا والله السحر الحلال». وقد نَهى رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن الخديعة برقَّةِ الحديث، فقال: «إذا بايْعتَ فقُلْ: لا خِلاَبة». واحْذرْهم، فإنهم يكيلون لك المديح، بالتلّميح والتصرْيح، فلا تصدِّقْهم، ولا تَسْمَعْهُم، فإنّ منْ احتمل المديحَ في وجهِه، ووجد في ذلك غايةَ أُنسِه، كان كمادح نفْسِه.

إن من يريدون مالَك أكثر من أن تُحصيَهم، ولو أنّك فرّقْتَه عليهم حتى لم يبْقَ معك درهم لطعام غدِك، لما أرضيتهم، ولو أنّك أرضيت أصحابَك بأن أَبَحْت لهم مالَك، يغْرِفون منه ما يشاؤون، لسَخِط غيرُهم، ورأيت الساخطين أكثر من الراضين الشاكرين، ولغَضِب الأولون، لأنك قللت عليهم بإعطاء الآخرين، فلا تكون قد نلتَ في الحالتين إلا الخسرانَ المبين. فكيف والساخطون الغاضبون أضعافُ الراضين؟ فلا أنت فُزْت بشكرٍ خالص من الراضي الصاحب، ولا أنت اتَّقَيْتَ هجاء الساخِط الغاضِب؟

على أنّك إذا تناوشك الساخطون بنصالهم الطويلة العريضة، واثخنوك جراحاً بسهامهم المريضة، وسلقُوك بألسنتِهم وأشعارِهم البغيضة، لم تجدْ أحداً ممَّن أرضيتَهم وأسخَطْت هؤلاء يدافع عنك، ولا شاعراً ممن امتدحوك يُهاجي شاعراً رداً على هجائه لك، بل ينفضُّون من حولِك، ويتركونك هَدفاً لسهامِهم ودريئةً لنبالهم، ولن يقولَ أحدهم كلمةً من أجلك، لكنهم جميعاً يقولون: وماذا كان عليه لو أرضاهم؟ ولا يسألون أنفسَهم منصفين: كيف يُرضيهم وقد أخذنا منه المال، ورضا الجميع شيء لا يُنال، بل هو ضَرْبٌ من المحُال؟ وقد قال الأُوَل: «كيف تستطيع أن ترضي الجميع وإن اختلفوا؟» قالوا: «مَنْعُ الجميع أرضى الجميع».

إني أحذِّرك أن تقَعَ فيما يقع فيه المخدعون، وأرجو لك ألاّ تقاسي ما يقاسيه الخاسرون المظلومون. وقد عِشْتَ في بحبوحة من العيش، ونعمتَ بالهناء، ولستَ كمن لم يزلْ يقاسي الشقاء، ولم تعرف في عيشِك المَرار، وظلمَ الصاحبِ واستهزاءَ الجار، ولا عرفت ما يتحمله الفقير من الاحتقار، ولا تحملت ثِقَل الكدِّ والعناء، من أول النهار إلى آخر النهار، فلا تكن مثل هذا الرجل في مسعاك، واعمْلْ لآخرتك، ولا تنس دنياك. فإن ثمّة من ذاقوا هذا كلَّه، وعَرَفوا فيه الهوانَ والمذلَّة. والفقر ليس نوعاً واحداً ولا درجة واحدة، وافتقار مثلك مُضاعَفُ الألم، وجَزَعُ مَنْ لم يعْرف الألمَ من قبْلُ أشدّ. ومَن لم يَذُق الفقر لا يعرفُ شماتةَ الشامتين، ولا يبلغه المكروهُ من سُرور الحاسدين. لكن من سعى إلى الفقر بيديه، يُلامُ على فقرِه، ويصير عِبْرةً وموعظةً لغيره، يتندَّرُ المتندِّرون بأمْره وذِكْره، ويلعنُه بعد المماتِ العِيال، لأنه أسرفَ وتركَهم بلا مال.

دعْكَ من حكايات الباحثين عن الموائد العامِرة، ومن أساليبِ احتيالهم السّافِرة، ولا تصدّق حرفاً مما يحكون عن الجودِ والكرم، فإن العقلاء من يحفظون أموالَهم من آفةِ السَّرَف، ويجنِّبونها مخاطِرَ التبذير والتلَف. ودعْك مما تحفَلُ به الأشعارُ الكاذبة، ولا نراه إلا فيها، والحكاياتُ المخْتَلَقَةُ لغايات

في نفسِ راويها، والكتبُ التي ما وُضِعت إلا للخِداع، وإغراء ذوي الأموال بتعريض أموالهم وأنفسهم للضَّياع، فقد قال بعض الصالحين من أهل زماننا: «ذهبت المكارمُ إلاّ من الكتب». فخُذْ بالحزم فيما تعلَم، ودعْ نفسَك مما لا تعلَم.

ودعني أسأَلْك: أرأيت لو أنّ رجلاً غرّرَ به المغرِّرون، وخدعه المخادعون، حتى أنفقَ كلَّ ما لديه من مال، فاغتنى هؤلاء وافتقر، أتُراهُم يدعُونه إلى الموائِد، ويفرِشُون له البُسْطَ والوسائد؟ أم تُراهم يستكثرون عليهِ ردَّ السَّلام إنِ سلَّم، ولا يرحمونه إن تألَّم؟ لا والله، لن تجدهم إلا بين مَن يتَّهِمُه بأنه أحمق، ومَن بابُه في وجهه مُغلَق، ومن يصدُّ عنه قائلاً: ولماذا لا يقصِدُ بحاجته فلاناً، وقد كانَ له مقدِّماً، عندما كان مْنعَّماً، وكان يؤثره على أخلص خُلصائه، ويقدمه على أقربِ أصحابهِ؟ بل لعلَّك تجدُ بينهم من يتجنّى عليه، ويتْهمه، بذنوب ليست فيه، ويروِّج عنه الأكاذيب، ليبرهنَ على أنَّ افتقاره لم يكن دون سبب، وليجدَ العُذْرَ إنْ منعه واحْتَجَب.

قال الله جلَّ ذكرُه: «يومَ يُكْشَفُ عنْ ساقٍ ويُدْعَوْن إلى السُّجودِ فلا يسْتطيعُون. خاشِعةً أبْصارُهم تَرْهَقُهم ذِلَّة وقد كانوا يُدْعَوْن إلى السُّجُود وهم سالمون». فلا تكن كهؤلاء. وإني أتوجه إليك بالنَّهْي والأمْر، وأسُوقُ لك الموعظةَ والزَّجْر، وأنت سالمُ العقْلِ والعِرْض، وافرُ المال، حَسَنُ الحال. لكنّي - إنْ خالفْتَ النَّصائِح، واتَّبْعت سبيل هؤلاء المخادعين فاجتاحتك الجوائِح - لن أرحمك من التَّقْريع على ما فعلت، والتَّعْيير بما لنفسك أسلفت، والتوْبيخ على ما سلكت من دُروب، وسيكثر مني التأنيب، وأنت عندها عليلُ النفس بما لاقيت من أهوال، مُختلُّ العقْل لا تهدأ على حال، عديمٌ من المال، مشوَّشُ الفكر والبال.

ليس البَلاءُ أن يُدعى لك بالسَّيْف لقطْع العُنق، فهذه لحظة، والآجالُ عند ربِّ العالمين، ولكن البلاءَ أن يبتليَكَ الله بالفقرِ والإمْلاق، حتى يظهرَ عليك الإرهاق، ويطولَ بك الحال، وتعجزَ عن صدِّ الأهوال، وعندها لن تلقى إلا

صديقاً مؤنباً على ما بَدَر منك، أو متحوِّلاً بوجهه عنك، وابْنَ عمٍّ لا يُخفي الشماتة، وجاراً يتشفّى بما صِرْت إليه، بعد أن كان يحْسُدُكَ على ما أنت فيه، وصاحباً كانَ من أوليائك، فصارَ بعد افتقارك من أعدائك، وزوجةً تطلبُ منك الطَّلاق، وجاريَة تتمنّى أن تبيَعها في الأسواق، وعبداً يُظْهِر لك الاحتقار، وولداً لا يطيعِ لك أمراً في ليلٍ أو نهار. فإذا كنت بامتِناعِك عن السَّرَف الذي يدعونه جوداً قد خسرت بعض الثناء، فانظر إلى هذه الخسارة إلى جانب ما عَدَدْنا عليكَ من أصنافِ البلاء.

على أن للثناءِ حلاوةً نرجو لك ألا تذوقَها، وللحمْد إغراءات نتمنّى لك ألا تخضعَ لها، وما يضيعُ من إحسانِ الناس دون حمد ولا ثناء أكثر من هذا وذاك. ومن كان من العيش في كفاية، وكان ثَمِلاً بسُكْرِ الغنى، ومن اغترَّ بالدنيا، وحَسِبَها تُقْبِل أبداً، كثُرَ منه السَّهْوُ والنِّسيان، وتَبَلْبلت أفكارُه، وتجمدّت خواطره. أمّا مَن كان في حاجَة فإنّك تلقاه عظيمَ الهمَّة، واسع الحيلة. والغِنى ليس من العيوب خالياً، ولا تلقاه في الحياة هادياً، فمن عيوب الغنى أنه يُورِّثُ البَلادة، حتى لتبدو قمّة السعادة، ومن فضائل الفقر أنه يبعث على التَّفكير، ويحرِّكُ الهمّة للتدبير، والاحتيالِ على الأمور. فإن قَرَنْت الغنى بإهمال عقلك وفِكْرك، أسْكرك الغنى. وسكر الغِنى يجعلُك هدفاً سهلاً للآكلين على كلِّ الموائِد، بالنفاق والتضليل والخداع، ويُضَرِّي عليك النّاهبين الجياع.

ولا أرضى لك أن تقنعَ بحظِّ النائم، ولا أن تعيش عيشَ البهائم، ولا ترضى ذلك لنفسِك، فلا تتَّعِظ لِغَدِك بأمسك. إنّي أريدُ لك أن تجمع الثراء، وما يبعثُــــه في النفسِ من كبرياء، وما يحوط بالغِنى من عِزٍّ، وما يسمَحُ به من خُيَلاء، وفرحَ الغنيّ إن كان مقتدراً، لا متكبّراً ولا متجبّراً، مع فِطْنة رقيقِ الحال، كثيرِ العيال، وذكاءِ من ذاقَ الجوعَ والتَّعَب، واستدلالِ مَنْ طلب، ومعرفةِ الهارب من الكدِّ والنَّصَب، فإن كُنت تريد هذا كله، فاقْتصدْ في الإنفاق، ولا تجعلْ نفسَك زينة الأسواق، وأَعِدَّ نفسَك لمفاجآت الزِّمان الفواجع، وكن مُحْتَرِساً من كل مخادع.

إن حيَلَ لصوصِ الليل ولصوصِ النَّهار، وحيَل العيارين الذين يجوبون البُلدان والدِّيار، وحيلَ أصحاب الكيمياء، وحيلَ أصحاب الحروب، وكلِّ من وصفهم خالد بن يزيد المعروف بخالَوَيْه المُكَدِّي، وحيلَ التجار في الأسْواق، والصنّاعِ في الصناعات لسلب الأرزاق، لا تُساوي حيل هؤلاء المتطفِّلين والمتكسِّبين. ولو أنّك جمعْت كُتب السَّحَرة، وتعلمت أفانين المخادعين المَهَرة، وتعلَّمْت كتابَة التَّمائِم، لكانت حيلُهم أشدَّ تغلغُلاً وانتشاراً بين الناس، وأسْرى من السمِّ إلى عُمْق البدن، وإلى سُوَيْداء القلب، وإلى أم الدماغ، وإلى صميم الكبد. إن حيَلَهم أدق مَسْلكاً وأبْعدُ غايةً من العرْق السّاري الدَّسّاس الذي نبّه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولو أنك اتَّخَذْت الحيطانَ العاليةَ الثخينة، والأَقــْفال المُحْكمة والخزائن الحصينة، ولو أنّك حصَّنتها بالأبواب الشَّديدة، ودعَّمْتها بكل حديدة، ووضعت عليها الحراس الغِلاظ يتناوبون حراستَها ليلَ نهار، وأنفقت عليهم بسَخاء، وتكلَّفْت أشدَّ الكُلَف، لما أفادك هذا كلــُّــه شيئاً، ما دُمتَ قد تركْتَ الحَزْم في مقاومة ما هو أحْضَرُ ضَرَراً، وأدْومُ شرّاً، مهما غَرِمْت في الحِراسة.

ولا تسْتهتِر بالنفَقات الصغيرة، فإنها تقود إلى الدَّوَاهي الكبيرة. إنك إن فتحْت لهم على نفسك باباً أصغر من ثُقْب الإبرة، جعلوا فيه طريقاً أعرضَ من طريق بغداد، وهجموا عليك كما تهجم أسراب الجراد. فليكن بابُك مُحْكماً، ولا تُرِيَنَّهُم باباً مفتوحاً أبداً، بل أدِمْ إغلاقَ بابِك، فهذا أرحمُ لمالك وشبابِك. والله إنك لو جعلتَ بابَك أثْخنَ من باب القصر، وأحْصَنَ من باب الحِصْن، لتسوَّرُوا عليك من فوقِك، ولو رفعت السُّور إلى نجمِ السماء، لنقبُوا عليك من تحتك.

قال أبو الدرداء: «نِعْمَ صومعةُ المؤمنِ بيتُه». وقال الإمام محمد بن سيرين وهو الوَرِع الذي يضرب به المثل، وراوي الحديث، وتلميذ أنس بن مالك: «العُزلةُ عبادة».

وإنهم قد يفتُنونكَ بُحْلوِ الأحاديث، وإن لحديثهم حَلاوَة، وإن لكلماتهم طلاوة، وقد يدعوك هذا إلى الإكثار من اصطحابِهم، ولكن صحبتهم تستدعي

تلبية غرائب شهواتهم. دخل أحدهم على قومٍ وهم يشربون، وعندهم قِيانٌ يغنِّين، فقالوا: «اطلب أي صوتٍ تحبُّ أن تسمع». فقال: «أحبُّ أن أسمع صوت اللحم يُقلى في السمن». ومن ذلك قول المديني: «مَن تصبَّح بسَبْع موزات، وبقدح من لبن ناقة سمينة، تجشَّأ بَخُورَ الكعبة». ومن ذلك قولهم لبعض هؤلاء، وقدَّامَهم خَبِيص: «أيُّهما أطيب، هذا أو الفالوذَج أو اللوزينج؟». قال: «لا أقضي على غائب، فأحضروها جميعاً بين يديَّ لأقضي بينها». وسأل بلال بن أبي بردة الجارودَ بنَ أبي سَبْرة، فقال: «صِفْ عبدَ الأعلى وطعامَه» فقال: «يأتيه الخبّازُ فيقف بين يديه، فيقول: ما عندك؟ فيقول: عندي جَدْي كذا، ودجاج كذا، وبطَّة كذا، حتى يأتي على جميع ما عندَه» قال بلال: «وما يدعوه إلى هذا؟». قال: «ثم يُؤْتى بالمائدة، فيتَّسِعون ويتضايق، ويَجِدُّون ويتأخّر، حتى إذا فترت حماستُهم، هَجَم على الطعام هُجومَ النعام لا يميّز بين حارٍّ وبارد، ولا بين صلْب وليّن، وأَكَل أكْلَ الجائع المقرُور، أو الهارب المبهور». وقال آخر: «أشتهي ثَرِيدةً رُشَّ عليها الفُلْفُل حتى صارت كالفَرسِ الأدْهم، ونُثِر فيها الحِمِّصُ حتى صارت كالحيّة الرَّقْطاء، يُحيط بها اللحْم كما يُحيط السِّوار بالمعصم، أضرِبُ فيها ضرْب اليتيم إذا تَبالَه، على مائدة وصيِّ السُّوء الذي أكل مالَه». وسئل بعضُهم عن حُظوظ البُلدان في الطعام، وما قُسِمَ لكلِّ قوم منه، فقال: «ذهبت الروم بما يُحشى ويُحْسى، وذهبت فارس بالبارد وما بالعسل يُحلّى». وقال دَوْسر المدِيني: «لنا الهرائِسُ وما يُقلى، ولأهل البادية اللِّبَأ والسمْن والجراد والكمْأة والخبْز يُثْرد في اللبن الرائب، والتَّمْر يُعجن بالزُّبْد». وفي هذا قال الشاعر:

ألا ليْتَ خبزاً قـد تـسرْبَل رائبـاً وخيلاً من البَرنيِّ فرسانها الزَّبْـدُ

وعابُوا الطعام من مدقُوق الحِنطة والشعير بحضْرة أعرابي فقال: «لا تَعِيبوه فإنه من عُدَّة المسافِر، وطعام العَجْلان، وغِذاء المبكِّر، وبُلْغَة المريض. ويُسرِّي عن فؤاد الحزين، ويشدُّ من قِوام قليل الحظِّ، وجيّدٌ في التَّسْمين

وموصوف في الطبّ. إنْ كانَ بلا إدام جلا البلغم. وإنْ كان بالسمْن صفَّى الدم. إنْ شئتَ كان ثريداً، وإن شئتَ كان خَبيصاً، وإن شئتَ كان طعاماً، وإن شئت كان شراباً».

ولا يخْجلُ هؤلاء الشَّرِهون المتطفِّلون الذين لا يكتفي أحدهم بِقطْعة اللحم، بل ربما أخذ الفخذَ كلَّه من عَظْمه وراح ينهش منه، بل يتطاولون في الحديث ويتشدَّقُون. قيل لأحدِهم، وقد كان سميناً: «ما الذي أَسْمنك؟». قال: «أنّي آكل طعاماً حاراً، وأشرب شراباً بارداً، وأتّكِئُ على شِمالي وأطعَمُ مِن غيرِ مالي». وقد قال الشاعر:

وإن امتلاءَ البطن في حَسَب الغنى قليلُ الغَناء وهو في الجسم صالحُ

وقيل لآخر: «ما الذي أسْمنك؟»، قال: «قِلَّة التفكير، وطولُ الكسلِ والخُمول، والنوْم على تُخْمة». وسأل الحّجاج بن يوسف الغضبان بن القُبَعْثَرى: «ما أسْمنَك؟» قال: «الخُمول والمرعى الطيّب، ومن كان في ضيافة الأمير سَمِن». وقيل لآخر: «إنّك لحَسَنُ الهيْئة». فقال: «ولم لا؟ آكلُ الخبز من لُباب القَمْح، وأنتقي صغارَ الجِداء، وأتطيَّبُ بعِطْر البَنَفْسَج النقيّ، ولا أَلْبَس إلا الكتَّان».

واللهِ لو كان مَن يَسألُ يُعطي لمَا ساوى كرمُ عطائه لُؤْم مسألته. وأيُّ سائلٍ كان أَلَحَّ وأَلْأمَ من الشاعرِ الحُطيئة؟ ومتى أعطى الحطيئةُ أحداً شيئاً قطّ؟ ومن أَلْأمُ وأبخلُ من الشاعر جرير بن عطية الخَطْفِيّ؟ ومن كان أمنعَ من كُثــيِّر المعروف باسم كُثَيِّـــر عزَّة؟ ومن أَشَحُّ من الشاعر إبراهيمِ بنِ علي بنِ هَرِمة؟ وهل لبخيلٍ أن يَشُقَّ غبار مروان بنِ أبي حَفْصة؟ ومن كان يَصْطلي بنار أبي العتاهية؟ ومن كان كأبي نواس في بُخلِه؟ أو كأبي يعقوب الخُريَمي في دقَّةِ نظرِه وكثْرةِ كَسْبه؟ ومن كان أكثر نحْراً لذبائحَ لم تُخلَق من ابن هرمة، وأطْعَنَ برمْحٍ لم تنبُت قناتُه، وأطْعمَ لطعامٍ لم يُزْرع من الخُريَمي؟

فأين أنت عن ابن يَسِير؟ وأين تذهب عن ابن أبي كريمة؟ ولِمَ تقصِّرُ في ذكر الرقّاشيّ ومن لم يُذْكَر شرُّه؟

والأعرابيّ شرٌّ من أهل الحضرَ. سائلٌ لحُوح، وشَرِهٌ صَرِيح، يثب على رِزْق غيره، ونفاقُه مفضوح. إن مَدَح كذَب، وإن هجا كذَب، وإن طمعَ بالعطاء كذبَ، وإن فقد الرجَاء كذب، فماذا ترتجي من مثل هذا؟ لا يقربُه إلا فاسدٌ أو أحمق، ولا يُعطيه إلا من يُحبُّه، ولا يحبُّه إلا مَن كانت طباعُه مثلَ طباعِه.

وما أبْطَأكم عن البذْل في الحقّ، وما أسرَعكم إلى البذْل في الباطِلْ. فإن كنتم الشعراءَ تفضِّلُون، وإلى قولهم ترجِعون، فقد قال الشاعر:

قليلُ المال تُصلِحَه فيبقى ... ولا يبقى الكثيرُ على الفسادِ

ولا نرجع إلى أقوال هؤلاء الشعراء المتكسِّبين بالقصائد، المتطفِّلين على الموائد، فقد كانوا أسوأ من المتسوِّلين، إن طمعوا بعطاءِ أحدٍ مدحوه، فإن مَنَعهم، أو أعطاهم غيرُه أكثرَ منه هجُوه. ولكننا نرجع إلى شاعر مثل مَعْقلِ بنِ ضرار بن سنان الشهير بالشِّمّاخ بن ضِرار، وقد كان شديدَ مُتونِ الشعر، وقال الحطيئة في وصيته: «أبلغوا الشمّاخ أنه أشعر غَطَفان». قال الشمّاخ بن ضرار:

لَمالُ المرء يُصلحه فيُغني ... مفاقِرَه، أعفّ من الصُنوع

ونرجع إلى أُحَيْحة بنِ الجلاح الذي كان سيّداً من سادات يَثْرِب قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها، بل كان سيد قومه من الأوس.

قال أُحَيْحة بنُ الجلاح:

استَغْنِ أو مُتْ ولا يَغْرُرْك ذُو نشب ... من ابن عمٍّ ولا عمٍّ ولا خالِ

إني أُكِبُّ على الزَّوْراءِ أَعْمُرها ... إنّ الكريمَ على الأقوام ذو المالِ

وقال أيضاً:

اسْتَغْنِ عن كلِّ ذي قُربى وذي رَحِمٍ إنّ الغنيَّ من اسْتغْنى عن النـــاسِ
والبسْ عَدَّوك في رفْقٍ وفي دَعَــةٍ لبــاسَ ذي إرْبَــةٍ للـــدهْر لبَّــاسِ

وقال سهل بن هارون، وهو من الصالحين:

إذا امروٌ ضاقَ عنّي لم يَضِقْ خُلُقي من أن يراني غنيّاً عنـــه باليـــاسِ
فلا يراني إذا لم يَـــرْعَ آصــرتي مـــستمرياً درَراً منــــه بإبـــساسِ
لا أطلبُ المال كي أغنى بفَــضْلته ما كان مطلبُه فقراً إلـــى النـــاس

بل نرجع إلى أبي العتاهية الذي ظلَّ يتطفل على موائد المهدي وولاته وأمرائه، فقد قال:

أنـــت مـــا اسْـــتغْنيْت عـــن صـــا حبِـــــك الـــــدهْرَ أخـــــوهُ
فـــــإذا احْتجْـــــتَ إليـــــه ســـــاعةً، مجَّـــــك فُـــــوهُ

وقال شاعر آخر:

أبا مُصلْحٍ أصلحْ، ولاتــكُ مُفْــسِداً فإنّ صلاحَ المال خيرٌ من الفقــرِ
ألمْ ترَ أنّ المــرءَ يــزداد عِــزَّةً على قومه أن يعلموا أنــه مُثْــري

حتى عروة بن الورد الذي كان ينهبُ الأغنياء، ويوزِّع الأسلاب على الفقراء، حتى سموه «أمير الصعاليك» وسموه «أبا الفقراء» وَعدَّه عبد الملك بن مروان أجْودَ من حاتم الطائي، قال:

ذرينـــي للغنـــى أســـعى فـــإني رأيـــتُ النـــاسَ شـــرُّهُمُ الفقيـــرُ
وأبعـــدُهم وأهـــونُهُم علـــيهم وإنْ أمـــسى لـــه حَـــسَبٌ وخِيـــرُ
ويُقْـــصيه النـــديُّ وتَزْدريـــه حَليلتُـــه وينهـــرُهُ الـــصَّغيرُ
وتَلْقـــى ذا الغِنـــى ولـــه جَـــلالٌ يكـــادُ فـــؤادُ صـــاحِبه يطيـــرُ
قليـــلٌ ذنبُـــه والـــذنْبُ جَـــمٌّ ولكـــنَّ الغنـــى ربٌّ غَفُـــورُ

وهذا سعيد بن زيْد بن عَمْرو بن نُفَيْل، زوج فاطمة بنت الخطاب أختِ عمر، وهو الذي هدى الله عمراً إلى الإسلام في بيته، وقد اعتزل أبوه زيد

عبادة الأوثان في الجاهلية. وقد كان سعيد شاعراً بليغاً من أصحاب الرأي قوي الحُجّة. وقد قال:

تلكَ عِرْسان تنطُقان علــى عمْــــ ـــدٍ لي اليــوم قــولَ زُورٍ وَهِتْـــرِ
ســـألتاني الطَّـــلاقَ أن رَأَتــا مـــا لي قلــيلاً، قــد جِئتُمــاني بنُكْــرِ
فلعلّـــي أن يكثُـــر المـــالُ عنــدي ويعـــرّى مـــن المغـــارِمِ ظهْـــري
وتجــرّا الأذيـــالَ فـــي نعمـــةِ زَوْ لٍ تقولان ضـع عـصاك لــدَهْرِ

وقال آخر:

وللمالِ منّـــي جانـــبٌ لا أُضِـيعُه وَلَلَّهْـــو منّـــي والبطالـــةِ جانـــبُ

وقال الشاعر الفارس الجاهلي ابن الذئْبة الثقفي:

أطعْتُ النفسَ في الشهواتِ حتّـــى أعــــادتني عَـــسِيفاً عنــــد عبْـــدِ
إذا مـــا جِئتُهـــا وحويْـــت مـــالاً تعــــــانق أو تُقبِّـــــل أو تُفــــدّي
فمَـــن وَجَـــد الغنـــى فليـــصْطنِعْه ذخيرتَـــــه، ويجهــــدْ كـــلَّ جهْـــدِ

وقال:

مَن يجْمَـــعِ المـــالَ ولا يَثِـــبْ بـــهِ وَيتْـــرُكِ العـــامَ لعـــامِ جَدْبِـــهِ
يَهُنْ على الناسِ هوانَ كلبهِ

ولا تتكاسل ساعة أو بعضَ ساعة، فإن التكاسل مفسدة للمال، وحجّةٌ لمن أضاعَه. وقد قال ابن المُعَافى:

إن التَّواني أنكــحَ العجــزَ بِنْتَـــه وساقَ إليها حينَ زوَّجَهـــا مَهْـــرا
فراشاً وطيئاً، ثم قال لهـــا اتَّكِـــي فقَصْرُكما لا بُـــدَّ أن تَلِـــدا الفقـــرا

وقال عثمان بن أبي العاص، «ساعة لدنياك، وساعة لآخرتك» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنهاكُم عن قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعةِ المال». وقال: «خيرُ الصَدقة ما أبقتْ غنى، واليدُ العليا خيرٌ من اليدِ السفلى، وابْدأ بمن تعول». وقال صلى الله عليه وسلم: «كفى بالمرء إثماً أن

يُضيِّع من يفُوت». وقال: «الثلث، والثلث كثير. إنَّك إن تَدَعْ وَلَدك أغنياء، خيرٌ من أن يتكفَّفُوا الناس».

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «وَدِدتُ أن الناس وَضَعوا من الثلث شيئاً، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: الثلث، والثلث كثير». وبعد هذا كلِّه ترون أن بلوغَ المجد والكرَم، لا يكون إلا بإفْقارِ النفس وإغْناء الأمم، وأن يُخرج الإنسانُ مالَه، ويضيِّعَ عيالَه، ليأمن عيالُ غيره، وتُفْرِحونه بمدحه وذكره. وقال ابن هرمة في هذا:

كتاركةٍ بيْضَها بالعراءِ ... ومُلْبسةٍ بيض أخرى جَناحا

وقال آخر:

كمُفْسِد أدناه ومُصْلِحِ غيرِهِ ... ولم يأتِمرْ في ذاك أمرَ صلاحِ

وقال آخر:

كمُرْضِعة أولادَ أخرى، وضيّعت ... بنيها، ولم ترْقَع بذلك مَرْقعا

ولماذا نذهبُ إلى الشعر ولا نرجع إلى كتاب الله جل ذكرُه؟ أليس الله أحكم الحاكمين؟ وهل من هديٍ بعد كلامِ الله؟. وقد قال الله تبارك وتعالى: «ولا تُبَذِّرْ تَبْذيراً، إنَّ المبذِّرين كانوا إخْوانِ الشياطين». وقال: «ويسْألونَك ماذا يُنْفِقُون قُل العَفْوَ» فأَذِن في العفو، ولم يأذن في الجَهْد. وأَذِن في الفُضول، ولم يأذن في الأصول، وقال جلَّ مِن قائِل: «ليُنْفِق ذُو سَعَةٍ من سَعَتِه، وَمَن قُدرَ عليه رِزْقُه فليُنْفِق ممّا آتاهُ الله». وقال الله تبارك وتعالى: «والذين إذا أنْفَقُوا لم يُسْرِفُوا ولم يَقْتُروا وكانَ بين ذلك قَواماً». وقال سبحانه وتعالى: «ولا تَجْعَلَ يدَك مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً».

وما لَنا من هَدْيٍ بعد كتاب الله إلا سُنَّةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم. فقد أراد كعبُ بن مالك أن يتصدَّق بماله، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

«أَمْسِكْ عليك مالَك»، فالنبي صلى الله عليه وسلم يمنعه من إخراج ماله في الصدقة، وهي خير الأمور، وأنتم تأمُرون بإخراجه في السَّرَف والتبذير. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يكْفيك ما بلَّغكَ المحَلّ». وقال: «ما قلَّ وكفى خيرٌ ممّا كثُر وألْهى». وقال: «إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطَع ولا ظهْراً أبقى».

والشاعر غَيْلانُ بن سَلَمة كان من حكماء قَيْس في الجاهلية قبل أن يدرك الإسلام، وقد أراد أن يتصدَّق بجميع ماله، فأكرهه عمر بن الخطاب على الرجوع عن قَصْده، وقال: «والله لو متَّ بعد هذا، لَرَجَمْتُ قبرَك كما يُرْجَمُ قبْر أبي رغالٍ». لقد قَرَنه بالملْعون أبي رِغالٍ الذي قادَ جيش أَبْرهةَ وكان دليلَه في الصحراء. ولم يفعل عمر خطأً، فلقد استند إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الثلث والثلث كثير». ولذلك قالوا: «خير مالك ما نَفعك، وخيرُ الأُمُور أوساطُها» وهذا ما قالَه مُطَرِّف بن الشِّخِّير لابنه عبد الله حين رآه يُسرف في التعبّد، فقال: «يا عبد الله، العلمُ أفضل من العمل، والحَسَنة بين السيئتين، وخيرُ الأمور أوساطُها، وشرُّ السيرْ الحَقْحَقة» حتى في السَّيْر كرهوا أن يشتدّ المرءُ فَيُحَقْحِق، والحقحقة تُتعب الظَّهْر. وجعلوا أفضل العبادة بين التَّقْصير والمغالاة والمبالغة، فقالوا: «دين الله بين المقصِّر والغالي» وقالوا في المثل: «بينهما يرمي الرامي». وقالوا: «عليك بالسَّداد والاقتصاد فلا وَكْسٌ ولا شَطَط». وهذا ما ندعوك إليه. افعل السديد من الأمر، واقتصد حتى لا تُتْعب الظَّهْر، ولا تكنْ مُقصِّراً، ولا مسرفاً مُبذِّراً. وقالوا: «لا تكن حُلْواً فَتُبْلع، ولا مُرّاً فتلفظ». وقالوا: «القليل الدائم أكثر من الكثير المنقَطِع». وقال الشاعر:

وإنــــي لحُلْــو تعْتريـنـــي مَـــرارةٌ وإنّي لصعبُ الرأسِ غيرُ جمــوحِ

وإنهم ليذمّون البخيل، ويلومون المُقْتصِد، ومع هذا نراهم قد أنصفوا فقالوا: «الشحيح أعذرُ من الظالم». ومن أظلم ممّن جار على نفسِه وعيالِه، واشترى التباهي الكاذب بتبذير مالِه؟ ونهوا عن التسرُّع في اللوم فقالوا:

«ليس من العَدْل سرعةُ العَذْل». ونهوا أيضاً عن أن يلوم المرءُ أخاه قبل أن يتبين عُذرَه، فقالوا: «لعلَّ له عُذراً وأنت تلوم». بل دعوا إلى أن ينظر المرء إلى عمله وخُلُقه قبل أن يلوم الآخرين. فلعلّه يستحِقَ اللوم أكثر منهم، وقالوا: «رُبَّ لائمٍ ملُوم». وقال حكيم العرب سيّدُ بني تميم الأحنفُ بنُ قيس: «رُبّ مَلُوم لا ذنبَ له». ونهى عن تشجيع السائلين بإعطائهم في كل حين، فإن استجاب المرء لِلَجاجهم وإلحاحِهم المنفِّر، كان شريكاً لهم في فِعلهم المُنكَر، فقال: «إعطاءُ السائل تَضْرِية، وإعطاءُ المُلْحف مشاركة». وعلّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مُعلِّم البشرية ألا نُعطي أي سائل، بل حدّد بحكمْته وبهدْي ربه أن سؤال الناس لا يجوز إلا إذا كان المرءُ في منتهى الفقر والإمْلاق، أو أن يكون قد غَرِم غُرْماً كبيراً وخسرَ ماله كلَّه في الأسواق، وركبه الدَّيْنُ فلا مَفَرّ، أو أن تكون عليه ديةٌ وصاحبُها ما غَفَر، فقال صلوات الله وسلامه عليه: «لا تصلح المسألةُ إلا في ثلاث: فقْر مُدقع، وغُرْم مُفْظِع، ودمٌ مُوجع». وقال الشاعر:

الحــرّ يُلحــى، والعــصا للعَبْــدِ   ولــيس للمُلْحِــف غيــرُ الــردِّ

وقالوا: «إذا جدَّ السؤالُ جدَّ المنْع» وحذَّرونا من أن نُعطي أي سائِل، دُون أن نعرف ما أوقع فيه نفسَه من مشاكل. فإذا كان من المخدوعين، أو إذا كان من السُّفَهاء في آرائهم والمقصرين، فلا نعطيهم، كما حذروا من أن يكون المعطي من المغلوبين الذين انتقص حقهم المبين، فقالوا: «احذرْ إعطاءَ المخدوعين، وبذْلَ المغَبُونين، فإن المغْبونَ لا محمودٌ ولا مأجور» وإذا كان إعطاء السائلين يحميهم من عاديات الزّمَان، فلا يجوز أن تحْمي غيرك، وتكشف ظهرك، ولذلك قالوا: «إذا أعطيت السائلين مالَك صارتَ مقاتلُك أظهرَ لأعدائك من مقاتلهم». وإذا كنت ستفِرُّ من معركة أو أرض، فلا تتركُنَّ كل شيء وراءَك، بل خبِّئ سلاحَك وعُدَّتَك وأشياءك، فهذا أحْمى للظهر وأكثر صوناً للعِرض. قالوا: «الفرار بِقِراب أكْيس». وقد علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أننا إذا علمنا بوجود الماء، فإن مِنَ الكَياسة والتَعَقُّل، أن نحتفظ بما

لدينا، فلا نريقه إلا إذا وجدنا الأفضل، قال: «أن تَرِدَ الماءَ بماءٍ أكْيَس». وقال أبو الأسود الدُّؤَليّ: «ليس من العزِّ أن تتعرّضَ للذل، ولا من الكرَم أن تستدعي اللؤْم». والمالُ في يدِ الرجل عزٌّ قلَّ أو كثُر، فإن أخرجه من يده افْتقر، ومن افْتَقر فلابدَّ له من أن يَذِلَّ ويضعف، وهذا هو اللؤم. وإذا كان الجودُ شقيقَ الكرم، فإن العزّ والأَنَفة أولى به وأحقّ، فأي كرَم هذا الذي يؤدي إلى ذُلٍّ مُسْتَحَقّ؟ وقد قال الشاعر:

واخْطُ مع الدهر إذا ما خطا … واجْرِ مع الدهر كما يجري

وما من واحد من هؤلاء المتطفلِّين، والذين لا يشبعون، إنْ اعتذَرْت إليه أعْذَر، وإن أسأت إليه بدون قصد غَفر. وما من أحد الآن يطالب بحقِّه فيقبل بعضَه، حتى لو باع المستدين أرضَه، لقد تناسوا قول الأولين: «من احتاج اغْتفر، ومن اقْتضى تجوَّز».

وقد كان من حكماء اليونانيين ديسيميوس، وهو القائل: «لولا العمل لم يُطلب علم، ولولا العلم لم يُطلب عمل. وأن ادعَ الحقّ جهلاً به، أحبُّ إلي من أن أدعَه زُهْداً فيه؛ وإن كان الجهل لا يكون إلا من نُقصان في آلة الحس، فإن المعاندة لمن زيادة في آلة الشرّ. وأن أتركَ جميع الخير، أحبُّ إلي من أن أفعل بعض الشرْ». وهذه الأقوال من أحكم ما قال الرجال.

قيل لديسيميوس: «تأكل في السوق؟» فقال: «إن جاع ديسيميوس في السوق، أكل في السوق». ومن أقواله الحكيمة أنّ مَن حلَّ الجدْبُ بمرْعاه، طَلبَ الكلأ في مرعى آخر، وإن كان لسواه. وأنَّ من قرصه الجوع، عَرَف الذلّ والخُضوع، فقد قال: «مَن أجْدب انْتجع، ومن جاع خَشَع».

وقال: «حافظوا على النعمة لا تغُور فإنها نَفُور». وما ذَهَب قد لا يَرْجِع، وصدق علي بن أبي طالب إذ قال: «قلَّما أدْبَر شيء فأقبل».

وقالوا: «رُبَّ أكلة تمنع أكلات». وعابوا من قال: «أكلة ومَوْتة» فإذا فقدت الشيءَ وكان أمامك، فلا تطلبْه، كأنّك فقْدت الطرِيدة وجرّدت لها

سهامَك، كما قالوا: «لا تطلبْ أَثَراً بعد عين» وقالوا: «لا تكُنْ كمَن تَغلبُه نفسُه على ما يظنّ، ولا يغلبِها على ما يستَيْقِن». فانظرُ كيف تخرج الدرْهَمَ، ولِمَ تُخْرِجه قبل أن يأتي غيرهُ؟ إني ناصحُك فتعلَّم، فقد قالوا: «شرٌّ من المُصاب الجَلَل، سوءُ الخَلَف والبَدَل». وقد قال الشاعر:

إن يكُنْ ما أُصِبْت به جليلاً　　فَذَهاب العزاء فيه أجلُّ

والمرءُ قد يَفتقِرُ إذا نزلت بهِ المصائب، وقد يفتقِر إذا لم يكن ذا رأي صائب. فمن افتقر بسبب جائحة نازلة، قد يجدُ الناس له عذراً، ومن افْتَقَر بسبب أعمالِه الباطلة، لن يجد منهم إلا نُكْراً. فمن كان سبب فناء مالِه وذهابِ ثروتهِ، لقيَ اللومَ من أهلِه وعيالِه، وكادَ يختنقُ بحسْرتِه، ولن تجد من أصحابك إلا لائماً، وقليلاً ما تجد بينهم مُشفقاً راحماً. وما أكثرَ الشامتين، وما أقلَّ من يَعذُرون، فكأنّك اعتديت على الحُرُمات، وارتكبت السبْعَ المُوبقات. ويعتب عليك العاتب، ويُشعِرك بالهَوان الصاحب.

لقد ذُكِر لعمر بن الخطّاب إسرافَ فتيان قريش في الإنفاق، وتَسابُقَهم في التبذير، لا يهمُّهم قليل أو كثير، فقال: «لَحِرْفة أحدِهم أشدُّ عليَّ من عَيْلته»، يقول: إن إغناءَ الفقير، أهون عليَّ من إصلاح الفاسد، وقد صدق ابن الخطاب.

ولا تكنُ على نفسِك أشأمَ من خَوْتَعة الذي كان من بني غُفَيْلة، فدلَّ كُثَيْفَ بن عمرو التّغْلبي على بني الزبّان الذُّهْليّ، فأفْناهم، فانتقم الذُّهْلِيّ من بني غُفَيْلَةَ كلِّهم. ولا تكن على أهلك أشأمَ من البسوس خالة جسّاس بن مُرّةَ الشيباني، حين أطلقت ناقتها التي يقال لها سَرابِ في حمى كُلَيْبِ وائل، فرماها وقتلها، فوثب جساس بتحريض من خالته على كليب فقتله، فهاجت حربُ بكْرٍ وتَغْلب ابني وائِل بسببِها أربعين سنة وسُمِّيت الحربُ باسمها، فيقال: حربُ البسوس. ولا تكن على قومك أشأمَ من مَنْشِمِ العطّارة التي كانت في مكّة،

فكانت قبيلتا خُزاعةَ وُجرْهم، إذا أرادوا القتال تَطيَّبُوا من طِيبها، وكانوا إذا فعلوا ذلك كثُر القتلى فيما بينهم، حتى ضُرِبَ المثلُ بشُؤْم عطرِها، فقيل، أشأمُ من عِطْر مَنْشِم. فلا تكن مثلَ خوتعةَ ولا البسوسِ ولا عطرِ مَنْشِمِ.

والشهوات مُسلَّطة على المال تسلُّط النار على الهشيم، والأهواء قد تغلب ذا اللب الحكيم. فمن سلط الشهوات على مالِه، وحكّم الهوى في رزق عيالِه، فلم يَجْن إلا الحَسَرات، فلا يلُومَنَّ إلا نفسَه وخضوعه للشهوات. وقال بعض الشعراء:

أرى كلَّ قوم يمنعــون حــريمَهمْ	**ولــيس لأصــحابِ النبيــذ حــريمُ**
أخوهمْ إذا ما دارت الكأس بيــنهمْ	**وكلُّهُـــمُ رثُّ الوصـــالِ ســـؤومُ**
فهــذا بيــاني لــم أقــلْ بجهالــةٍ	**ولكنّنـــــي بالفاســـقين علـــيمُ**

وقد كان هذا المعنى في أصحاب النبيذ وحدهم، لا يتعدّاهم إلى غيرهم، فأمّا اليوم فقد استوى الناس، فاقطع منهم الأملَ وحكِّمْ اليأس.

والأَضْبَطُ بن قُرَيع أحد فرسان الجاهلية وشعرائها، ويقال إنه بنى مدينة صنعاء في اليمن، آذاه قومُه من كعْب بن سعْد، ففارقهم وتنقل في القبائل يطلُبُ جوارَهم، ولكنهم أساؤوا جواره، فقال: «بكل وادٍ بنو سعد».

خُذْ بقولي وإن كانت به مَرارة، ودعْ قولَ أبي العاص، فإنه لن يأتيك إلا بالخسارة. وخذْ بقول من قال: «عِشْ ولا تغْتَرّ»، وبقَول من قال: «لا تطلبْ أثراً بعد عين»، وبقول من قال: «إمْلأْ قِرْبَتَك من أول مَطْرة» وتذكّر قول النبي صلى الله عليه وسلم: «دعْ ما يريبُك إلى مالا يريبُك».

وأخوكَ مَن صدَقك، لا من نافَقك. وأخوك مَن أتاك من جهة العقل، فهذا ما ميّزكَ الله به على الكائنات، ولم يأتك من جهة الشهوة، فهذه تَشتَرِك فيها مع جميع الحيوانات. والنصيحة ثقيلة على سامعها وقائلِها، وأخوك الذي يحتمل ثِقَلَ نُصْحك، لا يبتغي إلا نَفْعك.

فإن لم تسمع نُصْحه في يومك، فلا تأمن ألاّ ينهالُ عليك باللوم في غدِك، وقد قال الشاعر:

إنّ أخاك الصِّدْقَ من لم يَخْـدعَك ومَـــن يُـــضير نفـــسَه لينفعَـــك

وقال الشاعر الجاهلي عَبيد بن الأبرص:

واعْلَمَـــنْ علْمـــاً يقينـــاً أنّــــه ليس يُرجى لك مـــن لـــيس معـــك

ولن تكون بخير إلا إذا كان لك واعظ من نفسك، وجعلْت عقلكَ رقيباً على نفسِك الأمّارة بالسوء، وعلى طباعك وشهواتِك، أو كان لك أخٌ ينصُحك لا يحابيك ابتغاء نَيْلِ مرضاتِك، أو وزير يُشْفِق عليكَ من الجوائح، ولا يبحث عندك عن المصالح. والزوجة عَوْن صادق إن كانت صالحة وكانت على الدهر معك، وشرٌّ بليّة إن كانت سيئة ومع الدهر عليك. والعاقل من اتَّعَظ من تجاربه، والسعيد الأعْقل من اتَّعَظ بتجارب غيره. فإن أنت رُزِقت هذا كلَّه، فقد عشت سالماً غانماً، وإن رزقت واحدة منها، كُنْت من الدهر في أمان. وإن لم ترزق خصْلة واحدة، فتوقَّع نكْبة موجعة لا يُمحى بسُهولة أثرُها، ويبقى على مرِّ الزمان ذِكْرُها. ولذلك قالوا: «خير مالِك ما نفعك». وقالوا: «لم يذهبْ مِن مالِك ما وعظك».

إن المالَ محروصٌ عليه عند جميع الناس، يتشوَّقُون إليه كما تتشوق إلى المطرِ الأرض اليباس، ويطلبونه حتى لو كان في أعماقِ البحار، ألا تراهم يغوصون إلى الأعماق لاستخراج للؤلؤ من المحار؟ يطلبونه في أعالي الجبال، وفي الغابات والكثيف المتشابك من الأدغال، ويسعون إليه في كل الدروب سواء كانت سهلة يسيرة، أو بالغة الصعوبة والوعورة، يطلبونه في بُطون الأودية، وعلى ظهور الطرق، وفي مشارق الأرض ومغاربها، وإلا لماذا يسافر الرجال، ويتحملون مشاقَّ السفر والترحال؟ المال مطلوب بالعز، ومطلوب بالذل، ومطلوب بالوفاء ومطلوب بالغدر، يطلبه بالنُّسْك الناسكون، وبالفتك الفاتكون. المال مطلوب بالصدق، ومطلوب بالكذب، مطلوب ببذاءة

الألسنة، ومطلوب بالنفاق والمسْكَنَة. لم يتركوا في طلبه حيلة إلا اتبعوها، ولا رُقيةً أو تميمةً إلا كتبوها. مطلوب بأسخف الأفعال، كما هو مطلوب بأنبل الأقوال. مطلوب بالإيمان بالله يَرزُق الرزقَ الوفير، ومطلوب - والعياذ بالله - بالكُفر بالعليِّ القدير.

واحذرْ، فقد دسّوا الفِخاخَ في كل مكان، ونَصبُوا الشراك التي لم يسمع بها الجان. وقد طَلَبَك من لا يقبل أقلَّ من النجاح، وحَسدَك كل طمّاع وَقَاح. وقد يهدأ من يطلبُ المجد والغنى الكثير الوفير، ويهدأ من يطلبُه السلطان فلا يدري بمن يستجير، وقد يهدأ المطلوب بثأر أو غُرْمٍ كبير، ولا يهدأ الحريص على أن يسلبَك ما يسْتطيعُ من مالِك، حتى لو أوردك الردى، أو تركك في فقر مُدقع، أو رمى بك إلى المهالِك.

يُقال إنه ليس في الأرض بلدة صغيرة كانت أم كبيرة، قريبة أم نائية إلا وأنت واجد فيها جميع صُنُوفِ العباد، فكأنك جمعت في مكان واحد البصرة والحيرة والمدينةَ والكوفة ودمشق وبغداد. وبين أولئك وهؤلاء، تسمع الاستنكار والاحتجاج من الفقراء، وتلمسُ مدى كُرهِهم الأغنياء، ونفاقَ القادة والولاة والملوك والأمراء، حتى ليبغض الماشي الراكب، ويتفشى الحسدُ بين المتفاوتين في الجاه والمال والمراتب.

فإن أصابتك مصيبة فلا تلُومَنَّ إلا نفسَك، لأنك لم تتخذ الحذرَ نهجاً وسبيلاً، ولم تأخذ بنصيبك من المداراة كثيراً ولا قليلاً، ولم تتعلم الحزمَ في الأمور، وابتعدت عن مجالسة الصالحين من أصحاب الاقتصاد، ولم تتعرَّف ما تأتي به الدُّهور، ولم تتَّعِظ من دهرِك، ولا بما جرى لغيرِك، ولم تتمثَّل أحوال الزمان وأحداثَه المتغيرة حتى تتوهم نفسَك فقيراً ضائعاً، ليس يلقى بين الناس إلا زاجراً ومانعاً، ولأنك لم تَتَّهِم شمالَك على يمينِك، وسمعَك على بصرك، ولم تتَّهِم أوَّلَ ما تتهم من هو محلّ ثقتك، ولم تحذرْ من لا تشملُه بربيتِك، فإنَّك إن لم تفعل اختطفك المتخاطفون، واستلبك السالبون، وطاردك المتطفِّلون المستأكلون، حتى يُذوِّبُوا مالَك ويُفنوه، ويلزموه السلَّ دون أن يُداوُوه.

وقد قالوا: يتبع ربُّ المال مالَه، وإن كان أحمق، فإذا كُنت على مالك لا تحرِص، ولا يهمُّك أن يزيد أو ينقص، فأنت دون ذلك الأحمق.

وقالوا: لا تقعدُ المرأةُ الماهرة دون خُيوط الصوف، فإن أنت أهملت مالك، ولم تسع في تنميتِه، كما تبذل الجهدَ في رعاية ابنك وتربيتِه. لتكوننَّ دون تلك المرأة. وقد شبه الأولون المالَ بالإبل، فإن كان له صاحب يحفظُه ويصونه، كان كالإبل التي يرعاها راعٍ ماهر، وإن كان مالاً سُلِّطت عليه شهوات العيال، كان كالإبل التي أطلقت في المرعى. دون راع ولا عقال. والمال موضع الحسد والتنافر بين الناس، ومُسلَّطَة عليه الأضراس، فاحرسْه من الطامعين، يزيِّنوُن لك السَّرَف كالوَسْواس الخنّاس، ينمو ويربو، بل يهيج، كالمرج لا ترعاه الأنعامُ فمنظره بهيج. وإياك أن تَدَع الإصلاحَ ساعةً من زمانِك، وخُذْ بالإصلاح من مالِكَ ما يقومُ بمَلء بطنك وبحوائجك. والمال يهلِكُ كما تهلِكُ النَاقة، إن أقللت لها من الرعي، وأكثرت الحلْب، فاحذر هذا، فإنه يؤدي بك إلى الفاقة.

وليكن عقلُك دليلَك في التدبير، وامْضِ في حفظ مالك من السرف والتبذير، فإن مَن حفِظَ مالَه قد حفِظَ الأكرَمَيْن. والأكرمان الدِّين والعِرض، أترى من فَرَّطَ بدينِه أو عِرضِه يقوم بين الرجال؟ كذلك من فرّط بالمال، فالمال حِصْن ووقاية للاثنين، فاحرِص عليه تحفظْ الأكرّميْن. وقد قيل: «للرَّمْي يُراش السَّهْم وعنَد النِّطاح تغلب القَرْناء». ومالُك سهمك الذي تَرْمي، ودرعُك الذي يحْمي، فكما يجهَّزُ السهمُ استعداداً لحاجته، كذلك يحفظ المال لأنه الوقاية والحماية. وكما يغلِبُ الكبش ذو القرنين في المناطحة، كذلك يَغلِبُ ذو المال في كل مُنازلة، ويحميه ماله من كل جائحة.

وقد شبّه العرب الرجل الغِرَّ الذي لم يجرّب الحياة، وما خَبِر الزمان، بالرداء الواسع الفضفاض، فكانوا إذا رأوا مستأكلاً وافق غِرًّا، قالوا: «ليس عليك نسجُه، فاسْحَبْ وخرِّق». وقد علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

الناس كلَّهم سواء كأسنان المشط، والمرءُ كثير بأخيه، ولا خيرَ لك في صحبة من لا يرى لك مثلَ ما يرى لنفسه. فتعرَّف شأنَ أصحابك، وابحثْ عن أخلاق جُلَسائِك، فإن كانوا في هذه الصفات، من تبذير المال بالشهوات، فاستعمل الحزمَ في أمورك، تحفظْ عليك النجاح في مسيرِك، وإن كانوا في خِلافِ ذلك، عَمِلْتَ على حَسَب ذلك.

ولست آمُرك بأمر من عندي، ولا أوصيك بوصية من بنات أفكاري فإني لا آمُرك إلا بما أمر به الله جل ذِكْرُه في كتابه الكريم، ولست أوصيك إلا بما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أعظك إلا بما وَعظَ به الرجال الصالحون بعضُهم بعضاً. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اعقِلْها وتوكَّل» ولم يقل: «أَطْلِقْها وتوكَّل». وقال القاصّ التابعي أبو عبد الله مطرف بن عبد الله بن الشخير العامري، وقد كان مضرب المثل في العقل: «من نام تحت حائط مائل وهو ينوي التوكل فلْيَرْمِ بنفسه من جُرف عالٍ وهو ينوي التوكل». فأين التوقِّي الذي أمر به الله عزَّ وجل؟ وأين نهْيُه سبحانه وتعالى عن أن يعِّرضَ المرء نفسَه ومالَه للتهلُكَة؟ ومن طمع في السَلامة من غير أن يلْتمس أسبابَها، فقد عاش بالأوهامِ عمرَه، وبنى على الأحلامِ قصره. وإنّما يُنجزُ الله طمَع العبد إذا كان فيما أُمرَ به، وإنّما يحقق من الأماني والآمال ما كان هو المسبِّبَ له.

لقد فرَّ عمر بن الخطاب من الطاعون، فقال له أبو عبيدة بن الجراح: «أتفرُّ من قَدَر الله؟» قال: «نعم، إلى قدر الله». وقيل له: «وهل ينفعُ الحذرُ من القدر؟» فقال: «لو كان الحذرُ لا ينفعُ لكان الأمر به من لغو الحديث». فإظهار العُذر هو التوكّل. سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً قال في خصومته: «حسبي الله» فأمره بأن يسعى أولاً ويُظهِرَ عذره، قبل أن يتوكل على الله، فقال له: «أبْلِ اللهَ عُذراً، فإذا أعْجزَك أمر فقلْ: حسْبي الله». وقال عروة بن الورد:

من يَكُ مثلــي ذا عيــالٍ ومُقْتِــراً ... من المالِ يَطْرَحْ نفسَه كلَّ مَطْــرحِ

ليُبْلـــي عُــذراً أو ليبلـــغَ حاجــةً   ومُبْلِغُ نفسٍ عُذرَها مثــلُ مُــنْجحِ

وقال آخر:

فإن يكُن القاضي قضى غيرَ عادلٍ   فبعدَ أمورٍ لا ألــوم لهــا نفْـسي

وقال زهير البابيّ: «إن كان التوكُّل أن أُخرج مالي وأنا مُوقنٌ بالخلَف، وبأن الخلَف أن يرجع إليَّ مالاً في كيسي، وألا أحفظَ مالي وأصونَه، موقناً أنه محفوظٌ كالأسد في عرينه، فإنّي أُشهدُكم أنّي لم أتوكّل قطّ. إنما التوكل أن تعلم أنك متى أخذت بأدب الله في كل الأمور، واتّبعْت أوامره ونواهيه، دون تفاخُر أو تباهٍ أوْتيه، تقلَّبْت في الخير الوفير، وجاءك الجزاء إما عاجلاً أو آجلاً».

فلِمَ عمل أبو بكر الصديق في التجارة؟ ولم عمل بها عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعبد الرحمن بن عوف الذي أبلى في الإسلام أحسن البلاء، وكانا من العشرة المبشرين بالجنة، ومن الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب، وهم «أصحاب الشورى» لاختيار خليفة بعده؟ أما كانا تاجرَيْن؟ ولمَ علَّم عمر بن الخطاب الناس التجارة، ليحققوا الربح ويتجنَّبُوا الخسارة؟

قال عمر: «إذا اشتريت جَمَلاً فاجعلْه ضخماً، فإن لم يشتره أحد لِخَبَرِه، اشتراه لمنظره». وأوصى بأن يشتري المرء بدل الرأس رأسين وقال: «فرِّقوا بين المنايا، واجعلوا الرأس رأسين» ولم نهى الأولون عن شراء المَعِيبِ من الدواب، أو ما جاوز سِنَّ الصبا والشباب؟ أليس لأن سوقها كاسدة، وأثمانها فاسدة؟

لقد كان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أجودَ الأجواد، بل هو أجود أجواد الحجاز الثلاثة، وقد سمع رجلاً ينشد:

إن الــصنيعةَ لا تكــون صــنيعة   حتى تُصيب بها طريــقَ المــصنعِ

فقال: «هذا رجل يريد أن يُبخِّل الناس. أمْطِرِ المعروف مطراً، فإن صادف موضعاً، فهو الذي قصدت له، وإلا كنت أحقَّ به». فلِمَ حجر عليه عمّه علي بن أبي طالب؟ أليس لإخراج المال في غير حقه، وإعطائه في

هواه؟ وهل كان إنفاق عبد الله إلا في طلبِ الذِكْر؟ وهل كان جوده إلا التماساً للشكْر؟ وهل كان يُنفق ماله في القمار والخمور، أو يسرف في الفُسولة والفجور؟ هل كان إلا فيما تسمونه جوداً، وتعدُّونه كرماً، يلقى بين الناس ذكراً محموداً؟ ومن رأى أن يحجُرَ على الكرماء لكرمهم، رأى أن يحجُرَ على الحُلَماء لحلمهم، وأيَّ إمام بعد أبي بكر وعمر تريدون؟ وبأي سلف بعد عليٍّ تقتدون؟

ولا يمكن أن ترجو الوفاءَ إلا من أهل الشهامة، ولا القيامَ بالحق لا ممن انصاعوا للحقِّ لا يُحسّون الندامة، ولا يشترون دنياهم بموقفهم في يوم القيامة. ولن تجد الصبرَ على النوائب، وعلَّو الهمة في المصائب عند حريصٍ على الطعام مستأكل على موائد الآخرين منافق مخادع منهوم شَرِه، لا يبالي بأيِّ شيء أخذ الدرهم، ومن أي وجه أصاب الدينار، لا يكترث للمِنَّة، ولا يهتم أن يلحقَه العار، ولا يُبالي أن يعرفه الجميعُ منهوماً، ولا أن يكون بين الناس مرذُولاً ومذموماً. وليس يكترث إذا أكل كيف كان ذلك الطعام، وليس يهمه ما يقول عنه الخواص والعوام. يهجم على الموائد متطفلاً، لا يهمُّه سبب الموائِد، ولا الحكم فيها، ثم ينصرف عنها غيرَ راشد.

إذا كان مالك قليلاً، فإنما هو قِوام عيالِك، فلا يجوز لك أن تنفقه وترميهم في المهالِك. وإن كان كثيراً، فاجعل ما يزيد عن حاجتك عُدَّة لنوائب الزمان، فإنك بهذا تستشعر الأمان. ولا يأمنُ الأيام إلا المُضلَّل، ولا يغتر بالسلامة إلا المغفَل. فاحذرْ ما قد يصيبك بغتةً من البلاء، واحذرْ هؤلاء الطمّاعين، فإنهم من رجال الدَّهاء، واحفظ ما لديك وإن كان قليلاً، فإنك مُلاقٍ في قابِل أيامِك المجهولا. والغَثُّ إن كان في مُلْكِك خيرٌ من السمين في مُلكِ غيرِك، إن وجدته، فكيف ودونه الرماح والأنصال وكلُّ باب شديدِ الأقفال؟

قالت امرأة لرجل من العرب أعجبها: «إن تزوَّجْتَني كَفَيتُك» فأنشأ يقول:

إذا لم يكن لي غير مالــك مــسَّني ... خَصاص، وبان الحمدُ مني والأجرُ
وما خيرُ مالٍ لــيس نــافعَ أهلِــه ... وليس لشيخ الحي في أمره أمــرُ؟

وقال شاعر:

أبا هانئ لا تسألِ الناس والْــتمِسْ ... بكفَّيــك ســتر الله، والله واســعُ
فلو تسأل الناس التراب لأوشــكوا ... إذا قلت: هاتوا، أن يملُّوا فيمنعــوا

والسلام.

*   *   *

ما أكثر البخلاء وما أطرف حكاياتهم

قال ابن حسّان: كان عندنا رجل فقير، يكاد يكون من المُعدمِين، وله أخ ثريّ من الموسرين، ولكنه بخيل شديد التقتير، وبقدر ما كان مُفرِطاً في بُخْله، كان مغروراً مغرماً بالتباهي الكاذب في غير مَحلِّه. قال الأخ الفقير يوماً:ويحك.. أنا فقير كثير العيال، وأنت خفيف الحِمْل كثير المال، لا تعينُني على الزمان، ولا تواسيني ببعض مالك، ولا تهبني شيئاً من حلالك. والله ما رأت عيني، ولا سمعت أذني بأبخلَ منك. فقال الغني: «ويحك! ليس الأمر كما تظنّ وتدّعي، وليس المال كما تحسَب، ولا أنا في الغنى والبُخلِ كما تقول، وكلُّ مالي ليس أكثر من نفقة من أعُول. والله لو ملكت ألفَ ألفِ درهم، لوهبت لك منها خمْسمائة ألف درهم. أشْهِدكم الله جميعاً، رجل يَهَب ضَرْبَة واحدة، في لحظة مُعاندة، خمسمائة ألف درهم، أيُقال له بخيل؟».

وأما صاحبُنا صاحبُ الثريدة البلقاء، لِقِلّة ما فيها من اللحم والفلفل والإدامة والمرق، فليس عجبي من ثريدته، وسائرِ ما كان يظهر على مائدته، بقدْر عجبي من أمْرٍ واحد وحيد، وكيف ضبطَه وحصَرَه وقَوِيَ بالعزم عليه ، مع كثرة أحاديثه وقصصِه وأخبارِه، وصنوف ما يروي من الأحاديث وأشعار الآخرين وأشعاره. ذلك أني على كثرة ما كنت في مجلسه، وعلى كثرة ما كان ينوِّع الأحاديث، لم أرَه خبّر يوماً أن رجلاً وهب لآخر درهماً واحداً، أو كان له به واعداً. فقد كان يفتنّ في الحديث عن الحَزْم والعَزْم، وعن الحِلْم والعِلْم، ويذكر جميع المعاني، كمن يغرفُ من جميع الأواني، إلا الجود، فلم أسمع هذا الاسم منه قط، فكأنه غير موجود، وكأن شيئاً بهذا المعنى ليس في الوجود. لقد خرج اللفظ والمعنى من لسانِه، كما خرج من فكره وقلبه، فلقي في هذا غاية أمانِه.

وممّا يؤكد ما قلت فيه ما حدثني به طاهرٌ الأسير، فقد قال: «وممّا يدلّ على أن الرومَ أبخلُ الأمم أنك لا تجد للجود في لغتِهم اسماً، على سعة لغتهم وكثرة كلماتهم. وإنّما يسعى الناس إلى تسمية ما يعرفون ويرون، وما يحتاجُونه في قضاءِ حوائجهم، ومع الاستغناء يسقط من أفكارهم ومن مناهجهم، ثم يغيب عن ألسنتهم، فلا تراهم ينطقون اسمه. وقد زعم ناس أن ما يدلّ على غِشّ الفرس أنهم ليس للنصيحة في لغتِهم اسمٌ واحد يجمعُ المعانيِ التي يدل عليها هذا الاسم.

وقول القائل: «نصيحة» ليس يُرادُ به سلامةُ القلب. فقد يكون الرجلُ سليم النيّة، ولم يحدث ما من أجله يقصِدُ أن يشيرَ عليك بأمور، يراها تعود عليك بالخير الوفير، أو يراها لك أسْلم، كما يظنّ أو يتوهم. ففي لغة الفُرس اسم للسلامة كما في لسان العرب، واسم لإرادةِ الخير والبعد عن الكُرَب، واسم لحسن المشورة بين الأصدقاء والأصحاب، وحملِك بالرأي السديد على فِعْل الصواب. فللنصيحة عندهم أسماء مختلفة ومتعددة، لكنها إذا اجتمعت دلّت على ما يدلّ عليه الاسم الواحد في لسان العرب كما عُلِم. فمن حكم بأنهم أهل غِش وفساد، ولا يعرفون النصحُ للعباد، فإنه يكونُ قد ظَلَم.

وكان إبراهيم بن عبد العزيز من أهل علم الكلام، وكان من سُراة الأهواز، وله مع أبي إسحاق إبراهيم النظّام حكايات يضيق بها المقام. حدثني إبراهيم فقال:

تغدّيت مع راشد الأعور، فجاءنا غلمانه بطبق كبير من سمك البِياح السَبْخيّ الذي يقال له الدُرّاج، وهو صغير الحجم كما تعلم. فجعلتُ آخذُ الواحدة منها فأقطعُ رأسَها، ثم أرميه، ثم أشقها من جهة بطنها، فآخذ شوكة الصلب والأضلاع، فأعزلها، ثم أُقَوِّر ما في بطنها، ثم أقطع الذنبَ والجناحَ منها، وأرميها كلَّها، ثم أجمع السمكة كلها في لقمة واحدة وآكلهُا. وكان راشد يأخذ البياحة فيقطعُها قطعتين، فيجعل كل قطعة في لقمة، لا يلقي منها رأساً ولا جناحاً

ولا ذنباً. فصبَر لي على بضع سمكات، ولم أكن أعلم أنه يراقبني. فلمّا لم يعد يحتمل فعلي وأنكره، قال: «أي بنيّ، إذا أكلت الطعام، فكَلْه بخيرهِ وشرِّه».

وكان راشد يقول: «لم أجد الراحة في أكل التَمرْ قطّ إلا مع الزنج وأهل أصبهان. فأما الزنجيُّ فإنه لا يتخيَّرُ مما قدّامه، وأنا أتخيّر. وأما الأصبهاني، فإنّه يقبض القبْضة من التمرْ ملء يده، ولا يأكل من غيرها، لا يهمّه فاسدُ التمر من أجودهِ. ولا ينظر إلى ما في الطبق بين يديه حتى يفرغ من القبْضة. وهذا عْدلٌ، والانتقاء من الطبق كلّه جور وظلم. ولاشكَّ في أن ما يبقى من التمر في الطبق، لا ينتفع به العيال، إذا كان الآكلون ممن ينتقون ويتخيّرون، إذ لا يبقون لهم إلا التمرة العجفاء، أو الكالحة الصفراء» وكان يقول: «لا تجعل يدك تجول في الطبّق، فهذا ليس من الأدب، إنما هو تمرٌ، فكُلْ مما أمامَك، فلعلَّ فعلَك قد يصيب صاحبه بالكرب، ويكون سبباً للغضب».

وحدثنا سَريّ بن مكرم، وهو ابن أخي موسى بن جَناح الذي حدثتك عنه في صدر هذا الكتاب، فقال: كان موسى يأمرُنا أن نتوقّف عن الأكل ما دام أحدٌ منّا مشغولاً بشُرْب الماء أو طَلبِه. وكنا ننسى أوامرَه أو نتجاهلُها، فلما رآنا لا نطاوعُه، دعا ليلةً بالماء، ثم خطَّ بإصبعهِ خطاً في الطعام الذي كان بين أيدينا، ثم قال: هذا نصيبي، لا تقتربوا منه حتى أنتفعَ بشُرْبِ الماء.

ولا أحد يفوق المكيّ شهرةً في أحاديث الطعام ومعرفةِ البخلاء والتَّندُّرِ بهم وبأحاديثهم. قال يوماً لبعض من كان يتغدّى ويتعشّى عند الباسيانيّ: ويحَكم! كيف تقدِرُون على ابتلاع طعامه، أو اختطاف لقمةٍ من أمامه وأنتم تسمعونه يردِّد ليل نهار: «إنّما نطعِمكُم لوجه الله، لا نريدُ منكم جَزاءً ولا شُكُوراً». ثم لا ترونه يقرأ من كتاب الله إلاّ هذه الآية، ولا يقرؤها إلا عند تقديم الطعام؟ أما والله ما فيكم رجل هُمام. وأنتم والله ضِدُّ الشاعر الذي قال:

ألبــانُ إبْــلِ تعلَّــةَ بــنِ مُــساورِ ... مــا دام يملِكُهــا علــيّ حــرامُ
وطعام عِمران بــنِ أوفــى مثلُــه ... ما دام يسلُكُ في البطــون طعــامُ

إن الذين يسوغُ في أفواههمْ زاد يمنُّ عليهمُ لَلِئامُ

وحدثني أبو المنجوف السَّدُوسِيّ، وهو من النسّابين ومن رواة الأخبار الموثوقين، قال: كنت مع أبي، ومعنا شيخ من موالي الحيّ، فمررنا بناطور على نهر الأُبلَّة في نواحي البصرة، وكنّا قد هدّنا التّعب، فشكرنا له أن دعانا إلى الجلوس. ولم يلبث أن جاءنا بطبق فيه رُطَب شديد الحلاوة الذي يقال له: رطب سكّر، وفيه جَيْسران أسود، وهو كما تعلم من أفخر أنواع التمور، فوضعه بين أيدينا، فهجم الشيخ عليه، ولكن أبي لم يأكل، فلمّا رأيته لم يمدّ يده، لم آكل، وكنت والله جائعاً وبي حاجة إلى الأكل.

فأقبل الناطور على أبي فقال: «يا سبحان الله! لم لا تأكل؟». قال أبي: «والله إني لأشتهيه، ولكنّي أخشى أن صاحب الأرض لم يسمح لك بإطعام الناس من نفيس التمر، فهذا من النوع الغالي في الأسواق، فلو جِئْتَنا بشيء من التمر العادي ورديئه لأكلنا» فقال مولانا، وهو شيخ كبير السن: «ولكنّى لم أنظر في مثل هذه المسألة قطّ».

وقال المكيّ: «دخل إسماعيل بن غزوان أحد رؤوسِ البخل والمدافعين عنه إلى المسجد يصلّي، فوجد الصف تاماً، وكره أن يقوم وحدَه، فجذب ثوبَ شيخ في الصف ليتأخر فيقف إلى جانبه. فلما تأخر الشيخ، ورأى إسماعيل أن في الصف أمامه فُرْجَةً، تقدم فوقف في مكان الشيخ، وترك الشيخ واقفاً خلفَه ينظر في قفاه، وما أظنه إلا كان يدعو عليه في صلاته».

وهذا ليس من أحاديث البخل والطعام، ولكن البخيل حسود، وقد حسد إسماعيل الرجل على أن وجد مكاناً في صفّ تام.

وكان ثُمامةُ بن أشرس، وهو زعيم المعتزلة وأخطر شخصياتهم، يكره أن يأكل وحده، فقد كان الكرم فيه طبْعاً لا تطبُّعاً، حتى لو أكلَ معه بعضُ غلمانه، ولكنه كان يكره أن يقعُدَ على خِوانِه من لا يأنس به. وكان قاسم التمّار من الذين يُخاطبون أهل علم الكلام فيأخذ منهم، وكان فيه شيء من

الغفلة يصطنعها التماساً للنادرة، وكي لا يُؤاخَذَ على كلامه، ومع أنه كان قبيح الخِلْقة، كريه المنظر، فإن أثرياءَ أهلِ علم الكلام كانوا يصلُونه ويُكرمونه، لأنه كان خفيفَ الروح، طيِّبَ النكتة. وكان من الضيوف الدائمين على مائدة ثمامة.

وذات يوم استبقى قاسم على غداء ثمامة بعضَ من يحبُّهم ويهتم لأمرهم دون مشاورة ثمامة، فاحتمل ثمامةُ ذلك في نفسه. ثم عاد بعد ذلك إلى مثِلها، وفعل ذلك مِراراً، حتى صارَ يدعو إلى مائدة ثمامة جهاراً، حتى ضجّ منه ثمامةُ، وفرغ صبرُه. فأقبل عليه فقال: «ما يدعوك إلى هذا؟ لو أردتهم على خواني، لكان لساني طلقاً، وأفضل من لسانك، وكان رسولي إليهم، يؤدّي عني ما أودّ إبلاغهم، فلم تدعو إلى طعامي من لا آنسُ به؟». قال قاسم: «إنّما أريد أن أسخّيك، وأنفي عنك التبْخيل، وسوء الظن والقال والقيل». فضحك ثمامة، وتقبلها من قاسم.

فلمّا كان بعد ذلك، أراد أحدهم الانصراف بعد الغداء، فقال له قاسم: «أين تريد؟» قال: «قد تحرّك بطني، فأريد المنزل» فقال قاسم: «إن كُنتَ لا تستطيع أن تحبس نفسك، وكنت مضطراً فلِمَ لا تتوضأ هنا؟ إنَّ الكَنيف خالٍ ونظيف، والغلام نشيط وبلا عمل تقريباً، ولا داعي لأن تخجَلَ من أبي معنٍ، فمنزلُه منزلُ إخوانِه» فدخل الرجل وتوضّأ. فلما كان بعد أيام كرّر الأمر مع آخر، ثم مع آخر، حتى كاد يجعلُها عادة، فاغتاظ ثمامة، وبلغ في الغيظِ مبلغاً لم يكن على مثله قط، ثم قال: «هذا يدعوهم إلى غدائي لكي يُسخّيني، ولا أدري متى كنت بالبخل متهماً. فلماذا يدعوهم لأن يتوضؤوا عندي، ويقضوا حاجاتهم في كنيفي؟ هل لأن من لم يذهب الناس إلى كنيفه يُعدُّ بخيلاً على الطعام؟ وقد سمعت الناس يقولون عن البخيل: «فلان يكرهُ أن يُؤكَلَ عندَه، ولم أسمع أحداً قطّ قال: «فلان يكره أن يُخْرأ عندّه».

وكان قاسم التمّار شديد الأكل، يتخبط على المائدة كأن به مسّاً، سريع البلْع لا يكاد يمضَغُ لقمة، وكان قذر المؤاكلة، لا يهمه أن يتناثرَ الطعام من

يده، أو يتساقطَ من فمه. وكان أسخى الناس وأكثرَهم جوداً إذا كان على طعام غيره، وأبخلَ الناس على طعام نفسه، وكان على المائدةِ رجلاً لم يسمعْ بالحشمة وآدابِ الطعام قط، فكان يُهمهمُ ويُحمحمُ كأنّه ضبْعٌ وقعَ على جيفة، ولم يكن يكتفي بسوء أدبه على طعام ثُمامة، بل كان يجرّ معه ابنه إبراهيم، ولم يكن في الدنيا كلها من ينافسه ويباريه في القذارة وسوء الأدب إلا إبراهيم هذا، ولو جُمعت قذارة الاثنين معاً، لعَدَلتْ قذارةَ جميع العالمين. فكانا إذا تقابلا على خوان ثمامة، لم يكن لأحد على يمين هذا وذا وشمالِه حظٌّ من طيبات الطعام، إلا إذا اختطفه اختطافاً، واستلبه استْلاباً.

وجاء غلمان ثمامة يوماً بقصْعة ضخمة، فيها ثريدة على هيئة القبّة مكلّة بإكليلٍ من اللحم على عظمه، وقد كان يغطيها كلّها، فهجم قاسم على الثريدة، وأخذ ما أمامه من اللحم، ثم أخذ يَمْنةً، وأخذ ما كان أمام من كان بينه وبين ثُمامة، حتى لم يدع إلا قطعة واحدة قُدّام ثمامة، ثم كرَّ على الميْسرة، ففعل بها مثلما فعل بالميْمنة، فكأنه فارس يضرب في لجّة الجيش. وكان من سوء أدبه قد جعل ابنه مقابلاً له، وليس عن يمينه أو شِمالِه، ونافسه ابنُه إبراهيم في صولاتِه وجولاتِه، فهجم على اللحم في الثريدة هجومَ طالب ثأر. ونظر ثمامة إلى الثريدة وقد كشف قناعها، وسلبها قاسم وابنه غطاءها، وجعلاها عارية مما كان فوقها ويُكلِّلها، واللحم كله بين يدي قاسم وإبراهيم، إلا قطعة واحدة بين يديه، أراد أن يختبر مدى سوء أدبِ الاثنين معاً، فتناول القطعة فوضعها قدّام إبراهيم، فلم يدفعها هذا ليعيدها إلى ثمامة، ولا نطق قاسم بكلمة ليعلم ابنه الحشمةَ والأدب، إنما ظناها معاً مزيداً من إكرام ثمامة لابن قاسم. فلما فرغ قاسم من غدائه، قال: «هل رأيتم مدى إكرام ثمامة لابني؟ لقد خصه بقطعة اللحم الوحيدة التي كانت أمامه».

فلما أبلغوني بما جرى، وما قال قاسم، قلت له: «ويلك! ما أظنّ أنّ في الأرض قطعة لحم أشأمَ على آكِلها من قطعة اللحم تلك عليك وعلى عيالك.

أتظنّه كان يبالغ في إكرام ابنك؟ قبّحكم الله. إنما دفعه إلى هذا شدة غيظه من سوء أدبك وسوء أدب ابنك، وهذا الغيظ لا يتركه حتى يتشفّى منك، وأنت تعرف من هو ثمامة بن أشرس، فإن وقع منك على ذنبٍ فقد هلكتَ والله، وإن لم يجدْه لك، أوْجده غيظُه منكما، وأبواب التجنّي كثيرة، وما أسهل أن يُلبسك ذنباً يأخذك به، وليس من أحد إلا وفيه من الصفات، وفي أفعاله من الأفعال، ما إن شئتَ أن تجعله ذنباً جعلته، فكيف وأنت كلُّك ذنوب ومساوئُ من قمّة رأسِك إلى أخمصِ قدميك؟».

وكان ثُمامة يُحِبُ أن يفطِّر ناساً في رمضان، ويضرب لذلك فُسطاطاً، فكثر الآكلون ممن يعرف ومن لا يعرف، فلم يجعلْه هذا يندمُ على دعوتهم، ولا قصّر في حقِّهم، لكنهم صاروا يأتون برِقاع مكتوبة، وشفاعات لبعضِهم، ومنهم من يخالط أهلَ علمِ الكلام، فيحسب نفسَه من المتكلّمين، أمثال قاسم التمّار، وفي هؤلاء الحشوة أخلاق قبيحة، وعادات غير صحيحة، وفيهم على أهل الكلام، وعلى أرباب الفكر، محنةٌ عظيمة. فلما رأى ثمامة ما جرّ على نفسه من البلاء، أيقن أنّ عليه أن يقطع كل أمل، ويسدَّ عليهم باب الرجاء، فأقبل عليهم - وهم يتعشون - وقال:

«إن الله عزّ وجلَّ لا يستحيي من الحقّ، وكلّكم عندنا صاحبُ حقّ وواجبُه. ومن لم تجئنا به شفاعة، فإن حُرمتَه عندنا كمَنْ تقدّمت شفاعتُه، كما أننا لو استطعنا أن نَعمَّكُم بالبرّ، لم يكن بعضُكم أحقَّ بذلك من بعض، فكلّكم عندنا إخوان، وكذلك أنتم، إذا عجزْنا عن تلبيةِ طلبِ بعضكم، أو بدا لنا شيء من ذلك، لم يكن بعضُكم أحقَّ من بعض بالحِرْمان، أو بالحمْل عليه، أو بالاعتذار إليه. فإذا قرَّبتكم، وقضيتُ حوائجكم، وفتحتُ بابي لكم، وتباعَدْتُ عمّن هم أكثرُ عدداً منكم، وأغلقت بابي دونهم، لم يكن إدخالي إياكم، واستقبالُكم، عُذراً لي عندهم، وليس لي حُجّةٌ في منع الآخرين» فانصرفوا ولم يعودوا.

قال أبو محمد العَرُوضي: جلس قوم يشربون، وكان معهم مُغَنٍّ يغنّي لهم، وكان شيخاً معتلَّ البدن بخيلاً. فوقعت بينهم عربدة، وامتدت أيدي بعضهم إلى بعض، فقام المغنيّ يحجز بينهم، فأمسك أحدهم بحَلْقِه فعصره، فصاح: «معيشتي، مصدر رزق عيالي» فتبسّم وتركه.

وحدثني ابن أبي كريمة، قال: غنّى الكِنانيّ المغنّي عند قوم يوماً، فوهبوه خابيةً فارغة، فلما كان عند انصرافه، وضعُوها له على الباب، ولم يكن عنده أُجرة حمّال له إلى بيته، وكان لابدَّ أن يحملها، ولكننه شعرَ بما يشعر به المغنّون من الزَّهْو والتِّيه، ورأى أنه لا يليقُ به أن يحملَ جرّة، ثم هداه تفكيرُه إلى أن يدحرجَها، فكان يركلُها ركلة. فَتَتدحْرَجُ دائرةً حول نفسِها بمقدارِ قوّة الركلة، لكنّه كان يبتعد عنها كي لا يراهُ أحد، ويراقبُها ليرى ما يحدثُ لها، ثم يدنو منها، ثم يركلها ركلةً أخرى، فَتَدَحْرَجُ وتدور، ويقفُ بعيداً، فلم يزل يفعل ذلك إلى أن بلغ بها منزله.

وقالوا: كان عبدُ النّور كاتبُ إبراهيم بن عبد الله بن الحسَن قد اختبأ عند بعض ذوي المروءة في البصرة من بني عبد القيس، عندما طلبَه أبو جعفر المنصور ورجالُه. فوضعوه في غرفة بعيدة في طرفِ الدار وقدّامها جَناح، ولم يكن يخرجُ من الغرفة. فلمّا خفّ الطلب عليه قليلاً، وأيقن حُسْن جوار القوم ومروءتهم، صار يجلسُ في الجناح، فيسمع أصوات الناس ولا يراهم، وقنع بذلك لأن الصوت يُؤنسه بعد طول الوحشة، فلمّا طالت به الأيام، وخفّ الطلبُ عليه، جعل في إحدى ستائر الجناح خرْقاً بقَدْر العيْنِ ينظرُ منه ليرى الوجوه. فلمّا طالت الأيام أكثر وشعر بالأمان، صار ينظر من شِقٍّ باب كان مغلقاً. ثم ما زال يفتح الباب شيئاً فشيئاً، إلى أن صار يُبدي وجهَه، ويخرج من الباب رأسَه، يبتغي أُنْسَه. فلمّا لم ير شيئاً يبعث على الشكّ والريبة خرج من الجناح، وقعد في الدهليز، وصار يمكن أن يرى الناس ويَرَوْه. فلما ازداد أُنْسه، وشعر بالأمان، جلس على باب الدار، فيرى أهل الطريق والجوار، ثم

عرَف طريقَ المصلى، فدخل وصلّى وانصرف، فلمّا كان بعد أيام، صار يصلّي معهم ويجلس.

والقوم عرَب، فكانوا إذا انتهوا من الصلاة جلسوا يتحادثون ويُفيضون في الحديث، وهو يسمع، فكانوا يتذاكرون الأمثالَ والأشعار، وحكاياتِ أيام العرب وقبائلِهم، وانتقالهم وترحلهم ومنازلهم، وعبد النور في كل هذا ساكت لا ينطق حرفاً. وذات يوم، وقد صمت القوم قليلاً، أقبل عليه فتى منهم، خرَج عن أدبهم، وأغفل ما عوّدوه من حسن سيرتهم، فلم يحدث أن سأله أحد منهم عن نسَبِه، ولا عن وجوده بينهم وهو الغريب وسببِه. قال الفتى: «يا شيخ، إنّا قوم نخوض في ضروب من الحديث، فربّما تكلّمنا في المثالِب، وربما ذكرنا المعايب، وربّما أنشدنا أشعار الهجاء، وبعضها يُسيء إلى بعض الأحياء، فلو أعْلمْتنا من أي العرب أنت، تجنَّبْنا كلَّ ما يسوءُك، حتى لو اجتنبنا أشعار الهجاء كلَّها، وأخبار المثالب والمعايب بأسرِها، ولا نأمن أن يكون مديحنا لبعض العرب والثناء، ممّا قد يولّد في نفسك الاستياء. فلو عرَّفْتنا نسَبك، كفيناك سماعَ ما قد يكون بعض الشعراء قد هجا به قومَك، أو مدح به عدوَّهم، وكَفيْتَنا استياءك منّا ولومَك».

قالوا: فما إن انتهى الفتى من كلامه، حتى بادر شيخ منهم فلطَمه وقال مؤنباً: «ثكِلَتْكَ أمّك. ما هذه المحنةُ الأصعب من محنة الخوارج؟ وما هذا التنقير كتنْقير العيّابين؟ ولم لا تدع ما يريبُك إلى ما لا يريبُك، فتسكتُ عما قد تظنّ أنه يسوءُ الرجل، ولا تذكر إلا ما توقِنُ أنه يسرّه؟».

قالوا: وقال عبد النور: ثمّ إني غيّرْت موضعي لبعض الأسباب، فتحوَّلْت إلى شقٍّ بني تميم. وكنت أعرف رجلاً ثقة منهم، فنزلت عنده، وعدت سيرتي الأولى من الاختباء عن الأعين، إلى أن أعرف سبيل القوم وسلوكهم، وأشعر بالاطمئنان إلى ضعف الرقيب. وكان للرجل مرحاض إلى جانب الجزء الذي خصّني به من داره، وكان القذَر يخرج من ذلك المرحاض في طريق مسدود الآخر، إلا أن من مرّ في ذلك الطريق يرى ما يخرج من

المرحاض. وكان صاحب الدار ضيق العيش، فتوسع بنزولي عليه. فبينما أنا جالسٌ ذات يوم، إذ أسمُع أصواتاً متداخلةً على الباب، ميّزْتُ من بينها صوتَ صاحبِ الدار، وهو ينفي ويعتذر عن أن يكونَ لديه أسرار، ثم أرهفت السمعَ، فإذا بهم يقولون له: «ما هذا الذي يسقطُ من جَناحك؟ لقد تغيرَ عما كان في سالف الأيام، ولولا أنك تُؤوي ما يجبُ ستْرُه، ولا تحبّ أن يشيعَ ذكره، لأظهرته للناس جميعاً، وقد قال الأُول:

الستْرُ دون الفاحشات ولا يلقاك دونَ الخيرِ من سِتْرِ

وما نظن هذا إلا طِلْبَةَ السلطان، ولولا هذا لما واريتَه فلم يره إنسان، ولسنا نأمن مِن أن يجر المصائب على الحيِّ ، ولست تُبالي ما قد يجرّ فعلك على الجار والصديق والصاحب، ولا إذا حَسُنت ظواهرُ أحوالِك، ما قد يفضي إليه هذا من المهالِك. فإن كان ليس كما نظنُّ ونعتقد، فأخْرِجْه إلينا، وإلا فأخْرِجْه عنّا».

قال عبد النور: فقلت في نفسي: هذه والله القِيافةُ وتتبع الآثار، ولا قِيافَةَ بني مُدْلجٍ كما جاءت بها الأخبار. إنا لله، ما الذي جعلني أخرج من مكمني القديم؟ لقد خرجتُ والله من الجنة إلى النار. وقلت: هذا وعيد، وقد يصيرُ إلى شكل من التهديد، وقد أُعْذِر من أَنْذَر. فلم أظنّ أن اللؤمَ يبلغ ما رأيت من هؤلاء الناس في تتبُّع قذارات مراحيضهم، وما كنتُ أظن أن الكرمَ يبلغُ تلكَ الحدود، كما رأيتُه عندَ أولئك الذين كنتُ قبْلاً بينهم.

وقد أكثرنا من ذكر الأصمعي وأخباره، ولكننا لم نذكر ما هِيَّته، فهو عبد الملك الباهليّ، إمام في اللغة والنحو والحديث ورواية الشعر، وكان معروفاً بكثرة الحفظ، كما كان مؤدباً للمأمون والأمين ولدي هارون الرشيد، لكنه كان إماماً في البخل أيضاً.

وقد شهدته يوماً، وقد أقبل على جلسائه يسألهم عن عيشهم، وعمّا يأكُلون ويشربُون. فأقبل على الذي عن يمينه فقال: «يا أبا فلان، ما إدامُك؟

قال: «اللحم». قال: «أكُلَّ يومٍ لحم؟» قال الرجل: «نعم»، قال: «وفيه الصفراء والبيضاء والحمراء والمائِلة إلى السواد والحامِضة والحُلوة والمُرّة؟» قال: «نعم». قال الأصمعي: «بئس العيش! هذا ليس عيش آل الخطَاب. كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرِب على هذا، وكان يقول: مُدْمِن اللحم كمدمن الخمْر».

ثم سأل الذي يليه، قال: «أبا فلان، ما إدامك؟». قال: «حفِظك الله، الآدامُ الكثيرة والألوان الطيبة من الطعام»، قال: «أفي إدامِك سمْن؟»، قال: «وهل يطيبُ الإدام إلا بالسمن؟»، قال: «أتجمع السمنَ والسمين من الجِداء والحملان والدجاج على المائدة؟» قال: «نعم». قال: «ليس هذا عيش آل الخطَّاب، كان ابن الخطّاب رحمةُ الله عليه ورضوانُه يضربُ على هذا، وكان إذا وجد القُدورَ المختلفةَ الطُّعوم جمعها كُلَّها في قدر واحدة، وكان يقول: إن العرب لو أكلت هذا، لقتل بعضُها بعضاً».

ثم أقبل على الآخر، فقال: «أبا فلان، ما إدامُك؟»، قال: «اللحم» ولا أرتضيه إلا من الذبيحة السمينة، والجِداءُ ولا أشتريها إذا لم تكن رُضَّعاً»، قال: «وتأكلُ هذا بالخبزِ الأبيض؟» قال الرجل: «من كان لا ينتقي إلا الجدّيَ الرضيع، لا يبخل بالخبز الأبيض». قال: «ليس هذا من عيش آل الخطاب، وكان عمر رحمه الله يضرب على هذا، أما سمعتَ قولَه: أتروني لا أعرف الطعام الطيّب؟ لُبابٌ القمح مع صِغار المِعْزى؟. ألا ترى كيف يعرف طيِّبَ الطعام، ولكنه ينفي عن نفسِه أكلَه، وتفخر أنت بهذا؟».

ثم أقبل على الذي يليه، فقال: «أبا فلان ما إدامك؟»، فقال: «أكثرُ ما نأكل لحم الإبل، فمنه مطبوخ، ومنه مقليٌّ ومنه مشويّ». قال: «أفتأكل من أكبادِها وقلوبِها وشحومِ أسْنِمَتِها؟» قال: «نعم». قال: «وتغلي بعض اللحم مع المشهيّات حتى تصيرَ مرقاً أو مايُشبه المرق؟» قال: «نعم». قال: «ليس هذا عيشَ آل الخطاب. كان ابن الخطّاب يضرِبُ على هذا. أما سمت قولَه:

أتروني لا أقدرْ أن أتَّخِذَ الأكبادَ والقلوبَ وقطعَ اللحم السمينةَ والقلايا والشواء والزبيبَ مع الخردل نجعله صَناباً؟ ألا ترى كيف يُسْهِبُ في معرفتِه ويُنكِرُ أكلَه؟».

ثم قال للذي يليه: «أبا فلان، ماإدامك؟»، فقال: «أكثرُ أكلِنا الشَّبارِقاتُ والأخْبِصَةُ والفالوذَجَات». قال الأصمعي: تقطّعون اللحم قطعاً صغيرة وتطبخونه حتى يصير شَبارق، وتخبصُون التّمر والسمن أو العسل والسمن حتى يصير خبيصاً، وتضيفون إليه الفالوذج؟». قال: «نعم». قال: «بئس الطعام، وبئس العيش، هذا والله طعام العجم وعيش كِسْرى. لُبابُ القمح، بلعاب النحل، بخالص السمن».

وظلَّ يسألهم واحداً واحداً حتى انتهى منهم جميعاً، وهو يقول: «بِئْسَ العيشُ هذا. ليس هذا عيشَ آل الخطاب. كان ابن الخطاب رحمة الله ورضوانه عليه يضرب على هذا». فلما انتهى من كلامه، أقبل عليه بعضُهم. فقال: «يا أبا سعيد، ما إدامُك؟»، قال: «يوماً لَبن، ويوماً زيْت، ويوماً سمْن، ويوماً تمْر، ويوماً جُبْن، ويوماً خبز وحده مع الماء، ويوماً لحمْ. عيش آل الخطّاب».

ثم قال الأصمعي: قال أبو الأشهب: كان الحسن البصري رحمه الله يشتري لأهله كل يوم بنصف درهم لحماً، فإن بالغ في الإنفاق فبدْرِهم، فلما مَنع عنه الخليفةُ عطاءَه، كان الشحمُ إدامَه.

وحدثني الأصحاب أن رجلاً من قريش كان يقول: «مَنْ لم يُحْسِن المنْعَ لم يُحسن العطاء» وما أظن هذا من كلام قريش، فما عُرِف فيها بخيل قطّ، وأبلغوني أن هذا الرجل قال ناصحاً ابنهَ: «أي بنيّ، إن للعطاء مواضعَ فلا تتعدَّاها، فمن أعطى في غيْرِ موضعِ العطاء، أوشك أن يسْتعطي الناس فلا يُعطيه أحد شيئاً».

وقالوا: ثم أقبل علينا، فقال: هل علمتم أن اليأس أقلُّ من القناعة وأعزّ منها؟ إنّ الطمَعَ يبقى طمعاً حتى يلقى اليأس فيصير قناعة، وصاحب الطمع لا

ينتظر الأسباب، ولا يعرفُ الطمعَ الكاذبَ من الصادق. والعيال ليسوا شيئاً واحداً، بل شيئين: ضِرس طحُون وشهوةٌ تَهدي المرء طريقاً فاسداً، لكن ما تأكُله الشهوةُ ونوازع النفس أثقلُ مما يأكله الضرس. وقد قالوا: إن العيالَ سوسُ المال، وأنّه لا مالَ لذي العيال. وأنا أقول: إن الشهوة تبلغ مالا يبلغ السوس، وإن ضَياعَ المال بسبب شهوات النفوس، أكبرُ من ضياعِه في الإنفاق على العيال. وقيل لشيْخ من أهل البصرة: «مالَكَ لا ينمو لك مال؟» فقال: «لأني صِرتُ ذا عيالٍ قبل أن يأتيني المال. واتَّخذ الناس المالَ قبل أن يثقل ظهرَهم العيال، وقد رأيت من تقدّم عيالُه مالَه، وكسروا ظهره، فجَبَره الإصلاح، وقاده الاقتصاد إلى النجاح، وأعانَه حُسن التدبير، حتى استقامت له الأمور، ولكني لم أرَ للشهواتِ تدبيراً، ولا للشَّرَه دواءً».

ثم قال: كان إياس بن معاوية المُزْني من أرجح الناس عقلاً، وكان من مفاخِر مضر، ومن مقدَّمي القضاة، وكان فقيه البدن، دقيق المسالك في الفطن، صادقَ الحِسّ مُلْهَم الفراسة، وقد قال: «إن الرجل يكون عليه ألف، فيُصلِحُ أحوالَه، فتَصلُح له الغلَّة، ويكون عليه ألفان فينفق ألفين، ويُصلِح تدبير الأمور، فتصلح له الغلّة، ويكون عليه ألفان فينفق ثلاثة آلاف، فيركبه الدَّين، فيبيع العَقَار لإصلاح الفرق بين الاثنين». وذكَر الحديثَ عن أبي لينة، قال: «كنت أرى زياد بن أبيه يمرّ بنا وهو أميرٌ على بغْلة في عنقها حبل من ليف مُدْرج على عنقها».٠

وكان سَلَم بن قتيبة يركبُ بغلةً وحده، ومعه أربعة آلاف من الخيل المُرابطة. ورآه الفضل بن عيسى على حمار، وهو أمير، فقال: «قُعود نبيّ وبذلة جبّار». ولو شاء أن يدفعَ بالعرب وهو على جمل من نجائب الإبل، أو على فرس من العِتاق، لفعل، ولكنه أراد هدْيَ الصالحين. وحُمِل عمر بن الخطاب على حصان عظيم الخلقة، فهَرْوَل تحتَه، فنزل عنه وقال لأصحابه: «جَنِّبوني هذا الشيطان»، ثم قال لأصحابه: «لا تطلبُوا العِزَّ إلا بما أَعزَّكم الله بــــه».

وقد كنت أعجبُ من بعض السلف حيث قال: «ما أعرفُ شيئاً مما كان الناس عليه إلا الأذان» ولكنني الآن أقول مثلَه، وأعتنق قولَه: إن الناس ما يزالون في هبوط، إذا ما حاولوا أن يرتفعوا بالإسراف، يستوي في ذلك السُّوقةُ والأشراف، ويرفعون البنيان للمطاولة، لا لحاجة عاجلة. إن من أعجب ما رأيت أو سمِعت في هذا الزمان، أن مُوَيْسَ بن عمران فاخر عُبيْد الله بنَ سلمان في أيهما كان أسبق إلى ركوب الخيول المطهَّمة من خيول العجم، وما للتاجر وركوب مثل هذا الحصان العظيم الخلقة؟ وما ركوب التجار لمثل هذه الخيول، إلا كركوب العَرب للبقر.

لقد علّقُوا الخيش في البيوت ليبرّد الهواء، واستنكفوا أن يذهبوا إلى الحمّامات في السوق، واتخذ كلٌّ حمّامه في داره، وصار الثلج حاضراً لتبريد شرابهم، ووظفوا بعضَ الغِلمان، لنقل الثلج وإحضاره، ولنثر الريحان، وصار لهم في بيوتهم القِيان والخصيان، فماذا أفادَ الناسَ فعلُهم؟ هل استردَّ الناس ودائِعَهم التي أودعوها خزائنِ التجّار؟ هل استرجع القضاة الأموال التي لا وارث لها منهم؟ أم بخِلوا بدرهم ودينار؟ لو أنهم فعلوا، لعادوا إلى دِينِهم وعيْشهم واقتصادهم. وعندما رآهم أصحاب الغلات، وأهل الشرف وأعرق البيوتات يفعلون هذا، أنِفوا أن يكونوا أقلَّ منهم في لباسهم وركوبهم وبيوتهم ومعيشتهم، فنافسوهم، فهلك هؤلاء وأهلكوا معهم الناس.

وكان جعفر بنُ يحيى بنِ خالد البرمكي أكثر سُراة عصره ترفاً، وكانت داره عامرة بالشعراء والرواة والعلماء، كما كان أديباً، فلا عجب أن جعله الرشيد قَيِّمَ ابنه المأمون ومُنْشِئَه. وقد وصفه ثمامة بن أشرس فقال: «كان جعفر بن يحيى أنطقَ الناس، وقد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة، وإفهاماً يُغنيه عن الإعادة. وما رأيت أحداً كان لا يحتَبِس ولا يتلجلجُ ولا يتنحنح، ولا يصعب عليه لفظ قد استدعاه من بُعد، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد استعصى عليه طلبُه، أشدَّ اقتداراً، ولا أقل تكلُّفاً من جعفر بن يحيى».

وكان الأصمعي من روّاد دار جعفر وضيوفها الدائمين، وكان جعفر يقرّبه كما يقرّب كثيراً من العلماء والرواة. وقال أبو يعقوب الخُرَيميّ إن جعفر بن يحيى مضى يوماً في حاجة، كان طريقه إليها يمرّ بدار الأصمعي، فدفع إلى خادم له كيساً فيه ألف دينار، وقال له: «سندخل إلى دار الأصمعي، وسيحدِّثني أحاديث شتّى ليضحكني، فإذا رأيتَني قد ضحكت، فضع الكيس بين يديه». فلمّا دخل رأى خابية مقطوعة الرأس، وجرّة مكسورة الأُذن، وقَصْعةً متشققة، وكوباً دبقاً. ورآه جالساً على سجادة صلاة بالية، وعليه عباءة ذهبَ لونُها، وانسلّت خيوطها، فغمزَ غلامه بعينه ألا يضع الكيسَ بين يدي الأصمعي، ولا يدفع له شيئاً. وراح الأصمعي يتحدث بالطرائف والنوادر. فلم يدع شيئاً مما يضحك الثكلى، ويزيلُ غضب الغضبان إلا أورده، ولم يتبسم جعفر.

فلما خرجوا، قال له أنس: «ما أدري من أي أمريك أعجب، أمن صبرِك على الضحك، وقد قص عليك مالا يمكن لإنسان أن يسمعه دون أن يضحك، أم من امتناعك عن إعطائه، وقد كنتَ عزمتَ على إعطائه، وما أعرفك تعزِمُ على شيء ثم لا تفعله؟»، فقال جعفر: «ويلَك! من استرعى الذئبَ غنَمه فقد ظلَم نفسَه وأهلَه، ومن ترك ديار الله كلّها واختار أرضاً سبخة فزرعها، لن يحصدَ إلا الفقر، إني والله لو علمتُ أنه يكتم المعروف بفعله، لما اهتممت بنشره له بلسانِه، وأين يقع مديحُ اللسان من مديح آثار الغنى على الإنسان؟. إن اللسان قد يكذب، ولكن الحالَ لا تكذب. لله درّ الشاعر نُصَيب حيث يقول:

فعاجُوا فأثْنَوْا بالـذي أنـتَ أهلُـه ... ولو سكتُوا أثنت عليـك الحقائـبُ

أما علمت أن أبرويزَ بنَ هرمز ملك الساسانيين الذي في عهده بعث النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت معركة ذي قار، كان أشد الملوك بطشاً، وأنفذهم رأياً، وبلغ من البأس والقوة وجمع الأموال ومساعدة الأقدار، ما لم

يبلغه ملك قبله؟ فهل كان مديح الشعراء له أفضل من مديح زهير بن أبي سلمى لآل سنان بن حارثة وخصَّ منهم هَرِماً بمدائحه؟ إن الشاعر يكذب مرّة ويصدق مرة، وبُنيان المراتب لا يكذب مرّة ويصدق مرّة، ولستُ بعائدٍ إلى هذا بمعروف أبداً.

كان الأصمعي في بدايات أمره يتعوذ بالله كثيراً من أن يُضطَّرَ لأن يَقترِض ويستدين ويستلِف، أو أن يكون من الذين يطلبون الزكاةَ والصدقة من الأغنياء وأهل الشرف. فأنعم الله عليه، حتى صار من الذين يُقرِضون والذين يَفرِضُون من مالهم فريضةً صدقةً لمستحقيها. فاتّفق أن أتاه في يوم واحد رجلان، وكان أحدهما يطلب القَرْض، والآخر يطلبُ الفَرْض هجما عليه معاً، فثقل ذلك عليه، وامتلأ همّاً وغمّاً. ثم أقبل على المُقترِض، فقال:

تتبدّل الأفعال بتبدّل الأحوال. ولكل زمانٍ تدبير، يقدّره العليّ القدير، ولكل شيء مقدار لا يتجاوزه ولا يحيد، والله في كل يوم في شأن كما قال تعالى عن نفسِه، وهو الحميد المجيد. إن الفقيه كان يمرّ بالشيء الملقى على الأرض، فيتجاوزُه، ولا يلتقطُه، كي يكونَ حفظُه امتحاناً لغيره، لأن حفِظَ الأمانة امتحان، وقد كان معظمُ الناس في ذلك الدهر يؤدون الأمانة، ويحفظون ما ليس لهم، وينأَوْن بأنفسهم عن الخيانة. فلمّا تبدّل الزمان، وفسَدَ بنو الإنسان، وجَبَ على الفقيه أن يحفظ ما يلقى، من شيء على الطريق مُلقى، وأن يصبرَ على محنة امتحن بها، واختبار وقع عليه.

وقد بلغني أن رجلاً أتى صديقاً له يقترض منه مالاً، فلما علم صاحبُ الدار ببُغية صديقه، تركه بالباب، ثم خرج إليه مُؤْتزِراً مشمّراً فقال الزائر: مابك؟ ولم أنت على هذه الحال؟ قال: جئت للصخب والخصومة واللَّطْم والقتال. قال: ولِمَ، أصلحك الله؟ قال: لأنك عندما تأخذ مالي تكون بين حالين: إما أن تذهبَ به فلا يُردُّ عليّ، وإما أن تُماطِلَني به وتتأخر في إعادتِه إليَ. فلو أخذتَه مني على طريق البرِّ والصلة والمعروف، لكان لي عليك حق،

ولوجب عليك شكر ما حييت. وإذا أخذتَه ديناً، ومِنْ طريق السَّلَف، فإن العادة في الدُيون، وما هو في أمور السَّلَف والاستِلاف مألوف، أن تردّه إليّ في وقته، أو أُقاضيك. وإذا قاضيتُك أغضبتُك، وإذا أغضبتك أسمعتَني ما أكره، فتكون قد جمعت أسوأ الأمور: ماطلتَ في ردِّ الدين، وأسأت اللفظةَ، وخلقت بيني وبينك الوَحْشة، وأنت أظلم لأنك ابتديت. فأغضبُ كما غضبتَ، وأفعل ما فعلتَ، فلا أنت أعدتَ إليّ مالي، ولا تركتني في حالي. وصرتُ أنا وأنت كما قال المثل العربي: «أنا تَئِق، وصاحبي مَئِق» أنا غاضب، وصاحبي يكاد يبكي من شدة الغيظ. وقالوا: «أنا مَئِق، وأنت تَئِق، فكيف نتَفِق؟» أي: أنت سريع الغضب، وأنا سريع البكاء من الغيظ، فكيف نتّفق؟ فما ظنّك بي وأنا مملوء غيظاً هل ستجدني إلا جَلْفاً فظّاً؟ لأني غاضب من أني مملوء حُمقاً في غباوة بعد أن انجلت عن ناظري الغشاوة. ولكني أدخل المنزل لما علمتُ المراد، وأخرج إليك كما تراني، وأعجل لك اليومَ ما ادّخرتُه إلى غد، وأجعلُه واجب السداد. ومعروف أن الضربَ إذا كان المقصودُ به الوعظُ والنُّصْح، أقلُّ إيلاماً من ضرب الحقْد بعد الجُرح، فأُريحُك الفرق بين الألمين، والفضلَ بين الشتيمتين.

وبعد، فأنا حريص على صداقتِك، وأريدُ دوامَ مودَّتِك، وإني ضنين بما بيننا من حبل الوِداد، ولا أريد أن يلحقَه الفساد، فتدب بيننا الوقيعة، ونصل إلى القطيعة، وليس لك أن تلومني على أنك عندي واحدٌ من أبناء هذا الزّمان، فإن كنت ترى نفسَك فوق ما هُم فيه، وبعيداً عمّا درجوا عليه، فكيف لي أن أعرف معدنكَ؟ وقد قالوا: «لا يعرف حقيقتَك أحد إلا إذا امتحنك». ولا أعرف حقيقتك لأنها عندي من علم الغَيْب، فلا تكلّفني علمَ الغيب.

ثم قال: إن المعتادَ أنَّ ما يُعار يُردّ، وأن ما يُودع يُحفظ، هكذا أخلاق العرب، وكانوا يقولون: «أحقُّ الخيل بالصَّوْن المُعار». فصار أبناء هذا الزمان يقولون: «أحقُّ الخَيْل بالركْض المُعار» وقد قيل لبعضهم، ارْفُق به،

فقال: إنه مُعار، فردّ الأول: إذن فاقتل، ولا تخجل، وهكذا فسدت أخلاقُ الناس في حفظ المُعار، وسُدَّ هذا الباب.

وعندما قال مُساور الورّاق، وردَّدُوا مِن بَعده:

شَمِّر قميصَك واسْتعِدَّ لنائل — واحْكُكْ جبينَكَ للقضاءِ بثُومِ
واخْفِضْ جَناحَك إنْ مَشَيْتَ تخشُّعاً — حتى تُصِيبَ وَديعةً لِيَتيمِ

وحين ضاعت الأمانات، وأكلها الأُمناء والأوصياء، ورَتع فيها الصرَّافون الخبثاء، وجَب حِفظُها، بل وجَب دفنها، ولأن تأكلها الأرض خيرٌ من أن يأكلها خؤُون فاجر ولئيم غادر. وحتى في الزمان الغابر لم يكن المُعار أفضلَ حالاً. أما سمعت بحكيم تميم والعرب أكثم بن صيْفي؟ لقد كان أعرف الخطباء بالأنساب، وأكثرهم ضربَ أمثال، وإصابةَ رأيٍ، وقوة حجّة. قال عنه كسرى: «لو لم يكن للعرب غيره لكفى». في ذلك الزمن القديم، قال أكثم بن صيفي، وصدق في قوله: «لو سُئِلَ المُعار أين تذهب، لقال: أُكسِب أصحابي ذمّاً».

وأنا اليوم أنهى عن الدين والاستلاف، كي لا يكون المال أو الشيء عاريةً أو وديعة، فيدبّ الخلاف، كما أنهى عن القرض والفرض، وأكره أن يخالفَ فعلي قولي، فأكون ممن يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يقولون.

ثم التفت إلى الآخر الذي جاء يطلب الفَرض، فقال: أما القرض فإنني أمْتنعُ عنه لما أبلغت صاحبَك، وأما الفَرض فلا يقدر عليه إلا بيت المال، ولو وهبتُ لك درهماً واحداً، لفتحت على مالي باباً لا تسده الجبال، ولا كل ما في الصحراء من الرمال. ولو استطعت أن أجعل دونه سدّاً كالسدّ الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج لفعلت. إن الناس فاغرو الأفواه نحو من عنده دراهِم، وليس يمنعهُم من النهش والعضّ إلا اليأس والرفض. إنهم طمّاعون، ولا حدودَ عندهم للطَّمع، وليس يعرفون الاكتفاء والشَّبَع، ولولا الحدُّ من طمعهم لما بقيت شاة تثغو ولا ناقةً ترغو، ولا بقي وَبَر ولا صوف ولا شعر، ولا ذواتُ الخُفِّ ولا الحافرِ ولا الظِّلْف، ولا نباتٌ صامت، ولا حيوان صائح، إلا ابتلعوه والتهموه. أتدري ما جئتَ تفعلُ بشيخِك الأصمعي؟ إنّما جئت تريدُه أن يفتقر،

فكأنك تدعوه إلى أن ينتحر، ويكون دمُه في عنقك، وبدلاً من أن تكونَ السائل، تصيرُ أنتَ القاتل، وأنت تعلم ما جزاء قتل النفس المؤمنة، فمن قَتَلها، فكأنّما قتل الناس جميعاً. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

وشهدتُ ثُمامةَ بن أشرس وقد أتاه رجلان، فقال أحدهما: «لي إليك حاجة»، فقال: «ولي إليك حاجة أيضاً» قال: «وما حاجتك؟»، قال ثمامة: «لست أذكرُها لك حتى تضمن لي قضاءَها». قال: «قد فعلت»، قال: «فحاجتي إليك ألا تسألني هذه الحاجة»، قال الرجل: «ولكنك لا تدري ما حاجتي»، قال ثمامة: «بل أعرفها»، قال: «فما هي؟»، قال: «هي حاجة، وليس يكون الشيء حاجةً إلا وهو يحوجُ المرء إلى شيء من الكُلفة»، قال الرجل: «فقد رجعتُ عمّا أعطيتك»، قال ثمامة: «ولكني لا أردّ ما أخذت».

فأقبل عليه الآخر، فقال: «لي حاجة إلى منصورِ بن النعمان»، قال: «قل: لي حاجة إلى ثُمامةَ بن أشرس، لأني أنا الذي أقضي لك الحاجة، ومنصور يقضيها لي». ثم قال: «فأنا لا أتكلَّم في الولايات، ولا أنصحُ بأحد، ولا أزكّي أحداً، ولا أتكلم في الدراهم، لأنك إن أخذت الدراهم كنت كمن ينتزع القلوب، والحوائج دين ووفاء، فرْشُ وغطاء، فمن سألتُه اليومَ أن يعطيكَ، سيسألني غداً أن أعطي غيرك، فلا أستطيع إلا أن أقضي حاجته، والأفضل لي وما يريحني أكثر أن أعطيَكَ من مالي، وليس عندي دراهم ولا دنانير، ولو كان عندي، لكانت احتياجاتي القائمة الساعة تقضي عليها ولا تبقي منها شيئاً. ولكني أؤنِّب لكم من شئتم، ولكم عليَّ من التأنيب كلّ ما تريدون». فقلتُ له: «فإذا أنَّبْتَ رجلاً في أمرٍ لم تتقدم فيه بمسألة، كيف يكون جوابه لك؟» فضحك ثمامة حتى استند إلى الحائط.

وكانَ أبو همّام السنُّوط من المتعبِّدين الذين لا يخلون من غَفْلة، فقد تمنى أن يكون النخلُ أنواعاً، فبعضُه يحمل الرُّطَب، وبعضُه يحملُ التمر بأنواعِه، وأن يكونَ النخلُ متى ما أخذت منه عنقوداً، خلقَ الله مكانَه عنقودين، ثم قال: «أستغفر الله، لو كنتُ تمنَّيت أن يكون بدلَ نواة التمرة زبدة، لكان أصوب».

جاء مرة إلى ثمامة يسأله المعونة في ترميم دارٍ كان ثمامة قد بناها في عبّادان، فقال ثمامة: «أتعرف الرجل الذي قال لآخر: «أتكفُّ عن مقاتلتي

والرُّمْحُ في يدِك؟» فقال الآخر: «ذكَّرْتني الطعن وقد كنت ناسياً» فأنت مثل هذا الرجل. لقد ذكَّرتني بأني كنتُ عزمت على هدْمها لمّا بلغني أن القائلين بمذهب الجبرية قد نزلوا فيها»، قال أبو همّام: «سبحان الله! تنقضُ مكرُمَةً، وتهدِمُ داراً قد وقفتها للسبيل؟». قال ثمامة: «هل تعجب من هذا؟ لقد أردت أن أهدمَ المسجد الذي كنتُ بنيتُه ليزيدَ بن هشام، حين بلغني أنه يُعين أتباعَ أبي شمر من مذهبِ المُرْجِئة على المُعْتزلة».

وكان الغاضري من أهل المدينة المنورة، ومن الذين يصطنعون النوادر وقد حدثتك عن بعضهم، وكان يتخذ من هذه النوادر صناعة وطريقاً للتكسب، وقد كان يشبه أشعب في طمعه، وكان ممن يُوصفون بالحُمْق، لكنه في الحقيقة كان يتحامق، فبهذا كان يقول نوادره كما يشتهي دون خوف من أحد، ويزيد في الإضحاك.

جاء إليه رجل فقال: «إنّ صديقك القادمي قد قُطِع عليه الطريق». قال: «فماذا تريد أن أفعل له؟»، قال: «أن تعينه وتعطيه مما رزقك الله»، قال: «فليس عليه قد قُطِع الطريق، بل عليَّ قُطِع».

وجاء إلى ابن أشكاب الصيْرفيِّ صديق له، يستلِفُ منه مالاً. فقال الصيرفيُّ: «لو شئتُ أن أقولَ بعض ما يقال في مثل هذه الأحوال لقُلْتُ. ولو شئتُ أن اختلقَ مِنَ الأعذار والأسبابِ، ما يرضي الأصدقاء ويُقنِعُ الأصحاب لفعلت، وأن أستعير بعض كلام من يستلِفُ منه إخوانه، ليَعذُرَه بعدَه خلاّنُه، لاستعرت. ولكني لا أرى خيراً من التصريح، والردِّ عليك بالشكل الصحيح. ما كنتُ لأسلِّفَك أو أسلِّفَ غيرك، فإن التمستَ لي عُذراً، فعلتَ خيراً، وجئتَ بالأمر المريح، وإن لم تفعل، ورحت تحكي عنّي وتتدلَّل، فعلت ما هو شرٌّ لك، وأتيت بالأمر القبيح».

وكان محمد بن عبّاد بن كاسب شاعراً راوية وكاتباً، وكان من طلاّب العلم أينما وجده، وكان صديقاً لثُمامةَ بن أشرس، وقد عرفتُه من أظرف الظرفاء، لكنه كان من مشاهير البخلاء. وكان الفيضُ بن يزيد - وهو اسمٌ

على مسمّى - صديقاً له. فحلّت بالفيض ضائقة شديدة، فقال لبعض جلسائه: «والله ما عندنا من شيء نتَّكِلُ عليه، وقد فاض الكأس، وبلغ السكّينُ العظمَ، وليس لنا ما نبيعه الآن، فإذا بِعْنا قبل الأوان، منينا بالفادح من الخسران. والرأيُ أن نستعين في هذه الضائقة بمحمد بن عباد، فإنه أعلم الناس بالحال، وأدراهم بصحةِ المعاملة وحسن القضاء وردِّ المال، ويعرف ما نقدِّرُ وننتّظر، وأنا لا نقصِّر حين نقدر. وهو رجل يقدّرُ محنة صديقه، ويسرّه أن يستنجدَ المرءُ برفيقِه، فلو كتبت إليه الساعة كتاباً لسرّه ذلك، ولأَعاننا على تجاوزِ هذه المحنة، والفَكاكِ من هذا الضيِّق».

وتناول القلم والقِرطاس، ليكتب إليه كتاب الواثق من حُسْنِ ردِّه، بما للصديق من دالَّةٍ على صديقه، لا يشكّ في أن ابن عباد سيفرحُ بأنه استنجَد به، ويسارع إلى قضاءِ حاجتِه، كما كان سيفعل، لو أن ابن عباد وقع في ضيق. وظن بعض من كانوا في مجلس الفيض أنّ ورود كتاب من الفيض على ابن عباد في مثل هذا الأمر سيسرّه فمضى يبشِّره بورود الكتاب، وما درى أنه بشَّره بالهمّ والغمّ، وركبته الحيرةُ في كيفية التخلص من هذه النازلة. وهداه تفكيره إلى أن يبادرَ الفيض بكتاب عن حاجته إليه، ليشغله عن حاجة الفيض إليه، فكتب إلى الفيض:

«أما بعد: فقد ضعُفَ المال، وقلَّ الدخلُ، وكثرُ العيال، وغَلَتِ الأسعار في الأسواق، واحتُبِسَتْ علينا من الديوان الأرزاق، وقد انفتح علينا للنوائبِ والمصائبِ والحاجات أوسع باب، ممّا لم يكن لنا متوقَّعاً، ولم يدخُلْ في حساب. فإن كان لديك فائض من المال، ورأيت أن تُسعِفَنا، فعجِّل به، فإنّ بنا إليه أعظمَ الاحتياج، وليس هذا من باب اللجاج».

وعجَّل ابن عباد بإرسال الكتاب إلى الفيض، قبل أن يرسل هذا كتابَه، فلما قرأه، حوقَل وتعوّذ واسترجع، وكتب إليه:

«يا أخي، لقد تضاعفت عليّ المصيبة، فيا للأقدار العجيبة، لقد كنت مهموماً بتأمين حاجات عيالي، فأضيفت حاجة عيالك إلى حاجتهم. وقد كنتُ أقلِّبُ الأمر على وجوهه في احتيالي، لأسدَّ خلَّتهم، وأشبعَ حاجتهم، فصار عليّ أن أضاعِفَ الجُهْد قدْرَ الإمكان حتّى لو بِعتُ ما عندي قبل الأوان».

فلمّا رجع الكتاب إلى ابن عبّاد، حلّت عليه السكينة، وشعر بالطمأنينة فقد ألقى العبء على الفيض، فأتعبه أشد التعب واستراح.

وكان لرجلٍ من أبناءِ الأسرِ الغنية، سخاءٌ وأريحية، وكان يُكثِرُ من دعوة ابن عبّاد لزيارتهِ، ولا يتأفف من زيادةِ نفقتهِ، لأنه كان من المولعين بمجالسة الأدباء، والاستماع إلى مشايخ الظرفاء. ولكثرة ما دعا ابنَ عباد، وجاوز في إكرامهِ حدّ المألوف، ممّا لا يقدمه أحد لأيٍّ كان من الضيوف، ظنَّ بكرمه أن ابن عبّاد ينتظر منه الزّيارَة، وحَسِبَ أن زيارتَه في منزله ستكون زيارةً في المؤانسة. وكان قد بلغه عن ابن عبّاد، أنه من أبخل الخلْق والعباد، ولكنه لم يحسَبْ أن بخله سيعمّ المُحْسن إليه، المُبالِغَ في إكرامه.

فأتاه يوماً دون موعد، وقال: «جئتك من غير دعوة ولا دعاء، ولذا أرضى بما حضَرَ من الأشياء»، قال: «فليس يحضرُ شيء، وقولك «بما حضر» لابُدّ من أن يقعَ على شيء». قال الرجل: «فقطعة من مالح أو حامض»، قال: «أليست قطعة المالح شيئاً؟»، قال: «بلى»، قال ابن عباد: «فنحن نشربُ على الريق»، ثم قال: «ولو كان عندنا نبيذ كنا في عُرس»، قال: «فأنا أبعث في طلب النبيذ». قال: «فما دمت سترسل في طلب النبيذ، فاطلب معه أيضاً ما يصلح مع النبيذ»، قال الرجل: «إني والله أقدِرُ على هذا، وليس يمنعني من طلب ما يكفي لمَلْءِ الخِوان، ومن تزيين المائدة بالنَّقْل والرَّيْحان إلا أني أحتَسِبُ لك هذه الزيارة دعْوة، وليس يجوز ذلك إلا بأن يكون لك فيها أثَر». قال ابن عباد: «لقد خطرت لي فكرة سديدة فيها الصَّلاَح، ولا يكونُ عليٍّ فيها جُناح. في هذه النخلة زوج من الحمام قد فرّخا فَرْخين،

وقد كبُرَ الفَرْخان حتى صارا مدركَيْن. فإن وجدنا من يصْعدُها، فإنها عالية جداً، ولم يطيرا، لأنهما صارا ناهِضَيْن، قلينا واحداً، وشوينا الآخر، فإنه يوم شِواء.

فطلبوا في الجيران إنساناً يصعد تلك النخلةَ فلم يُوَفَّقوا، ثم دلُّوهم على رجل في مكان بعيد، فما زال الغلامُ يطلبُه حتى جاء به، فلما نظر إليها قال: «هذه لا تُصعد إلا بحبلٍ ورِباط، فكيفَ أصعدُها وليس معي منهما شيء؟ فسألوه أن يأتي بما يحتاج. فذهب، فغاب طويلاً، ثم أتى بأدواتَه، فلمّا صار في أعلاها طار أحد الفَرْخين، وأنزل معه الآخر، فكان فرخ الحمام ذاك المقليَّ والمشويّ، والغداء والعشاء وطعامهم اليوم كلَّه.

وكان إبراهيم بن سيّابة من المتأدبين الذين غلب عليهم حب النوادر والحياة اللاهية العابثة، ولم يكن من الشعراء النابهين، لكنه كان يميل بمودته إلى إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، فغنّيا من شعره، فرفعا شأنه، وكانا يذكرانه للخلفاء والوزراء إذا غنّيا من شعره، فينتفع بذلك، وعلى الرغم من أنه كان خليعاً ماجناً فإنه كان طيِّب النادرة، وقد اتّصل بيحيى بن خالد البرمكي والفضل بن الربيع.

ضاق الحال بابن سيّابة، فتذكر صديقاً له من المتأدبين أيضاً، وكان كثير المال، ومن أصحاب الدور والأراضي، فكتب إليه يستلف ما يستعينُ به على قضاء حوائجه، إلى أن يأتيه بعض ما كان يأمَلُ قدومَه. وكان هذا الصديق من البخلاء، فكتب إليه معتذراً: «إنّ المالَ مكذوبٌ له عليه، والناس يبالغون، ويضيفون إلى الآخرين ما ليس عندهم، وهم واهمون. وأنا اليوم في ضائقةٍ شديدة، وعندي نفقات جديدة، وليست الحالُ كما نريدُها إقبالاً، وإلا جاءَكَ الجواب حالاً. والعاقلُ الصديق أحقُّ الناس بأن يعذُرُ». فلما ورد كتابه على ابن سيّابه، كتب إليه: «إن كنتَ كاذباً فجعلك الله صادقاً، وإن كنتَ ملُوماً، فجعلك الله معذوراً».

* * *

كتاب الطعام

أطعمة وأشربة وأدوات وتقاليد وعادات

لقد طال الكتاب كثيراً، وأوردنا فيه الطرائفّ والأخبار والقصصَ وحكاياتِ البخلاء والمشاهير، ودفاعهم عن البخل في أشعارهم ورسائلهم. وقد دخل فيه كثير من أسماء الأطعمة ومناسبات الطعام، لذا احتجنا إلى أن يكون فيه شيء مما يقوله العرب عن الطعام وأسمائه، وما يتمادحُون به ويتهاجَوْن. وبهذا يكون الكتاب قد شملَ كل شيء وعمَّه، مما يدخُل في هذا الباب، ولولا أن يخرج من مقدار شهوةِ الناس واستحسانِهم، لكان الخبرُ عن العرب والأعراب أكثرَ من جميع هذا الكتاب.

والطعام ضروب وأنواع وأشكال وألوان. والدعوة اسم جامع، وكذلك الزلَّة.وقد تعني الوليمة. ثم منه العُرس والخُرْس والإعْذار والوكيرة والنقيِيعة. والمأدُبَة تجمع هذا كلَّه، فهي اسم لكل طعامٍ دُعيت إليه الجماعات. وقد قال طرفة بن العبد:

نحن في المَشْتاةِ نـدعو الجفَلَـى ... لا تـرى الآدِبَ فينـا ينْتَقِـر

وسنعود إلى هذا إن شاء الله.

وجاء في الحديث الشريف «القرآن مأْدُبة الله».

وقد رأى ناس أنّ الوليمةَ طعامُ العُرس تحديداً، لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حين عّرس: «أولِمْ ولو بشاة». وكان عبد الله بن عَوْن بن أرطبان، ناسكَ البصرة ومحدثها بعد الحسن البصري وبكر بن عبد الله المزني، يذم أبا عثمان عمرو بن عبيد الذي اعْتَزَل

حلقة الحسن البصري مع صديقه واصل بن عطاء، فكانا شيخي المعتزلة، ويقول عنه: إنه لا يُجيب الولائم، وقد تابع الأصمعي ابنَ عَوْن في ذلك. وكانا يجعلان طعام الإملاكِ والإعراسِ والسُّبُوع والخِتانِ وليمة.

والعُرس معروف، إلا أنّ المفضَّل الضبِّيّ زعم أن هذا الاسم مأخوذ من قولهم: «لا عطرَ بعد عرُوس»، وكان يقول إن رجلاً يدعى باسم «عروس» مات، وتزوجت امرأتُه بعده رجلاً ذميماً قبيحاً أبْخر، فمرّت ذات يوم بقبر عروس، فبكته، فلما نهضت سقط منها حُقُّ عطرٍ، فقال لها زوجُها: «خُذي عطرَك»، فقالت: «لا عطر بعد عروس». وكان الأصمعي يوافقه ويجعلُ العروس رجلاً بعينه، إلا أنه كان يقول: إن هذا الرجل بنى على امرأة، فلم يتعطر لها، فسُمِّيَ بعد ذلك، كلُّ بانٍ على أهله بهذا الاسم. ومثل هذا لا يثبتُ إلا بان نستفيضَ في الشعر، ونبحث في الأخبار، وليس هنا موضعُ ذلك.

وأما الخَرس فالطعام الذي يُتَّخذ صبيحة الولادة للرجال والنساء، وقالوا إن أصل الخُرْس مأخوذ من الخُرسة، والخَرسة طعام النُّفسَاء، ثم صارت الدعوة إلى طعام الولادة خُرْساً. قالت جاريةٌ ولَدت حين لم يكن لها من يخدُمها، ويقدّم لها ما يُقدَّم للنّفساء: «تخرسي، لا مُخرِّسةَ لك». وقيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دعي إلى طعام قال: «إلى عُرْس أم خُرس أم إعْذار؟» فإن كان في واحد من ذلك أجاب، وإلا لم يُجب. وقد كان مُساوِر الورّاق شاعراً فيه دُعابة، وكان متصلاً بالبيئات الدينية في الكوفة، ويُعدّ أحياناً من المحدّثين، وله شعر في مدح الإمام أبي حنيفة، ولكنه قال في هجاء بني أسد:

إذا أَسَـــدِيّةٌ وَلَـــدت غُلامـــاً ... فَبَـــشِّرْها بلُـــؤْمٍ فـــي الغُـــلامِ

تُخَرّسُـــها نـــساء بنـــي دُبَيْـــرٍ ... بأخْبثِ مـــا يَجِـــدْنَ مـــنَ الطعـــامِ

وأما ابن القُمَيْئة عمرو بن قميئة بن ذُرَيح من بكرْ بن وائل، الذي كان من عصر مُهَلْهِلِ بنِ ربيعة التَّغْلبي. وقد صحب امرأ القيس في رحلته إلى بلاد الروم، وهو الذي عناه امرؤ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدّربَ دُونَه وأيقــن أنّــا لاحقــان بقيــصرا

وقد مات في تلك الرحلة، فقد هجا قوماً بقوله:

شـــــرٌكمْ حاضـــــرٌ وخيـــــركُمُ ذ رُّ خَرُوسٍ مـــن الأرانـــب، بكْــرِ

وقد كان خالد بن صفوان، وقد ذكرناه من قبل - يقول عن التمر: «تُحفَةُ الكبير، وصُمْتةُ الصغير، وتَخْرِسةُ مريم» لأن مريم عليها السلام أكلت أول ما أكلت التمر بعد ولادتها عيسى عليه السلام. فالخُرْس طعام الولادة، والعُرس وليمة العرس، والخَرُوس صاحبة الخُرْسة.

والإعْذارُ طعام الخِتان، والعِذارُ والعَذِيرة والعَذِير بمعنى الإعذار أي طعام الختان. وفي الحديث: «الوليمةُ في الإعذارِ حقّ». والإعْذار في الأصل الختان، ويُقال صبيٌّ معذُور وصبيٌّ مُعْذَر، وفي السّنَّة المطهرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وُلِدَ معذوراً، أي مختوناً. وقال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: «كُنّا إعذار عام واحد» أي خُتِنوا في عام واحد. وقال النابغة الذبياني:

فـــنُكِحْنَ أبْكـــاراً وهُـــنَّ بإمَّـــةٍ أعْجَلـــنَهُنَّ مَظنَّـــةَ الإعـــذارِ

فقال الأولون إنهم سمُّوا طعام الإعذار إعذاراً للملابسة والمجاورة.

وكان الأصمعي يقول: قد كان للعرب كلام على معانٍ، فإذا راحت تلك المعاني وتبدلت، لم يعد أحد يتكلّم بذلك الكلام. فمن ذلك قولُ الناس اليوم: ساقَ إلى المرأة صَدَاقها. وإنما كان هذا يقال حين كانوا يدفعون في الصداق إبلاً وغَنَماً، فيسُوقُها. فإذا كانوا يدفعُون الصَّداق ذهباً وفضَّة أو عقاراً أو أرضاً، فلا يقال: ساق إليها الصَّداق. وفي قياس قول الأصمعي أن أصحاب التمر الذين كان التمر والنخل دياتهم ومُهورَهم، لم يكونوا يقولون: ساق فلانٌ صَدَاقه. ومن ذلك أنهم كانوا يضربُون على العروس البناء، كالقبَّة والخيمة والخباء، على قدر الإمكان. فيقال: بنى عليها، اشتقاقاً من البناء، ولا يُقال هذا اليوم، فالعروس إما أن تكون مقيمة في مكانها، أو تتحول إلى مكان آخر.

وكان الأصمعي يَعُدّ من هذه الأشياء ليس لذكْرِها ها هنا وجه، ولكنا نذكر منها أن الأصمعي كان يقول: لا يقُولَنَّ أحدُكم أكلتُ مَلَّة، بل يقول: أكلتُ خُبْزَة. وهذا صحيح، إذ إن الملَّة الترابُ الحارُ والرَّماد أو الجمر يخبز عليه، فالملَّة موضع الخبزة. وكذلك كان يقول في الراوية والمزادة يقول: الراوية هو البعير أو البغل أو الحمار الذي يُسْتَقى عليه الماء، والعامة تسمي المزادة راوية، وذلك جائز على الاستعارة والملابَسة والمجاورة. والمزادة الوعاء من جِلْد يُحمَل به الماء، وقد يُسمّى الرجل المستقي راوية أيضاً. وقال بعضهم إنهم اشتقوا اسم راوية الشعر أو الأخبار من ذلك. فصار الراوية من يستقي، أو من يروي الأشعار.

ومن طعام العرب الوَكيرة، وهو طعام البناء. فقد كان الرجل يطعم من يبني له، فإذا فرغ من بنائه، تَبَرّكَ بإطعام أصحابه ودعائهم له بالبَركة. ولذلك قال قائلهم:

خيرُ طعامٍ شهِدَ العشيرة ... العُرسُ والإعذارُ والوكيرة

ويُسمُّون ما ينحرون من الإبلِ من عُرْض المَغنم النقِيعة. قال الشاعر:

إنّا لنضرِبُ بالسيوفِ رؤُوسَهم ... ضَرْبَ القُدار نقيعةَ القُدّام

والعَقِيقة دعوة على لحم الذبيحة التي تذبح عن المولود إذا بلغ اليوم السابع، والعقيقة في الأصل الشعر الذي يكون على رأس المولود وهو في بطن أمه، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «في العقيقة عن الغلام شاتان مثلان، وعن الجارية شاة» وفيه أنه صلوات الله وسلامه عليه عَقَّ عن الحسن والحسين رضي الله عنهما. ويقولون: عقّ عن ابنه، وعَقَّ عليه. وقولهم: عُقّوا عنه، أي احلِقوا عقيقَتَه، أو اذْبَحُوا له شاةً ثم سمُّوا ذلك الطعامَ كله باسم الذبيحة.

فأما الدعوة إلى هذه الأصناف كلّها، فمنها المذموم القبيح، ومنها الحَسَنُ الممدوح. فالمذمُوم النَّقَرى والممدوح الجَفَلى. ذلك أن صاحب المأدبة أو من

ولاه دعوةَ الناس، يأتي إلى القوم وهم في مجالسهم وأنديتهم، فيقول أجيبوا دعوة فلان إلى الطعام، فيكون قد جعلهم جَفْلَةً واحدة، وهي الجُفالة. والجَفلة في الأصل الشجرة الكثيرة الأوراق، أو هي جِزَّةُ الصوف، فذاك هو الدعاء المحمود. وإذا انْتَقَر فقال: قُمْ أنت يا فلان، وقُمْ أنت يا فلان فدعا بعضاً وترك بعضاً، فقد انتقر، كما ينقر الطير حبَّةً من هنا وحبَّة من هنا: فهذا النقَرى، وهو المذموم، قال الهذلي:

وليلةٍ يصطَلي بالفَرْثِ جازِرُها يخُصُّ بالنقَرى المُثْرين داعيها

يقول: لا يدعو فيها إلا أصحاب الثروة وأهل المكافأة، وهذا قبيح، وقال في ذلك بعضُ ظُرفائنا:

آثَرَ بالجَدْيِ وبالمائدة من كان يرجُو عندَه الفائدة

لو كان مكوكان في كفِّهِ من خَرْدلٍ ما سقطت واحِدة

ولذلك افتخر طَرَفة بن العبد البكري، أصغر أصحاب المعلقات السبع سِنّا، ويسمى الغلام القتيل، ويُقْرن بالملكِ الضلّيل، وهو امرؤ القيس، لأن طرفةَ حمل الكتابَ من الملك إلى عامله وفيه الأمر بقتلِه. قال طرفة:

نحن في المشْتاةِ ندعو الجَفَلى لا ترى الآدِبَ منّا يَنْتَقِرْ

فهو يفتخر بأنهم يدعون الناس في مآدب الشتاء جملة واحدة، وليس من صاحب مأدبة منهم ينتقي من الناس من يدعوهم.

ولمّا غزا بَسطامُ بن قيْس الشَّيْبانيّ مالكَ بن المُنْتَفِق الضبِّيّ في يوم الشقيقة، وكان لضبّة على شيْبان، هبَّ عاصمُ بن خليفة الضبّيّ لنجدة مالك، وشد على بسطام فقتله، وهو يقول: هذا وفي الحفلة لا يدعوني ، ويروى: وفي الجَفلة لا يدعوني. كأنه حقد عليه، حين كان يدعو أهل المجلس، ويترك دعوة عاصم.

والطعام المذموم عندهم ضُروب وأنواع، منها طعام الذي يدّعي الجوع، والأكول الذي لا يشبع، والفقراء والمساكين، والبائسين الحمقى، واللئام والجبناء والفقراء والضعفاء. من ذلك شجر الحنظل وحَبُّ الحنظل، والقُرَّة،

والخبز اليابس، ومنقوع حبوب العنب أوّل ما يظهر، والعظمُ ذو المخّ، والحيات واليربوع. أما المجدوح فليس يدخل في هذا الباب. والمجدُوح كان أنهم إذا بلغ منهم العطش مُنتهاه، كانوا ينحرون الإبل، ويتلقون دماءها بالجفان والقصعات، كيلا يضيع منها شيء. فإذا برد الدم ضربوه بأيديهم، وحرّكُوه بالعيدان، وثم تركوه، حتى ينفصل ماؤه من ثُفْلِه، كما ينفصل الزُّبد بالمَخْض والجُبن بالأنفحة، فيتقسمون ذلك الماء، ويروون به عطشهم، ويتبلَّلُون به حتى يخرجوا من المفازة. وكان أميَّة بن أبي الصَّلْت قد قرأ الكتب، وحرّم الخمرَ وشكَّ في الأوثان، والتمس الدين وطمع في النبوة، وكان داهية من دُهاة ثقيف، وثقيف من دهاة العرب، وقد بَلَغ من اقْتداره أنه كان همَّ بادِّعاء النبوة، لأنه في أسفاره خالط رجال الدين من اليهود والنصرانية، وعرف خصال النبي المنتظر، ومع ذلك فإنه لم يُسلم، بل ظل يحرض قريشاً على مقاتلة النبي صلى الله عليه وسلم بعد غزوة بدر. قال:

ولا يتنــــازَعُون عنــــان شِـــرْكٍ ... ولا أقـــواتُ أهلِهِـــمُ العُـــسومُ

ولا قَـــرِدٌ يُقـــزِّز مـــن طعـــامٍ ... ولا نـــصِبٌ ولا مـــولىً عـــديمُ

والعُسوم الخبز اليابس.

وقال معاوية بن أبي ربيعة الجَرْمي في القُرَّة، وهو يُعيِّرُ بني أسد وناساً من هَوازِن:

ألم تَــرَ جُرْمــاً أنجــدت وأبــوكُمُ ... مع القملِ في حَفْر الأُقَيْصِر شارعُ

إذا قُرَّةٌ جاءت يقول أُصِــبْ بهــا ... سوى القمل، إني من هوازن ضارعُ

والقُرّة الدقيق المختلط بالشعر. ذلك أنّ الرجلَ منهم كان لا يحلِقُ شعر رأسه إلا على رأسِه قبضة أو حَفْنةٌ من دقيق ليكون صدقة على الفقراء البائيسن، وطهوراً لهَ. فمن أخذ ذلك الدقيق للأكل عابوه، وشنّعوا عليه.

ومحمد بن مُناذِر شاعر بصريّ تميميّ، لكنه لم يكن يجيدُ الشعر إلا في المراثي، وقالوا في شعره إنه مُهجَّن، لا يلحقُ بالفحول، ولا ينتمي إلى طبقة الشعراء المحدثين. قال ابن مناذر في أكل الحيات:

فإيّـــاكمُ والرِّيـــفَ لا تَقْرَبُنَّـــهُ   فإن لديه الحَتْفَ والمــوتَ قاضــيا
وهمْ طردوكُمْ مــن بِــلادِ أبــيكُمُ   وأنتم حُلــولُ تَــشْتَوون الأفاعيــا

وأمّا في المغازي والأسفار، فإنّ لهم عادات في الماء، فيمدحون مَن آثَرَ صاحبَه، ولا يذمّون من أخذ حقّه منه، وإن كان لم يُصب منه الرَّواء، وهو ماء المُصافَنة، والمُصافنة تقاسُم هذا الماء بعينه. وذلك أن الماء إذا نقص عن حاجتهم حتى الارتواء، اقْتَسمُوه فيما بينهم بالسواء، ولم يكن لرئيس القوم، ولا لمن يأخذ رُبْع الغنيمة، ولا لمن يتولى تسوية الصفوف، ولا لمن يتولى القسمة بين الناس، فضلٌ على أخَسِّ القوم وأدناهم. وهذا خُلُقٌ عام ومكرُمَةٌ عامَّة في الرؤساء.

وقصة كعبِ بنِ مامَة في المُصافنة مشهورة، وقد تحدثنا بها، وعدّه كثيرون أكرمَ العربِ وأجودَهم. وقد افتخر بهذا أبو فراس همام بن غالب التميمي الدارمي الفرزدق، وهو أحد أفخرِ ثلاثة الشعراء الأمويين، والآخران الأخطل وجرير، وأجزل المقدمين في الفخر والمدح والهجاء، قال الفرزدق:

فلمّـــا تــصافنّا الإداوةَ أجهَــشت   إلي غضونُ العنبــريِّ الجُراضِــمِ
على ساعةٍ لو أنّ في القوم حاتِماً   على جوده ضنَت به نفــس حــاتِمِ

وبتلك الأثَرة مُدِح كعبُ بن مامة حتى صار فخراً لأهله وقبيلته، حين آثر بنصيبه رفيقه النمريّ، فقال الشاعر:

ما كان من سُوقَةٍ أسقى على ظمأٍ   خمراً بمــاءٍ إذا ناجودُهــا بــردا
من ابن مامةَ كعب ثَمَّ عــيَّ بــهِ   زوُّ المنيّـــة إلا حَــــرَّةً وقَــــدا
أوفى على الماء كعبٌ ثُمَّ قيل لـــه   رِدْ كعبُ، إنــك ورّادُ، فمــا ورَدا

وقد يُصيبُ القومَ في باديتهم وفلَواتهم من جَهْد الجُوع والعطش، مالم يُسمع به في أمة من أمم الزمان، ولا في أرضٍ من الأراضي، ولا في بلد من البلدان. وإنَّ أحدَهم ليجوعُ حتى يشدَّ على بطنِه الحجارة ليوقفَ قرقَرَتها،

وحتى يلجأ إلى شدِّ مَعاقِدِ الإزار، وينزعَ عِمامَته عن رأسه، ليشدَّ بها بطنَه. وإنمّا العمامة للإعرابيّ كالتّاج للملك.

والأعرابيّ يجد في رأسه من البرد - إذا كان حاسراً - ما لايجده غيره من الناس، ويكتوي بالحرِّ - إذا نزع عمامَته - كما لا يكتوي أحد، لطول ملازمة العمامة لرأسه، ولكثرة طيِّها طبقاتٍ فوقَ طبقات، وتضاعف ثَنْيها بعضها فوق بعض. ولربّما اعتم الأعرابي بعمامتين، ولربّما كانت العمامة فوق قَلَنْسُوَةٍ سميكة. قال مصعب بن عُمير الليثي:

سيروا فقد جُــنْ الظــلام علــيكمُ فبئسَ امروٌ يرجو القِرى عند عاصمِ

دفعنا إليه وهــو كالــذيخ حاظيــاً نــشدّ علــى أكبادنـــا بالعمـــائمِ

قال أبو سعيد الخُدْريّ سعد بنُ مالك بنِ فنان الصحابيّ الأنصاري ومن أكثر الذين رووا عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أخذت حجراً فعصبتُه على بطني من الجوع، وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسألُه. فلما سمعته وهو يخطب: من يَستعفِّ يعفّه الله، ومن يسْتَعِن يُعِنْه الله، رجعت ولم أسأله».

وقال أعرابي: «جعتُ حتى سمعت في مسامعي دويّاً، فقلت: مالي إلا الصيد، فلم أُوَّفق، وكأنما انقطعت الطرائد، ثم لمحت مغارة، فجئتها فلقيت فيها جرو ذئب، فذبحته، وشويته وأكلتُه، وادَّهَنْت بدهنِه، واحتذيت جلدَه نعلاً».

والمغيرة بن شعبة الثقفي أسلم قبل صلح الحديبية، وشهدها مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان من أصحاب الرأي والدهاء في العرب، وكان يلقب بمغيرة الرأي. وفي معركة القادسية كان على رأس جيش المسلمين سعد بن أبي وقاص، أحد العشرة المبشَّرين بالجنة، وأحد الستّة أصحاب الشورى الذين انتقاهم الخليفة عمر بن الخطاب حين طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، ليختاروا خليفة منهم. وقد ضاقت الأحوال بجيش سعْدٍ ضيقاً شديداً حتى لقد خشي ألا يتمكنوا من خوض المعركة، فطلبَ النجدة من الخليفة عمر، فأرسل إليه المغيرة بالمدد، وكان معه سبعون من المطايا، فنحروها، وأكلوا لحومَها، وادَّهَنُوا بشحومها، واتخذوا من جلودها نعالاً.

وذكر الأصمعي عن أبي سَلَمة عثمان الشحام - وكان راوية محدثاً من أهل البصرة - عن أبي رجاء العُطارديّ، قال: «لمّا بلغنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أخذ في القتل هربنا، فلمّا جعنا لم نجد إلا فخذَ أرنب دفيناً، فشويناه وأكلناه، فلا أنسى تلك الأكلة». وكان الأصمعي إذا حدث بهذا الحديث قال: «نِعْمَ الإدام الجوع، ونِعْم شعارُ المسلمين التَّخْفيف».

وسأل مدينيٌّ أعرابياً: «أيَّ شيء تأكلون، وأي شيء تدعون؟». قال: «نأكل مادبَّ على الأرض ومشى إلا أمَّ حُبَيْن»، فقال المديني: «لِتَهْن أمَّ حُبَين العافية». ووجه الاستغراب أن أمَّ حُبين دويبة عريضةُ الصدر عظيمة البطن، وتشبه الخنفساء. والحَبْن داء يأخذ بالبطن فيعظمُ ويتورّم. ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى بلالاً وقد خرج بطنهُ وعظُم، فقال: أم حُبين، تشبيهاً له بها، وهذا من مزحه مع أصحابه.

وقال الأصمعي: «أخذ أعرابي عظماً وراح ينهش ما عليه، حتّى لم يبق عليه شيئاً، فنظر إلى أولاده الثلاثة، وقال: «أيُّكم لهذا؟». قال الأول: «أعطنيه» قال الأب: «وما تصنع به؟» قال: «ألحسه حتى لاتجد عليه ذرة» قال: «ما قُلتَ شيئاً». قال الثاني: «أعطنيه» فإنني أعيده إليك وما تدري هل هو من عظام اليوم، أم من عظام العام الفائت»، قال: «ما قلتَ شيئاً»، قال الثالث: «أعْطنيه، فإني أدُقُّه دقاً، وأسفُّه سَفّاً، وأجعلُ مُخَّه إدامه». قال الأعرابي: «خذه فأنت له». قال شاعر:

فإنك لم تشبه لقيطاً وفعِلَه	**وإن كنت أَطعمتَ الأرزَّ مع التَّمْرِ**

وثمة أبيات لشاعر آخر يسخر فيها من جماعة من الناس أَمِلَ أن يلقى الزادَ عندهم، فوجدهم محتاجين من يعولُهم:

إذا انْقاصَ منها بعضُه لم تجد لَها	**رؤُوباً لما قدْ كان منها مُدانيا**
مُعوَّدةُ الأرْحال، لم ترْقَ مرقَباً	**ولم تَمْتَطِ الجُونَ الثلاثَ الأثافيا**
ولا اجْتزعتْ من نحوِ مكَّةَ شقَّةً	**إلينا، ولا جازَتْ به العِيسُ واديا**

ولكنّهــا فـــي أصــلِها مَوْصــليَّةٌ مجاورةٌ فيضاً من البحــرِ جاريــا
أتتنا تُزجِّيهــا المجــاذيف نحونَــا وتعقُب فيمــا بــين ذاك المراديــا
فقلتَ: لمن هذي القدورُ التي أرى تُهيلُ عليها الريحُ تُرْبــاً وســافيا؟
فقالوا: وهل يَخْفى على كلِّ نــاظرٍ قــدورُ رقــاشٍ إن تَأمَّــل رائيــا؟
فقلت: متى باللحْمِ عَهْدُ قُــدُوركم؟ فقــالوا: إذا لــم يكُــنَّ عواريــا
الأضّحى إلى الأضحى - وإلا فإنّها تكونْ كنسْجِ العنكبوتِ كمــا هيــا
فلمّا استبانَ الجَهدُ لي في وجوهِهم وشكواهُمُ، ادخلــتُهُمْ فـــي عياليــا
فكنت إذا ما استــشّرفُوني مقــبلاً أشــاروا جمعيــاً لجَّــة وتــداعيا

ولا شك في أنك حفظك الله لاحظت لطف طريقته في تصوير فقرهم، فلديهم قدور إذا انكسر بعضها لا يهتمون برأب الصدع فيه، فهي كلُّها لا يحتاجونها. وهم يرتحلون بها نظيفة، لم يُسوِّدْها الدخان، لأنهم لم يضعُوها على أثافيِّ الموقد. فلما سأل عنها وقد رأى الريحَ تغطيها بالغبار، قالوا إنها مُرقَّشة بسبب الشمس وخلوِّها مما يحفظُ لونها. فسأل عن آخر مرة طبخوا فيها لحماً، فأجابوه بأنها لا يوضع فيها لحم - إذا لم تكن معارة - من الأضحى إلى الأضحى، فأشفق عليهم الرجل واحتسبهم في عياله.

وهذا يقودنا إلى الحديث عن القدور والجِفان وماله علاقة بالطعام عند العرب. وبلاد العرب في معظم أيام العام بلادُ جَدْب، ولكنهم أحسنُ الناس حالاً في أيام الخِصْب. فلا تظُنَّنَّ أن كل ما يصفون به قُدورَهم وقَصْعاتهم وثريدَهم ومرقَهم وعَصيدتَهم وذبائحَهم باطل، فما يُنكِر كرمَهُم وجودَهم عاقل.

قال الأصمعي: كان المُنْتجِعُ بن نبهان أوثق الرواة، وما من عالم في العراق لم يسأله ويأخذ عنه، وقد سألته مرة عن خِصْب البادية، فقال: «وهل الخِصْبُ إلا هناك. والله كان الخير يزيد حتى لترى الكلب يمرّ باللحم والسمن وكأنه معروض عليه، فيتخطاه شِبَعاً. فإذا كانت الكلاب تعافُ الطعام، فكيف يكون الخصب؟».

وقال الأفْوَه الأوْديّ وهو صلاءة بن عمرو بن مالك، وكان من كبار شعراء الجاهلية، كما كان سيد قومه وقائدهم في حروبهم، ولم يكونوا يخالفون رأيه:

فينـا لِثَعْلَبـةَ بـن قـيس جَفنـةٌ ... يأوي إليها فـي الـشّتاءِ الجُـوَّعُ

ومـذانِبٌ لا تُـستعارُ وخيمـة ... سوداءُ عِيـبَ نـسيجُها لا يرقـعُ

وقد كان الشعراء وما يزالون يمدحون الأثرياء والكرماء بقدر ما يذمون البخلاء الأشِحّاء، ومنهم معنُ بنُ أوس المزينيّ، وهو شاعر أدرك الإسلام، وشعره رصين، جيد الصنعة، وقور مليء بالحكمة التي تصدر عن تمرّس بالحياة. دخل الشام، وأقام بالبصرة زماناً، لكنه كان يحن إلى حياته البدوية، وحسبه أن يمدح سُراةَ المدينة كعبيد الله بن العباس، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعاصم بن عمر بن الخطاب وسعيد بن العاص.

وسعيد بن العاص سريٌّ من سراة المدينة المشهورين، ولاه عثمان بن عفان الكوفة، ثم استقدمه، وكان من المدافعين عن عثمان في الفتنة. ثم ولاه معاوية الحرمين، وكان يُعاقِب بينه وبين مروان بن الحكم. ويروى عن كرمه أحاديث كثيرة.

قال معن يذكر قدْرَ سعيد في بعض ما يمدحه:

أخُـو شَـتَواتٍ لا تـزالُ قُـدورُه ... يُحَلُّ علـى أرجائِهـا ثـمَّ يُرْحَـلُ

إذا ما امْتطاها الموقِـدون رأيتّهـا ... لِوَشْكِ قِراها وهي بالجَزْلِ تُـشْعَلُ

سمعتَ لها لَغْطاً إذا ما تَغَطْمَطـتْ ... كَهَدْر الجِمال رزّماً حـين تَجفَـلُ

ترى البازِلَ الكَوْماء فيها بأسـرها ... مُقَبَّضَةً في قَعْرِهـا مـا تَحَلْحـلُ

إذا التطمـتْ أمواجُهـا فكأنّمـا ... يُزَعْزِعها من شدّة الغَلْـي أَفْكَـلُ

ونزل الفرزدق على أبي السَّحْماء، سُحَيْم بنِ عامر، أحدِ بني عمرو بن مَرثد، فمدحه، وذكر في مدحه قُدُوره، فقال:

سألنا عن أبـي الـسحْماءِ حتّـى ... أتيْنـا خيـرَ مطْـروق لـساري

فقلنــا: يــا أبــا الــسَّحْماءِ إنّــا وجــدنا الأزْدَ أبعْــدَ مــن نــزار
فقــام يجــرُّ مــنْ عَجَــلٍ إلينــا أســابيَّ النّعــاسِ مــع الإزار
وقــام إلــى ســلافةِ مُــسْلَحِبٍّ رثــيم الأنــفِ مربــوبٍ بَقــارِ
تــدورُ علــيهمُ والقــدْرُ تغلــي بأبيضَ من سَـديف الكـوْم داري
كــأن تَطُلَّــعَ الترعيــب فيهــا عَــذارَى يَطَّلِعْــنَ إلــى عــذارِي

وكان الكميتُ بنُ زيد بنِ خُنَيْس الأسدي شاعراً خطيباً عاش في الكوفة وكان من شعراء مضر وألسنتها عالماً بالمثالب والمناقب والأيام. قال في صفة القدْر:

إوَزٌّ تَغمّــسُ فــي لُجّــة تغيــب مــراراً وتطفــو مــرارا
كــأنّ الغُطــامِط مــن غَلْيِهــا أراجيــزُ أسْــلمَ تهجُــوَ غِفــارا

ولأن القدور رمز لكثرة الطعام، وهذا رمز للجود والكرم وكثرة الآكلين، فإنهم كانوا يبالغون في وصف ضخامتها واتساعها حتى يصلوا بها إلى درجة لا يقدر أحد على تصديقها. وكانوا يتفاخرون ويتهاجَوْن بهذا. فقد حدثني محمد بن يسير فقال، لمّا قال شاعر:

إنّ لنا قِــدْراً ذراعــان عَرضُــها وللطــولِ منهــا أذرعٌ وشِــبارُ

قال آخر: «وما هذه؟ أخزى الله هذه قِدراً بين القدور» وراح يصف قدره وكأنه يصف وادياً، حتى جعل الهضاب والجبال والغول حجارة تستند إليها، فقال:

بَوّأْتُ قِدْري موضــعاً فوضــعْتُها برابيةٍ من بــينِ ميْــتٍ وأجْــزَعِ
جعلت لها هَضْبَ الرِّجامِ وطِخْفَــةً وغُولاً أثافيَ دونهــا لــم تُنّــزعِ
بقِدرٍ كأن الليــلَ سُــحْمَةَ قَعْرِهــا ترى الفيل فيها طافياً لــم يَقطــعِ
يُعجّــل للأضــياف واري سَــديفُها ومن يأْتِها من سائر الناس يَــشْبعِ

وأنقل عن أبي عبيدة معمر بن المثنى اللغوي العالم بأيام العرب وأخبار الجاهليين، وقد درس على أبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب، فكان أحد

الثلاثة في البصرة، هو وأبو زيد والأصمعي. قال أبو عبيدة: لمّا قال الفرزدق:

وقِدر كحيْزُوم النعامـــة أُحِمْــشَتَ بأجْذال خُشْبٍ زال عنْها هــشيمُها

قال ميسرةُ أبو الدرداء: وما حَيْزُوم النعامة؟ أيفتخر بقَدر ليست أكبر من وسط النعامة وصدرِها؟ أخزى الله هذه القدر، والله ما تُشْبِعُ الفرزدق وحده. ولكنّي أقول:

وقِدْرٍ كجَوْف الليل أحْمَشْتُ غَلْيَهــا ترى الفيلَ فيها طافياً لــم يُفــصَّلِ

وممّن أورودوا صفة القِدْرِ أو الخوان في مدائحهم الشاعر أبو كثير عبد الله بن الزبير الأسدي، وهو بالطبع غير عبد الله بن الزبير بن العوام، بل إن الشاعر هجا القائد عبد الله بن الزبير هجاءً مرّاً. وقد كان من الهجائين للناس المرهوب شرهم. وهو شاعر كوفي المنشأ والمنزل، وكان أموي الهوى، وأكثر شعره في مدح أسماء بنِ خارجة بنِ حصن بنِ حذيفة الغزاري، وهو سريٌّ من سراة الكوفة، وإن كان لم يتولَّ أي عمل للسلطان، وهو أحد ثلاثة يُعدّون أجواد الكوفة الظاهرين.

قال عبد الله بن الزبير الأسدي يمدح أسماء بنَ خارجةَ بنِ حصنِ الفزاري بالكرم والجود، ويصف خوانه بالاتساع، وبأن عليه جَمَلاً في سنته الثامنة أو التاسعة، وليس ذبيحة صغيرة:

ألم ترَ أن المجــدَ أرســل يبتغــي حليــفَ صــفاءٍ قــابلاً لا يزايلُــهْ
تخيَّرَ أسماءَ بن حــصن فبُطِّنَــتْ بفعــلِ العُلــى أيمانُــه وشــمائلُهْ
ترى البازلَ البُخْتِيّ فــوقَ خوانِــه مُقطَّعــــة أعــــضاؤه ومفاصــــلُهْ

وقد يزيدون في المبالغة عن الحدّ، ويأتون بما لا يقبله العقل، من هذا مدحُ الفرزدق للعُذافِر بن زيد، أحد بني تَيْم اللّات بن ثعلبة، فقد قال فيه وهذا ليس فيه صفة القِدر:

لِعمرُكَ ما الأرزاق يــوم اكتيالهــا باكثرَ خيراً مــن خــوان العُــذافِرِ

ولو ضافَه الدجّال يلتمس القِرى وحل على خبّازه بالعساكرِ
بعُدَّة يأجوج ومأجوج جُوَّعاً لأشْبَعهم شهراً غداء العذافر

ومن هؤلاء الشعراء الحكمَ بنُ عَبْدل الأسدي الغاضريّ. وهو هجّاء خبيث اللسان، وكان أعرج أحدب، ولكنه كان من أطيب الناس وأملحهم نادرة، وشعره يدل على خفةِ روحه وحضور بديهته. لكنه كان كثير الهجاء حتى للولاة، فاتقى لسانَه الكبير والصغير، إلا بِشْرَ بنَ مروان بن الحكم بن أبي العاص، وهو أخو الخليفة عبد الملك بن مروان، ووالي الكوفة في عهده، ثم البصرة معها، وكان ليِّنَ الولاية، سهلَ الحجاب، طلْقَ الوجه، كريماً، كما كان صاحبَ شرابٍ وينادم عليه، وقد كان مجلسُه في الكوفة ثم في البصرة يتَّسع للشعراء جميعاً حتى من المختلفين من أمثال جرير والفرزدق والأخطل وكُثَيِّر وأعشى بني شيبان وغيرهم. وكان يَلذُّ له أن يشعِلَ الخصومةَ بين الشعراء. قال فيه ابن عبدل:

لو شاءَ بِشْرٌ كان من دُون بابهِ طماطِمُ سودٌ أو صَقالبَةٌ حُمْرُ
ولكنّ بشراً أسهل الباب للّتي يكون لبشرٍ عندها الحمدُ والشكْرُ
بعيدُ مَرادِ العين ما ردّ طرفه حِذارَ الغواشي بابُ دارٍ ولا سَتْرُ

وقد كانت القدور أحياناً وسيلة من وسائل التهاجي بين الشعراء، فلم تعد مجرد وسيلة من وسائل الطعام، بل صارت دليلاً على البخل والكرم. من ذلك مهاجاة ومفاخرة بين الفضلِ بنِ عبد الصّمد الرقاشيّ وابن يسير. وقد كان الفضل من شعراء البصرة العابثين الماجنين، وقد مدح الرشيد وأجازه، إلا أن انقطاعه كان إلى آل برمك، وهو من القِلّة الذين ظلوا على وفائهم لهم بعد نكبتهم. فقد ظل يزورهم في سجونهم، ويرثي موتاهم، قال الرقاشي في وصف القِدْر:

لنا من عطاء الله دهماءُ جَوْنة تناولُ بعدَ الأقربين الأقاصِيا
جعلْنا ألالاً والرِّجامَ وطِخفة لها - فاستقلّت فوقهنَّ – أثافيا

مؤدِّيَــــةً عنـــا حُقـــوق محمـــد إذا ما أتانا بـــائسَ الحـــالِ طاويـــا
أتى ابنُ يسيرٍ كي يـــنفس كَرْبَـــه إذا لم يُرح وافى مع الصُّبْح غاديا

وكان يعرّض بمحمد بن يسير الرقاشيّ وقد حدثتك عنه من قبل، فأجابه ابن يسير، فقال:

وثلمـــاءِ النـــواحي ولا يَـــرى بها أحد عيبـــاً ســوى ذاك باديـــا
ينادي ببعضٍ بعضُهم عند طلعتــي ألا أَبْشروا هذا اليــسيريّ جاثيــا

وقال في قِدْر الرقاشيّ:

قِدْر الرقاشيّ لـــم تُنقـــر بمنقـــار مثل القُدور، ولم تُفْتَضّ من غـــارِ
لكنّ قِدرَ أبي حفصٍ - إذا نُـــسبت يومـــاً - ربيبـــةُ آجـــام وأنْهـــار

فاعترض بينهما أبو نواس الحسن بن هانئ، وقد كانت بينه وبين الرقاشيّ مهاترات شعرية، فقال يهجو قدر الرقاشي:

ودَهماءَ تُثْفيها رقـــاش إذا شـــتت مركّبـــــــةِ الآذان أمِّ عيـــــــالِ
يَغصّ بحَيْزوم البعوضةِ صـــدرُها وتُنزلِهـــا عفـــواً بغيـــر جِعـــال
ولو جئتَها ملأى عبيطـــاً مُجـــزّلاً لأخرجتَ ما فيهـــا بعُـــود خِـــلالِ
هي القدرُ قدرُ الشيخ بكر بن وائلٍ ربيعِ اليتـــامى عـــامَ كـــلِّ هُـــزالِ

وقال أبو نواس في قدْر الرقاشيّ أيضاً:

رأيتُ قُدورَ الناس سوداً على الصّلى وقِدْرَ الرقاشيّين زهـــراءَ كالبـــدْرِ
ولو جئتَها ملأى عبيطـــاً مُجـــزّلاً لأخرجتَ ما فيها على طرفِ الظّفْرِ
يُبيِّنُهـــــا للمعتفـــــي بِفنـــــائِهم ثلاثٌ كحظِّ الثاء من نُقَـــط الحبْـــرِ
تَبـــيَّنُ فـــي مِحْراثِهـــا أنَّ عُـــودَه سليم صحيح، لم يُصِبْه أذى الجَمْرِ
إذا ما تنادَوا بالرحيل ســـعى بهـــا أمامَهم الحَوْليّ مِـــن وَلَـــدِ الـــذَّرِّ

وقال بعض الشعراء وهو يهجو ابنَ حبّار:

لو أنَّ قِدْراً بكت من طول ماحبست من الحُفوفِ بكتْ قدْر ابن حبّـــارِ

ما مسَّهاً وسمٌ مُذْ فُـضَّ مَعْـدِنُها   ولا رأت بعد نار العَيْنِ مـن نـارِ

والشعوبيون المبغضون لآل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومنهم القادة الذين فتحوا الفتوح والبلدان، ورفعوا راية الإسلام في كل مكان، يتزيَّدُون في تعيير العرب بجفاف عيشِهم وقسوتِه وخشونة ملبسهم ومسكنهم ومركبهم، ويجعلون كل نعيم عنهم بعيداً، حتى لتظنّ أن أحداً منهم لم يكن سعيداً، ولا ترك في العيش الكريم المنعَّم ذكراً حميداً. والحقيقة أن العرب من أحسنِ الأمم حالاً إذا جاد السحاب بالغيث. وطبيعة حياتهم وأرضهم تفرض هذا، ألا ترى كيف سمّوا المطر غيْثاً وهو من الغوْث؟ فإذا جادت السماء بغيثِها، وامتلأت الأرض بالكلأ والماء، فعند ذلك يقول قائلهم: «مرعى ولا أكولة، وعشب ولا بعير».

وإذا نظرت في أشعارهم علمت أنهم قد عَرَفوا الطيِّبَ من الطعام وأكلوه. لأن الناعم من الطعام لا يكون إلا عند أهل الثراء وأصحاب العيش الرغيد. قال زياد بنّ فيّاض يذكر الدرْمَكَ وهو الدقيق الأبيض:

ولاقت فتى قيس بن عيلان ماجداً   إذا الحربُ هرَّتْها الكُماةُ الفوارسُ

فقام إلى البَرَكِ الهجـان بـسيفِه   وطارَتْ حِذارَ السيف دُهْمٌ قناعسُ

فصادفَ حدّ السيف قبّـاءَ جلْعَـداً   فكاست وفيها ذو غرارَيْن نـائسُ

فأطعمَها شـحماً ولحمـاً ودَرْمكـاً   ولم تثننا عنه الليـالي الحنـادِسُ

وقال:

تظــلُ فــي دَرْمــكٍ وفاكهــةٍ   وفي شواءٍ - ما شئتَ - أو مَرَقَةْ

وقال جرير بن عطية الخطْفي أحد أشعر الثلاثة في عهد بني أمية والآخران الفرزدق والأخطل، وذكر الصلائق، وهي الخبز المرقق، والصَّنَاب، وهو ما يتخذ مع الخبز من مزيج الخردل والزبيب، ويُروى البيت «بالسلائق» وهي الجداء المشويّة:

تكلِّفنــي معيــشة آل زيــدٍ   ومن لــي بالــصَّلائِق والــصَّنَابِ

والدّرْمَك هو الحُوّارَى. قال النَّمِر بنُ تَوْلب:

لها ما تشتهي: عسل مُصفًّى وإن شاءت فحُوَّارى بسمْنِ

ومن أشرف ما عرفوا من الطعام الفالوذج، ولم يُطعِم الناسَ أحد منهم ذلك الطعامَ قبل عبد الله بن جُدعان، وكان سريّاً من سراة قريش قبل الإسلام، وله في الكرم أخبار كثيرة، فكان يقيم الموائد، ويُضرب المثل بجفانه التي كان يأكل منها الراكبُ والقائمُ والقاعد. وقد وفد على كسرى. ونقل الفالوذج عن الفرس، فكان يصنعه في مكة ويطعمه الناس.

وقد مدحه بذلك أمية بن أبي الصَّلْت، فقال:

إلى رُدُح من الشِّيزى عليها لُباب البُرِّ يُلْبَك بالشِّهاد

وللعرب الثريد، وهو عامٌّ في أشْرافِهم، وقد اشتهر به الهاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه كان يهشم الخبز لقومه، ويطعم الناس، حتى غلب عليه اللقب، وقد مُدح به في شعر مشهور:

عمرُو العُلا هَشَم الثريد لقومِه ورجال مكَّةَ مُسْنِتُون عِجافُ

والحَيْس طعام ممدوح عند العرب، وهو كالثريد، إلا أن هذا يكون باللّحمْ والمَرَق والحِمِّص، والحَيْس يكون من التمر والأقط والسَّمن تُخلط وتُعجن وتسوى كالثريد. ويزعُم بنو مخزوم أن أوّل من حاس الحيس سُوَيد بنُ هَرَمِيّ. قال الشاعر:

وإذا تكون شديدةٌ أُدعى لها وإذا يُحاس الحَيْس يُدعى جُندُب

والخبز ممدوح عندهم أيضاً. وكان عبد الله بن حَبيب العنْبري، يقال له: آكل الخبز، لأنه لم يكن يأكل التمر، ولا يرغب في اللبن، وكان سيِّدَ بني العنبر في زمانه. وكانوا إذا فخروا قالوا: منا آكلُ الخبز ومنّا مُجيرُ الطير، يعنُون ثوب بنَ شَحْمة العنبري. وهم يقدِّمون اللحمَ على اللبن، ولذلك قال شاعرهم:

ولو أنها لم تـدْفع الرِسْـلَ دمَّهـا رأى بعضُها من بعضِ أنسابِها دما

ويقدِّمون اللحم على التمر، ألا تراه يقول:

قرتنـي عُبَيـدٌ تمرَهـا وقريتهُـا سَـنامَ مُـصرّاةٍ قَليـلٍ ركوبُهـا
فهل يستوي شحمُ السنام إذا شتَا وتمرُ جواثا حين يُلقى عـسيبُها؟

وليس يكون فوق ذبحِ الجمل أو الناقةِ وإطعامِ السَّنام شيء. وكم رأينا الشعراء يَفْخرون بعَقْرِ مطيِّهم، كما عقَر امرؤ القيس مَطيَّتَه للعذارى. والعَقْر هو النجدة، واللبن هو الرِّسْل. قال الهذلي مُرتجزاً وهو يقاتل بني المصطلِق من خُزاعة:

لو أنّ حولي مـن قُـرَيم رجْـلا بيضَ الوجـوه يحملـون النُّـبْلا
لمنعـوني نَجْـدةً ورِسْـلا سُفعُ الوجوه لـم يكونـوا عُـزلا

والهذلي هذا هو صَخْر بنُ عبد الله الخيثمي الهذليّ المعروف بصخر الغيّ، وقد لقب بهذا لخلاعته وشدة بأسه وكثرة شره. وكذلك كان أخوه واسمه «الأعلم» واحداً من صعاليك هذيل: قال صخر:

ألا إن خيرَ الناسِ رسْلاً ونجدةً

حتى لصوصهم وصعاليكهم كانوا يفخرون بالكرم. فقد قُتل صخر الغيّ في إحدى غاراته، فرثاه عدُّوه أبو المثَلَّم، ووصفه بالكرَم. وكان المرار بن سعيد الفَقْعسِيّ وأخوه بدر لصين، وكان بدر أشهر منه بالسرقةِ وأكثرَ غارات على الناس. والمرّار شاعر بدوي أموي، قال:

لهم إبِل لا مِن ديـاتٍ ولـم تكـن مهوراً ولا من مكْسَب غير طائـلِ
ولكن حماها من شَـماطِيطِ غـارة حِلالُ العوالي فارسٌ غيـر مائـلِ
مُخيَّسَةٌ فـي كـل رسْـلٍ ونَجْـدة ومعروفةٌ ألوانهـا فـي المعاقـلِ

ونعود إلى الثريد، فقد كانت له ميزة عند العرب، وكانوا يعدُّونه - بعد الشواء - أفضل طعامهم. فقد وصفه عُبيد بن حصين من بني نمير، وهو

المعروف بالراعي النميري، وقد غلب عليه هذا اللقب لكثرة وصفِه الإبل، وجودة نَعْتِه إياها، وقد كان شاعراً فحلاً من شعراء الإسلام، لكنه أبى إلا الدخول في معركة نقائض جرير والفرزدق، ففضحه جرير، وقيل إن الراعي مات كمداً من هجاء جرير له. قال الراعي في وصف الثريد:

فباتَ يعدُّ النجم من مُستحيرةٍ ... سريعٍ على أيدي الرجالِ جمودُها

وحسان بن ثابت الأنصاري شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم فحل من فحول الشعراء، قال في وصف الثريد:

ثريدٌ كأنّ السمنَ في حَجَراتِه ... نجوم الثريّا أو عيونُ الضياوِنِ

فكأن السمنَ يلمعُ في الثريد، كما تلمعُ نجوم السماء أو عيون القِطط.

وهم يفتخرون بأن أثرَ النعمة يظهر عليهم، فقد افتخر الشاعرُ الجاهليّ القديم بشرُ بنُ خازِم الأسدي، بأن دهن السنام يظهر على لِحاهُم، فقال:

تَرى وَدَك السَّدِيفِ على لحاهُم ... كلَوْن الرّارِ لبَّدهُ الصقِيعُ

وكان الزبير بن عبد المطلب بن هاشم عمُّ النبي صلى الله عليه وسلم شاعراً، وكانت قريش تخشى سطوته ولسانه. قال مفتخراً:

فإنّا قد خُلِقْنا إذ خُلقِنا ... لنا الحَبَراتُ والمِسْكُ الفَتيتُ

وصبرٌ في المواطن كلَّ يومٍ ... إذا خفِّتْ من الفَزعِ البيوتُ

ولولا الحُمْسُ لم يَلْبس رجالٌ ... ثيابَ أَعِزَّةٍ حتّى يموتوا

ثيابُهُمُ شِمالٌ أو عباءٌ ... بها دَنَسٌ كما دَنِس الحميتُ

فميَّز -كما ترى- لباس أهله الأشراف وأهل الثروة من غيرهم الذين ما كان لهم لولا قريش أن يلبسوا إلا عباءات زفرة دنسة، كما يَدْنَسُ زق السمْن أو العسل.

وقال الأعشى الكبير ميمون بن قيس ويكنّى أبا بصير كما يسمون الملدوغ سليماً وهو معدود في الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية.

للَـــــشَّرَّفُ العَـــــوْدُ فأكنافُـــــه — مـــا بـــين حُمـــرْانَ فينـــصُوبِ
خيـــرٌ لهـــا إن خـِـشيَتْ جَحْـــرة — مـــن ربِّهـــا زيـــدِ بـــن أيـــوبِ
مُتَّكِئــــــاً تُقـــــرَعُ أبوابُـــــه — يـــسْعى عليـــه العبـــدُ بـــالكُوبِ

وقال أبو الصَّلْتِ بن أبي ربيعة، وهو أبو الشاعر أميّةَ بنِ أبي الصلْتِ، وقد تقدم ذكره، في مدح سيف بن ذي يزن:

لِيَطْلُبِ الثأرَ أمثال ابــنِ ذي يَــزَنِ — إذ صار في البَحْرِ للأعداء أحــوالا
اشْرَب هنيئاً عليك التــاجُ مُرتفقــاً — في رأْسِ غُمْدان داراً منك محلالا

وليس هذا من باب الإفراط والتهويل. وباب الإفراط كقول الشاعر جِرانِ العَوْد حين وصف نفسه وعشيقته، فقال:

فأصبحَ في حيــثُ التقينــا غُدَيَّـــةً — سَوارٌ وخَلْخالٌ ومِـــرْطٌ ومُطْـــرَفُ
ومُنْقَطِعاتٌ مـــن عُقُـــودٍ تركْنَهـــا — كجَمْرِ الغضا في بعض ما تَتَخَطْرَفُ

ومن الشعراء الذين جنحوا إلى الإفراط والمبالغة عَديٌّ بن زيد، وكان شاعراً فصيحاً من شعراء الجاهلية. وقد كان أبوه زيد بن حمّاد بن أيوب وأهله من النصارى وأصلهم من بني تميم. وقد ملك زيد على الحِيرة زمناً. ولعَدِيٍّ قصة طويلة مع المنذر بن النعمان، والنعمان بن المنذر. قال عَدِيّ:

يـــا لُبينـــى أوقـــدي النـــارا — إنّ مـــن تَهْـــوَين قـــد حـــارا
رُبَّ نــــارٍ بــــتُّ أرقبُهــــا — تقـــضِمُ الهنـــدي والغـــارا

فما من نار تأكل السيف الهندي إلا نار جهنم، ونعوذ بالله منها. وعلى ذكر النار، وصف شاعر آخر ناراً، فجعل حطبَها عيدان اليَلَنْجوج والرَّنْد، وهما من أعواد العطور. قال:

أرى في الهوى ناراً لِظبيةَ أُوقِدَت — يُشَبُّ وَيُــذْكى بعــدَهُنَّ وُقُودُهــا
تُشَبُّ بعيــدان اليَلَنْجُــوج مَوْهِنــاً — وبالرَّنْــدِ أحيانــاً فــذاكَ وقُودُهــا

ونعود إلى طعام العرب، وقد ذكرنا الطعام الممدوح، وذكرنا بعض أصناف الطعام المذموم، ومن الطعام المذموم أصناف أخرى كالخَزِيرة التي تُعاب بها قبيلة مُجاشِع بنُ دارم. قال جرير:

وُضِعَ الخَزِيرُ فقِيل: أين مُجاشِعٌ فَشَمَا جحافِلَه جُرافٌ هِبْلَعُ

وقيل إن الخزيرةَ أو الخزير اللحمُ يُقَطَّعُ قِطعاً صغيرة ثم يطبخ بماء كثير وملح، فإذا اكتمل نُضْجُه ذُرّ عليه الدقيق حتى يتماسك. وقيل: الخزيرة مَرَقة وهي أن تُصفى النخالة المبلولة ثم تُطبخ، وقيل: الخزيرةُ والخزير من الدسم والدقيق.

ومنه السخينة التي تُعاب بها قريش، وهي ما كان أغلظ من الحَساء، وأثقل من أن تُحسى حَسْواً، وهي طعام يُتَّخذ من الدقيق، دون العَصيدة في الرِّقة وفوق الحَساء. وإنما يأكلون السخينةَ والنَّفِيتَةَ في شِدَّة الدهر وغلاء السعر وقلة المال. وقال أعرابي: السخينة دقيق يُلْقى على ماء أو لبن فيُطبخ ثم يُؤكل بتمرٍ أو يُحسى. وكانت قريش تُكثِر من أكلها. فعُيِّرَت بها حتى سُمُّوا سخينة. وقد هجا خِداشُ بن زهير قريشاً بهذا الاسم، حين قال:

يا شَدَّةً ما شَدَدْنا غيرَ كاذبةٍ على سخينةَ لولا الليلُ والحَرمُ

وخِداش بن زهير بنِ ربيعة من عامر بن صَعْصعة من الشعراء الفرسان في الجاهلية، وقد قتلت قريش أباه في حرب الفُجّار.

ومن الذين عيّروا قريشاً بهذا عبد الله بن همّام السَّلوليّ، وقد كان ذا جاه عند السُّفْيانيّين من خلفاء بني أمية، وقد رثى معاوية، كما رثى ابنه يزيد، وهو الذي حرض يزيداً على أخذ البيعة لابنه معاوية بن يزيد. قال عبد الله بن همّام:

إذاً لضربْتَهمْ حتى يعودوا بمكَّةَ يلعقون بها السَّخِينا

ومع أن التمرَ طعام أساسي في أطعمة العرب، فإنهم كانوا يهجون بعض القبائل بأكل التمر، ومنهم الأنصارُ وعبد القيس وعُذْرة وهي القبيلة التي أنجبت أعظم شعراء العشق والهوى العُذْري، وكلُّ من كان بقرب النخل، ولعلهم عَنَوا بهذا أن يقتصر طعامهم على التمر فلا يعرفون اللحم. قال الفرزدق:

ولستُ بسَعْدِيٍّ على فيــه خُبــزَةٌ   ولــست بعَبْــديٍّ حقيبتُــه التَّمْــرُ

وتُهجى بنو أسد بأكل لحم الكلاب، وبأكل لحُوم الناس. والعرب إذا وجدت رجلاً من القبيلة قد أتى فِعْلاً قبيحاً، ألزمت ذلك القبيلةَ كلَّها وشمِلَتْها بقبح فِعْله، كما تُمدح القبيلة بفعل جميل، وإن لم يكن ذلك إلا فعل رجل واحد منها، كما افتخرت قبائلُ بجود أحدِ أبنائها. فتهجو قريشاً بالسَّخِينة، وعبدَ القيس بأكل التمر، وإن كان هذا عاماً في القبيلتين معاً، والتمر والسخينة من أصلح الأقوات للناس. كما تهجو العرب بعض القبائل بأكل الكلب ولحم بني البشر، وإن كان ذلك قد فعله رجل واحد منهم، ولعلنا - إذا فتشنا عن الأسباب - نجده معذوراً في فعله. قال الشاعر:

يــا فَقْعَــسِيُّ لــم أَكَلْتَــه لِمَــهْ؟   لــو خافَــكَ اللهُ عليــه حرَّمَــهْ

فما أكلت لحمَــهُ ولا دَمَــهْ

وقال مُساورُ بن هند، وقد ذكرناه وأبياته عند الحديث عن طعام الخرس، وهو طعام الولادة، وهو يعرِّضُ بأكل بني أسد لحمَ الكلب:

إذا أَســـدِيَّةٌ ولَــــدت غُلامــــاً   فبَــشِّرْها بلُــؤْمٍ فــي الغُــلامِ

تُخَرِّسُــــها نــساءُ بنــي دُبَيّــر   بأخبثِ مــا يجـدن مــن الطعـامِ

تــرى أظفــارَ أعقــدَ مُلْقَيــاتٍ   براثِنُهــا علــى وَضَــم الثُّمــامِ

وقال أيضاً:

بني أسدٍ إن تَمْحَلْ العــامَ فَقْعــسٌ   فهذا إذاَ دهــرُ الكــلابِ وعامُهــا

وقال الفرزدق:

إذا أســـديٌّ جـــاع يومـــاً ببلـــدةٍ   وكان ســميناً كلبُــهُ فهــو آكلِــهْ

وقال شُرَيْح بنُ أوس، وهو يهجو أبا المهوّش الأسديّ:

عيَّرْتَنـــا تمـــرَ العــراق وبُــرَّهُ   وزادُك لحمُ الكلب حسحسه الجَمْرُ

وتُهجى أسدٌ وهذيلٌ وبنو العنبر وباهِلة بأكل لحوم البشر. قال شاعر يهجو هذيلاً:

وأنتم أكلـــتُم ســحفةَ بــن مُحــدَّمٍ رِبــابٌ، فــلا يــأمَنْكُمُ أحــدٌ بَعْــدُ

وقال حسان بنُ ثابت فيهم:

إن سرَّكَ الغدرُ صِرْفاً لا مِزاجَ لـــه فَأْتِ الرَّجِيعَ وسَلْ عن دار لَحْيانِ

قومٌ تواصَوْا بأكلِ الجــارِ بيـــنهُمُ فالشاةُ والكلبُ والإنــسانُ سِـيّانِ

وهجا شاعرٌ بني العنبر، وهو يريد ثَوْبَ بنَ شحمة، فقال:

عَجِلـــتُم مــا صـــادكُم علاجـــي مـــن العُنُـــوقِ أو مِـــنَ النِّعـــاجِ

حتى أكلْتُم طَفْلَـــةً كالعـــاجِ

فهجا ثوبَ بن شحمةَ بأكل لحم امرأة. وكان ثوبُ هذا أكرمَ نفْساً من أن يطعمَ طعاماً خبيثاً ولو مات جوعاً، وله قصص كثيرة، وقد أسرَ حاتماً الطائيّ وظلَّ عنده زماناً. وقال الشاعر يهجو باهلةَ بمثل ذلك:

إن غِفاقـــــاً أكلتْـــــهُ باهلَـــــهْ تَمشَّـــشُوا عظامَـــــهُ وكاهِلَـــــهْ

وأصبحت أمُّ غِفــاقٍ ثاكلَهْ

وهُجيت بذلك أسدٌ جميعاً، بسبب رَمْلةَ بنتِ فائد بن حبيب بن خالد بن نضلة، حين أكلها زوجُها وأخوها أبو أرب. وقد نعى ذلك عليهم عبد الرحمن بن مُسافِع بنِ داره، وهو من شعراء الإسلام من غطَفان، وقد أكثر في هجاء بني أسد، حتى ظفروا به، فقتله واحد منهم:

أفي أن رَوِيتُم واحتلبــتمْ شُــكِيَّكُم فَخَرتُمْ؟ وفيمَ الفَقْعَسِيُّ من الفَخْرِ؟

ورملـــةُ كانـــت زوجـــةً لفـــريقِكُم وأختَ فريقٍ، وهي مُخزيةُ الــذِّكْرِ

أبا أَرِبٍ، كيــف القرابـــةُ بيـــنكم وإخوانِكم من لحم أكفالِها عُجْــرِ؟

وقال:

عُدِمتْ نــساءً بعــد رَمْلَــةِ فائــد بنـــي فقعـــسٍ تـــأتيكُمُ بأمـــانِ

وباتت عروساً ثم أصــبحَ لحمُهـــا جلا فـــي قـــدور بيـــنكُم وَجِفـــانِ

وقال البَراءُ بن رَبْعيّ. أخو مُضَرَّس بن ربعي، وهما شاعران بدويان، وكان لمضرس خبر مع الفرزدق ليس هذا مكانه:

يا صَلْتُ إنّ مَحَلَّ بيتِك مُنْتِنٌ		فارْحلْ فإنَّ العودَ غيرُ صليبِ
وإذا دعاك إلى المعاقِلِ فائِدٌ		فاذكُرْ مكان صِدارها المسلوب
والآن فادْعُ أبا رجالٍ إنّها		شنعاء لاحقةٌ بأمَّ حبيب

وفائد أبو رملة، وحبيب جدها، وأبو رِجالٍ عمّها. وقال في ذلك معروف الدُّبَيْرِيّ:

إذا ما ضِفْتَ ليلاً فَقْعَسِيّاً		فلا تَطْعَمْ له أبداً طَعاما
فإنّ اللحمَ إنسانٌ فَدَعْه		وخيرُ الزّاد ما منعَ الحَراما

وهذا الباب لم نهدف إليه إلا لكي يكون الحديث متكاملاً، ومعظمه مأخوذ من كتب الشعوبية الحاقدين على العرب.

وقد يتوه الأعرابي في الصحراء، أو تتقطَّع به السبل، فيكون لا زاد ولا ماء فيبحث عمن يطعمه ويسقيه. فإذا كان هذا في الليل، فإنه يصعدُ ربوّةً أو تلاً، ليرى أيَّ نارٍ من بعيد، والعرب لا يُطفئون نارَهم، لكي يهتدي بها المسافرُ والتائهُ والضيف. فإذا لم ير الأعرابي ناراً، وهو يطلبُ القرى، فإنه ينبح كما يفعل الكلب، فإذا كان في الجوار كلبٌ، فإنه يجاوبه، فيتبعُ الأعرابي صوته، ولذلك قال الشاعر:

ومُسْتَنْبحٍ أهلَ الثَّرى يطلُبُ القِرى		إلينا ومُمْساه من الأرض نازِحُ

وقال آخر:

عوى حَسَنٌ والليلُ مُسْتَحْلِسُ النّدى		لمُسْتَنْبِحٍ بين الرُّمَيْثَةِ والحَضْرِ

ويدُلّك على أنه ينبح كالكلب وهو على راحلته ليجاوبه الكلب، قول حُمَيد الأرقط:

وعاوٍ عوى والليلُ مُسْتَحْلِس الندى		وقد ضَجَعتْ للفوْرِ تاليةُ النجمِ

وأكثر العرب يبزر كلبَه ليجيب، ولكن منهم بخلاء يمنعون كلبَهم من النباحُ.

قال زيادُ الأعجم، وهو يهجو بني عِجْل:

وتَلَقمُ كلبَ الحيّ من خشية القِرى وَقِدْرُك كالعذراء من دونها سِــتْرُ

وقال آخر:

نَزَلنـــا بعمّـــار فأشْـــلى كلابَـــه علينا، فكِدْنا بـــين بيتيْـــه نُؤكَـــلُ

فقلت لأصـــحابي، أُســـرُّ إلـــيهُمُ: إذا اليومُ أم يومُ القيامـــةِ أطـــولُ

وقال آخر متباهياً ببخله:

أعددتُ للـــضِّيفانِ كلبـــاً ضـــارياً عندي، وفَضْلَ هِراوَةٍ مـــن أرْزَنِ

وقد عُرِف في الشعر العربي بضعة شعراء باسم الأعشى، أشهرهم ميمون بن قيس، ومنهم أعشى تغلب، وهو شاعر إسلامي، شارك بشعره في الحروب التي كانت بين قيس وتغلب واسمه نُعمان بن نجوان، أو ربيعة بن نجوان، من جَشَم من بكر بن وائل. قال هاجياً:

إذا حلَّـــت معاويـــةُ بـــنُ عَمْـــروٍ علـــى الأطـــواءِ، خَنَّقـــتِ الكلابـــا

وقد يجتمع نباح الكلب مع النار، فإذا لم يرَ الضيف النار، سمعَ نُباحَ الكلب. وقد أورد الأخطل هذا في بيت هجا به، وفيه تصوير لأبشع أنواع البخل وأشكاله:

قومٌ إذا استْنبح الأضـــيافُ كلـــبَهُمُ قالوا لأُمِّهِمُ: بـــولي علـــى النـــارِ

لكنّ الشعراءَ مدحوا الكرماء والأجواد منهم بغير هذا، فهؤلاء ألِفت كلابُهم الأضياف والغرباء حتى لم تعد تنبح. قال حسان بن ثابت:

أولادُ جَفنـــةَ حـــول قبْـــر أبـــيهُمُ قبْرِ بن ماريَـــةَ الكـــريمِ المُفْـــضِلِ

يُغْشَوْن حتّى مـــا تَهـــرُّ كلابُهـــم لا يَسْألون عـــن الـــسَّوادِ المُقْبِـــلِ

وقد يفتخر الرجل بأنه يَقْري الضيف، وأنه بيتُه مفتوح لكل طارق فيعمدُ إلى تصوير كلبه، كما قال المرّار الحماني:

أَلِــف النـــاسَ فمـــا ينـــبحُهمْ		من أسيفٍ يبْتغــي الخيــرَ وحــرّ

وكان عِمرانُ بنُ عصام العنزي شاعراً وخطيباً، وهو الذي أشار على عبد الملك بن مروان بخلع أخيه عبد العزيز، والبيعة لابنه الوليد بن عبد الملك، وله في هذا خطبة مشهورة وقصيدة مذكورة، وقد قتله الحجاج بن يوسف الثقفي فيمن قتل، فقال عبد الملك: ولِمَ قَتله؟ ويلَه! قال عمران:

لعبــدِ العزيـــزِ علــى قومِــه		وغيـــرهِم مِـــنَنٌ غـــامِرَهْ
فبابُـــك ألـــينُ أبـــوابِهمْ		ودارك مأهولـــــةٌ عـــــامرهْ
وكلبُـــك آنَـــسُ بـــالمُعْتَفِي		مـــن الأم بابنتهـــا الزائـــرهْ
وكفُــك حــين تــرى الــسائلــ		ــين أندى مــن الليلــةِ المــاطرهْ
فمِنْــكَ العطـــاءُ ومنّـــا الثنـــا		بكُـــلِّ مُحَبَّـــرةٍ ســـائرَهْ

وكما هجا الشعراء البخلاء بأنهم يسكتون كلابهم، نجد في أُنْس الكلاب بالناس لطول رؤيتهم. شعراً كثيراً. قال الشاعر:

يا أمَّ عمــرٍ أنْجــزي الموعــودا		وارْعَــيْ بــذاكَ أمانــةَ وعُهــودا
ولقد طرقتُ كلابَ أهلك بالــضُّحى		حتّــى تركــتُ عَقُــورهنَ رَقــودا
يَضْرِبْن بالأذنابِ مــن فــرحٍ بنــا		مُتوسِّـــداتٍ أذرعـــاً وخـــدودا

وقد اشتُهر ذو الرُمَّة بعشق ميٍّ وشعره فيها أكثر من عشرين سنة حتى بعد زواجها، وهو أبو الحارث غَيْلانُ بن عُقبة من مُضر، وكان شاعراً بدوياً، عاش في العصر الأموي، وكان هواه مع الفرزدق في خصومته مع جرير. قال ذُو الرُمَّة، وفي قوله شيء من الإفراط حين صَوَّر طولُ بقائِه في حيّها بأن العنكبوت نسَج بيته على رَحْلِه:

رأتْني كلابُ الحيِّ حتــى أَلِفْننــي		ومُدَّت نُسوجُ العنكبوت على رَحْلي

وقال آخر:

بات الحُــوَيْرِث والكــلابُ تــشمُّه		وسَرَت بأبيضَ كالهلال على الطّوى

وممّا قد يدخل في هذا الباب أيضاً، قول أحدهم:

لوْ كُنْتُ أحملُ خمراً يــومُ زُرْتكُــمُ — لم يُنْكِرِ الكلبُ أنّي صاحبُ الــدار
لكنْ أتيتُ وريحُ المِــسْك ينفحنــي — والعنبرُ الوَرد أُذكيه علــى النــارِ
فأنكر الكلبُ ريحي حين أبْــصرني — وكان يعرفُ ريحَ الــزِقِّ والقــارِ

وافتخر هلالُ بنُ خَثْعم بعفّتِه وصَوْنه الجار في غيابه، فدخل من هذا الباب ليفتخر، قال:

وإنّي لَعَفٌّ عــن زيــارة جــارتي — وإنّي لمَــشْنُــوءٌ إلــيَّ اغتيابُهــا
إذا غابَ عنْها بَعْلُها لم أكــن لهــا — زَوُوراً، ولم تــأنس إلــيَّ كلابُهــا
وما أنا بالــدّارِي أحاديــثَ بَيْتِهــا — ولا عالِمٌ مــنْ أيِّ حَــوْكٍ ثيابُهــا

وقد يأتون بالمعنى نفسِه للافتخار بالكرم، ولكنهم يبدلون الصورة. فقد يفرح الكلب بالضيف، كما يفرح صاحبه، لأن الكلب تعود أن قدوم ضيف يعني أن يكون ذَبْحَ ومن ثمَّ يكثر طعامه. قال ابن هَرِمة:

وَفَرحةٌ من كلابِ الحــيِّ يتبعُهــا — مَحْضٌ يُزَفُّ به الراعي وترعيــبُ

وقال ابن هَرِمة أيضاً:

ومُسْتَنْبِحٍ نبّهــتُ كلبــي لــصوتِه — فقلتُ له: قــمْ باليَفــاعِ فجــاوبِ
فجاءَ خفيَّ الشخص قد رامَهُ الطــوَى — بضربةِ مَفْتُوقِ الغِرارَيْن قاضــبِ
فرَّحْبتُ واستبشرْتُ حــين رأيتُــه — وتلك التي ألقى بِهــا كــلَّ نائــبِ

وفي هذا المقام نذكر الحطيئة أيضاً، واسمه جَرْول بنُ أوس من عبس، وهو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفُصَحائهم، وهو مخضرم، أدرك الإسلام، وارتدَّ ثم تاب. ولكن إسلامه ظلّ رقيقاً، وكان متصرفاً في جميع فنون الشعر، إلا أنه كان مُجليّاً في الهجاء، وبقدر ما كان لحوحاً في السؤال، كان بخيلاً، حتى إنه هجا ضيوفه، ومن هؤلاء صخر بنَ أعْيى الأسديّ، فقد نزل ضيفاً على الحطيئة فسقاه شَرْبةً من لبن، فقال الحطيئة:

لما رأيتُ أنّ من يبتغـي القِـرى وأنَّ ابنَ أعْيى لا مَحالةَ فاضـحي
شَددْتُ حَيازِيمَ ابنِ أعيى بـشرْبَةَ على ظمأٍ سدَّتْ أُصـولَ الجـوانحِ

والعرب لا يتباهون على ضيوفهم ولا يفتخرون، وإن ذبحوا لهم الأنعام كلها، أما الحطيئة، فيفتخر بأن سقاه شربة من لبن. وابن أعيى هذا ليس من المشاهير، ولولا هذه الحادثة لما كان له ذكر بين الشعراء، فردّ على الحطيئة وعيره بأنه يخنق كلبَه، أي يُسكِتُهُ:

ألا قـبَّح الله الحطيئـةَ، إنـه على كل ضيفٍ ضافَه فهو سـالِحُ
دُفعتُ إليـه وهـو يخنـق كلبَـه ألا كلُّ كلبٍ - لا أبالـك – نـابحُ
بكَيْتَ على مَـذْقٍ خبيـثٍ قَرَيْتَـه ألا كلُّ عَبْسِيٍّ علـى الـزادِ نـائحُ

وقد وجدوا مسلكاً آخر لتصوير كرم الكرماء وامتداحهم، فتحدثوا في صفة أبواب أهل المقدرة والثروة، إذا كانوا يقومون بحق النعمة ويحدّثون بها، فقالوا إنك ترى الزحام حيث يكون الكرم، قال الراجز:

إنَّ النَدى حيثُ ترى الضِّغاطا

وقال آخر:

يـزدحمُ النـاسُ علـى بابـهِ والمُشْرَعُ الـسَّهْلُ كثيـر الزِّحـامْ

وقريبٌ من هذا راحوا يقررون أن أحداً لا يزور الفقير، بينما يتزاحم الناس على باب الغني. قال الشاعر:

وإذا افتقرتَ رأيـتَ بابَـك خاليـاً وتَرى الغِنى يُهدي لـك الـزُّوَّارا

ويشبه هذا قول شاعر آخر:

ألمْ ترَ بيت الفقْـرِ يُهجـرُ أهلـه وبيتَ الغني يُهـدى لـه ويُـزارُ

وقول شاعر آخر أيضاً:

إذا مـا قـلَّ مالُـكَ كنـتَ فَـرْداً وأيُّ النـاس زُوّارُ المُقِـلِّ؟

والعرب تفضّل الرجلَ الكسُوب والغُرَّةَ الطلُوب، ويذمُّون من يقيم على الفشل، ويترك السعْيَ، ويجنَحْ إلى الكسَل، حتى إن فراشَه دافِئٌ دائماً، بينما ذو الهمّة العالية، قلّما يدفأ فراشه. قال شاعرهم مادحاً:

شـــتّى مطالبُـــه، بعيـــد همُّـــه **جَوَّابُ أوديـــة، بَـــرودُ المـــضْجَعِ**

ومدح آخر نفسه، فقال:

فإن تأتياني في الـــشتاءِ وتلْمـــسَا **مكانَ فراشي فهـــو بالليـــل بـــارِدُ**

وقال آخر:

إلى ملكٍ لا ينقُض النـــأيُ عزْمَـــه **خرُوجٍ تـــرُوكٍ للفـــراش الممهَّـــدِ**

وقال الآخر:

فِداكَ قـــصيرُ الهـــمِّ يمـــلأُ عَيْنَـــهُ **من النوم، إذْ مُلقى فراشِك بـــارِدُ**

ورثت الخنساء أخاها صخراً، فمدحته بمثل هذا، وهي تُماضِرُ بنتُ عمرو بن الشريد السُّلَـمِيَّة، أرقى شواعر العرب، وأحزن من بكى وندب. خطبها فارس جُشَم دريدُ بنُ الصِّمَّة القُشَيْرِيّ، فآثرت أن تتزوج في قومها، قتل أخواها معاوية وصخر، فبكتهما بكاء حاراً، وكان أعظم شعرها في صخر. قال لها النابغة الذبياني في سوق عكاظ: لولا أن أبا بصير الأعشى أنشدني قبلك لقلت إنك اشعر من بالسوق. أسلمت مع أولادها الأربعة، فاستشهدوا جميعاً في معركة القادسية. قال عنها بشار بن برد: تلك التي غلبت الفحول. قالت ترثي صخراً، وتمدحه بما يدخل فيما نتداوله:

حمّـــالُ ألْوِيـــةٍ، هبّـــاطُ أوْدِيـــة **شَـــهاد أنْديـــة، للجـــيش جـــرّار**

وقال آخر:

أبـــيضُ بـــسّامٌ بَـــرُودٌ مَـــضْجَعُه **اللقْمـــة الفَـــرْدُ مـــراراً تُـــشْبِعُهْ**

وقد ذكرنا النار التي يوقدونها ليراها الضيف من بعيد، والعرب يمدحون أصحاب النيران، ويذمّون من يخمدونها. قال الشاعر:

لـــه نـــارٌ تُـــشَبُّ بكـــلِّ ريـــحٍ **إذا الظّلمـــاءُ جلَّلـــتِ اليَفاعـــا**
ومـــا إن كـــان أكْثَـــرهم سَـــوَاماً **ولكـــنْ كـــان أرحَـــبَهم ذراعـــا**

فالكريم تعلو نارُه وإن لم يكن غنيّاً.

قال مُزرِّد بنُ ضِرار واسمه الأصلي يزيد، وهو شاعر جاهلي من غطفان، وقد كان هجّاء خبيث اللسان، وأدرك الإسلام، وأسلم:

فأبْصَرَ ناري، وهي شقراء أُوقِدَت بعلياءِ نَــشْزٍ، للعيــون النَّــوَاظِرِ

جعلها شقراء، ووضعها في مكان عالٍ ليراها الناس من بعيد. والنار إذا كان حطبُها جافاً يابساً، كان لهبها أعلى وأشدَّ حُمرةً، فإذا كثر دخانها كأن يكون الحطب رطباً، قل ضوءُها. قال الشاعر:

ونارٍ كسَحْرِ العَوْد يرفَعُ ضَــوءَها مع الليل هباتُ الريّــاح الــصَّوَارِدُ

وكما قلنا، يختار الأجواد لنيرانهم أعلى مكان، فكلما كان موضع النار أشد ارتفاعاً، كان هذا دليلاً على أن صاحبها أجودَ وأمجدَ، لكثرة من يراها مِن البُعد. ونتذكر بيتين للنابغة الجَعدْي، وهو حبّان بن قيس بن عبد الله من بني جَعْدة بن كعب من قبيلة عامر. وهو مخضرم بين الجاهلية والإسلام. يُعدُّ في الصحابة، ومعظم شعره قاله في الإسلام، لأنه كان ممن هجروا الأصنام والأوثان في الجاهلية، وأنكر الخمر والميسر، وكان يذكر دين إبراهيم والحنيفية. قال:

مَنَــع الغــدْرَ فلــمْ أهْمُــمْ بــهِ وأخــو الغــدْرِ إذا هــمَّ فعــلْ
خَــــشْيةُ الله وأنّــــي رجــــلٌ إنّمــا ذِكْــري كنــارٍ بِقَبَــلْ

واستعادت الخنساء هذا المعنى، فجعلت أخاها صخراً جبلاً على رأسه نار، لكي يراه الناس من البعد:

وإن صَــخْراً لتــأتمُّ الهُــداةُ بــهِ كأنَّــه عَلَــمٌ فــي رأســه نــارُ

وممّا يدلّ على كرمِ القوم أيمانهم الكريمة وأقسامهم الشريفة، ومن هؤلاء الشاعر مَعْدان بن جوّاس، وهو شاعر مخضرم، نزل الكوفة، وكان نصرانياً، فأسلم في أيام عمر بن الخطاب. قال:

إنْ كان ما بُلِّغـتَ عنّـي فلامنـي صديقي، وحُزَّتْ من يديّ الأنامِـلُ
وكفَّنْتُ وحدي منذراً فـي ردائـه وصادفَ حَوْطاً من أعـاديَّ قاتِـلُ

وقال في مثل ذلك الأشتَر مالك بن الحارث:

بقّيْتُ وَفْري وانحرفتُ عن العُلـى ولقيتُ أضـيافي بوجْـهِ عَبُـوسِ
إن لم أشنَّ على ابن حربٍ غـارةً لم تخْلَ يوماً من نِهـاب نُفُـوسِ
خـيلاً كأمثـال الـسَّعَالى شُـزَّباً تعدُو ببِيضٍ في الكريهـة شُـوسِ
حَمِـي الحديـدُ علـيهُمُ فكأنَـه لمعانُ بـرقٍ أو شـعاع شَـموسِ

وكان عبد الرحمن بن سَيْحان بن أرطأة بن سَيْحان، من ندماء الوليد بن عثمان، وكان بنو سَيْحان حلفاء بني أمية. وابن سيحان، أو ابن أرطأة شاعر إسلامي مُقِلٌّ وليس من الفحول، ولكنه كان يقول في الشراب والغزل والفخر، ويمدح أحلافه بني أمية، وهو أحد الذين كانوا يعاقرون الخمر، وقد أقيم عليه الحد فيها، قال يهجو بني مطيع ويمدح آل هشام:

حـرامٌ كَنَّتِـي منّـي بـسُوءٍ وأذكـر صـاحبي أبـداً بـذامِ
لقـد حرَّمْـتُ وُدَّ بنـي مُطيـعٍ حـرامَ الـدُّهْنِ للرَّجُـلِ الحـرامِ
وخَـزَّهُمُ الـذي لـم يـشْتَرُوه ومجلـسَهُمْ بمعـتَلِج الظَـلام
وإن جنف الزمـان مـددت حـبلاً متينـاً مـن حبـالِ بنـي هـشامِ

وليس يمنعني من تفسير كل ما يمرّ من أشعار إلا اتكالي على معرفتك، وهذا الكتاب ليس نفعُه إلا لمن روى الشعر والكلام، وذهب مذاهب القوم، أو شدا منه شدْواً حسناً، أو أخذ بأطراف مما ذهبنا إليه.

* * *

المحتويات

الصفحة

- تمهيد ٥

الكاتب والكتاب

الكاتب ١٧

الكتاب ٢٠

رسالة سهل بن هارون ٣٦

أئمة البخل: أهلُ مَرْوٍ وخُراسان ٤٥

المسجديون يعلّمون البخل ويتعلمونه ٥٨

قصة زبيدة بن حميد ٦٦

قصة ليلى الناعطيّة ٦٩

البخيل عندما يرى ملك الموت ٧٠

قصة أحمد بن خلف ٧٣

طرائف البخلاء لا تنتهي ٧٧

حديث خالد بن يزيد ٧٩

طُرَف شتّى : ما أبشع البخل والحماقة إذا اجتمعا ٩١
قصة أبي جعفر ٩٦
قصة الحَزاميّ : محاولة فلسفة البخل ٩٧
خالد القَسْري وخالد المهزول ١٠٥
قِصّة الحارثيّ : البخيل يضع قاموساً للآكلين ١٠٧
حكايات الكِنْديّ : المؤجِّرون لا يتغيرون ١٢٠
تلميذ الكِنْديّ ينشر أفكارهَ ١٣٣
محمد بن أبي المؤمِّل : محاججة من أجل رغيف ١٣٨
أسد بن جاني : البخل دافع إلى الاختراع ١٤٨
الثوريّ : فيلسوف آخر من فلاسفة البخل ١٥٠
بخلاء على الهامش ١٦٣
تمّام بن جعفر : ما أكثر فلاسفة البخل ١٦٥
بخلاء آخرون على الهامش ١٧٠
ابن العَقَدِيّ : إياك أن يسمعك ١٨١
مزيد من البخلاء صور تكمل المشهد ١٨٣
المرابي البخيل يتظاهر بعزة النفس ١٩٣
الأصمعي يتمنطق ٢٠٢
أبو عُيَيْنة : البخيل المثقف ٢٠٣

بخلاء من كل الطبقات ٢٠٦

درس في الكرم : رسالة أبي العاص بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي إلى الثقفي ٢١٤

ودرس في البخل : رد ابن التوأم على رسالة أبي العاص ٢٣١

ما أكثر البخلاء وما أطرف حكاياتهم ٢٦٣

كتاب الطعام: أطعمة وأشربة وأدوات وتقاليد وعادات ٢٨٦

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

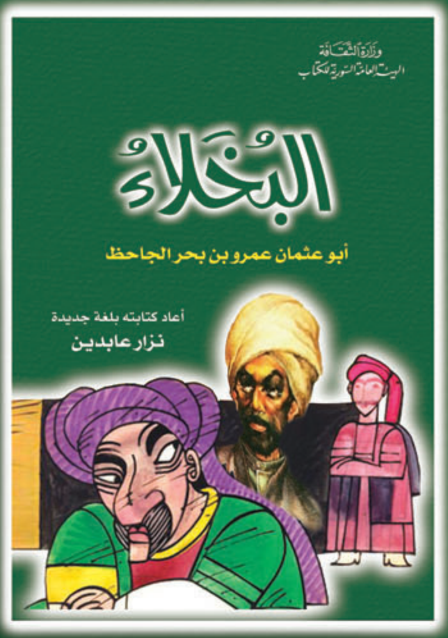

www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٢٢٠ ل.س أو ما يعادلها